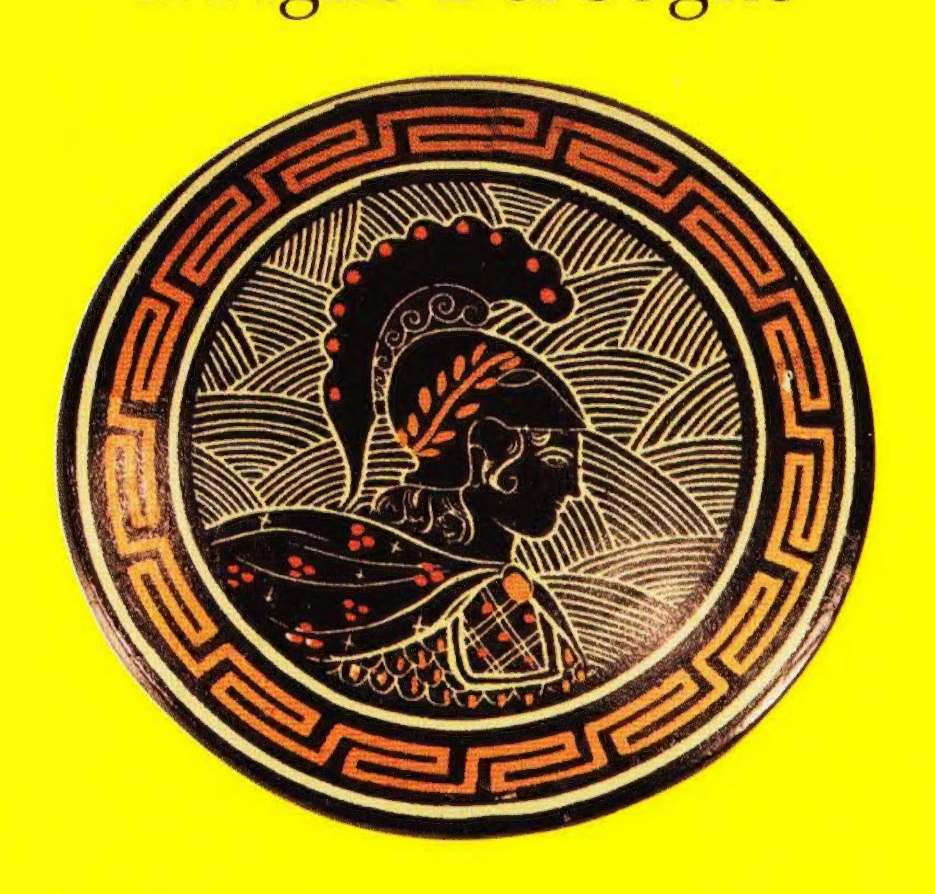
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



رواية متسلسلة/الكتاب الأول

فتى الحُلم

Il Figlio Del Sogno



فاليريو ماسيمو مانفريدي

VALERIO MASSIMO MANFREDI



رواية متسلسلة/الكتاب الأول

فتى الحُلم

Il Figlio Del Sogno

تأليف

فاليريو ماسيمو مانفريدي

Valerio Massimo Manfredi

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



يتضمن هذا الكتاب ترجمة كتاب
Alexandros, Vol 1: Il Figlio Del Sogno
by Valerio Massimo Manfredi
Alexander: Child of a Dream
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

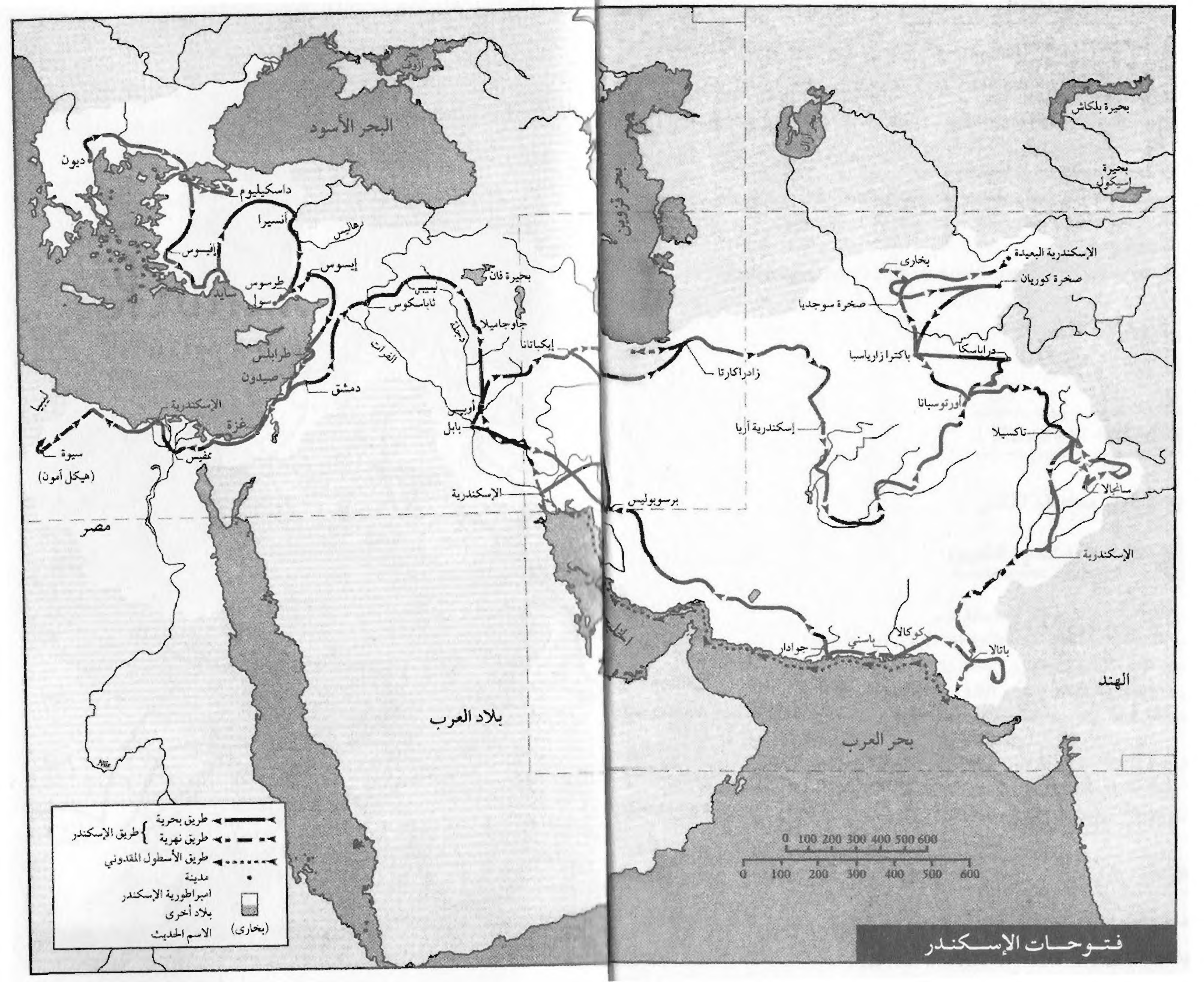
ردمك 978-614-01-0083-1



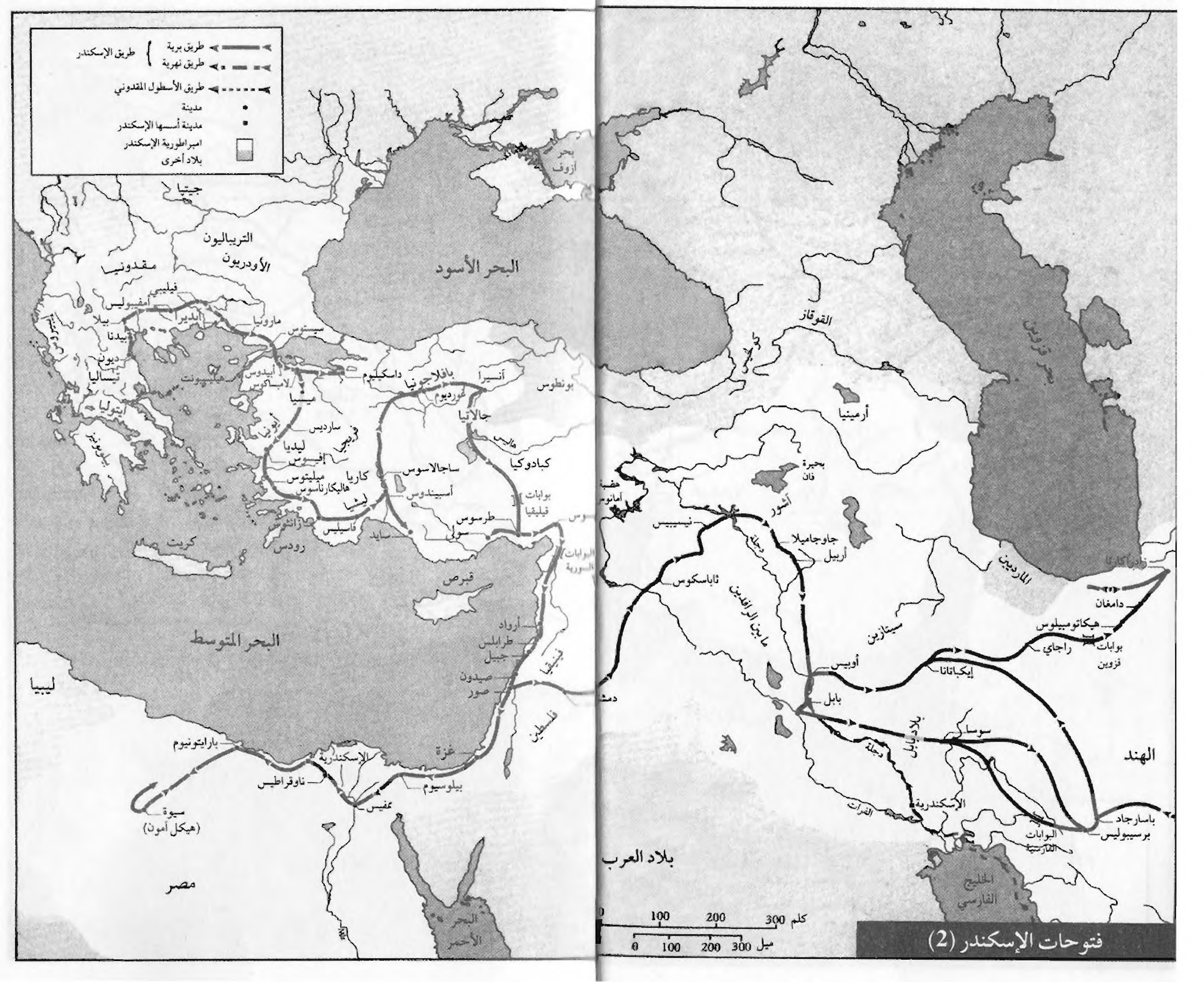
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

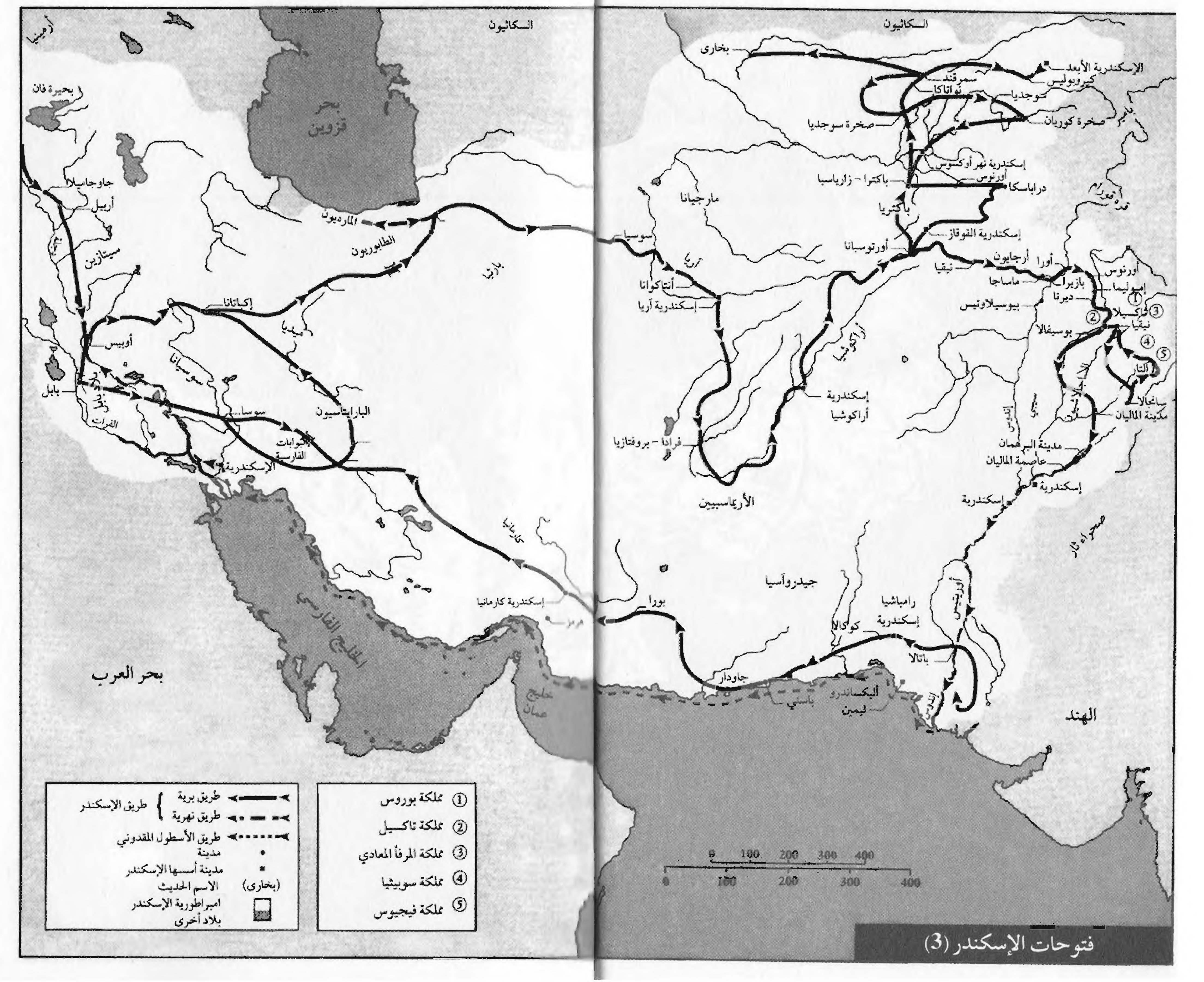
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

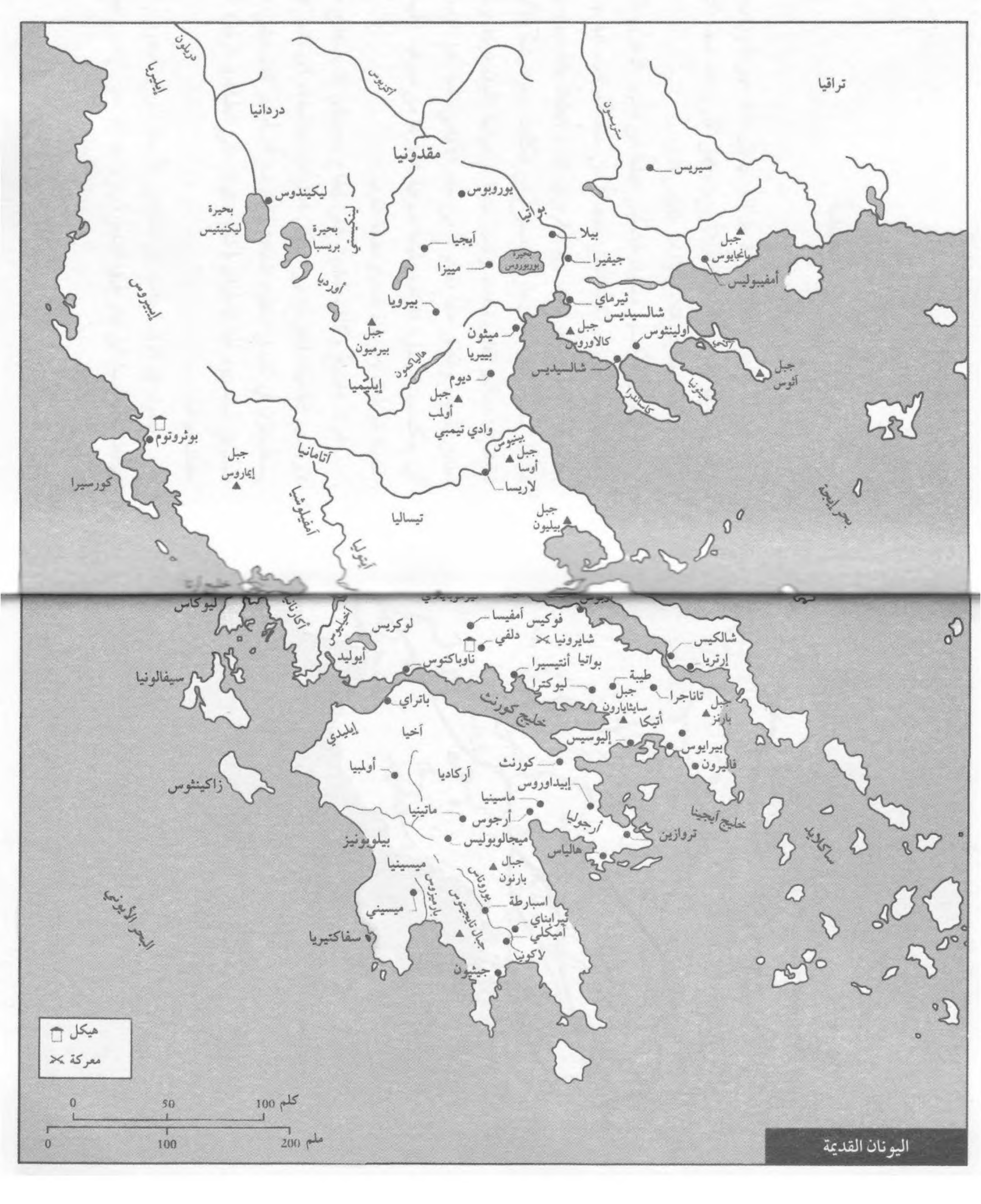


فتوحات الإسكندر
البحر الأسود
ديون
داسكيليوم
أنسيرا
هاليس
إفيسوس
سارديس
طرسوس
إيسوس
بحيرة فان
ثاباسكوس
جاوجاميلا
نينوى
إيكباتانا
الفرات
دجلة
طرابلس
صيدون
دمشق
الإسكندرية
غزة
ممفيس
سيوة
(هيكل آمون)
ليبيا
أوبيس
بابل
الإسكندرية
برسوبوليس
مصر
بلاد العرب
بحر قزوين
زادراكارتا
إسكندرية أريا
الإسكندرية البعيدة
بخارى
صخرة كوريان
صخرة سوجديا
باكترا زارياسبا
دراباسكا
أورتوسبانا
تاكسيلا
سانجالا
الإسكندرية
باتالا
كوكالا
باسني
جوادار
الهند
بحر العرب
بحيرة بلكاش
بحيرة إسيكول
0 100 200 300 400 500 600
0 100 200 300 400 500 600
طريق بحرية
طريق نهرية
طريق الإسكندر
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
الاسم الحديث
(بخارى)



فتوحات الإسكندر (2)
طريق الإسكندر
طريق برية
طريق نهرية
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
مدينة أسسها الإسكندر
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
البحر الأسود
البحر المتوسط
بحر قزوين
الخليج الفارسي
البحر الأحمر
بحر أزوف
جيتيا
التريباليون
الأودريون
مقدونيا
فيلبي
أمفيبوليس
بيلا
بيدنا
ديون
تيساليا
إيتوليا
أبديرا
مارونيا
سيستوس
أبيدوس
لامبساكوس
هيليسبونت
ميسيا
داسكيليوم
بافلاجونيا
أنسيرا
جورديوم
بونطوس
جالاتيا
هاليس
كبادوكيا
ساردس
ليديا
إفسوس
ميليتوس
هاليكارناسوس
كاريا
فريجيا
ساجالاسوس
أسبيندوس
ليشيا
فاسيليس
سايد
طرسوس
سولي
بوابات قيليقيا
زانتوس
رودس
كريت
قبرص
البوابات السورية
أرواد
طرابلس
جبيل
صيدون
صور
فينيقيا
فلسطين
غزة
بيلوسيوم
الإسكندرية
ناوقراطيس
باراتونيوم
ممفيس
سيوة
(هيكل آمون)
ليبيا
مصر
القوقاز
أرمينيا
بحيرة فان
أشور
نيسيبيس
ثاباسكوس
جاوجاميلا
أربيل
ما بين الرافدين
دجلة
الفرات
أوبيس
بابل
بلاد بابل
سوسا
سيتازين
الإسكندرية
البوابات الفارسية
برسيبوليس
باسارجاد
إيكباتانا
راجاي
بوابات قزوين
هيكاتومبيلوس
دامغان
زادراكارتا
الماردين
الهند
بلاد العرب
دمشق
0 100 200 300 كلم
0 100 200 300 ميل


فتوحات الإسكندر (3)
طريق الإسكندر
طريق برية
طريق نهرية
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
مدينة أسسها الإسكندر
(بخارى) الاسم الحديث
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
① مملكة بوروس
② مملكة تاكسيل
③ مملكة المرفأ المعادي
④ مملكة سوبيثيا
⑤ مملكة فيجيوس
0 100 200 300 400
بحر العرب
الخليج الفارسي
خليج عمان
بحر قزوين
الهند
السكاثيون
أرمينيا
بحيرة فان
جاوجاميلا
أربيل
ميتازين
أوبيس
بابل
الفرات
سوسيانا
سوسا
البوابات الفارسية
الإسكندرية
البارايتاسيون
ميديا
إكباتانا
الطابوريون
الماردون
بارثيا
كارمانيا
إسكندرية كارمانيا
هرمز
سوسيا
أريا
أنتاكوانا
إسكندرية آريا
فرادا - بروفثازيا
الأريماسبيين
إسكندرية أراكوشيا
أراكوشيا
مارجيانا
أورتوسبانا
باكتريا
باكترا - زارياسبا
درابساكا
أورنوس
إسكندرية نهر أوكسوس
إسكندرية القوقاز
صخرة سوجديا
سوجديا
صخرة كوريان
ماراكاندا
سمرقند
بخارى
الإسكندرية الأبعد
كيروبوليس
بامير
نيقيا
أورا
أرجايون
بازيرا
ماساجا
ديرتا
أورنوس
إمبوليما
تاكسيلا
نيقيا
بوسيفالا
بيوسيلاوتيس
سانجالا
مدينة الماليان
مدينة البرهمان
عاصمة الماليان
إسكندرية
إسكندرية
صحراء ثار
جيدروأسيا
بورا
جاودار
رامباشيا
إسكندرية
كوكالا
باتالا
أليكساندرو
باستي
ليمين



اليونان القديمة
هيكل
معركة
كلم
ملم



مقدمة

صـــعد الحكماء الأربعة الطريق المؤدي إلى قمة جبل النور ببطء، وكانوا قد أتوا من جهات البلاد الأربع، وحمل كل واحدٍ منهم كيساً مليئاً بالخشب العطري اللازم لإقامة طقوس النار.

ارتـــدى حكـــيم مشرق الشمس عباءةً من الحرير الزهري اللون المظلّل باللون الأزرق، كما انتعل صندالاً من جلد الغزلان، أما حكيم مغـــرب الشمس فقد ارتدى رداءً قرمزي اللون مخططاً بالذهب، بينما تـــدلى مـــن كتفيه شالٌ طويل مصنوعٌ من الكتّان، ومزخرفٌ بالألوان ذاتها، أما حكيم الظهيرة فقد ارتدى سترة أرجوانية اللون مزينة برسوم سنابل القمح، وانتعل خفاً مصنوعاً من جلد الأفاعي، أما آخر الرجال، أي حكـــيم اللـــيل، فارتدى ثياباً صوفية محبوكة من صوف الحملان الحديثة الولادة، وموشاة بنجوم فضية اللون.

تحرّك الجميع وكأنهم يمشون على إيقاع موسيقى لا يستطيع أحدٌ غيرهـــم سماعها، فاقتربوا من الهيكل بخطوات متناسقة، أي أنهم كانوا يـــتقدمون في كـــل خطوة المسافة ذاتها، مع أن أولهم كان يمشي على طـــريقٍ مـــستوٍ، أما الآخران فكانا يمشيان على الطبقات الرملية لنهرٍ جفّت مياهه.

وصلوا، في الوقت ذاته، إلى المداخل الأربعة للبرج الحجري، وفي اللحظـــة ذاتهـــا التي نشر فيها الفجر أنواره المتلألئة على أراضي الهضبة المهجورة وفوقها.

انحنى الأربعة، وتطلّع كل واحدٍ منهم في وجوه رفاقه عبر أقواس المــداخل الأربعــة. بدأ حكيم مشرق الشمس بإقامة طقوسه، فنشر أغصان خشب الصندل على شكل مربع، ثم جاء دور حكيم الظهيرة، الذي أضاف حِزماً من أغصان شجر الأكاسيا، ونشرها بشكلٍ قطري. تقــدّم حكيم مغرب الشمس، ووضع أخشاب الأرز التي جُمعت من غابــة أرز جبل لبنان، والتي نُزعت عنها قشورها. أخيراً، جاء حكيم اللــيل الذي وضع أغصاناً يابسة من شجر السنديان القوقازي، وهي أغــصانٌ ســبق أن ضــربها البرق، وجفّت تحت شمس الجبال. تناول الحكمــاء الأربعة أحجار الصوان المبجلة من أكياسهم، وراحوا يقرّبون الــشرارات الــزرقاء مــن قاعدة الهرم الصغير حتى بدأت ألسنة النار بالاشتعال. بدأت النيران ضئيلة في البداية، وراحت تتمايل، ثم ازدادت قوة قبل أن تنطلق بنشاط، وما لبثت ألسنة النار القرمزية أن تحوّلت إلى اللــون الأزرق، وحــتى إنها كادت تصبح بيضاء اللون، أي مثل النار المــبجلة، ومثل أنفاس آهورا مازدا المبجلة، سيد الحقيقة والمجد، وسيد الزمن والحياة.

لم يُــسمع في تلــك اللحظة سوى حسيس النيران الواضح الذي يهمــس بشعرِه الغامض داخل ذلك البرج الحجري العظيم، و لم تُسمع حــتى أنفــاس الحكماء الأربعة الذين وقفوا من دون حراك في مركز الوسط تماماً بين بلادهم المترامية الأطراف.

راقــب الحكمــاء الأربعة بنشوةٍ بالغة، بينما أخذت ألسنة النار المــبجلة تغيّر أشكال الأغصان البسيطة التي وُضعت بعناية على المذبح الحجري. حدّق الحكماء إلى أنقى أشكال النور، وراحوا يراقبون رقصة الــنيران الرائعة، وما لبثوا أن رفعوا تضرعاتهم نيابةً عن الناس والملك، الملــك العظيم، ملك الملوك الذي كان يجلس بعيداً جداً في قاعة فخمة

في قصر برسيبوليس المليء بغابة من الأعمدة المطلية باللونين الأرجواني والذهبـــــي، والتي تقبع تحت حراسة الثيران والأسودُ المجنّحة المنتشرة بكثرة.

كـــان الهواء في ذلك المكان الفاتن والمنعزل، وفي تلك الساعة من الصباح الباكر، ساكناً تماماً، وهو أمر ضروري كي تتخذ النار المبجلة أشـــكال طبيعتها وحركاتها، كانت هذه الطبيعة بالذات هي التي تدفع ألسنة اللهب عالياً، فهي المصدر الأصلي الذي انبثقت عنه.

فجـــأةً، نفخـــت قـــوة هائلة فوق ألسنة اللهب فأطفأتها، فراح الحكماء الأربعة يراقبون بذهول، ورأوا كيف أن الجمر الأحمر قد تحوّل فجأةً إلى فحمٍ أسود اللون.

لم يلاحظ الحكماء أيّ علامةٍ أخرى، عدا عقعقة صقرٍ شقّ طريقه نحـــو السماء الخالية، كما لم تُسمع أيّ كلمات، تحلّق الرجال الأربعة حول المذبح مذهولين من فأل الشؤم هذا، بينما انهمرت دموعهم وسط الصمت المطبق.

*

وفي تلك اللحظة بالذات، ارتعشت في بلادٍ بعيدة تقع إلى الغرب امـــرأة في مقتـــبل العمر كانت في طريقها إلى معبدٍ قديم. جاءت المرأة وتدعـــى أوليمبيا كي تحصل على بركةٍ لابنها الذي شعرت أنه يتحرك في تلـــك اللحظـــة في بطنها فهمست الرياح في أثناء هبوبها بعنادٍ من خـــلال الأغصان القديمة باسم الطفل: "الإسكندر"، فيما راحت تحرّك الأوراق اليابسة المنتشرة حول جذوع الشجرات العملاقة.

1

قـــرّرت أوليمبيا زيارة معبد دودونا بسبب هاجسٍ غريب شعرت به خـــلال نـــومها إلى جانــــب زوجها فيليب الثاني، ملك المقدونيين، الذي اضطجع قربها في تلك الليلة بعد أن أتخم نفسه بأصناف الطعام والشراب.

حلمـــت أوليمبيا أن ثعباناً يتلوى ببطء في الممر خارج غرفتها، ثم ما لبث أن دخل غرفة نومها بصمت، وتمكّنت من رؤية الثعبان، لكنها لم تقـــدر على الحراك، ولم تتمكن من الصراخ. انـــزلق ذلك الزاحف الكـــبير فوق الأرض الحجرية، وما لبث ضوء القمر المتسلل من نافذة الغرفة أن التمع على جلده بألوانٍ نحاسية وبرونـــزية.

أرادت، للحظـــة، أن توقظ فيليب كي يحتضنها بذراعيه، ويقرّبها من صدره القوي المفتول العضلات، ويلاطفها بيديه اللتين تعودتا على القتال، لكنها التفتت بغتة، وتطلعت مجدداً نحو ذلك الثعبان، أرادت أن تلقي نظرةً على ذلك الحيوان الضخم الذي يتحرك مثل شبح، أو ثور، ومـــثل تلـــك المخلوقات التي تستدعى من أعماق الأرض عندما تدعو الحاجة.

شـــعرت أوليمبيا، فجأةً، أنها لم تعد خائفة من الثعبان، ولم تعد تـــشعر بالقرف منه، بل لقد شعرت، في واقع الأمر، بأنها أكثر انجذاباً إلـــيه، وحتى إنها شعرت أنها مفتونة بحركته المتعرجة، وبقوته وحركته الرشيقة والصامتة.

شـــقّ الثعبان طريقه تحت أغطية السرير، وما لبثت أن شعرت أنه تمكّن منها، حدث ذلك بخفةٍ وبرودة، ومن دون أذيةٍ أو إكراه.

حلمت أن بذرته قد اختلطت مع البذرة التي سبق لزوجها أن دفعها إليها بقوة تماثل قوة ثور، وبحماسة تماثل تلك التي يتميز بها دبٌ بري، وذلك قبل أن ينهار بفعل الإجهاد والشراب.

وضع الملك في اليوم التالي دروعه، وتناول اللحم مع قادة جنده، وشربوا حليب ماعز، وأكلوا الجبن المصنوع من حليب الماعز، ثم غادروا جميعاً للقتال، كان فيليب وقادته يخوضون حرباً ضد شعبٍ أكثر همجية من شعبه المقدوني، وهم القبليون الذين يرتدون جلود الدببة، ويعتمرون قبعات من فراء الثعالب، ويعيشون على ضفاف نهر إستر، أكبر أنهار أوروبا في ذلك الوقت.

كان كل ما قاله لأوليمبيا زوجته: "تذكّري أن تقدمي القرابين إلى الأسياد خلال فترة غيابي، وليكن جنينك صبياً يشبهني كي يكون وريثي". ثمّ امتطى بعد ذلك جواده البني اللون الضارب إلى الحمرة، وانطلق مع قادته، في حين ردّدت الساحة أصداء وقع حوافر الجياد الأصيلة مع قعقعة أسلحتهم.

أخذت أوليمبيا حماماً ساخناً، بينما راحت خادماتها يمسدن ظهرها بإسفنجات مليئة بعطر خلاصة الياسمين وورود بيريا، وما لبثت أن استدعت آرتميس، وهي التي حضنتها عندما كانت طفلة. وكانت آرتميس قد تقدّمت بالسن في هذا الوقت، ولكن صدرها كان لا يزال بارزاً، كما أن ردفيها كانا لا يزالان متناسقين. وكانت آرتميس متحدّرة من أسرةٍ طيبة وجاءت بها أوليمبيا من إيبيروس عند قدومها كي تتزوج بفيليب.

راحت أوليمبيا تسرد حلمها على مسامع آرتميس ثمّ سألتها: "ما معنى هذا الحلم يا آرتميس الطيبة؟".

طلبت آرتميس من سيدتها أن تخرج من حمّامها الساخن، وبدأت تجفّفها بمناشف من القطن المصري.

"إن الأحـــلام، يا صغيرتي، هي دوماً رسائل من الأسياد. ولكن، قليلون من يستطيعون تفسيرها. أعتقد أنه عليك الذهاب إلى أقدم معبدٍ في موطنـــنا إيبيروس لتستشيري الضالعين في دودونا، فمنذ أقدم الأزمنة تـــوارث الـــضالعون هناك فنّ التعرّف على صوت زيوس العظيم. إذ يتحدث الصوت عندما تهب الريح من خلال أغصان أشجار السنديان القديمـــة الموجـــودة حول المعبد، وذلك عندما تجعل الأوراق تهمس في الربيع، أو في الصيف، أو حين تهزّ هذه الريح الأوراق اليابسة، وتجعلها تتحرك حول جذوع الأشجار خلال الخريف والشتاء.

هكذا مضت أوليمبيا بعد أيامٍ قليلة قاصدة المعبد الذي شيّد فوق أجمل الأماكن، وفي أحضان أشجار غابات الجبال الخضراء.

تفـــيد الأخبار المتوارثة أن هذا المعبد من بين أقدم المعابد الموجودة على وجه الأرض. وقيل كذلك إن حمامتين قد طارتا من يد زيوس بعد أن لحـــق بوالده كرونا في العلى. حطّت إحدى الحمامتين على شجرة سنديان في دودونا، أما الأخرى فقد حطت فوق شجرة نخيل في واحة ســـيوه، وسط صحراء ليبيا الحارة، وهكذا فإن صوت زيوس يُسمع في هذين المكانين منذ ذلك الزمن.

ســـألت أوليمبـــيا الـــضالعين في معبد الهيكل: "ما معنى حلمي هذا؟".

جلـــس الـــضالعون فوق مقاعد حجرية وسط مرج أخضر مزيّن بالأقحـــوان وأزهار الحوذان، وأخذوا بالاستماع إلى الريح التي تمرّ من خلال أوراق السنديان، وقد استغرقوا في تفكير عميق.

مرّت فترة لا بأس بها قبل أن يتكلم أحدهم: "يعني ذلك أن ولدك الذي تحملينه سيكون من نسل زيوس وأحد البشر، ويعني كذلك أن دم نسل سيد الأسياد زيوس قد امتزج بدم رجلٍ من البشر داخل رحمك.

سيشعّ الطفل الذي تحملينه بطاقة عجيبة. ولكن، مثلما يستهلك اللـــهب الذي يشع بنور أشد جوانبَ المشعل، ويستهلك الزيت الذي يغذيه بسرعة أكبر، فإن روحه قد تُحرق القلب الذي يأويها.

"تذكّري يا ملكتي قصة آخيل سلف أسرتك العظيمة، والذي أُعطِـــيَ الخـــيار ما بين عيشة قصيرة مليئة بالمجد، وبين حياةٍ طويلة ومملـــة. فاختار الخيار الأول، وضحى بحياته من أجل لحظةٍ من المجد الكاسح".

سألت أوليمبيا بتردد: "وهل هذا قدرٌ محتوم؟".

أجابهـــا أحد الضالعين: "هناك احتمالٌ واحد، يُمكن للإنسان أن يسلك طرقات عدة. لكن، بعض الرجال يمتلكون منذ الولادة الهبة التي يعطـــيها الأسياد، وهي الهبة التي تهدف دوماً إلى الرجوع إليهم. لكن يتعـــيّن عليك أن تُبقي هذا السر لنفسك إلى حين تحين اللحظة المناسبة الـــتي تكـــشف فيها طبيعة ولدك عن نفسها. استعدّي في تلك اللحظة لكل شيء، وأي شيء؛ حتى لخسارته، لأنه لن يستطيع أي شيء تفعلينه مـــنعه مـــن تحقيق قدره، ولن يكون في إمكان أي شيء إيقاف أخبار شهرته من الانتشار إلى جهات الأرض الأربع".

كـــان الضالع لا يزال يتكلم عندما تحول النسيم الذي كان يهب عـــبر أوراق الـــسنديان إلى ريـــح دافئة وقوية، كانت من القوة بحيث جعلـــت أغصان الشجر العالية تنحني، وهذا ما جعل الضالعين يغطون رؤوسهم بعباءاتهم.

تـــرافقت الـــريح مع ضباب كثيف يميل إلى اللون الأحمر غطّى الـــوادي بأكملـــه بوشـــاحٍ من الظلمة. لفّت أوليمبيا عباءتها حول جسمها ورأسها، وجلست ساكنةً وسط الدوامة فبدت مثل تمثال من دون وجه.

هـــدأت الريح فجأةً كما بدأت، وظهرت جميع الأعمدة بعد أن انـــزاح الضباب مغطاةً بطبقةٍ رقيقة من الغبار الأحمر.

لمـــس الضالع الذي كان آخر من تكلم هذا الغبار بطرف إصبعه، وقرّبها من فمه: "جاء هذا الغبار مع الرياح الآتية من ليبيا، وهي أنفاس زيـــوس آمـــون الـــتي تتواجد بين أشجار نخيل بحيرة سيوه. إنه حدثٌ استثنائي، ونذير مدهش، لأن الحمامتين اللتين طارتا من يد زيوس وهما الأقـــدم على وجه الأرض، واللتين تفصل مسافة عظيمة ما بينهما قد هدلـــتا في اللحظة ذاتها، سمع ابنك الأصوات الآتية من بعيد، ولعله فهم الرسالة، وهو سيسمعها مجدداً في أحد الأيام داخل جدران معبدٍ عظيم محاطٍ برمال الصحراء".

عادت الملكة بعد سماعها هذه الكلمات إلى العاصمة بيلا، المدينة الـــتي يغطـــي الغـــبار طرقاتها في الصيف، وتكون موحلة في الشتاء. وانتظرت هناك بخوفٍ وارتعاشٍ يوم ولادة ابنها.

*

جـــاءت آلام المخاض في النهاية في إحدى أمسيات الربيع، وبعد مغـــيب الـــشمس. فأضاءت النساء المشاعل، بينما أرسلت آرتميس في طلـــب إحدى القابلات، وأحد الأطباء الذي يُدعى نيقوماخوس، وهو الذي كان طبيب الملك السابق إمينتاس، والذي سبق له أن أشرف على ولادة عدد من الأمراء الشرعيين، أو غير الشرعيين.

كان نيقوماخوس جاهزاً، وعلم أن الوقت قد حان، فوضع مئزراً علـــى وسطه، ثم أمر بإحضار الماء الساخن، والمزيد من المشاعل بحيث يتوفر له ضوء كاف.

سمـــح الطبيبُ بأن تقترب القابلة من الملكة أولاً، وذلك لأن المرأة تفـــضّل أن تلمـــسها امرأة أخرى في اللحظة التي تلد فيها ابنها في هذا

العالم. فالمرأة وحدها تعرف العذاب والوحدة التي تتكوّن فيهما حياة جديدة.

وفي اللحظة عينها، كان الملك فيليب يضرب حصاراً حول مدينة بوتيديا، و لم يكن مستعداً لمغادرة جبهة القتال لأي سبب من الأسباب.

كان المخاض عسيراً وطويلاً، لأن حوض أوليمبيا كان ضيقاً، ولأن بنيتها كانت ضعيفة.

مسّدت آرتميس حاجب سيدها: "تشجعي يا ابنتي، ادفعي! عندما ترين ابنك ستنسين كل الألم الذي تعانين منه الآن". ثمّ بلّلت شفتي أوليمبيا بمياه النبع المحفوظة في وعاءٍ فضي، والذي تستمر الخادمات في إبدال مياهه.

تدخل نيقوماخوس عندما تزايد الألم إلى المرحلة التي شعرت فيها أوليمبيا أنها على وشك الإغماء، وراح يوجّه يدَي القابلة، ويأمر آرتميس بأن تضغط على بطن الملكة لأنّ قواها قد خارت ولأن الجنين كان يعاني من ضغوطٍ كبيرة.

وضع أذنه على القسم الأسفل من بطن أوليمبيا، فلاحظ أن خفقات قلب الطفل كانت تتباطأ.

أمر الطبيب آرتميس: "ادفعي بأقصى قواك. يجب أن يولد الطفل الآن".

أرخت آرتميس بكل ثقلها على الملكة التي ما لبثت أن أطلقت صرخة مرعبة قبل أن تضع طفلها.

ربط نيقوماخوس الحبل السري بخيوط من الكتان، ثم قطعه على الفور مستخدماً مقصاً برونزياً، ثم نظّف الجرح بالخمر.

بدأ الطفل الوليد بالصراخ، وما لبث نيقوماخوس أن سلّمه إلى النسوة اللواتي كنّ سيغسلنه ويلبسنه الثياب.

كانت آرتميس أول من رأى وجهه، فشعرت بالسرور، وراحت تــسأل وهـــي تمسح جفونه وأنفه بقماش صوفي مبللٍ بالزيت: "أليس رائعاً؟".

غـــسلت القابلـــة رأسه، وما لبثت أن قالت متعجبة: "لديه شعر مولـــود بعمـــر ستة أشهر، وخصلات شقراء جميلة، يبدو مثل آيروس الصغير!".

انشغلت آرتميس في هذا الوقت بإلباسه عباءةً صغيرة من الكتان، وذلـــك لأن نـــيقوماخوس لم يوافـــق على العادة التي تمارسها معظم العائلات التي كانت تعمد إلى لفّ المولود الجديد بأقمشة وشدّها حول جسمه.

سألت آرتميس القابلة: "ما لون عينيه برأيك؟".

قـــرّبت المرأة مشعلاً من عيني الطفل اللتين التمعتا بفعل الضوء الذي انعكس عليهما. "لا أعرف، يصعب عليّ القول، بدا أنهما زرقاوان في الـــبدء، ثم ظهرتا داكنتين، وفي النّهاية ظهرتا سوداوين تقريباً. ويُحتمل أن يعود ذلك إلى أن والديه بعيدان كثيراً عن بعضهما...".

كـــان نـــيقوماخوس يعتني بالملكة التي كانت تنـــزف، كما هي العادة مع النساء اللاتي يلدن للمرة الأولى. قلق الطبيب منذ البداية من هذا الأمر الحتمي، ولذلك أحضر معه الثلج الذي جمعه من سفوح جبل بيرميون.

صـــنع الطبيب ضمادات من الثلج، ووضعها فوق بطن أوليمبيا، لكنّه لم يستطع إلا أن يشعر بالأسى تجاهها، لكنه تابع وضع الضمادات الباردة حتى توقف النـــزيف كلياً.

نـــزع نيقوماخوس المئزر عن وسطه، وغسل يديه، ثم ترك الملكة تحـــت رعايـــة النسوة، وسمح لهن باستبدال أغطية سريرها، وبغسلها

بإسـفنجات ناعمـة مبلّلة بالماء. وبعد ذلك، غيّرن لها رداءها بعد أن أحـضرن لها رداءً نظيفاً من خزانة ملابسها، ثم ناولنها بعض الماء كي تشربه.

كـان نيقوماخوس هو الذي أحضر الطفل إلى أوليمبيا: "هذا هو ابن فيليب يا ملكتي، لقد أنجبتِ صبياً جميلاً".

تـوجّه الطبيب بعد ذلك إلى الممر، حيث كان فارس من الحرس الملكـي في انـتظاره، وكان جاهزاً للانطلاق: "هيا، انطلق إلى الملك بسرعة البرق، وأخبِره أن ولده قد أبصر النّور. أخبِره أنه صبـي، وأنه وسيم، وبصحة جيدة، وقوي".

وضع الفارس عباءته فوق كتفيه، ووضع حزام حقيبته، ثم انطلق. ولكـن، قـبل أن يختفي في نهاية الممر الطويل صرخ به الطبيب قائلاً: "أخبِره كذلك أن الملكة بصحة جيدة".

لم يـتوقف الفارس عن السّير، وبعد لحظة، سمعت أصوات صهيل جواد صادرة من الباحة الفسيحة في الأسفل، ثم سُمعت أصوات عدوِ الجـواد التي سرعان ما تلاشت ليسود الصمت بعد ذلك طرقات هذه المدينة النائمة.

2

تـــناولت آرتميس الطفل، ووضعته فوق السرير إلى جانب الملكة، رفعـــت أوليمبـــيا نفـــسها مستندة إلى مرفقيها، وأسندت ظهرها إلى وسادات، ثم نظرت إلى طفلها.

كـــان جمـــيلاً، وكانت شفتاه ممتلئتين، وملامحه دقيقة، وبشرته مـــتوردة، أمـــا شعره فكان ذا لون بني فاتح يلتمع بظلال ذهبية، بينما تجمعـــت في وسط جبهته خصلة صغيرة من شعره، وهي التي وصفتها القابلة على أنها لعقة بقرة[1].

بدا أن عينيه تميلان إلى الزرقة. ولكن، في عمق عينه اليسرى ظهر نـــوع مـــن الظل الأسود الذي جعل العين تبدو أدكن قليلاً كلما تغيّر الضوء.

حملـــته أوليمبـــيا، وقرّبته منها، ثم أرجحته قليلاً حتى توقّف عن البكاء، ثمّ قدمت له نهدها بعد ذلك كي يرضعه، لكنّ آرتميس اقتربت منها وقالت: "يا ابنتي ستهتم المرضعة بهذا الأمر، لا تسيئي إلى نهديك، لأن الملك سيعود سريعاً من القتال، لذلك يتعيّن عليك أن تكوني جميلة ومرغوبة أكثر من أي وقت مضى".

مـــدّت آرتميس ذراعيها لتأخذ الطفل، ولكنّ أوليمبيا بدلاً من أن تـــناولها الطفـــل قرّبته من ثديها، وأرضعته من حليبها حتى غفا بكل طمأنينة.

---

(1) لعقـــة البقـــرة: عبارة عن خصلة شعر نامية في اتجاه مخالف للاتجاه الذي يتخذه نمو سائر الشعر، وتكون عادة فوق الجبين مباشرة.

في ذلك الوقت، تابع الفارس المبعوث مسيرته كي يصل إلى الملك في أسرع وقت ممكن. ووصل إلى نهر أكزيوس عند منتصف الليل، فنخس جواده كي يحثّه على عبور الجسر الذي يتشكّل من مجموعة من القوارب التي تصل ما بين ضفتي النهر. كان الظلام لا يزال مخيماً عندما غيّر جواده في ثيرماي، واستمر بالتقدم نحو المناطق الداخلية من شبه جزيرة خالكاديكي.

طلع عليه الفجر عند الشاطئ، حيث التمع الخليج الواسع بنور الشمس المشرقة، فبدا مثل مرآة وضعت أمام النيران. شقّ الرجل طريقه صعوداً في سلسلة جبال كالورو عبر أرضٍ وعرة وقاسية، وبين صخور صلبة، وهي التي تشكّل هنا وهناك منحدرات صخرية عالية فوق البحر، نحتتها أمواج البحر في الأسفل.

*

كان الملك منهمكاً في حصار مدينة بوتيديا القديمة، التي ظلّت ما يقارب نصف قرن تحت السيطرة الأثينية. لم يفعل فيليب ذلك بسبب رغبته في دخول صراعٍ مع أثينا، بل لأنه اعتبر أن هذه المدينة تقع ضمن أراضي مقدونيا، ولهذا أراد أن يؤكد سيطرته على هذه المنطقة التي تمتد ما بين خليج ثيرماي وبين البوسفور. كان فيليب، في تلك اللحظة بالذات، محشوراً مع جنوده داخل برجٍ هجومي، وكان يحمل كل أسلحته، وهو مغطى بالغبار والعرق والدّم، ويستعد لشن هجومه الحاسم.

دوّت صرخته: "أيها الرجال! إذا كنتم جنوداً، فيمكنكم أن تبرهنوا على ذلك في هذه اللحظة بالذات! سأهدي أفضل جواد موجود في إسطبلاتي إلى الرجل الأول الذي يمتلك الشّجاعة لمهاجمة الأعداء معي، لكنني أقسم إنني إذا رأيت رجلاً واحداً يظهر الجبن عندما

يحـــين وقت المواجهة، فسأسلخ جلده، سأفعل ذلك أنا شخصياً، هل تسمعونني؟".

"إننا نسمعك أيها الملك!".

أصـــدر فيليب أمره، وهو يومئ إلى رجاله أن يرفعوا الفرامل عن الرافعات، فحطّ الجسر على الجدران التي خُرقت مسبقاً، وكادت تنهار بفعـــل المنجنيقات التي أوسعتها ضرباً. أسرع الملك بالتقدم إلى الأمام وهـــو يـــصيح ويلوّح بسيفه، وكان يفعل ذلك بسرعةٍ يعجز المرء عن مجاراتهـــا. وبمـــا أنّ جـــنوده كانوا يعرفون أن الملك يفي بوعوده على الـــدوام، فلقـــد اندفعوا جميعاً بدروعهم، وكأنهم رجل واحد، وراحوا يدحـــرجون أعـــداءهم عن جوانب الجدران والشرفات. كان الأعداء متعـــبين من جرّاء الصعوبات التي فرضها الحصار، والليالي التي عجزوا فيها عن النوم، والتعب الذي أصابهم نتيجة مشاركتهم في القتال الذي استمر أشهراً متواصلة. اندفع بقية الجنود وراء فيليب وحرّاسه، ودخلوا مـــثل الـــسيل، وانـــشغلوا بقتال رهيب مع آخر المدافعين الذين كانوا يضعون العوائق على الطرقات، ومداخل المنازل.

ومع مغيب الشمس، أُخضعت مدينة بوتيديا وطلبت عقد هدنة.

*

كـــان الظلام قد أرخى سدوله لدى وصول الفارس المبعوث بعد أن اســـتنفد جهود جوادين إضافيين. رأى الفارس المبعوث، عندما نظر من فوق التلال التي تطل على بوتيديا، حلقةً من النيران حول الجدران، وتمكّـــن مـــن سمـــاع صرخات الجنود المقدونيين الذين كانوا يحتفلون بنصرهم الساحق.

دفع الفارس المبعوث كعب حذائه في بطن الجواد، فوصل في فترة وجيزة إلى المعسكر، وسرعان ما طلب أن يؤخذ إلى خيمة الملك.

سأله الضابط الموكل بالحراسة، وكان حسب ما دلت عليه لهجته من الشمال: "ما الأمر؟ الملك مشغول، والمدينة قد سقطت، والحكومة قد أرسلت وفداً للتفاوض".

أجاب الفارس المبعوث: "وُلدَ الأمير".

دفع هذا الخبر الضابط كي يستعيد كل انتباهه، فقال للرجل: "اتبعني".

كان الملك جالساً في خيمته محاطاً بقادته، ولم يكن قد نزع عنه دروع المعركة بعد. فيما جلس نائبه أنتيباتر وراءه مباشرة. جلس مندوبو بوتيديا صامتين، وهم ينصتون إلى فيليب الذي كان يفرض شروطه بدلاً من أن يناقشوا الأمر معه.

أدرك القائد أن الملك لن يتحمل مقاطعته، ولكن الملك لن يسامحه على أي تأخير في إعلان حدث مهمٍ كهذا، لذلك قال على الفور: "سيدي، جاءتنا أخبار من القصر، لقد ولد ابنك!".

نظر مندوبو بوتيديا إلى بعضهم بعضاً، وبدوا شاحبين ومتعبين، ثم وقفوا أمام المقاعد التي أُمروا أن يجلسوا عليها، ثم تنحوا جانباً. فيما تأهب أنتيباتر، واستعدّ لتنفيذ أي أوامر تصدر عن الملك.

وصل فيليب إلى وسط الجملة التي كان يتلفظ بها: "سيُطلب من مدينتكم أن تقدّم..." لكنه أكمل بصوتٍ مختلفٍ تماماً "... ابن!".

عجز المندوبون عن إدراك ما يجري، فنظر ببعضهم إلى بعض بذهول، ولكنّ فيليب هبّ واقفاً فتهاوى كرسيه إلى الأرض، وأسرع إلى تنحية القائد جانباً، ثم أمسك بالفارس المبعوث من كتفيه.

أضاء اللهب المتصاعد من المشاعل وجهه راسماً عليه ظلالاً شديدة التباين، فبانت نظرته القلقة وصاح بالفارس المبعوث، بالنبرة ذاتها التي

يستخدمها عندما يأمر محاربيه بالقفز إلى حتفهم من أجل مجد مقدونيا: "أخبرني، كيف يبدو".

أحـــسّ الفـــارس المبعوث بالعجز عن الإجابة عن هذا السؤال، وأدرك أنـــه لا يمتلك سوى كلمات ثلاث يقولها لملكه، فتنحنح قليلاً، وأعلـــن بصوت جهوري: "سيدي، ابنك وسيم الطلة، وبصحة جيدة، وقوي!".

"كيف عرفت؟ هل رأيته؟".

"مـــا كـــنت لأتجرأ على رؤيته يا سيدي، كنت في الممر بحسب الأوامـــر الـــتي أُصدرت إليّ، وكانت عباءتي وحقيبتي، وأسلحتي كلها جاهزة. خرج نيقوماخوس وقال لي... بالحرف الواحد *انطلق إلى الملك بأقصى سرعة، وقل له إن ابنه قد وُلد. قل له إنه وسيم، وبصحة جيدة، وقوي*".

"هل قال لك إن الصبـــي يشبهني؟".

تردّد الفارس المبعوث قليلاً قبل أن يجيب: "كلا، لم يقل لي ذلك، لكنني متأكد من أنه يشبهك".

الـــتفت فيليب نحو أنتيباتر الذي تقدم منه كي يعانقه، وفي تلك اللحظـــة بالذات تذكر الفارس المبعوث أنه سمع شيئاً آخر عند نـــزوله مسرعاً على درج القصر.

"قال الطبيب إن...".

التفت فيليب على الفور، وسأله: "ماذا؟".

قال الفارس المبعوث أخيراً بنفَسٍ واحد: "قال لي إن الملكة بخير".

"ومتى حدث ذلك؟".

"في اللـــيلة ما قبل الماضية، وبعد مغيب الشمس مباشرة. حضرت إلى هـــنا مـــن دون توقف، و لم أتناول شيئاً من الطعام، لكنني شربت

بعض الماء من قربتي، و لم أترجل عن جوادي إلا لتبديله... لم أستطع أن أتأخر أبداً عن نقل هذه الأخبار إليك".

عاد فيليب، وربّت على كتفه.

"أحضِروا بعض الطعام والماء إلى صديقنا هنا، وقدّموا إليه كل ما يـــريده، احرصوا على أن ينال نوماً عميقاً لأنه نقل إليّ أفضل الأخبار على الإطلاق".

هنّأ المندوبون الملك، لكنهم سعوا إلى الاستفادة من هذه اللحظة المؤاتـــية كي يختموا مفاوضاتهم، ويحصلوا على بعض الشروط المناسبة لهـــم، وذلـــك بسبب تحسّن مزاج الملك فيليب كثيراً، لكن الملك قال بحزم: "ليس الآن". وخرج على الفور متبوعاً بمستشاره الميداني.

اســـتدعى الملـــك علـــى الفور قادة قواته المسلحة، وأمر بإحضار الـــشراب، وطلـــب من الجميع مشاركته إيّاه. ثمّ أصدر أوامره بعد ذلك: "انفخـــوا الأبـــواق لتجميع الصفوف، أريد أن يصطفّ جيشي بصفوفٍ منتظمة، الفرسان والمشاة على حدٍّ سواء. أريد أن يجتمع كل الجنود هنا".

تـــرددت أصـــوات الأبواق في أنحاء المعسكر، وسرعان ما هبّ الرجال واقفين، وكان عدد كبير منهم ثملين، أو نصف عراة في خيمهم مع الخليلات. تناولوا دروعهم، وحملوا رماحهم، وأسرعوا للتجمع في صفوف، لأن ضجيج الأبواق كان يمثل إلحاح الملك نفسه عندما يصيح في الليل.

وقـــف فيليب فوق منصة عالية محاطاً بضباطه، وعندما انتظمت الـــصفوف، تقدم أكبر الجنود سناً، كما جرت العادة، وصاح بالجنود: "لماذا استدعيتنا يا سيدي؟ ماذا تريد من جنودك؟".

تقـــدّم فيلـــيب قلـــيلاً، وكان واضعاً دروعه الحديدية والذهبية المخصّصة للاستعراض، بالإضافة إلى ارتدائه العباءة الطويلة ذات اللون

الأبـــيض. وكانـــت ســـاقاه مغطاتين بدرعين فضيين مزخرفين واقيين للساقين.

لم يخرق السكون المخيّم سوى صهيل الجياد، وأصوات الحيوانات الليلـــية التي جذبتها نيران المعسكر، أما القادة الواقفون قرب الملك فقد لاحظـــوا أن وجهــــه يميل إلى الاحمرار، وكأنه كان جالساً قرب نيران المعسكر، وقد ترقرقت الدّموع في عينيه.

صاح الملك: "يا رجال مقدونيا! وضعت الملكة في قصري في بيلا ولداً لي. إنني أعلن هنا، وأمامكم، أنه وريثي الشرعي، وأنا أودعه أمانة عندكم، أما اسمه فهو:

الإسكندر!".

أصدر الضباط الأمر بتقديم السلاح: فرفع المشاة حرابهم العديدة، والتي يبلغ طول الواحدة منها اثنتي عشرة قدماً، أما الفرسان فقد رفعوا نحو السماء غابة من الرماح، بينما طرقت الجياد بحوافرها، وصهلت.

راح الجنود يصرخون بصوت واحد منتظم الإيقاع باسم الأمير:

الإسكندر! الإسكندر! الإسكندر!

كمـــا قرعوا مقابض رماحهم على دروعهم، وتصاعد الصخب الناتج نحو السماء ونجومها.

اعتقد الجميع أن مجد ابن فيليب سيسطع بهذه الطريقة، وسيتصاعد مـــع أصواتهم مثل الضوضاء التي أحدثتها أسلحتهم، وأنّه سيشقّ طريقه إلى منازل الأسياد الموجودة بين المجرات التي تملأ السماء.

عــــاد الملك إلى خيمته برفقة أنتيباتر ومستشاريه الآخرين بعد أن فـــرّق الجمع، واكتشف أن مندوبـــي مدينة بوتيديا لا يزالون ينتظرونه بـــصبر وأناة. قال فيليب معترفاً: "يكمن حزني الوحيد في أن بارمينيون ليس موجوداً هنا كي يحتفل معنا الآن".

كان القائد بارمينيون، في تلك اللحظة بالذات، مرابطاً مع جيشه في جبال إيليريا، أي في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن بحيرة لايكنيدوس. أما مهمة الجيش فكانت حمايةً حدود مقدونيا في تلك المنطقة. قيل بعد ذلك إنه في اليوم ذاته الذي تلقى فيه فيليب خبر ولادة ابنه، تمكّن جيشه من إخضاع مدينة بوتيديا، كما تلقى أخبار انتصارين آخرين: نصر بارمينيون على سكان إيليريا، والنصر الذي أحرزته عربته التي تجرها أربعة جياد في الألعاب الأولمبية. وقال الضالعون، لهذا السبب، إن الطفل الذي يولد في يوم إحراز الانتصارات الثلاثة سيكون رجلاً لا يُقهر بالتأكيد.

في الحقيقة، نجح بارمينيون، في قهر سكان إيليريا مع بداية فصل الصيف، وأتت بعد ذلك الألعاب الأولمبية وسباق العربات، لكنّ الإسكندر وُلد مع ذلك في سنةٍ واحدة، كما أن كل الدلائل أشارت إلى مستقبلٍ يتعلق بسيد مبجل أكثر مما يتعلق برجل.

حاول مندوبو مدينة بوتيديا متابعة مفاوضاهم من حيث قد وصلت، لكنّ فيليب أشار إلى نائبه وقال: "يعرف القائد أنتيباتر رأيي جيداً في هذه المسألة، يمكنكم أن تتحدثوا معه".

تدخل أنتيباتر هنا، وقال: "لكن يا سيدي، يتعيّن على الملك أن...".

وضع فيليب عباءته على كتفيه قبل أن يتمكّن القائد من إنهاء جملته، وصفّر مستدعياً جواده. تبعه أنتيباتر، وقال له: "يا سيدي، استغرقت هذه الحملة أشهراً من الحصار والقتال الشديد كي نصل إلى هذه النقطة، ولهذا فلا تستطيع...".

صاح الملك: "لكن بالطبع أستطيع!" وما لبث أن قفز على صهوة جواده ونخسه. فهزّ أنتيباتر رأسه، والتفت عائداً إلى الخيمة الملكية،

ولكــنّ فيليب ناداه قائلاً: "اسمع! خذ هذا". ثم نــزع خاتمه الرسمي، ورمـــاه إلى نائبه في القيادة. "ستحتاج إليه، لكن تأكد من عقد معاهدة جيدة يا أنتيباتر لأنها كانت حرباً مكلفة جداً!".

تناول أنتيباتر الخاتم الذي يحتوي على الختم الملكي، ووقف للحظة كـــي يــراقب جواد فيليب وهو يقفز عبر المعسكر، ويخرج من خلال البوابة الشمالية. صاح بحراسه: "اتبعوه أيها الحمقى! كيف تسمحون له بالمغادرة وحيداً؟ تحركوا، عليكم اللعنة!".

بـــدأ الحراس بالتحرك على الفور، وكان باستطاعة أنتيباتر رؤية عـــباءة فيلـــيب تلتمع تحت ضوء القمر، وذلك عندما وصل إلى سفح الجـــبل، وما لبث أن اختفى بعد ذلك. عاد أنتيباتر إلى الخيمة، وطلب مـــن مندوبـــــي بوتيديا الذين ازدادت دهشتهم الجلوس، ثم قال وهو يجلس بدوره: "حسناً، إلى أين وصلنا في حديثنا؟".

*

سار فيليب بجواده طوال الليل وطوال اليوم التالي، ولم يتوقف إلا عـــندما غيّـــره، أو عندما شرب شيئاً من الماء، أو عند سماحه للجواد بالـــشرب مـــن أحد الينابيع أو الجداول. فوصل إلى مشارف بيلا عند مغيب الشمس، أي عندما أضفت آخر أشعتها لوناً أرجوانياً على قمم جـــبل بيرميون المكسوة بالثلوج. أما عند الأسفل، فكانت قطعان من الجياد تتدفق مثلما يتدفق مدٌّ بحري، كما سارعت ألوف الطيور بالهبوط كي تنام فوق مياه بحيرة بوربوروس.

سطعت نجمة المساء بشدة، وكأنها ترغب في منافسة القمر الذي كـــان يـــرتفع بـــبطء مـــن مستوى سطح البحر. كانت تلك نجمة الأركاديين، وهي السلالة التي بقيت تحكم البلاد منذ زمن هرقل، وهي نجمة خالدة، وأكثر جمالاً من أي نجمة أخرى في السماء.

جـــذب فيلـــيب عنان جواده كي يتأمل النجمة، ويتضرّع إليها. وقـــال مـــن أعماق قلبه: "احرسي ابني أيتها النجمة، ودعيه يحكم من بعـــدي، ودعـــي أبـــناءه يحكمون من بعده، وكذلك أبناء أبنائه من بعدهم".

ثمّ تابـــع صـــعوده بعد ذلك نحو القصر، ودخل من دون مراسم، وكـــان مجهـــداً ومـــبللاً بالعرق. استقبلته عند دخوله حركة ناشطة، وصـــدرت أصـــوات حفيف ثياب النساء اللواتي أسرعن في الممرات، وأصوات قعقعة أسلحة الحراس.

نظـــر فيليب من خلال باب غرفة النوم، فرأى الملكة جالسة على كرســـي فخم عالي الظهر، ولم يكن يستر جسمها العاري سوى عباءة نـــوم أيونية مزخرفة بأجمل الطيّات، ولاحظ أن رائحة ورود من بيريا تعبق فيها، وشاهد آرتميس تحمل صبياً بين ذراعيها.

ساعد خادمان الملك فيليب على فكّ دروعه وإبعادها عن كتفيه، كمـــا نـــزعا السيف من جنبه حتى يتمكن من الشعور ببشرة ابنه على جلده هو، حمل فيليب الإسكندر بين ذراعيه بعناية، وجعل رأس الطفل يرتاح ما بين عنقه وكتفه. وأحسّ بشفتَي ابنه فوق ذلك الجرح القديم على كتفه، وتنفس عطر الزنابق الذي يفوح من بشرة ابنه الناعمة.

أغمض فيليب عينيه، ووقف منتصباً غير قادرٍ على الحراك وسط الغـــرفة الـــتي يسودها الصمت. وتلاشى من مخيلته، وفي تلك اللحظة بالـــذات، ضجيج المعارك، وأصوات الأخشاب المتداعية نتيجة أدوات الحصار، والعدو الشرس للجياد. وقف فيليب جامداً كالصخر، وأصغى إلى صوت أنفاس ابنه.

3

أنجـــبت الملكة أوليمبيا في العام التالي طفلة للملك فيليب، أطلقا علـــيها اســـم كليوباترا. بدت الطفلة مثل أمها، وكانت رائعة الجمال بالفعـــل، وكانـــت محبوبة إلى درجة أن الخادمات كن يلاعبنها وكأنها لعبة، وكن يغيّرن لها ملابسها على الدوام.

أمـــا الإسكندر الذي بدأ بالمشي قبل ثلاثة أشهر، فلم يُسمح له بالدخـــول إلى غرفة أخته إلا بعد مرور أيام عدة على ولادتها، وبعد أن حمـــل معـــه هدية صغيرة كانت الخادمات قد أعددنها له. اقترب من السرير، ووقف إلى جانبه ناظراً إلى كليوباترا. اتسعت حدقتا عينيه من فـــرط الدهـــشة والفضول، ومال برأسه إلى جهة واحدة، اقتربت منه إحدى الخادمات لأنها قلقت من احتمال أن يشعر الصبـــي بالغيرة من ولادة شـــقيقته، ومـــن احتمال أن يُقدم على أذيتها لهذا السبب، لكنّ الإسكندر أمسك بيد شقيقته وعصرها بلطف، وكأنه أدرك بالفعل، أن هـــذه الطفلـــة الصغيرة تتصل معه برابطة خاصة، وأنها ستكون رفيقته الوحيدة لبعض الوقت.

أصـــدرت كليوباترا صوتاً، فقالت آرتميس: "أترى؟ إنها مسرورة جداً لرؤيتك، لم لا تعطيها هديتك؟".

فـــكّ الإسكندر من حزامه حلقة معدنية تحتوي على أجراسٍ فضية صغيرة، وبدأ يهزّها أمام الطفلة التي بدت وكأنها تمدّ يديها كي تُمسك بها، تأثـــرت أوليمبيا كثيراً وهي تراقبهما، وقالت وكأنها تفكّر في صوت عالٍ: "أليسَ رائعاً لو أننا نتمكّن من إيقاف الزمن عند هذه اللحظة بالذات".

انشغل فيليب بعد مرور وقتٍ طويل على ولادة ولديه بحروب مستمرة. وأمّن سلامة حدوده الشمالية حيث قهر بارمينيون سكان إيليريا، أما إلى الغرب فكان على صداقة مع دولة إيبيروس التي كان على رأسها آرياس، وهو عم أوليمبيا، أما إلى الشرق فتمكّن بعد سلسلة من الحملات من سحق القبائل التراقية، وهكذا تمكّن من توسيع السيطرة المقدونية حتى حدود نهر إستر. وتمكّن فيليب بعد ذلك من احتلال كل المدن التي بناها الإغريق على سواحل مقدونيا: أمفيبوليس، ميثون، وبوتيديا، كما شارك في الصراعات التي عذّبت سكان شبه الجزيرة الهلينية.

حاول بارمينيون تحذير فيليب من مخاطر هذه السياسة، وحدث ذات يوم، وفي أثناء مجلسٍ حربي عقده الملك في مستودع أسلحة القصر، أنه قرّر الكلام فقال:

"تمكّنت يا سيدي من تأسيس مملكة قويةٍ وموحدة، ومنحتَ المقدونيين شعور الفخر بأمتهم، فلماذا تسعى الآن إلى التدخل في صراعات اليونانيين الداخلية؟".

قال أنتيباتر: "بارمينيون على حق، لأن صراعاتهم لا معنى لها، إنهم يحاربون بعضهم بعضاً، إننا نرى أن حلفاء الأمس يحاربون بعضهم بعضاً بكل شدة، أما الخاسر بينهم فيعمد إلى تشكيل تحالف مع ألدّ خصومه، لا لسببٍ إلا لإغاظة المنتصر".

قال فيليب معترفاً: "إن ما تقوله صحيح، لكنّ اليونانيين يملكون كل الأشياء التي نفتقدها: الفن، والفلسفة، والشعر، والمسرح، والطب، والموسيقى، والهندسة المعمارية، ويمتلكون فوق كل ذلك علم السياسة، وفنون الحكم".

اعترض بارمينيون قائلاً: "إنك ملك، أي أنك لا تحتاج إلى علم، يكفيك أن تصدر الأوامر حتى تُطاع".

قال فيليب: "لكن ذلك صحيح طالما أنّني أمتلكُ القوة، وطالما أنّه ليس هناك أحد يدخل خنجراً بين ضلوعي".

لم يُجب بارمينيون، لأنه يعرف تماماً أنه ما من ملك مقدوني مات لأسباب طبيعية. ولكن، سرعان ما كسر أنتيباتر جدار الصمت الذي أصبح أثقلَ من معدن الرصاص.

"إذا كنتَ مصمماً على وضع يدك في فم الأسد، فإن شيئاً مما أقوله لن يقوى على تغيير قرارك، لكنني أنصحك بأن تتصرف بالطريقة الوحيدة التي تمكّنك من النجاح".

"وهي؟".

"توجد قوة وحيدة في اليونان هي أقوى من كل القوى الأخرى، وهي الصوت الوحيد الذي يمكنه أن يُخرس سائر الأصوات...".

قال الملك: "أتقصد معبد أبولو في دلفي؟".

"أو بالأحرى رجاله، والمجلس الذي يحكمهم".

قال فيليب موافقاً: "أعرف ذلك، إن أي جهةٍ تتحكم في هذا المعبد تتحكم بقدرٍ كبير من السياسة اليونانية. إنه زمنٌ صعب بالنّسبة للمجلس: أعلن المجلس حرباً ضد الفوكيين، وذلك بتهمة زراعة أراضٍ تعود ملكيتها إلى أبولو، لكنّ الفوكيين هاجموهم على حين غرّة، وتمكنوا من سلب الكنز الموجود في المعبد، واستخدموا المال لدفع أجور آلاف المرتزقة، إن مقدونيا هي القوة الوحيدة التي يمكنها أن تغيّر نتيجة هذا الصراع".

ختم بارمينيون بالقول: "إذاً، لقد قررتَ دخول الحرب".

"بشرطٍ واحد: إذا كسبت الحرب فإنني أريد أن أشغل المقعد الذي يشغله الفوكيون، وأن أشترك بالتصويت مع رئاسة مجلس المعبد".

أدرك أنتيباتر وبارمينيون أن الملك لم يرسم خطته مسبقاً فقط، بل إنّــه سيطبقها مهما كان الثّمن، ولذلك لم يبذل الرجلان أيّ جهدٍ في محاولة ثنيه عن عزمه.

*

طال أمد هذا الصراع المرير كثيراً، وعرف الطرفان فترات انتصارٍ وفتــرات هزيمة. كان الإسكندر في الثالثة من عمره عندما هُزم فيليب للمرة الأولى واضطر إلى سحب قواته، واتهمه أعداؤه أنه فرّ من ميدان المعــركة، لكنّ فيليب ردّ بالقول: "لم أنسحب، لكنني تراجعت قليلاً كـــي أحسّن وضعي، فأحنيت رأسي كي أعود وأهاجم خصمي مثل كبشٍ غاضب".

هكـــذا كـــان فيلـــيب، الرجل الذي يتمتع بقوةٍ روحية وإرادة خارقـــتين، وحيوية لا تُقهر، وبعقلٍ حادٍّ لا يهدأ، لكنّ رجالاً من هذا الـــنوع يميلون إلى أن يصبحوا منعزلين لأنهم يجدون أنفسهم، وبشكل متزايد، غير قادرين على إعطاء أي شيء للّذين يحيطون بهم.

وعـــندما بدأ الإسكندر يعي ما يدور حوله أكثر فأكثر، وعرف مكانـــة والده ووالدته، كان قد بلغ السادسة من عمره. بدأ الصبـــي يـــتحدث بـــثقة، وتمكّن من فهم المناقشات المعقدة والصعبة التي تدور أمامه.

كـــان يتسلّل خارج غرفة الملكة عندما يعلم أن والده موجود في القـــصر، وكان يتوجّه إلى القاعة التي يعقد فيها فيليب مجلسه مع قادته الذين بدوا مسنّين جميعاً في عيني الصبـــي، وقد ظهرت على وجوههم آثـــار المعـــارك العديدة التي خاضوها وخرجوا منها سالمين، ومع ذلك كـــان عمـــر الواحد منهم لا يتجاوز الثلاثين سنة، باستثناء بارمينيون الـــذي قارب الخمسين من عمره، والذي كاد الشيب أن يغطي رأسه

بالكامـــل. وكان الإسكندر ينطلق في تأدية أغنية تعلّمها من آرتميس، وذلك كلما وقعت عيناه على هذا القائد الأشيب الشعر:

يتوجه ذلك الجندي الطائش إلى الحرب
ويسقط أرضاً، يسقط أرضاً!

كـــان الإســـكندر يتـــرنح بعد ذلك على الأرض بنفسه وسط قهقهات الناظرين وسرورهم.

لكـــنّ الإسكندر كان يركّز اهتمامه على والده، فيراقب باهتمام طـــريقة تـــصرفاته، وطريقة تحريكه يديه وعينيه، ونبرة صوته ونغمته، وطريقة تحكّمه بأقوى الرجال وأشدهم نفوذاً في المملكة، وذلك بمجرد التطلع إليهم.

كـــان الإســـكندر يقترب أكثر عندما كان والده يترأس المجلس الاستـــشاري، وكـــان يتبعه خطوة خطوة، أما عندما يصل فيليب إلى نقطة الذروة في حديثه، أو جداله، فقد كان الإسكندر يحاول الصعود إلى ركبتيه، وكأنه كان يغتنم اللحظة المناسبة كي لا يلاحظه أحد وهو يفعل ذلك.

كـــان فيليب ينتبه لوجود ولده في مثل تلك اللحظات ويقرّبه من صـــدره، مـــن دون أن يـــتوقف عن الكلام، ومن دون أن يخرج عن موضـــوع حديـــثه، لكـــنّه كان يلاحظ أن قادته يغيّرون من وضعية جلوسهم، ويتحولون بأعينهم نحو ذلك الولد، بينما كانت الابتسامات تعلـــو وجـــوههم، وذلك بغضّ النظر عن جاذبية الموضوع الذي كان يحـــدّثهم عنه. وكان بارمينيون يبتسم بدوره، ويأخذ بالتفكير في أغنية الإسكندر وحركاته.

كان الإسكندر ينسحب بمثل الهدوء الذي يرافق دخوله، ويتوجّه أحـــياناً إلى غـــرفته، وهو يأمل أن يتبعه والده، وكان يعمد في أحيان

أخـــرى إلى الجلـــوس في إحـــدى شرفات القصر كي يحدّق إلى الأفق البعيد. وكان قد اعتاد على الجلوس هناك من دون أن يتكلم ومن دون حراك، مأخوذاً بعظمة السماء والأرض.

وعندما كانت والدته تقترب منه بهدوء في تلك اللحظات، كانت تلاحـــظ الظلال التي تخيّم على عينه اليسرى، وهي تزداد عمقاً، وكأن الليل يرخي بسدوله على روح ذلك الأمير الصغير.

كـــان مشدوهاً بكل أنواع الأسلحة. وقد عثرت عليه الخادمات أكثـــر مـــن مرة في المستودع، وهو يحاول أن يستل أحد سيوف الملك الثقيلة من غمده.

ذات يـــوم، وفـــيما كـــان يحدّق إلى مجموعة هائلة من الأسلحة البرونـــزية تعود إلى جده إمينتاس الثالث، أحسّ الإسكندر أن شخصاً ما يقف خلفه. التفتَ وراءه ليكتشف أنه أمام رجلٍ طويل ونحيف ذي لحـــية، وعينين عميقتين وغامضتين. قال الرجل إن اسمه ليونيداس، وأنه سيكونٍ معلمه.

سأل الإسكندر: "ولماذا؟".

كـــان ذلـــك أول سؤال من لائحة طويلة من الأسئلة التي تأكد ليونيداس من عجزه عن الإجابة عنها.

ومنذ تلك اللحظة، تغيّرت حياة الإسكندر بشكلٍ كبير. إذ صار يلتقـــي بوالدته وشقيقته مرات أقل، ولكنه كان يمضي أوقاتاً أطول مع معلمه. بدأ ليونيداس بتعليمه الأحرف الأبجدية، فبدأ الفتى في اليوم التالي بكتابة اسمه بطريقة صحيحة على رماد موقد مستعيناً بطرف عصا.

علّمـــه معلمـــه كيف يقرأ ويعدّ، وهما أمران تعلمهما الإسكندر بـــسرعة وسهولة، ولكن من دون أن تكون لديه فيهما أي اهتمامات خاصـــة. ولكن، عندما بدأ ليونيداس يروي له أخبار الأسياد والناس،

وقـــصص تكـــوين العالم، لاحظ أنّ وجهه يتهلّل سروراً وأنّه يصغي باهتمام بالغ.

إذ كان الصبــــي يميل نحو الألغاز والدين. وذات يوم، اصطحب ليونـــيداس الإسكندر إلى معبد أبولو الذي يقع قرب ثيرماي، وسمح له بـــتقديم الـــبخور. تناول الإسكندر حفنات كبيرة من البخور، ورماها فـــوق الـــوعاء النحاســـي، لكنّ معلمه صاح به: "البخور غالٍ جداً! ســـتكون قادراً على استهلاك الكمية التي تشاء منه، لكن بعد أن تقهر البلاد التي تنتجه".

فـــسأله: "وأيـــن تقـــع هذه البلاد؟"، ثمّ سأله بعد ذلك: "أليس صحيحاً أن والدي هو صديق عظيم لأبولو؟".

"ربـــح والدك حرباً، ولذلك فقد سُمّي رئيساً لمجلس معبد دلفي، وهو مركز ضالعي أبولو".

"وهـــل ما يُقال عن أن الضالع يقول لأي شخص ما يتعيّن عليه فعله أمر صحيح؟".

أمـــسك ليونـــيداس بـــيد الإسكندر، وخرج به إلى الهواء الطلق وأجابــه: "ليس تماماً. أترى، عندما يريد الناس القيام بشيء هام فإنهم يستـــشيرون ســـيداً، ويسألونه على سبيل المثال: "أيجب أن أقوم بهذا الأمـــر، أم لا؟ وإذا قمت به، فماذا سيحدث؟". وهناك ضالعة تدعى بيثـــيا، والـــسيد يجيب عن طريقها، وكأنه يقوم باستخدام صوتها، هل فهمـــت؟ يُـــضاف إلى ذلك أن الكلمات تكون غامضة على الدوام، ويصعب تفسيرها، وهذا هو سبب وجود الضالعين، أي من أجل شرح كلمات السيد للناس".

الـــتفت الإســـكندر، وتطلّـــع نحو أبولو الذي كان منتصباً فوق قاعدتـــه، وكان جامداً لا يقدر على الحركة، بينما ظهر شبح ابتسامة

علـــى شفتيه، وهكذا فهم الفتى سبب حاجة الأسياد إلى الرجال عندما تريد التحدث مع البشر.

وعندما سافرت العائلة المالكة إلى إيجية - وهي العاصمة القديمة - كـــي تقـــدم القـــرابين إلى قبور الملوك السابقين، اصطحب ليونيداس الإســـكندر إلى بـــرج أحـــد القصور، حيث تمكنا من رؤية قمة جبل أولمبوس الذي تغطيه الغيوم المحملة بالعواصف الرعدية.

حاول ليونيداس أن يشرح ذلك: "أترى، إن الأسياد ليست تلك التماثيل التي نُعجب بها في المعابد، وذلك لأنها تعيش هناك في منازل غير مرئية. إنها هناك، وهي تجلس وتتغذى على السلسبيل والطعام المخصّص لهـــا، إن هذا البرق يرميه زيوس بذاته، إنه يستطيع إصابة أي شخص، وأي شيء، في أي جزء من العالم".

فحدّق الإسكندر نحو قمة الجبل المخيفة طويلاً، وهو فاغر فمه.

وفي الـــيوم الـــتالي، عثر أحد ضباط القصر على الإسكندر وهو يتجول خارج المدينة. وكان يمشي برشاقة فوق ممر يؤدي إلى الجبل.

ســـأله الـــضابط بعد أن ترجل عن جواده: "إلى أين تذهب أيها الأمير؟".

أجاب الصغير وهو يشير إلى جبل الأولمب: "إلى هناك".

فرفعه الضابط، ثم أعاده إلى ليونيداس الذي جزع كثيراً، وبدأ يحسب حساب العقاب الذي ستُنـــزله به الملكة إذا ما حدث أي مكروه لابنها.

كـــان على فيليب أن يكافح طيلة ذلك العام مرضاً خطيراً أصيب بـــه نتيجة الصعوبات التي تحمّلها خلال حملاته العسكرية، والحياة غير المستقرة التي عاشها خارج أوقات القتال.

كان الإسكندر مسروراً من بقاء والده في القصر، لأنه أصبح بإمكانه أن يمضي معه أوقاتاً أطول. وكان نيقوماخوس مسؤولاً عن الإشراف على

معالجـــة الملك، فأرسل خادمَين مساعدين له إلى غابات الجبال القريبة من عيادته في ستاجيرا، من أجل جمع الأعشاب والجذور اللازمة لصنع أدويته.

فُــرض على الملك نظام غذائي صارم، وكان خالياً من الشراب تقــريباً. ووصل الأمر إلى حدّ عدم تجاسر أحد على الاقتراب منه. فلم يستطع أي شخص غير نيقوماخوس الاقتراب منه عندما يكون في مزاجٍ سيئ.

كان أحد الخادمين المساعدَين في الخامسة عشرة من عمره، وكان اسمه فيليب أيضاً.

فقال الملك آمراً حين رآه: "أخرجوه من هنا، لا أسَرّ أبداً بوجود فيلـــيب ثـــان في هذا المكان. أعرف ما الذي سأقوم به، أريد أن أعيّنه طبيباً لوالدي، ولكن تحت إشرافك بالطبع".

وافق نيقوماخوس على هذا التعيين، وهو الذي تعوّد سماع رغبات الملك.

شرب فيليب ذات يوم منقوع الهندباء البرية، وكشّر عندما ابتلعه، وسأل نيقوماخوس: "ماذا يعمل ابنك أرسطو؟".

أجاب الطبيب: "إنه يعيش في أثينا، ويدرس على يد أفلاطون، في الحقيقة، بلغني أنه أفضل تلامذة أفلاطون".

"مدهش. وما هي الموضوعات التي يدرسها؟".

"إن ابـــني يشبهني تماماً، إنه يحب ملاحظة الظواهر الطبيعية، بدلاً من اهتمامه بالشائعات المحضة".

"وهل يهتم بالسياسة؟".

"أجـــل بالطبع، وهو يُظهر كذلك ميلاً خاصاً نحو نُظُم الظواهر الـــسياسية المتعددة، أكثر من ميله إلى علم السياسة بحدّ ذاته، إنه يجمع الدساتير المختلفة، ويحضّر دراسات مقارنة عنها".

"وماذا يقول عن الحكم الملكي؟".

"لا أظـــن أنـــه كـــوّن رأياً حول هذه المسألة، إنه يرى الملكية، وببـــساطة، صيغةً من صيغ الحكم التي تناسب مجتمعات معينة من دون غيرهـــا. أتعلم، يا سيدي، أظن أن ولدي مهتم بمعرفة العالم كما هو، أكثـــر مما يهتم بوضع مجموعة من القواعد التي يتوجب على العالم أن يطبقها".

تجرّع فيليب آخر جرعة من المنقوع تحت ضغط تحديق طبيبه به، والذي بدا أنه يأمره بتجرّع الشراب حتى آخر قطرة، مسح فيليب فمه بطرف عباءته الملكية، وقال: "دعني أعرف أخبار ابنك يا نيقوماخوس، لأنني مهتم به".

"سأفعل، إنني مهتم به بدوري، فهو ابني".

أمـــضى الإســـكندر معظم تلك الفترة مع نيقوماخوس لأنه كان رجـــلاً لطيفاً ومليئاً بالمفاجآت، بينما كان ليونيداس شرساً إلى حدٍّ ما، وحازماً بشدة.

وذات يـــوم، دخـــل الإسكندر عيادة القصر، ورأى نيقوماخوس وهو يفحص ظهر والده، ويراقب نبضات قلبه فسأله: "ماذا تفعل؟".

"إنني أفحص سرعة نبضات قلب والدك".

"وما الشيء الذي يحرّك القلب؟".

"الطاقة الحيوية".

نظـــر نيقوماخوس إلى عيني الصبـــي، فلاحظ فيهما نهماً للمعرفة لا حـــدود لـــه، وحـــدّة مشاعر تثير الدهشة. فمرّر إصبعه فوق خدّ الصبـــي، بينما استغرق فيليب في المشاهدة، وقد شُدِه بما يجري.

قال نيقوماخوس: "آه! لا أحد يعرف الإجابة عن هذا السؤال".

4

عـــاد فيليب بسرعة إلى مزاولة نشاطاته في إدارة الحكومة بعد أن استعاد كامل طاقاته، فخيّب بذلك آمال الذين ذهبوا بعيداً في توقعاتهم بشأن موته.

لم يـــشعر الإسكندر بالسرور لهذا التطوّر لأنه يعني أنه لم يعد في اســـتطاعته أن يرى والده كثيراً، وكذلك أصبح مضطراً إلى أن يتعرف علـــى أتـــرابه من الأولاد، بعضهم كانوا في مثل سنه، وبعضهم الآخر كانوا أكبر منه بقليل، وهم أولاد نبلاء المقدونيين الذين كانوا يترددون على باحة القصر، ويعيشون في القصر تلبيةً لرغبة الملك. اعتبر فيليب أن هـــذه هي الطريقة لإبقاء المملكة موحدة، أي عبر التقريب بين أقوى العائلات في المملكة، أي أنه أراد أن يجمع كل زعماء القبائل والطوائف تحت سقفٍ واحد، ألا وهو سقف الملك.

كان بعض هؤلاء الأولاد يحضرون الدروس التي يلقيها ليونيداس، ومنهم بيرديكاس، لايسيماخوس، سلوقس، ليوناتوس، وبيلاطس وهو ابـــن القائـــد بارمينـــيون. فـــيما كان آخرون، وهم أكبر سناً، مثل بطلـــيموس، وكراتيروس، يحملون لقب متدرب Page، وكانوا كلهم يعتمدون على الملك في تعليمهم وتدريبهم.

كان سلوقس في هذه الفترة لا يزال صغيراً جداً، لكنّ ليونيداس أحـــبه لأنـــه كـــان ناجحـــاً في دروسه. إذ كان ماهراً في التاريخ والرياضـــيات بـــشكلٍ خاص، وكان يتمتع بحكمة وتوازن مدهشين بالنسبة إلى صغر سنه. وكان في استطاعته جمع أعداد معقدة في فترات

قصيرة، كما كان يستمتع بالتنافس مع رفاقه الذين كان يتفوق عليهم في أحيان كثيرة.

أعطـــته عيناه العميقتان نظرةً نفاذة، كما أن شعره الأشعث كان علامـــةً علـــى قوته واستقلاليته. وبالرغم من أنه لم يكن ذا شخصية متمـــردة علـــى الإطلاق، إلاّ أنّه كان يلفت النظر إليه خلال الدروس بملاحظاته، لكنّه لم يحاول مطلقاً أن يتملق معلمه، كما أنه لم يقدم على شيء يبهر معلميه ويداهنهم.

كـــان لايسيماخوس وليوناتوس أبعد تلميذين عن النظام، لأنهما أتيا من داخل البلاد، وشبّا في الغابات والبراري على حريتهما، وكانا يأخذان الجـــياد لترعى في الحقول، ويمضيان معظم أوقاتهما خارج المنـــزل، وكانا يعتبران أن العيش داخل أربعة جدران بمثابة السجن لهما.

كان لايسيماخوس، وهو أكبر سناً بقليل من رفاقه، الأسرع في التأقلم مـــع حياته الجديدة، فيما كان ليوناتوس، الذي كان في السابعة من عمره فقـــط يبدو مثل ذئبٍ صغير بسبب مظهره القاسي، وشعره الأحمر، وبقع الـــنمش التي تنتشر على أنفه وحول عينيه. أما عندما كان يتعرّض للعقاب فكان يرد بالركل والعضّ، فيسارع ليونيداس إلى تهدئته عبر تجويعه وحبسه في غـــرفة، بينما كان الآخرون يستغرقون في اللعب. وكان المعلم يُكثر من اســـتخدام عـــصاه المصنوعة من خشب الصفصاف. لكنّ ليوناتوس كان ينتقم عند رؤيته معلّمه يظهر في آخر الممر، إذ يبدأ بالغناء بأعلى صوته:

ها قد أتى وظهر،
الغراب العجوز

فينـــضمّ إلـــيه الأولاد الآخرون في تأدية هذه الأغنية، بمن فيهم الإســـكندر، وكـــان وجه ليونيداس يحمرّ من الغضب، ويفقد أعصابه أحياناً، فيلاحقهم ويلوّح بعصاه فوق رأسه.

أمـــا عـــندما كان ليوناتوس يدخل في عراك مع رفاقه، فلم يكن يتقـــبّل فكـــرة الخسارة أبداً، حتى إنه كان يلاكم الأولاد الأكبر منه، وكانت النتيجة ظهور الجروح والخدوش على وجهه بشكلٍ شبه دائم، أي أن مظهـــره لم يكـــن لائقـــاً في معظـــم المناسبات الرسمية، أو في الاحـــتفالات التي تقام في الميدان. أما بيرديكاس فكان على العكس منه تماماً، فهو الذي يتمتّع بأكبر قدرٍ من الوعي بين رفاقه، وكان أكثرهم مواظبة على حضور الدروس والألعاب والتمارين التي كانت تُجرى في المـــيدان، كان يكبر الإسكندر بعامٍ واحدٍ فقط، وكان يشارك بيلاطس في الألعاب ذاتها.

ولقد اعتاد بيرديكاس أن يقول لبيلاطس، الذي كان الأكثر شبهاً به من بين كل رفاقه: "عندما أكبر سأصبح قائداً مثل أبيك".

كان بيلاطس في الرابعة عشرة من عمره تقريباً، وكان سميناً بعض الـــشيء، وممتلـــئاً قياساً إلى عمره. ظهرت البقع على وجهه، وكانت ملامحه مضحكة بعض الشيء، مع أنفٍ كبير الحجم، وشعرٍ أشعث على الـــدوام تتخلّله بعض الخصلات المدبّبة. ولقد اعتاد رفاقه على السخرية مـــنه، وكانوا يقولون إنه بدأ في تنمية أنفه أولاً، لكن ذلك لم يزعجه كـــثيراً، حتى إنه كان يرفع سترته كي يُري رفاقه الدمامل الأخرى التي كانت تنتشر في جسمه بمثل سرعة انتشارها على أنفه.

كان بطليموس ولداً طيباً بغضّ النظر عن التعالي الذي كان يظهره في بعـــض الأحيان، وكان مولعاً بالقراءة والكتابة. دعا في أحد الأيام الإســـكندر إلى غـــرفته وعرض عليه الكتب التي بحوزته، وكان يمتلك عشرين كتاباً على الأقل.

فـــصاح الأمـــير وهـــو يقترب كي يلمسها: "لديك الكثير من الكتب!".

قال بطليموس وهو يمنعه من التقدم: "قف عندك".

"إنها أشياء حساسة، لأن ورق البردى هشٌ جداً، ويتحلّل بسهولة، ويتعين على المرء أن يعرف الطريقة الصحيحة لفتحها وإغلاقها، كما يجب حفظها في مكان جافٍ وجيد التهوئة، كما يتعيّن عليه أن يحتفظ بمصيدة الفئران قريبة منها، لأن الفئران تحب ورق البردى، وإذا تمكّنت من الوصول إلى هذه اللفائف فهي ستتلفها كلياً. يمكن لهذه الفئران أن تتلف كتابين من **الإلياذة**، أو كتاباً عن إحدى المسرحيات التراجيدية التي كتبها سوفوكل، وذلك في ليلة واحدة، انتظر لحظة كي أحضر إليك أحدها". ثمّ تناول كتاباً يحمل بطاقة حمراء صغيرة الحجم.

"ها هو، أترى؟ إنه كتاب عن إحدى المسرحيات الكوميدية التي كتبها أريسطوفان، تدعى هذه المسرحية **ليزيزتراتا**، وهي المفضلة عندي. إنها تدور حول حادثة معينة عندما كانت نساء أثينا وإسبارطة متبرمات من الحروب التي أبقت رجالهن بعيدين عن المنازل، وكن متشوقاتٍ لـ..." توقف قليلاً هنا عندما لاحظ أن الإسكندر قد فغر فاه. "حسناً دعنا نتجاوز هذه القصة، لأنك ما زلتَ صغيراً على هذه الأشياء. سأخبرك عنها في ما بعد، اتفقنا؟".

سأل الإسكندر: "وما هي الكوميديا؟".

سأله بطليموس، وقد بانت الصدمة على وجهه: "ألم تقصد المسرح من قبل؟".

"إنهم لا يسمحون للصغار بالذهاب، لكنني أعرف أن الأمر يشبه الإصغاء إلى قصة لكن مع وجود رجال حقيقيين يضعون أقنعةً على وجوههم، ويتظاهرون أنهم هرقل أو طاسيوس، حتى إن بعضهم يتظاهرون أنهم نساء".

أجـــاب بطليموس: "هكذا هو الأمر تقريباً، لكن أخبرني ما هي موضوعات الدروس التي يعطيك إياها المعلم؟".

"أســـتطيع أن أجمـــع وأطرح، وأعرف الأشكال الهندسية، كما يمكـــنني التمييـــز بين كوكبة الدب الأكبر والدب الأصغر في السماء، بالإضـــافة إلى نحو عشرين مجرّة أخرى، كما أستطيع أن أقرأ وأكتب، بالإضافة إلى أنني قرأت أساطير يعسوب Aesop's fables".

علّـــق بطليموس وهو يعيد اللفافة إلى مكانها بكل عناية: "هممم، إنها كلها موضوعات للأولاد".

"أعـــرف كذلك تسلسل أجدادي بالكامل، سواءً أكان من جهة والدي، أم من جهة والدتي، أتعرف بأنني سليل هرقل وآخيل؟".

"ومن كان هرقل وآخيل؟".

"كـــان هـــرقل أقوى بطلٍ في العالم، وقد أنجز اثني عشر عملاً. أتـــريدني أن أحـــدثك عنها؟ مثل أسد نيمين Nemean، وهند سيري Hind of Cery، وسيرين..." وهنا لم يستطع الصبـــي أن يتلفظ بالأسماء بالطريقة الصحيحة.

"فهمـــت، فهمت، أنت ممتاز، لكن إذا أحببتَ سأقرأ لك بعض المـــؤلّفات الممتعة التي أحتفظ بها في غرفتي... ما رأيك؟ والآن، لماذا لا تـــبدأ بالعدو واللعب؟ أتعرف أن أحد الفتيان قد وصل لتوه إلى بيلا، وأنه يقاربك بالسن؟".

أضاء وجه الإسكندر، وسأل: "أين هو؟".

"رأيته في الباحة وهو يلعب بالكرة، يبدو أنه قوي البنية".

ركـــض الإســـكندر بأقصى ما يستطيع من سرعة، وجلس تحت رواق كثير الأعمدة كي يراقب هذا الضيف الجديد من دون أن يتجرأ على التكلم معه.

ركل ذلك الصبي الجديد الكرة بقوة أكبر، فتدحرجت حتى وصلت إلى قدَمي الإسكندر. ركض القادم الجديد وراء الكرة، وما لبث الصغيران أن وجدا نفسيهما وجهاً لوجه.

"أتريد أن تلعب معي؟ من الأفضل أن يتشارك اثنان في هذه اللعبة، سأركل الطابة بينما تقوم أنت بالإمساك بها".

سأله الإسكندر: "ما اسمك؟".

"هيفاستيون، وأنت؟".

"الإسكندر".

"حسناً، تعال إذاً إلى جانب ذلك الجدار، سأركل الكرة أولاً، وإذا تمكّنتَ من التقاطها فستحصل على نقطة، أما إذا لم تتمكن من ذلك فإنني سأحصل على نقطة، ثم أركل الكرة مجدداً، هل فهمت؟".

أومأ الإسكندر بالموافقة، وبدأا باللعب، وسرعان ما امتلأ الملعب بصياحهما، ولم يتوقفا إلا حين شعرا بالإجهاد، وعندما بدأ العرق يتصبب منهما.

سأل هيفاستيون وهو يجلس على الأرض: "هل تعيش هنا؟".

جلس الإسكندر إلى جانبه، وأجاب: "بالطبع، إنه قصري".

"لا تكذب عليّ، إنك صغير جداً على امتلاك قصرٍ بهذه الضخامة".

"هذا هو قصري، لأنه ملك والدي، الملك فيليب".

صاح هيفاستيون ملوحاً بيده في الهواء من فرط الدهشة: "بحق زيوس!".

"أتريد أن نكون صديقين؟".

"بالطبع، لكن إذا أردنا أن نكون صديقين، فسيتوجب علينا أن نتبادل بعض تذكارات الصداقة".

"وما هو تذكار الصداقة؟".

"أقوم بإعطائك شيئاً، وأنت تعطيني شيئاً بالمقابل".

بحث هيفاستيون في جيبه، وتناول قطعةً بيضاء اللون.

"ما هذه! سنّ؟".

"أجـــل". وراح هيفاستيون يصفر من خلال الفجوة التي تركها فقدانه لإحدى أسنانه الأمامية. "سقطت هذه السنّ من فمي منذ ليالٍ قليلة، وكدت أن أبتلعها، خذها، إنها لك".

أخذ الإسكندر السنّ، لكنه شعر فوراً بالأسى لأنه لا يمتلك شيئاً يعطيه بالمقابل، بحث في جيوبه، بينما وقف هيفاستيون أمامه، ومدّ يده متوقعاً أن يأخذ شيئاً.

أمـــا الإســـكندر فاكتشف أنه لا يملك هدية تساوي ما تلقاه في الأهمية، فأطلق تنهيدة عميقة، وبلع ريقه، ثم أدخل إصبعين من أصابعه في فمه، وأمسك بإحدى أسنانه التي كانت تتخلخل لأيامٍ عدة، لكنها بقيت مع ذلك في مكانها.

بدأ الفتى يحرك السنّ إلى الخلف وإلى الأمام، ويدفعها إلى الداخل ويـــسحبها إلى الخارج، ثم حاول منع تساقط دموعه نتيجة الألم إلى أن سقطت السنّ في النهاية، بصق الفتى بعض الدم، ثم غسل السنّ في مياه النبع، ثم سلّمها إلى هيفاستيون.

تمتم الإسكندر: "إليك هذه، والآن أصبحنا صديقين".

وضع هيفاستيون التذكار في جيبه: "حتى الموت؟".

أجاب الإسكندر: "حتى الموت".

*

كانت أيام فصل الصيف قد قاربت نهايتها عندما أبلغت أوليمبيا ولدها أن خاله الإسكندر حاكم إيبيروس، سيزورهما.

كـــان الإسكندر يعرف أن لديه خالاً، أي شقيق والدته الأصغر، وكان يعرف أنهما يتشاركان الاسم ذاته. وكان قد سبق للإسكندر أن رأى خالـــه في مناســـبات عدة، ولكنه لم يكن يتذكره جيداً لأنه كان صغيراً جداً.

رأى الأمـــير إســـكندر سميّه يصل على صهوة جواده في إحدى الأمسيات، وكان بصحبة مرافقيه ومعلميه.

كان صبياً وسيماً يبلغ الثانية عشرة من عمره. أما شعره فداكن، وعيناه زرقاوان عميقتان، وكان يحمل معه كل الأوسمة التي تدل على رتبته العالية. إذ كان يضع شريطاً مذهباً حول شعره، ويرتدي عباءةً أرجوانية، كما أنه يحمل صولجاناً من العاج في يده اليمنى، لأنه كان ملكـــاً بـــدوره، بالرغم من صغر سنّه ويحكم بلاداً تتألف كلها من الجبال.

الـــتفت الإســـكندر إلى هيفاستيون، الذي كان يجلس قربه ويمد رجليه على الشرفة، وصاح به: "انظر! إنه خالي إسكندر. إنه يحمل اسماً مثل اسمي، وهو ملكٌ أيضاً، هل كنت تعرف هذا؟".

سأله صديقه متابعاً تحريك ساقيه: "ملكُ ماذا؟".

"إنه ملك المولوشويين Molossians".

كان لا يزال يتكلم عندما أمسكته آرتميس من الخلف، وقالت له: "تعال! يتعيّن عليك أن تكون جاهزاً للقاء خالك".

راح الإســـكندر يركل برجليه لأنه لم يرغب في ترك هيفاستيون، لكنّ آرتميس حملته إلى حمّام والدته حيث نـــزعت عنه ثيابه، وغسلت لـــه وجهـــه، وجعلـــته يرتدي سترة وعباءة مقدونية موشاة بالذهب، ووضـــعت حول رأسه شريطاً فضياً، ثم أوقفته على كرسي، وراحت تتأمله بإعجاب. "تعال أيها الملك الصغير، إن والدتك تنتظرك".

قـــادت آرتمـــيس الإسكندر إلى غرفة ملكية حيث كانت الملكة أوليمبـــيا تنتظـــره، وقد ارتدت ملابسها، ووضعت عطرها، ورتبت شـــعرها فبدت رائعة. كانت عيناها السوداوان في تباينٍ تام مع شعرها الأحمـــر، أما شالها الأزرق المزخرف بالأوراق المذهبة على طول طرفيه فقـــد غطى سترة بلون الشال ذاته مصنوعة على الطراز الأثيني، والتي كانـــت قـــصيرة بعـــض الشيء، وكان خيطان رفيعان يثبتانها عند الكتفين.

أمـــا ثنية الشق الذي يتوسط صدرها، والتي تركتها السترة مرئية بعض الشيء فقد كانت مزينة، بشكلٍ رائع، بقطعة من الكهرمان يماثل حجمها حجم بيضة حمامة، وكانت موضوعة داخل غلافٍ من الذهب على شكل بلوطة، وهي هدية الزفاف التي تلقتها من فيليب.

أمـــسكت أوليمبـــيا بيد الإسكندر، وتوجهت كي تجلس على العرش إلى جانب زوجها الذي كان يستعد لاستقبال شقيق زوجته.

دخل الشقيق من آخر القاعة، وانحنى للملك أولاً، وفقاً لموجبات البروتوكول، ثم انحنى لشقيقته الملكة.

كـــان فيليب مليئاً بالفخر نتيجة انتصاراته العسكرية، وكان ثرياً نتـــيجة مـــناجم الذهب التي احتلها في جبل بانجايوس، وكان مدركاً بالكامـــل أنه الأقوى في شبه الجزيرة الهلينية، أو ربّما الأقوى في العالم كلـــه بعد الإمبراطور الفارسي. ولقد دفعت كل هذه الأسباب بالرجل إلى التـــصرّف بهذه الطريقة من أجل بثّ الرهبة في نفوس زائريه، ولقد فعل ذلك من خلال ملابسه الفاخرة وعظمة الزخارف التي حملها.

طُلـــب مـــن الملك الشاب التوجه إلى جناحه بعد انتهاء مراسم التـــرحيب، وذلـــك كـــي يحـــضّر نفسه للمأدبة التكريمية التي ستُقام على شرفه.

أحبّ الإسكندر أن يشارك في ما يجري، لكنّ والدته أخبرته أنه لا يــزال صغيراً جداً، وأنه يستطيع أن يلعب بتماثيل الجنود المصنوعة من الــسيراميك، وهي التماثيل التي طلبت من أحد الخزافين في ألوروس أن يصنعها لأجله.

دعــا فيلــيب شــقيق زوجته في ذلك المساء، وبعد انتهاء مأدبة العــشاء، إلى غرفة خاصة كي يتحدثا بأمور السياسة، فشعرت أوليمبيا بالانــــزعاج لــسببين: أولاً، لأنهــا ملكة مقدونيا. وثانياً، لأن ملك إيبيروس كان شقيقها.

أمــا في واقــع الأمر فقد كان الإسكندر، ملك إيبيروس، ملكاً بالاســم، وليس بالفعل. وكانت إيبيروس في الحقيقة واقعة تحت حكم عمه آريباس، الذي لم تكن لديه النية للتنازل عنه. وكان فيليب، بقوته، وجيشه، وذهبه هو الوحيد الذي يمتلك القوة لتنصيب الإسكندر وتثبيته في الحكم.

كانــت لــدى فيليب مصلحة في القيام بهذا العمل، لأنه يضمن بــذلك بقاء الملك الشاب مديناً له، كما أنه يُخمد طموحات أوليمبيا. فلقــد شــعرت أوليمبيا مراراً أن زوجها يهملها، وهكذا وجدت في ممارسة السلطة بعض الرضا في الحياة، والتي كانت من دونها رتيبة، ومن دون لون.

راح فيلــيب يشرح للملك الشاب: "عليك بالصبر لسنوات قليلة قادمــة، أي خلال الوقت الذي أحتاجه من أجل تلقين المدن الساحلية بعض الدروس، وهي المدن التي لا تزال مستقلة حتى الآن، ولكي أتأكد مــن أن الأثينيين يفهمون من هو الأقوى في هذه المنطقة، إنني لا أكنّ عداءً لهذه المدن من هذه الناحية، لكنني لا أريد أن تقف في طريقي هنا في مقدونيا. وأريد كذلك أن أسيطر على المضائق ما بين تراقيا وآسيا".

شعر الملك الإسكندر بالسرور لأنه يتلقى اهتمام رجلٍ كبير وملك حقيقي، بالرغم من صغر سنّه، فأجاب: "لك ما تريد يا صهري العزيز، أعرف أنه توجد لديك أمور أهم بكثير من جبال إيبيروس، لكنك إذا تمكنت ذات يوم من مساعدتي فسأكون مديناً لك طيلة حياتي".

كان الملك الشاب ذا عقل راجح بالرغم من كونه مراهقاً، ولذلك تأثر فيليب كثيراً برجاحة رأيه.

سأله فيليب: "لماذا لا تبقى معنا هنا، فالأوضاع ستزداد خطورة في إيبيروس، ولهذا فإنني أفضّل أن أتأكد من أنك بأمان. إن شقيقتك الملكة هنا، وهي تريد مصلحتك، وسيكون لك جناحك الخاص، وستحصل على مرتبك الملكي، وعلى كل التكريم الذي يستأهله مركزك. وأنا سأرافقك شخصياً عندما يحين الوقت كي تسترجع عرش أبيك".

قبل الملك الشاب العرض بكل سرور، وهكذا بقي في القصر في بيلا حتى أكمل فيليب برنامجه السياسي والعسكري، وهو البرنامج الذي جعل من مقدونيا أغنى وأقوى دولة في أوروبا، والدولة المرهوبة الجانب في تلك المنطقة.

في تلك الأثناء، توجهت الملكة مستاءةً إلى جناحها حيث انتظرت شقيقها كي يأتي ليتمنى لها ليلةً سعيدة، ويُعرب عن احترامه لها قبل توجّهه إلى جناحه. وتناهت إلى مسامعها من إحدى الغرف القريبة من غرفتها أصوات هيفاستيون والإسكندر، وهما يلعبان بتماثيل الجنود ويصيحان:

"أنت ميت!".

"لا، لم أمت! أنت الذي مات!".

وتلاشت أصواهما وسط الصمت المخيّم، وهكذا تحولت طاقات المحـــاربَين الـــصغيرين إلى الـــنوم، بينما كان القمر يظهر على صفحة السماء.

5

كان الإسكندر بعمر السابعة، أما خاله ملك إيبيروس فكان بعمر الثانية عشرة، عندما هاجم فيليب مدينة أولينثوس وتحالف خالكاديكي Chalcidicean، وهــو الاتحاد الذي سيطر على شبه جزيرة خلقدونيا التي تأخذ شكل رمحٍ ثلاثي. أما الأثينيون الذين كانوا حلفاء أولينثوس فقــد سعوا إلى المفاوضة، لكن تبيّن لهم أن فيليب كان عنيداً تماماً، إذ أعطى جواباً لم يترك أمامهم مجالاً كبيراً للمناورة، ثم قال للوفد: "إما أن تغادروا هذا المكان، أو تطردوني خارج مقدونيا".

حاول القائد أنتيباتر حثّ فيليب على النظر إلى المشكلة من زاوية أخــرى، وما إن غادر أعضاء الوفد الأثيني - وكانوا في حالة غضبٍ شــديد - حــتى قــال: "إن موقفك هذا يا سيدي من شأنه مساعدة أعدائك في أثينا، وعلى الأخص ديموستين".

قال الملك وهو يهزّ كتفيه: "أنا لا أخافه".

"أجــل، لكــنّه خطيب مفوّه، بالإضافة إلى كونه سياسياً ماهراً، إنه الشخص الوحيد الذي يَفهم استراتيجيتك، وهو الذي لاحظ أنك لم تعد تستخدم جنود المرتزقة، وأنك أنشأتَ جيشاً وطنياً موحداً ومندفعاً، وأنك جعلــت منه ركيزةً أساسية من ركائز حكمك، إنه مقتنع أن ذلك يجعلك العدو الأخطر لأثينا، لا يمكننا تجاهل الخصم الذكي يا سيدي".

صعُب على فيليب إيجاد الكلمات المناسبة عند هذه النقطة، لكنه قال: "أريدك أن تراقب ديموستين من خلال بعض رجالنا في أثينا، أريد أن أعرف كل شيء يقوله عني".

أجـــاب أنتيباتـــر: "يمكنك اعتبار الأمر منتهياً يا سيدي". وبادر الـــرجل على الفور إلى تنبيه المخبرين في أثينا، وأبلغهم بضرورة التأكد مـــن إرسالهم أخبار نشاطات ديموستين بسرعة وفعالية. وترافق وصول نصوص خطابات ذلك الخطيب العظيم إلى بيلا مع حدوث مشاكل في كل مرة، وكان الملك يسأل عن عنوان الخطاب أولاً وقبل كل شيء. فيأتي الجواب المنتظر: *"ضد فيليب"*.

كـــان فيليب يستشيط غضباً عندها ويصيح: "مجدداً؟". وكانت نـــصوص الخطابات تثير في نفسه الانـــزعاج إلى درجة أنه إذا وصلت تلـــك الأخبار السيئة بعد تناوله وجبة طعامه مباشرة كان يصاب بعسر الهـــضم علـــى الفور. وكان يجول في الغرفة جيئةً وذهاباً مثل أسد في قفـــص، بيـــنما كان مساعده يقرأ له الخطاب بصوت عالٍ، لكنه كان يقاطعـــه بـــين وقت وآخر صائحاً به: "ماذا كان ذلك؟ اللعنة! كرّر ذلك... اقرأ ذلك المقطع مجدداً!" كان رد فعله شرساً جداً بحيث شعر المساعد أن الكلمات التي يقرأها كانت كلماته هو بالفعل.

أما الأمر الذي أثار قلق الملك أكثر من أي أمرٍ آخر فكان إصرار ديموســتين علـــى وصـــف مقدونيا على أنها "دولة بربرية من الدرجة الثانية!".

صـــاح فيليب: "بربرية؟". ثمّ أوقع كلّ شيء أرضاً. "درجة ثانية؟ سأريه ماذا تستطيع دولة من الدرجة الثانية أن تفعل!".

قـــال المـــساعد في محاولة منه لتهدئته: "يتعيّن عليك أن تتذكر يا سيدي أن رد فعل الشعب تجاه هجاء ديموستين كان فاتراً تقريباً، وذلك لأن ســـكّان أثيـــنا مهتمون بمعرفة كيفية حل مشاكل ملكية الأراضي وتـــوزيعها علـــى الفلاحـــين في أتيكي، وهذا لا يقلّل من اهتمامهم بطموحات ديموستين السياسية".

وأُتبعت تلك الخطابات الحماسية ضد فيليب بخطابات أخرى تؤيد أولينثوس، وذلك في محاولةٍ من ديموستين لإقناع الشعب بالتصويت لصالح إرسال المساعدات العسكرية للمدينة المحاصرة. ولكن، حتى مجهوده هذا لم يعطِ إلا نتائج ضئيلة.

سقطت المدينة في السنة التالية، فأقدم فيليب على تسويتها بالأرض، وذلك من أجل إرسال رسالة واضحة وصريحة لمن تسوّل له نفسه تحدّيه.

وحين دعا أنتيباتر فيليب كي يعلّق على نتائج هذا العمل المتطرف في أثينا، وفي اليونان كلها، صاح الملك: "يمتلك ديموستين الآن سبباً وجيهاً كي ينعتني بالبربرية!".

أدى هذا القرار العنيف في واقع الأمر إلى تأجيج الصراعات داخل شبه الجزيرة الهلينية، فانقسمت جميع المدن والقرى اليونانية ما بين مؤيدة لمقدونيا، أو معادية لها.

أما فيليب، فقد شعر من جهته أنه أقرب إلى زيوس، من حيث المجد والقوة. وشعر بالرغم من ذلك أن الصراعات المستمرة التي أقحم نفسه فيها - مثل *كبشٍ غاضب* على حدّ تعبيره هو - كانت قد بدأت تفعل فعلها. وكان يستغرق في معاقرة الشراب في الفترات الفاصلة ما بين حملةٍ وأخرى، كما كان يفرط في كل شيء يفعله في أثناء فترات معاقرته الشراب التي كانت تستمر من الغسق وحتى الفجر.

في تلك الفترة، لجأت الملكة أوليمبيا إلى العزلة بشكلٍ متزايد، وكرّست نفسها للعناية بولديها، وللتعبد. وتباعدت الفترات التي كان فيليب يأتي فيها ليشاطرها السرير؛ حتى أصبحت نادرة. وحتى في تلك المرات القليلة لم تكن جيدة، كانت باردة وبعيدة في أفكارها، وكان يغادر لقاءاتهما مع شعورٍ بالإهانة، مدركاً أن حماسته اليائسة والمتسرعة كانت تترك الملكة جامدة ومن دون مشاعر.

لم تكـــن أوليمبـــيا تلك المرأة الضعيفة مقارنة بزوجها، كما أنها كانت تحرص على كرامتها. وكانت ترى في شقيقها، وفي ابنها بشكلٍ خـــاص، مـــثال الشابين اللذين سيحميان شرفها وكرامتها في يومٍ من الأيـــام، واللـــذين سيُرجعان إليها الهيبة والقوة اللتين كانتا ملكها عن جدارة، واللتين جرّدها فيليب منهما بغطرسته في كل أيام حكمه.

وكانت المهمات الدينية الرسمية بمثابة واجبات بالنسبة إلى الملكة، ولكـــنّها كانت بلا معنى حقيقي بالنسبة إليها. كانت متأكدة من أن أســـياد الأولمـــب، هذا إن وجدت، لا تهتم أبداً بشؤون البشر. كانت مفـــتونة أكثر بعبادات أخرى، وخاصة ديونيسيوس، وهو سيد غامض قـــادر على السيطرة على العقل البشري، وعلى تغييره وجرّه إلى دوامة من العواطف العنيفة والمشاعر الغريزية.

ســـرت شـــائعات تفيد أنها انضمت إلى تلك الطائفة سراً، وأنها تـــشارك ســـراً في طقوس التقرب من ديونيسيوس ذلك، والتي تتضمن شـــرب الأشربة الممزوجة بأدوية فعالة، وأنها تشارك بالرقص إلى حدّ الإجهاد والهلوسة، ويحدث كل ذلك على أنغام آلات موسيقية بدائية. كانـــت الملكة تشعر وهي في تلك الحالة بأنّها تركضُ في الغابات ليلاً، وكانت ملابسها الملكية الفاخرة تتمزق إرباً إرباً فوق أغصان الأشجار في أثـــناء مطاردتها الحيوانات البرية التي كانت تمسك بها، وتسارع إلى أكل لحمها الذي لا يزال ينبض بالحياة، ثمّ كانت تسقط أرضاً من فرط الإجهـــاد قبل أن تغط في نومٍ عميق فوق ما يبدو أنه بطانية من الأشنة المعطرة.

وكانـــت ترى وهي في حالة نصف اليقظة تلك مخلوقات الغابة، وهـــي تخـــرج بـــبطء من جحورها، ورأت حوريات ذات بشرة بمثل خـــضرة أوراق الشجر، وأنصاف أسياد بمعاطف خشنة، وهي أساساً

أنـــصاف رجال وأنصاف ماعز. رأتها جميعاً وهي تتقدم من شبه صورة تمثّل عضواً عظيم الحجم، ثم تضع عليه أوراق اللبلاب والعنب، وتغمسه بالـــشراب. كان المشاركون في ذروة ممارسة طقوسهم ويشربون شراباً غير مخفف، ويندفعون في أعمال تزاوج وحشية تؤدي بهم في نهاية الأمر إلى احتكاك مباشر، ويجري كل ذلك وسط حالة من النشوة المسعورة إلى حدّ أن ديونيسيوس ذاته تسيطر عليه هذه الحالة.

كـــان آخـــرون يتقدمون خلسة وهم في حالة من الإثارة، وهم ينظـــرون بجرأة نحو جسد أوليمبيا العاري، وكلهم شوقٌ لتلبية رغباتهم الحيوانية...

هكـــذا كانـــت الملكـــة تستـــسلم لطبيعتها البربرية والوحشية، وللطقوس التي تحرّر أكثر العناصر عدوانية وعنفاً في روحها وجسدها، أمـــا في مـــا عدا هذه الحركات المتطرفة فقد كانت حياتها - في واقع الأمـــر - عاديةً وتسير بحسب ما هو متوقع من أي زوجة وشريكها، وكانت قادرة على العودة إلى تلك الحياة وكأنها تغلق باباً داخلياً محكماً يفصلها عن كل الذكريات وكل المشاعر.

كانـــت الملكـــة تعلّم الإسكندر، وسط الهدوء الذي يخيّم على جـــناحها، كـــل ما يستطيع فتى صغير تعلّمه من مبادئ تلك الطائفة، وكانـــت تخبره عن المغامرات والرحلات التي قام بها ديونيسيوس برفقة مـــوكب مـــن أنصاف البشر وأرواح الغابات التي كانت تضع تيجاناً تـــتألف من أوراق الأشجار على رؤوسها. وصلت هذه الرحلات إلى بلاد بعيدة مثل بلاد النمور والفهود، أي الهند.

لكـــن إذا كان تأثير الوالدة مهماً في تشكيل شخصية الإسكندر، فإن التربية الصارمة التي أمر بها الوالد ورغب فيها لم تكن أقل تأثيراً في شخصيته، هذا إذا لم نقل بأنها كانت أشد من تأثير الوالدة.

فلقد أمر فيليب ليونيداس، وهو المدير الرسمي المسؤول عن تعليم الصبي، أن ينظّم تعليم ابنه من دون أن يهمل أي شيء، وهكذا كان معلمون جدد ينضمون إلى فريق المدربين والمشرفين مع تقدم الإسكندر في تلقي العلم.

وما إن تمكن الإسكندر من تذوّق الشعر حتى بدأ ليونيداس في قراءة أشعار هوميروس، وعلى الأخص **الإلياذة**، لأنها تُظهر قواعد الشرف والتحمل التي تليق بأميرٍ من أسرة الأركاديين Argeads المالكة. وتمكّن المعلم المسنّ بهذه الطريقة من كسب ليس فقط عقل الإسكندر وعقول رفاقه الصغار، بل كسب قلوبهم كذلك، ومع ذلك بقيت الأغنية التي تعلن عن قدوم ليونيداس إلى الصف كما هي:

ها قد أتى وظهر،
الغراب العجوز

أصغى هيفاستيون مع الإسكندر إلى أشعار هوميروس، وتمكّن الولدان، وسط حالةٍ من التأثر، من تخيّل كل تلك المغامرات الغريبة، بما فيها ذلك الصراع الشائك الذي شارك فيه أقوى الرجال وأجمل النساء في العالم، وحتى أن الأسياد ذاتها قد شاركت فيه، وكان كل واحد منها ينتصر لطرفٍ من أطراف الصراع، ويمتلك دوراً فيه.

وتمكّن الإسكندر في ذلك الوقت من إدراك طبيعة مركزه، والعالم الذي يدور من حوله، والدور الذي اختارته له الأقدار وحضّرته لإنجازه.

كانت النماذج التي تقدّم إليه هي نماذج البطولة، ومقاومة الألم، والشرف، واحترام المرء لكلمته، والتضحية إلى درجة التضحية بالذات. وكان الإسكندر يزداد تعلقاً بهذه النماذج يوماً بعد يوم، ليس من منطلق الطاعة المفروضة، بل بسبب ميوله الطبيعية الكامنة فيه.

وكـــشفت طبيعة الإسكندر عن حقيقتها بصورة تدريجية: فلقد أظهـــرت الطبـــيعة القاسية والعدوانية التي تميّز والده، أي المزاج الملكي الذي يلتمع كصاعقة، وأظهرت في الوقت عينه الفتنة الغامضة التي تميز والدتـــه، بالإضـــافة إلى فضولها لاكتشاف المجهول، وتوقها الدائم إلى الألغاز.

وتعلّـــق الإسكندر بأمه بعمق، وكان الرّابط بينهما مرعباً تقريباً، لأنـــه كـــان يحتفظ في الوقت ذاته بتقديرٍ لا حدود له لوالده. وتحوّل إعجابـــه هذا تدريجياً، ومع مرور الوقت، إلى رغبة تزداد قوة مع الزمن بمنافـــسته ومحاكاته. وجاء أخيراً اليوم الذي سبّبت فيه أخبار نجاحات فيلـــيب المتواتـــرة حزناً لدى الإسكندر بدلاً من أن تفرحه. فبدأ الفتى يفكّر في أنه إذا تمكن والده من قهر كل شيء، فلن يبقى لديه أي مكانٍ كي يبرهن من خلاله عن قيمته وشجاعته.

كـــان الإسكندر في تلك المرحلة أصغر من أن يدرك مدى اتساع العالم.

وحـــدث ذات مرة أن دخل الإسكندر غرفة صف ليونيداس مع رفاقه كي يبدأوا بتلقي دروسهم، فشاهد فتى تبدو عليه أمارات الحزن، يبلغ الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمره، وكان يتحرك مسرعاً من دون أن يتوقف ليتكلم.

فسأل الإسكندر معلمه ذات يوم: "من ذلك الفتى؟".

فأجاب ليونيداس قبل أن يغيّر الموضوع: "هذا ليس من شأنك".

6

كــان طموح فيليب الأكبر منذ أن أصبح ملكاً أن يفرض سيطرة مقدونيا على العالم اليوناني، لكنه كان يعلم جيداً أن تحقيق هذا الهدف يـتطلب الاستخدام المفرط للقوة. ولهذا السبب، عمل الملك على جعل بلاده قوة عسكرية حديثة، وعلى انتشالها من وضعها القبلي المؤلف من رعاة ومربـي ماشية.

عمل فيليب على تطوير الزراعة في السهول، وأحضر خبراء مهرة مـن الجزر اليونانية ومدن آسيا الصغرى، كما عمل على تعزيز أنشطة الـتعدين في جـبل بانجايـوس، حيث كان يُستخرج نحو ألف تالنت (مكيال كان يُستخدم قديماً) من الذهب والفضة سنوياً.

فرض فيليب سيطرته على قادة القبائل، وجعلهم يعتمدون عليه، سـواءً أكان ذلك عبر القوة أو عبر فرض التحالف معه. كوّن الرجل كذلك جيشاً من رجالٍ لم تقع الأعين على أمثالهم من قبل. تألف ذلك الجيش من قوات مشاة عظيمة التسلّح، ومن قوات مشاة خفيفة وسهلة الحركة، وكتائب عديدة من الفرسان الذين لا يخشون أي قوة في منطقة بحر إيجة.

لم يكـفِ كـل هذا كي يتم قبول فيليب بوصفه إغريقياً (يونانياً)، وهكذا تابع ديموستين، بالإضافة إلى عددٍ كبير من الخطباء ورجال السياسة في أثينا وكورينث، وميجارا، وسيكيون، تسمية الملك فيليب بالبربري.

اعتـبر الإغريق أن اللهجة المقدونية تدعو إلى الضحك، وهي التي تأثـرت كثيراً بلهجة شعوبٍ غير متحضرة كانت تسكن على حدود

مقدونـــيا الـــشمالية، وكانوا يسخرون كذلك من إفراط المقدونيين في الـــشراب، وفي تـــناول الطعام، وفي ممارسة الحميمية القصوى في أثناء مهرجاناهم، والتي سرعان ما كانت تتحول بانتظام إلى طقوس عربدة، واعتـــبر اليونانيون أن الدولة التي تُبنى على روابط الدم بدلاً من حقوق المواطنية، والتي يحكمها ملك بطريقة مطلقة، بحيث يكون فوق القانون، هي دولة تستحقّ أن تُعتبر بربرية.

وبالرغم من كل ذلك، تمكّن فيليب من تحقيق أهدافه عندما هزم الفوكـــيين Phocaeans في الحرب المبجلة وطردهم من مجلس المعبد، وهـــو أكثر المجالس نبالة وأرفعها منـــزلةً في كل بلاد اليونان. وحصل ملك مقدونيا بهذه الطريقة على صوتين من أصوات المندوبين، وحصل الملـــك كـــذلك على الشرف الكبير عندما عيّن رئيساً للألعاب البيثية Pythian Games، وهي أهم منافسات في البلاد بعد الألعاب الأولمبية.

تـــوَّجت هـــذه المكاسب المجيدة جهوداً متناسقة استمرت عشر سنوات، وتزامنت مع الذكرى العاشرة لميلاد ابنه الإسكندر.

ألقى إيسوقراط، وهو أحد أعظم الخطباء الأثينيين في تلك الحقبة، خطاباً مدح فيه فيليب بوصفه حامي اليونانيين، وبوصفه الرجل الوحيد الذي يؤمل أن يسحق البرابرة في الشرق، أي الفرس، والذين بقوا لفترة تزيد عن قرنٍ من الزمن يهددون الحضارة والحرية في البلاد الهلينية.

بقـــي الإسكندر على علمٍ بكل هذه الأحداث عبر معلميه، لكن هـــذه الأخبار أقلقته كثيراً. فلقد شعر الإسكندر أنه كُبر بما يكفي كي يلعب دوراً في تاريخ بلاده، لكنه أدرك جيداً أنه كان أصغر من يكون قادراً على التحرّك.

خصّص الوالد وقتاً متزايداً لإمضائه مع الأمير، وكأنه كان يعتبره رجـــلاً، لكنه أبعده عن مغامراته الخطرة. لم يكن هدف فيليب في واقع

الأمـــر السيطرة على شبه الجزيرة اليونانية، لأن ذلك كان مجرد وسيلة، بـــل وصلت طموحاته الحقيقية إلى أبعد من ذلك بكثير، إلى أبعد من البحـــر. وصلت هذه الطموحات إلى أراضٍ لا حدود لها تشكل قارة آسيا.

كـــان فيلـــيب في فترات استراحته التي يمضيها في القصر أحياناً يـــصطحب الإســـكندر إلى أعلى برجٍ، وذلك بعد الانتهاء من تناول الغداء، وكان يشير إليه نحو الأفق الشرقي، حيث كان القمر يرتفع في السماء فوق أمواج البحر.

"أتعرف ماذا يوجد هنالك؟".

كان الجواب يأتي سريعاً: "آسيا يا والدي، البلاد التي تشرق منها الشمس".

"وهل تعرف كم هي كبيرة آسيا؟".

"قـــال لي كراتيبوس، معلم الجغرافيا عندي، إنها أكبر من عشرة آلاف ستاديا stadia".

"إنه مخطئ يا ولدي، إن آسيا هي أكبر من ذلك بمئة مرة. التقيت محاربـــاً مـــن سكاثيا Scythian عندما كنت أحارب بالقرب من نهر إستر، وكان يتكلم اللغة المقدونية، أخبرني ذلك المحارب أنه وراء النهر يمـــتد سهل واسع بمثل اتساع البحر، ثم تتواجد جبال عالية بحيث تكاد تختـــرق الـــسماء بقممهـــا. شرح لي كذلك أنه توجد صحارٍ شديدة الاتـــساع بحـــيث يـــستغرق قطعها فترة عشرة أشهر، وقال لي إنه في الطـــرف المقابـــل تـــوجد جبال غنية بالأحجار الكريمة الثمينة، مثل اللازورد الأزرق، والياقوت، والعقيق.

أخـــبرني كـــذلك أن آلاف القطعـــان من الجياد الشرسة، لكن النـــشيطة، والتي تقدر على الجري لأيامٍ عدة عبر مساحات لامتناهية،

تتواجد في تلك السهول، كما قال لي: *هناك مناطق مكسوة بالثلوج والجليد، حيث يسود الظلام الدامس مدة نصف عام، وتوجد مناطق أخرى تشع فيها الشمس بحرارتها اللاهبة في كل الفصول، وهناك مناطق لا تنمو فيها الأعشاب على الإطلاق حيث تكون الأفاعي سامة، وحيث تكفي لدغة عقرب واحدة لقتل إنسانٍ على الفور*. هذه هي آسيا يا ولدي.

تطلع الإسكندر نحو والده، ورأى عينيه تفيضان بالأحلام، فأدرك طبيعة ما يتوهج في روحه.

مرّت فترة تزيد عن العام على تلك الليلة التي صعد فيها مع والده إلى البرج. وذات يوم، دخل فيليب فجأة إلى غرفة الإسكندر، وقال له: "أريدك أن ترتدي ذلك السروال من تراقيا، وضع عليك عباءةً صوفية خشنة، لا تضع أيّ إشارات أو زينة، سنغادر على الفور".

"وإلى أين سنذهب؟".

"رتبت أمر تحضير الجياد والطعام، سنغيب لبضعة أيام، لأنني أرغب في أن أريك شيئاً".

لم يطرح الإسكندر أيّ أسئلة إضافية، بل ارتدى الملابس التي أمره والده بارتدائها، تطلع لحظة من خلال الباب الذي يؤدي إلى جناح والدته كي يودّعها قبل رحيله، ثم أسرع بالنزول إلى الباحة حيث كان عدد قليل من فرسان الملك وجوادان بانتظاره.

كان فيليب ممتطياً جواده الخاص، وسرعان ما انطلقا إلى خارج القصر من خلال البوابة المفتوحة.

تابع فيليب والإسكندر المسير شرقاً لعدة أيام، سارا في البداية بمحاذاة الشاطئ، ثم غيّرا اتجاههما نحو الداخل، لكنهما ما لبثا أن عادا مجدداً ليسيرا بمحاذاة الشاطئ، مرّا عبر ثيرماي، وأبولونيا، وأمفيبوليس،

وكانا يمضيان الليالي في المشارب الريفية الصغيرة، ويتناولان الأطعمة المقدونية التقليدية، أي لحم الماعز المشوي، ولحوم الطرائد، والجبن الدسم المستخرج من حليب النعاج، والخبز المحضّر فوق الجمار.

سلكا بعد مغادرهما أمفيبوليس طريقاً وعراً شديد الانحدار إلى أن رأيا، على حين غرة، أراضي مقفرة تمتد أمامهما. جُرد الجبل من غطائه النباتي من الأشجار، وكانت جذوع الأشجار المقتطعة، وبقايا الأشجار المتفحمة، تنتشر في كل مكان، كما انتشرت في هذه الأرض الجرداء الحفر التي توزعت في أماكن كثيرة، ورأيا أمام هذه التجاويف التي تشبه الكهوف أكوام الأحجار الصغيرة، فبدت مثل التلال التي تبنيها جماعات النمل العملاق.

بدأ المطر يهطل من دون انقطاع، وسرعان ما وضع موكب الفرسان أغطية على رؤوسهم وحثوا الجياد على الإسراع في مسيرها. وما لبث أن تفرع طريق الجياد هذا إلى متاهة من الطرقات التي كان يسير فوقها عدد كبير من الرجال المجهَدين من ذوي البشرة الداكنة والمجعدة، وكانوا كلهم يحملون سلالاً ثقيلة مليئة بالأحجار الصغيرة.

شاهدا من بعيد عموداً من الدخان الأسود الكثيف يتصاعد نحو السماء بشكل لفائف متباطئة. نشر الدخان طبقة من السخام غطت المنطقة بأكملها، وهو الأمر الذي جعل من التنفس عمليةً صعبة.

أمر فيليب ابنه على حين غرة: "أريدك أن تغطي فمك بعباءتك".

انتشر صمت غريب في أنحاء المكان، ولم يُسمع صوت حركة بالرغم من العدد الكبير لتلك الأقدام، وكأن الأصوات قد أُخمدت بفعل الطبقة السميكة من الوحول التي نتجت عن الأمطار التي هطلت على طبقة الغبار.

تطلّـــع الإسكندر حوله بدهشة. كان هذا المنظر هو الصورة التي وضـــعها في خـــياله للجحـــيم، وجعله هذا المنظر يتذكر بعض أشعار هوميروس:

يقـــع هـــناك عـــالم الشتاء ومنطقته المختبئان وسط الضباب والغيوم. ولا تـــضيء أبـــداً عين هيليوس، سيد الشمس، عندما يصعد فضاءات النجوم على هؤلاء الرجال في الصباح، ولا عندما يهبط من السماء نحو الأرض، وسرعان ما يجثم الليل المدمر على هؤلاء البؤساء(*).

كُـــسر الصمت المخيّم على نحوٍ مفاجئ، كسره ضجيجٌ إيقاعي شديد، وكأن قبضة سيكلوب العملاقة تقرع بوحشية على منحدرات ذلـــك الجبل البائس، نخس الإسكندر جواده بقدميه لأنه أراد أن يتأكد من مصدر هذا الضجيج القوي، والذي بات الآن قوياً جداً إلى درجة أنه تسبب باهتزاز في الأرض.

وصـــلا إلى قمة صخرية، وسرعان ما رأى الإسكندر أمامه نهاية كـــل الطرقات الفرعية، كما رأى آلةً عملاقة، كانت نوعاً من أنواع الأبراج، ولكنّه برج قائم على دعائم وأعمدة خشبية، ويدعم هذا البرج بكـــرةً موضـــوعة في أعلى نقطة فوقه. رأى الإسكندر مطرقةً حديدية ضـــخمة مربوطة بحبلٍ من القنب، بينما كان الطرف الآخر من الحبل ملفوفاً حول رافعة يقوم بتشغيلها مئات الرجال التعساء، كانوا يدفعون الـــرافعة كـــي يجعلـــوا الحبل يدور حول بكرة، وهكذا ترتفع المطرقة الموجـــودة داخـــل البرج الخشبـــي. وعندما كانت المطرقة تصل إلى الأعلـــى كـــان أحد المراقبين يقوم بفكّ الفرامل، وهكذا تتحرر بكرة الـــرافعة – والتي تدور في الاتجاه المعاكس بسبب ثقل المطرقة – وتقع المطـــرقة عندها من دون أي عائقٍ يعترض طريقها، وتطحن الأحجار

(*) الأوذيسة، الكتاب الحادي عشر.

الـــتي يـــتم دفعها باستمرار داخل البرج من السلال التي يحملها العمال بأنفسهم من الجبل.

وبعـــد ذلك، كان الرجال يقومون بتجميع المواد الخام المطحونة، ثمّ يملأون بها سلالاً أخرى، ويحملونها متتبعين طرقات أخرى تؤدي إلى باحـــة مفتوحة، حيث يقوم العمال هناك بطحنها في أوانٍ معدنية كي تـــصبح أدق حجماً، ثم يقومون بغسلها بتيارٍ من المياه التي جُلبت عبر سلـــسلة من السدود والمنحدرات، وهكذا تُفصل حبيبات الذهب عن التراب في الأحجار المطحونة.

شـــرح فيلـــيب لابنه: "هذه هي مناجم جبل بانجايوس. تمكّنت بواسطة هذا الذهب من تسليح جيشنا، وبنيت بواسطته القصور، كما طوّرت قوة مقدونيا".

سأل الإسكندر والده، وقد بانت رنةٌ من الأسى في صوته: "لماذا أحـــضرتني إلى هذا المكان؟". وفي تلك اللحظة، انهار أحد العمال إلى الأرض، وكـــاد أن ينتهي به الأمر تحت حوافر جواد الإسكندر. تأكّد أحد المشرفين من موت الرجل، ثم أومأ إلى بائسَين آخرَين، فسارعا إلى وضع سلّتيهما أرضاً، ثم جرّا جثة الرجل إلى مكانٍ بعيد.

سأل الإسكندر مجدداً: "لماذا أتيتَ بـــي إلى هنا؟". لاحظ فيليب مدى القلق الذي يرتسم على محيا ابنه.

أجـــاب الوالد: "لم ترَ أسوأ ما في الأمر بعد، أتريد أن ننـــزل إلى عمق المنجم؟".

صرّح الصبـــي بحزم: "لست خائفاً من أي شيء".

"اتبعني إذاً".

تـــرجّل الملك، وتقدم نحو مدخل أحد الكهوف، فرفع المراقب ســـوطه ليمنعهما، لكنه توقف مصعوقاً عندما رأى النجمة الذهبية

التي تميّز سلالة الأركاديين Argeads والتي تلتمع على صدر فيليب.

اكتفى فيليب بالإيماء، فتراجع المراقب وأضاء مشعلاً، ثم تحضّر كي يكون دليلهما في عمق المنجم.

تبع الإسكندر والده. ولكنه ما إن دخل الكهف حتى شعر أنه يكاد يختنق نتيجة الرائحة غير المحتملة الصادرة عن بول الرجال، وعرقهم، وإفرازاهم. تعيّن عليهم الانحناء في بعض الأحيان، حتى أنّهم انحنوا حتى الأرض أحياناً خلال سيرهم في طريقٍ ضيق مليء بصدى الضجيج المتواصل الناتج عن سحق الأحجار، والأنفاس المخنوقة الراكدة، والسعال، وحشرجات الموت.

كان المراقب يتوقف بين حينٍ وآخر حيث كانت مجموعات من العمال تعمل بمعاولها من أجل استخراج الأحجار الخام. بين الفينة والفينة كان الثلاثة يتوقفون أمام طرف إحدى الحفر، حيث التمع فيها إلى أسفل المشعل ظهرٌ عظمي موصول بذراعين عظميتين.

رفع عمال المنجم الموجودون في أسفل الحفرة رؤوسهم لدى سماعهم وقع الأقدام، أو أصوات القادمين، وهكذا شاهد الإسكندر وجوه الرجال التي شوّهها التعب المتواصل، والمرض، ورعب عيش هذا النمط من الحياة.

أضِف إلى ذلك مشاهدهم إحدى الجثث في أسفل إحدى الحفر.

شرح المراقب الأمر: "يُقدم كثيرون منهم على الانتحار، فيقدمون على دفع أنفسهم فوق معاولهم، أو يطعنون أنفسهم بالأزاميل التي يستخدمونها".

التفت فيليب كي ينظر إلى الإسكندر. كان الأمير صامتاً ومرتعباً نتيجة ما يشاهده، كما خيّمت ظلمة الموت على عينيه.

خـــرجوا من الجهة المقابلة للجبل عبر ممرٍ ضيّق، فوجدوا جيادهم والموكب المرافق في انتظارهم.

حـــدّق الإســـكندر إلى أبيه، وظهر الشحوب على وجهه عندما سأله: "ماذا فعل هؤلاء الناس ليستحقوا كل هذا".

أجـــاب الملـــك: "لم يفعلـــوا شيئاً، عدا عن أنهم جاءوا إلى هذه الدنيا".

7

امتطى فيليب وابنه جواديهما، وعادا للسير على الطريق وسط المطر الذي ما لبث أن انهمر مجدداً، وسار الإسكندر إلى جانب والده بصمت.

"أردتك أن تعرف أن هناك ثمناً مقابل الحصول على أي شيء، أردتك أن تعرف كذلك نوع هذا الثمن الذي يُدفع. إن عظَمتنا، وفتوحاتنا، وقصورنا، والملابس الفاخرة التي نرتديها... تتطلّب كلها ثمناً يجب أن يُدفع".

"لكن، لماذا هؤلاء بالذات؟".

"لا شيء اسمه *لماذا وما السبب* في هذا المجال. إن القدر هو الذي يسيّر العالم، وعندما وُلد هؤلاء الرجال كان مقدراً عليهم أن يموتوا بتلك الطريقة، أي تماماً مثلما كُتبت علينا أقدارنا عندما ولدنا، لكن نتائج هذه الأقدار لن تظهر لنا حتى اللحظة المناسبة.

إن الإنسان وحده، ومن بين جميع الكائنات الحية، هو القادر على ملامسة مراكز الأسياد، وعلى الغرق إلى مستويات أدنى من الوحوش. سبق لك أن رأيت مراكز الأسياد، وعشتَ في قصر الملوك، لكنني شعرت أنه يجب عليك أن تعرف المصير الذي قد ينتظر أي إنسان. تضم صفوف التعساء الذين يعملون هناك رجالاً لربما كانوا من الزعماء أو من النبلاء في يومٍ من الأيام، والذين وضعتهم أقدارهم على نحوٍ مفاجئ في عالم التعاسة".

"لكن إذا كان ذلك هو القدر الذي ينتظر كل البشر فلماذا لا نكون رحماء طالما يبتسم الحظ لنا؟".

"هـذا ما أردت أن أسمعه منك، يجب عليك أن تكون رحيماً عندما تقدر على ذلك، لكن عليك أن تتذكر أنه ليس في مقدورنا أن نغيّر طبيعة الأمور".

رأى الإسكندر في تلك اللحظة فتاةً أصغر منه سناً بقليل تتقدم باتجاههما. كانت تحمل سلّتين ثقيلتين مليئتين بالفاصولياء العريضة والحمّص، ولعلها كانت تحملهما من أجل المشرفين على العمل.

ترجّل الأمير ووقف أمامها، كانت نحيفةً وعارية القدمين، أما شعرها فوسخٌ، لكنّ عينيها الكبيرتين والداكنتين كانتا مليئتين بالحزن.

سألها الأمير: "ما اسمك؟".

بقيت صامتة.

أما فيليب فقال: "لعلها لا تقدر على الكلام".

التفت الإسكندر إلى أبيه وقال: "أستطيع أنا تغيير قدَرِها، وأنا أريد تغييره".

أومأ فيليب وقال: "تستطيع أن تغيّره إذا أردتَ، لكن تذكّر أن أفعالك لن تغيّر العالم".

ساعد الإسكندر الفتاة على الصعود إلى صهوة جواده، ووضعها خلفه كما غطاها بعباءته.

كانت الشمس قد شارفت على المغيب عندما عادا إلى أمفيبوليس، وأمضيا الليل في منزل أحد أصدقاء الملك. أمر الإسكندر أن تُغسل الفتاة، وأن تُعطى ملابس تناسبها، ثم جلس يراقبها وهي تتناول الطعام.

حاول أن يكلمها، لكنها لم تُجب إلا بألفاظٍ وحيدة المقاطع، لذلك لم يفهم شيئاً مما قالته.

شــرح فيليب الأمر لابنه: "لا بد من أنها تتكلم لغةً بربرية، وإذا أردتَ أن تتكلم معها فعليك أن تنتظر حتى تتعلم اللغة المقدونية".

أجاب الإسكندر: "سأنتظر".

تحــسّن الطقس في اليوم التالي، فتابعا رحلة عودتهما، وعبرا جسر القــوارب مجــدداً كي يصلا إلى ستريمون. ولكن، عند وصولهما إلى بروميسكوس، اتجها جنوباً بمحاذاة شبه جزيرة جبل أثوس، وسارا طيلة النهار فوصلا عند غروب الشمس إلى مكان أمكنهما فيه رؤية خندق كــبير كــان قد حُفر عبر شبه الجزيرة من طرفٍ حتى طرفها. عندها، جــذب الإســكندر أعنة جواده الملكي، وجلس من دون حراك، أو كلام، وراح يتأمل هذا العمل الهائل.

سأله والده: "أترى هذه القناة؟ لقد حفرها Xerxes، ابن داريوس الأول، وهو إمبراطور بلاد فارس، منذ مئة وخمسين عاماً تقريباً، وذلك كي يسمح لأسطول سفنه بالمرور متجنباً خطر دحرجة الصخور فوقها مــن جــبل أثوس. عمل عشرة آلاف رجل ليلاً ونهاراً على حفر هذه القــناة. وعمــل الإمبراطور قبل حفره هذه القناة على إقامة جسرٍ من القوارب فوق البوسفور، وهكذا وحّد ما بين آسيا وأوروبا.

سنستقبل في غضون أيامٍ قليلة وفداً فارسياً، أردتك أن تأخذ فكرة عن قوة الإمبراطورية التي سنتفاوض معها".

أومــأ الإسكندر، وراح يحدّق إلى هذا الإنجاز العظيم، ظل يحدّق لــوقتٍ طويل من دون أن يتكلم، لكنه عندما رأى والده ينطلق مجدداً امتطى جواده وتبعه.

قــال الإسكندر وهو يسير بجواده إلى جانب والده فيليب: "هناك شيء أريد أن أسألك عنه".

"إنني أصغي".

"هناك صبي في بيلا يداوم على حضور دروس ليونيداس، لكنه لا يجلس معنا، التقيته في مناسبات قليلة ولاحظتُ أنه يتجنب التحدّث معي، وأنه يبدو حزيناً جداً في معظم الأوقات، وحتى إن الأمر يصل به إلى السوداوية. يرفض ليونيداس أن يقول لي من يكون، لكنني متأكد من أنك تعرف هويته".

أجاب فيليب من دون أن يلتفت: "إنه إمينتاس ابن عمك، إنه ابن شقيقي الذي مات وهو يحارب قبيلة إيليريا. كان ولياً للعهد قبل أن تولد أنت، وكنت أحكم مكانه بصفتي وصياً على العرش".

"أتعني أنه كان يجب أن يكون ملكاً بدلاً منك؟".

أجاب فيليب: "إن العرش يا ولدي هو ملك من يستطيع أن يدافع عنه، تذكّر ذلك. وتذكّر أيضاً أنّ كل من تسلّم الحكم قد قام بقتل كل من يدّعي حقّه فيه".

"لكنّك تركتَ إمينتاس يعيش".

"إنه ابن شقيقي، لكنه لا يشكل أي تهديد بالنسبة إليّ".

"أتعني أنك... كنت رحيماً".

"أجل، إذا شئتَ أن تقول ذلك".

"سيدي؟".

التفت فيليب عندها، لأنه يعرف أن الإسكندر لا يناديه بهذا اللقب إلا إذا كان غاضباً منه، أو إذا أراد أن يطرح سؤالاً في منتهى الخطورة.

"إذا قُدّر لك أن تموت في ميدان المعركة، فمن سيرث الحكم، إمينتاس أم أنا؟".

"الأجدر بينكما هو الذي سيرث".

لم يطرح الإسكندر أي سؤال جديد، لكنّ إجابة والده تركت عنده انطباعاً عميقاً، وتركت أثراً في طريقة تفكيره طيلة حياته.

وصلا إلى بيلا بعد مرور ثلاثة أيام، فطلب الإسكندر من آرتميس أن ترعى الفتاة التي أنقذها من الرعب الذي يحيط بجبل بانجايوس.

قال لها مؤكّداً بكبرياء طفولي: "ستكون في خدمتي من الآن فصاعداً، وستقومين بتعليمها كل شيء تحتاج إلى تعلّمه".

سألت آرتميس: "لكن، أليس لديها اسم على الأقل؟".

"لا أعرف اسمها، لكنّني سأطلق عليها اسم ليبتين".

"اسم جميل... ويناسب تماماً هذه الفتاة الصغيرة".

انتشرت في ذلك اليوم بالذات أخبار وفاة نيقوماخوس العجوز، فحزن الملك عليه كثيراً لأنه كان طبيباً بارعاً، وهو الذي أشرف على ولادة ابنه وقدومه إلى هذا العالم.

لم تُقفل عيادة نيقوماخوس لدى وفاته، وذلك بالرغم من أن ولده أرسطو فضّل اتخاذ منحى آخر في الحياة. إذ كان وقتها في آسيا، وفي مدينة آتارنيوس تحديداً، حيث أسّس مدرسة جديدة للفلسفة بعد موت معلمه أفلاطون.

تابع مساعد نيقوماخوس الشاب، ويدعى فيليب، العمل في العيادة، ومارس المهنة بمهارة وقدرة عظيمتين.

أما الشبان الصغار الذين عاشوا مع الإسكندر في جنبات القصر فقد كبروا قليلاً خلال ذلك الوقت، سواء أكان ذلك في أجسادهم وفي شخصياتهم أو في ميولهم التي أظهروها عندما كانوا أطفالاً، وهي الميول التي تعزّزت كثيراً. إن رفاق الإسكندر الذين كانوا يقاربونه سناً من أمثال هيفاستيون، والذي أصبح الآن صديقه الحميم، وبيرديكاس، وسلوقس، قد أصبحوا مقربين منه جداً بحيث شكّلوا فريقاً متجانساً في اللعب وفي الدراسة على حدٍّ سواء، كما تكيّف كل من لايسيماخوس

وليوناتوس، مع مرور الوقت، على الحياة العامة وتمكّنا من إيجاد متنفسٍ لطاقاتهما في الألعاب التي تتطلب مجهوداً ومهارة جسدية.

كان ليوناتوس، بشكلٍ خاص، ماهراً في المصارعة، لذلك لم يكن مـــرتباً في هـــندامه، وكانت الجروح والخدوش تملأ وجهه، أما الرفاق الأكـــبر سناً، مثل بطليموس وكراتيروس، فقد أصبحا شابين في ذلك الوقت وبدأا يتلقيان تدريبات عسكرية قاسية مع فرقة الفرسان.

انـــضم أحـــد اليونانـــيين الذي يحمل اسم إيومينيس إلى مجموعة الأصدقاء هذه، وعمل هذا الرجل بصفته مساعداً في مجموعة مستشاري الملك، وكان محترماً جداً بفضل ذكائه وحكمته. أراد فيليب أن يتلقى الرجل التعليم ذاته مثل بقية الشبان. وهكذا وجد ليونيداس مكاناً له في المكـــان المخـــصص لسكن التلامذة. وبدأ ليوناتوس، وعلى الفور، في تحـــدي القادم الجديد، ودعاه إلى مبارزته في المصارعة. فنـــزع سترته القـــصيرة، وبدأ يتبختر عاري الصدر، ثم قال له: "إذا أردت أن تكون جديراً بمكانك هنا، فسيتعيّن عليك أن تقاتل من أجله".

لم يحاول إيومينيس حتى مجرد النظر نحوه، لكنه قال له: "هل أنت مجـــنون؟ أنا لا أحلم في ذلك أبداً". وبدأ بعد ذلك بترتيب ملابسه في الخزانة الموضوعة عند طرف سريره.

بدأ لايسيماخوس بالسخرية منه، وقال له: "سبق لي أن قلت لكم إن هـــذا الـــيوناني صـــغير وتافـــه". فبدأ الجميع بالضحك بمن فيهم الإسكندر.

دفـــع لـــيوناتوس الشاب الجديد، فوقع على الأرض متدحرجاً. "والآن، ما رأيك؟ هل أنت مستعد للمصارعة أم لا؟".

نهـــض إيومينيس وهو يستشيط غضباً، وراح يسوّي ملابسه، ثم قـــال: "مهلاً لحظة، سأعود على الفور". توجه نحو الباب وسط دهشة

الحاضرين، وما إن أصبح خارجاً حتى اقترب من أحد الجنود الذي كان في نوبة حراسته على الشرفة العليا من القصر، كان الجندي متين البنية، ومن منطقة تراقيا. تناول إيومينيس بعض النقود ووضعها في يد الجندي، ثم قال له: "تعالَ معي، فلدي مهمة في انتظارك". دخل غرفة سكن التلامذة، وأشار إلى ليوناتوس قائلاً: "أترى ذلك الشاب هناك الذي يعلو النمش وجهه، ذا الشعر الأحمر؟" أومأ الجندي العملاق. "حسناً، أمسِكه وأشبِعه ضرباً".

أدرك ليوناتوس على الفور أنه وقع في ورطة، وأن الظروف ضده، فما كان منه إلا أن اندفع من خلال رجلَي ذلك الجندي التراقي بالطريقة ذاتها التي لا بد وأن يوليسيس قد استخدمها من أجل دفع سيكلوب بوليفيموس كي يتدحرج على الدرج.

عاد إيومينيس إلى ترتيب أغراضه الشخصية، وسأل الحاضرين: "أيريد أحدكم أن يقول شيئاً؟".

قال الإسكندر: "أجل، أريد أن أقول شيئاً". توقف إيومينيس وتطلع نحوه، ثم قال بصوتٍ ينضح بالاحترام: "سأصغي إليك لأنك السيد هنا، لكن لا يحق لأيّ واحدٍ من هؤلاء السخفاء أن يناديني *بتافه صغير*".

انفجر الإسكندر بالضحك مجدداً: "أهلاً بك إلى مجموعتنا أيها السيد الأمين العام".

انضم إيومينيس منذ تلك اللحظة إلى المجموعة بشكلٍ فعلي، وأصبح البارز بين أفرادها في إطلاق كل أنواع النكات والمقالب على كل الأشخاص الموجودين في القصر. لكنّ معظم نكاته كانت موجهة ضدّ معلّمهم ليونيداس العجوز، وهو الذي تحمل عبء كل تلك المقالب التي اشتملت على وضع سحالٍ في سريره، وضفادع حية في

طبقه الذي يحتوي على حساء العدس مثلاً. جاءت كل هذه التصرفات انـــتقاماً مـــن إفراط المعلم في استخدام عصاه عندما يقصّر تلامذته في دروسهم.

وذات مـــساء، أعلـــن ليونيداس بفخرٍ، وكان لا يزال على رأس المدرســـة، أن ملكهـــم سيستقبل في اليوم التالي الوفد الفارسي، وأنه سيـــشارك شخـــصياً في المحادثـــات الدبلوماسية بسبب معرفته بآسيا، وعادات الشعوب التي تسكنها، أخبرهم كذلك أن الشاب الأكبر سناً بيـــنهم سيخدم في حرس الشرف الملكي، وسيرتدي ثياباً مدرعة، بينما سيقوم الأصغر سناً بينهم بمهمات مشابهة إلى جانب الأمير الإسكندر.

أحـــدثت هـــذه الأنباء ضجة كبيرة بين تلامذة ليونيداس، لأن أيـــاً منهم لم يسبق له أن شاهد رجلاً فارسياً من قبل، كما أن كل ما كانوا يعرفونه عن آسيا جاء من خلال قراءاتهم لكتابات هيرودوتس أو ستيـــسياس، أو يومـــيات زيـــنون الأثيني الشهيرة باسم *Anabasis*، والمعـــروفة كذلك باسم **مسيرة العشرة آلاف**. وسرعان ما بدأ الجميع بتلميع أسلحتهم، وتحضير ملابسهم التي تتوافق مع المناسبة.

قال هيفاستيون: "تحدّث والدي مع رجل شارك في مسيرة العشرة آلاف، وكـــان رجـــلاً شاهد الجيوش الفارسية وهي تحتشد قبالته في معركة كوناكسا".

شـــارك سلوقس في الحديث وقال: "أتستطيعون أن تتخيلوا أيها الـــشبان مليون رجل". وضع يديه مقابل وجهه وفتحهما مثل المراوح، وكأنه يحاكي ذلك التقدم الضخم للمحاربين.

صـــاح لايـــسيماخوس: "ومـــاذا بشأن العربات ذات الأسنان القاطعة؟ إنها تطير مثل الرياح التي تقطع الحقول وهي مزودة بقواطع حـــادة تبرز من أسفل العربات ومن وسط محاورها، حاصدة الرجال

مـــثل حـــصادها القمح. لا أريد أن أجد نفسي ضحية لها في ميدان المعركة".

كـــان الإســـكندر صـــامتاً في تلك الأثناء يصغي إلى تعليقات أصدقائه. ولكنّه قال: "إنها كلها خدعٌ تثير من الضجيج أكثر ممّا تسببه من أضرار حقيقية. أورد زينون ذلك في مذكراته، ستتمكن، على كل حـــال، من معرفة كيفية استخدام الفرس لأسلحتهم، لأن والدي الملك نظّم مطاردة أسود في إيورديا على شرف ضيوفنا".

ضحك بطليموس وقال: "وهل سيُسمح للصغار بالذهاب؟".

وقـــف الإســـكندر أمام زميله الأكبر سناً، وقال: "بلغتُ الثالثة عشرة من عمري، وأنا لا أخاف شيئاً، أو أي شخص، جرّب أن تقول ذلك مرة أخرى، وسأتكفل بإسقاط أسنانك عبر حنجرتك".

عـــضّ بطليموس على شفته بينما توقف الآخرون عن الضحك، لأنهـــم تعلموا جميعاً عدم إثارة الإسكندر، حتى ولو أنه لم يكن قوياً بما يكفي من الناحية الجسدية. علماً أنّه أظهر طاقاتٍ مدهشة في أكثر من مناسبةٍ، بالإضافة إلى تحرّكه بسرعة كبيرة.

تـــدخل إيومينـــيس هنا مقترحاً أن يشارك الجميع في لعبة نردٍ على مصروفهم الأسبوعي، وهكذا كانت نهاية جدالهم. انتهى معظم المـــال في جيوب إيومينيس، لأنه كان يحب المقامرة والذهب من كل قلبه.

بـــردت أعـــصاب الإسكندر قليلاً، فترك رفاقه يكملون ألعابهم، وتوجه لزيارة والدته قبل ذهابه إلى النوم. عاشت أوليمبيا في تلك الفترة حـــياة منعزلة، بالرغم من احتفاظها بقدرٍ من النفوذ في البلاط بوصفها والدة ولي العهد، وكادت لقاءاتها مع فيليب تقتصر على المناسبات التي يقتضيها البروتوكول.

تــزوج الملك في تلك الفترة من نساء أخريات لأسباب سياسية، لكــنه احــتفظ باحترامٍ خاص تجاه أوليمبيا، كما أنه كان يظهر لها أن الشوق، الذي كان يكنّه تجاهها في الماضي، لم يتبدّد كلياً لو أنها كانت أقل شراسة وصعوبة.

كانــت الملكة جالسة على مقعد ذي ظهرٍ عالٍ ومسندين قرب مشعل ذي ألسنة لهب خمسة. فتحت الملكة لفافة بردى وبسطتها فوق ركبتيها، وكانت الغرفة مظلمة كلياً خارج دائرة الضوء.

دخــل الإسكندر بسرعةٍ وهدوء، وخاطبها قائلاً: "ماذا تقرأين يا أماه؟".

رفعــت أوليمبــيا رأســها وأجابت: "سابفو. إن شِعرها رائع، ومشاعر الوحدة التي تتحدث عنها قريبة جداً من مشاعري...".

وقفت، ثم مشت نحو النافذة، ونظرت خارجها، إلى السماء المزينة بالنجوم، وراحت تتلو الأشعار التي قرأتها لتوها، وكان صوتها متذبذباً وحزيناً:

"انتصف الليل في مسيرته
وطلع القمر ونجوم الثريا
وأنا مستلقية في سريري... وحيدة"(*).

تحرّك الإسكندر نحو والدته، فرأى تحت ضوء القمر دمعةً ترتعش للحظــة بين رموشها قبل أن تنساب ببطء تاركةً في انسيابها أثراً على خدّها الشاحب.

(*) سابفو، مقتطفات، ص 168.

8

أمـــر المـــسؤول عـــن المراسم بنفخ الأبواق، فتقدّم وجهاء الوفد الفارسي بمهابة داخل قاعة العرش. كان مرزبان فريجيا [آسيا الصغرى] Phrygia، آرســـاميس، علـــى رأس ذلـــك الوفد الذي ضمّ الحاكم العـــسكري لـــتلك المقاطعة، بالإضافة إلى وجهاء آخرين ساروا خلفه بخطوات.

أحـــاط بهـــذا الوفد حرسٌ مؤلفٌ من اثني عشر عنصراً من فرقة **الـــرجال شـــديدي البأس**، وهم جنود الحرس الإمبراطوري، وقد تمّ اختيارهم بناءً على بنيتهم الجسدية الفائقة القوّة، وقدرتهم العجيبة على التحمل، وعلى رفعة أنسابهم.

اعتمـــر المـــرزبان تاجـــاً ناعماً، وهو أرفع غطاء رأس بعد التاج الـــصلب الـــذي كان مخصصاً للإمبراطور فقط. أما الرداء الذي لبسه فكـــان منـــسوجاً من خيوط حريرية خضراء، ومزخرفاً برسوم التنانين الفـــضية، كمـــا ارتدى تحت ذلك الرداء سروالاً مزخرفاً، بينما انتعل حذاءً مصنوعاً من جلد ظبـــي. أما وجهاء الوفد الآخرون فقد ارتدوا ملابس مزخرفة، وعباءات جميلة.

لكنّ أكثر ما جذب انتباه الناظرين كان رجال فرقة **الرجال شديدي الـــبأس** التابعين للملك العظيم. إذ بلغ طول الواحد منهم نحو ست أقدام، وكانـــوا ذوي بشرة داكنة، وذوي لحى سوداء ذات خصلات، أما شعر رؤوســـهم فكان ممشطاً وملفوفاً. ارتدى هؤلاء أرديةً مصنوعة من أقمشة حريـــرية مذهّـــبة تـــصل إلى كواحلهم، فوق سترات زرقاء منسوجة من

خيوط حريرية، وسراويل باللون ذاته موشاة برسوم نخلٍ مذهّبة. حملت هذه المجموعة فوق أكتافها أقواسها المزدوجة والمميتة، وحافظات الأسهم المصنوعة من خشب الأرز، والمرصعة بالعاج والفضة.

تقدم الوفد بخطوات بطيئة وإيقاعية، وجعلوا رماحهم، التي تنتهي بكرات مذهبة ومصنوعة على شكل رمانات، تلامس الأرض. وعلّق كل واحد من هؤلاء **الرجال شديدي البأس** عند وركه أجمل سلاح صنعه صانع أسلحة في العالم المعروف، وهو *الأكيناكي* المذهل، أي الخنجر المصنوع من الذهب الخالص والموضوع في غمد مزين بأنماط من رسوم طائر العنقاء الذي يمتلك عينين من الياقوت. أما الغمد ذاته فمصنوعٌ من أنقى أنواع الذهب، ويتدلى من مفصلٍ متحرك معلق بحزام كل من **الرجال شديدي البأس**. يعني ذلك تأرجح السلاح من دون عائق مع كل خطوة يخطوها أحد **الرجال شديدي البأس**، كما أن لمعان تلك المعادن الثمينة قد أضاف المزيد من الإيقاع إلى هيبة حركات هؤلاء المحاربين.

أما فيليب الذي كان ينتظر عرضاً بمثل هذه الفخامة فقد حضّر استقبالاً لائقاً. كانت كل جهة من جهات القاعة تضمّ صفين من الجنود ذوي البنية المتينة، فيما يضم كل صف ستة وثلاثين جندياً من نخبة مشاة الصفوف الأمامية. قدّم هؤلاء الجنود الذين تغطيهم دروعهم البرونزية دروعهم المزركشة بالنجوم الفضية، التي كانت شعار الأركاديين، كما أمسكوا بحرابهم التي يبلغ طول الواحدة منها اثنتي عشرة قدماً والتي صُنعت مقابضها من خشب القرانيا المدماة. كانت رؤوس الحراب لامعة مثل المرايا، وكادت تلامس السقف.

كان الإسكندر يرتدي أول بذلة مدرعة له، وهي بذلة صمّمها شخصياً لأحد الحرفيين كي يصنعها له. أحاط بالإسكندر حرسه الشخصي، وكان واقفاً قرب والده فوق منصة. أما من الجهة الأخرى

فقــد جلــست شقيقته كليوباترا بجمالها الأخاذ قرب الملكة أوليمبيا. ارتـــدت كليوباتـــرا رداءً مـــصنوعاً في أتيكي، وهو الرداء الذي أبقى ذراعيها وكتفيها مكشوفة، وكانت طياته الأنيقة تحيط بصدرها الفتي، كما انتعلت حذاء مصنوعاً من شرائط فضية.

انحـــنى آرساميس، عند وصوله إلى العرش، أمام الملك والملكة قبل أن يتنحى جانباً كي يسمح للوفد بالتقدم مع الهدايا التي يحملونها، والتي كانت عبارةً عن حزامٍ للملكة محبوكٍ بالذهب ومرصعٍ بالزمرد وأحجار كعـــيني النمر، أما الملك فكان نصيبه درعاً مرصعاً للصدر مصنوعاً من بيوت السلاحف.

أمـــر فيلـــيب مديـــر المراســـم أن يتقدم بهداياه إلى الإمبراطور والإمبراطورة، والتي ضمّت خوذةً مذهبة من سيثيا، وعقداً من المرجان والفضة مصنوعاً في قبرص.

دُعـــي الـــضيوف بعد انتهاء هذه المراسم إلى غرفة مجاورة حيث جلسوا على أرائك مريحة، وذلك من أجل مناقشة الاتفاقية التي كانت موضـــوعة على جدول أعمال ذلك اليوم. سُمح للإسكندر بالحضور لأن فيلـــيب أراده أن يبدأ بأخذ فكرة عن المسؤوليات التي يضطلع بها رجل الحكومة، وكيفية إدارة العلاقات مع الحكومات الخارجية.

تطـــرقت المفاوضـــات إلى موضوع شبه الحماية التي أراد فيليب فرضـــها علـــى المدن اليونانية في آسيا، وذلك مع استمرارية الاعتراف بالـــسيادة الفارسية على المنطقة. أما الفرس فقد أعربوا عن قلقهم تجاه تقـــدم فيليب نحو المضائق، وهي المنافذ المحورية بين قارتين ومنافذ التقاء ثلاث مناطق عظيمة: آسيا الصغرى، وآسيا، وأوروبا.

حاول فيليب عرض موقفه من دون التسبب بقلقٍ كبير بين أعضاء الـــوفد: "ليـــست لديّ أي مصلحة في زعزعة السلم في المناطق المحيطة

بالمضائق. إن هدفي الوحيد هو تثبيت السيطرة المقدونية في المناطق الممتدة ما بين خليج الأدرياتيك والساحل الغربي للبحر الأسود، وهو الأمر الذي لا بد وأن يجلب الاستقرار إلى البوسفور بوابة التنقل والتجارة، وهما الأمران اللذان يمثلان حاجةً حيوية لنا جميعاً".

منح فيليب المترجم بعض الوقت، ثم راقب الملامح التي ارتسمت على وجوه الضيوف خلال تحوّل كلماته واحدةً تلو الأخرى من اليونانية إلى الفارسية.

لم يُظهر آرساميس أي رد فعل ينم عن مشاعره، لكنه التفت إلى فيليب، وتطلع في عينيه مباشرة وكأنهما كانا يتكلمان لغةً واحدة، ثم قال: "إن المشكلة التي يود الملك العظيم أن يحلها هي علاقتكم مع السكان اليونانيين في آسيا، ومع ممالك يونانية تتواجد على الشواطئ الشرقية لبحر إيجة. كنا نفضّل على الدوام استقلال هؤلاء السكان، كما رغبنا دائماً بأن يحكم اليونانيون المدن اليونانية... إنهم أصدقاؤنا كما تعلمون، إننا نرى أن استقلالاً كهذا هو حلٌ سليم، يحترم هذا الحل تقاليدهم ويحفظ كرامتهم من ناحية، ويحفظ مصالحهم ومصالحنا من ناحية أخرى". توقف قليلاً كي يسمح للمترجم بإنهاء كلامه، ثم تابع بالقول: "إننا نتعامل مع مشكلة حدود كانت على الدوام مصدراً للاحتكاك والصراع المرير، أو حتى للحرب على نطاقٍ واسع".

بدأ النقاش في ملامسة نقاط صعبة أخرى. أراد فيليب أن يرطّب الأجواء قليلاً، فأومأ إلى مدير المراسم، وسرعان ما دخل بعض الشبان الوسيمين جداً والشابات الفاتنات، والذين لم يرتدوا جميعاً سوى قدرٍ قليل من الملابس. تقدّم هؤلاء ليقدموا الحلويات والشراب القوي مع قطع ثلجٍ من جبل بيرميون كانت قد حُفظت في جرارٍ موجودة في المستودع الملكي، أما الأكواب الفضية فكانت مغطاة بطبقة رقيقة من

الثلج، مما أضفى نوعاً من اللمعان المعتم إلى هذه الأكواب المعدنية، وأعطى إحساساً بالبرودة المنعشة يروق للعين قبل اليد. سمح الملك لضيوفه الأجانب أن ينتقوا ما طاب لهم من شراب وحلوى قبل أن ينتقي حصته مما تبقى.

"أعرف تماماً ما تقصده يا ضيفي المبجّل، إنني أدرك أنه وقعت في الماضي عدة حروب بين اليونانيين والفرس، لكنها لم توصلنا إلى أي حلٍ محدد، أحب أنْ أذكّرك أن بلدي وأسلافي، وملوكنا، قد عملوا دائماً بوصفهم وسطاء، ولذلك أرجوك أن تُبلغ الملك العظيم أن صداقتنا مع المدن اليونانية في آسيا هي نتيجة وعينا لأصولنا المشتركة، ولديننا المشترك، وكذلك للروابط العائلية القديمة وواجبات الضيافة...".

أصغى آرساميس من دون أن يُظهر أي انفعالات وكان وجهه يشبه وجه أبي الهول، وقد أحاط الكحل بعينيه وأعطاه مظهراً غريباً من السكون، راقب الإسكندر من مركزه العالي والده وضيفه وكلّ منهما يحاول فهم ما يخبئه الآخر وراء ستار الكلمات المعسولة.

صمت فيليب لبرهة قصيرة، ثم قال: "أنا لا أنكر أننا مهتمون كثيراً بالتبادل التجاري مع هذه المدن، كما أن لدينا اهتماماً أكبر بخبراتهم الهائلة في كل ميادين المعرفة. إننا نريد أن نتعلم كيف نبني، وكيف نُبحر، وكيف نسيطر على مجاري مياهنا في أراضينا...".

تكلم رئيس الوفد الفارسي، لغرابة الأمر، قبل أن يُنهي المترجم كلامه: "وماذا تعرضون علينا في المقابل؟".

تمكّن فيليب من إخفاء دهشته ببراعة، فأجاب بكل هدوء: "الصداقة، والهدايا، والمنتجات التي لا يستطيع غير المقدونيين توفيرها، مثل أخشاب غاباتنا، والجياد القوية، والعبيد الأقوياء من السهول

المحاذيـــة لنهـــر إســـتر. أريد، وببساطة، أن ينظر كل اليونانيين الذين يعيـــشون حول بحرنا إلى ملك مقدونيا على أنه صديقهم الطبيعي، لا أريد أكثر من هذا".

بدا الفرس سعداء بما قاله الملك. فلقد أدركوا، على كل حال، أنه حـــتى ولـــو كان يكذب عليهم، فإن الواقع يقول إنه عاجز في الوقت الحاضر عن البدء في مشاريع عدوانية، وهو كل ما يهم في الوقت الراهن.

اقترب الإسكندر من أبيه ما إن غادر الوفد الغرفة ليتوجه إلى قاعة المآدب، ثم همس له في أذنه: "ما نسبة الصدق في ما أخبرهم إياه".

خرج فيليب إلى الرواق بعد أن أجاب ابنه: "لا شيء تقريباً".

"وهو الأمر الذي يعني أنهم بدورهم...".

"لم يقولوا لي أي شيء يحمل قيمة حقيقية".

"إذاً، ما فائدة هذه الاجتماعات؟".

"إننا نجسّ نبض بعضنا بعضاً".

سأل الإسكندر: "تجسّون نبض بعضكم بعضاً؟".

"بالضبط، إن السياسي الحقيقي لا يحتاج إلى الكلمات، لأنه يضع ثقـــةً أكبر في حدسه. إنني أسألك، على سبيل المثال، من تظنه يفضّل: الفتيات أم الفتيان؟".

"من تقصد؟".

"أتحدث عن ضيفنا، بالطبع".

"حسناً... في الواقع، لا أعرف".

"إنـــه يحب الفتيان، لكنه أعطانا انطباعاً أنه يراقب الفتيات، كان يـــراقب، بطـــرف عينيه، ذلك الفتى الأشقر الذي كان يقدم الشراب المـــثلج، سأبلغ مدير المراسم أن يتأكد من القيام بما هو لازم. جاء الفتى مـــن بثنـــيا، وهو يتكلم الفارسية، يُحتمل أن نتمكن بهذه الطريقة من

معـــرفة أفكار ضيفنا الحقيقية، يمكنك أن تكون دليلاً لضيوفنا، وتريهم القصر وما حوله".

أومـــأ الإســـكندر بالموافقة، وعندما حان الوقت قام بمهمته بكل طيـــبة خاطر، سبق للإسكندر أن قرأ الكثير عن الإمبراطورية الفارسية، وهو يحفظ كتاب **تعليم سيروس** الذي ألّفه زينون الأثيني عن ظهر قلب تقـــريباً. سبق له أن قرأ كذلك كتاب **بيريسكا** الذي ألّفه ستيسياس، وهـــو كتاب تاريخي مليء بالمبالغات الخيالية، لكنه مشوّق، بالرغم من ذلك، بسبب الملاحظات التي سجّلها عن عادات الناس وطبيعة بلادهم. كانـــت تلك أول مناسبة على الإطلاق أتاحت للإسكندر فرصة تبادل الحديث مع الفرس شخصياً.

رافقه مترجم في أثناء تعريف الضيوف إلى القصر، وأجنحة النبلاء الـــصغار، وهناك سجّل ملاحظة ذهنية كي يتأكد من توجيه تأنيب إلى لايسيماخوس بسبب تركه سريره في حالة غير مرتبة بالطريقة اللائقة. شرح الإسكندر للوفد أن أبناء الأرستقراطيين المقدونيين كانوا يتعلمون معه في البلاط.

علّـــق آرساميس قائلاً إن هذا الإجراء ذاته متبعٌ في سوسا عاصمة بلادهـــم، وبهذه الطريقة لا يأمن الملك ولاء زعماء القبائل فقط، لكنه يربـــي جيلاً كاملاً من النبلاء المتعلقين بالعرش.

عرّفهم الإسكندر على إسطبلات المسؤولين، وهم الأرستقراطيون الذين يخدمون في سلاح الفرسان، والذين يستحقون لقب *رفاق الملك*، وراقب مع الوفد تدريب بعض الجياد الممتازة الآتية من تساليا.

علّق أحد وجهاء الوفد الفارسي بالقول: "إنها حيوانات عظيمة".

سأل الإسكندر بشيء من الصراحة: "هل تمتلكون جياداً جميلة كهذه؟".

ابتسم ذلك الوجيه وقال: "ألم تسمع أبداً، أيها الأمير، بجياد نيسيا؟".

شعر الإسكندر بالحرج، وهزّ رأسه بالنفي.

"إنهـــا حيوانات قوية ذات جمالٍ رائع، والتي لا يُسمح لها بالرعي إلا في مرتفعات ميديا، وهناك ينمو العشب الغني جداً بالسمات الغذائية التي تدعى *مديكا*. إن أزهار الأعشاب ذات اللون الأرجواني هي أغنى أجزاء النبتة، كما أن جواد الإمبراطور يرعى أزهار *المديكا* فقط، والتي يجمعها عمال الإسطبل زهرةً زهرة، وتقدم طازجةً في الربيع والصيف، لكنها تقدّم مجفّفة خلال فصلَي الخريف والشتاء".

ذُهـــل الإسكندر من هذه الرواية، وحاول أن يتخيّل شكل ذلك الجواد الذي يتغذى على الأزهار.

تـــوجه الـــوفد بعد ذلك لزيارة الحدائق التي زرعت فيها الملكة أوليمبيا كل أنواع ورود بيريا المعروفة، والتي كانت تفوح منها في ذلك الوقت من السنة رائحة عطرية قوية.

قال الإسكندر: "يحضّر المشرفون على الحدائق عندنا أنواع النقيع، والمـــستخرجات النباتية، لسيدات البلاط من هذه الورود، لكنني قرأت عـــن حدائقكم، والتي نطلق عليها نحن اليونانيين اسم جنّات، هل هي حقاً جميلة إلى هذا الحد؟".

"جاء أسلافنا من الجبال والمنحدرات التي تقع في المناطق الشمالية القاحلة، لذلك كانت الحدائق أحلاماً بالنسبة إلينا، إننا نطلق على هذه الحدائق في لغتنا اسم جنّات وهي أماكن مسوّرة محاطة بجدران سميكة، وتقطعهـــا أنظمـــة أقنية ري متطورة، وهي التي تُبقي المروج العشبية خضراء طوال أيام السنة. تقوم عائلات النبلاء بزرع كل أنواع النباتات المحلـــية والغـــريبة، كمـــا يملأونهـــا بحيوانات جميلة يأتون بها من أنحاء الإمـــبراطورية كافـــة: الـــدرّاج، والطاووس، والببغاء، وحتى النمور،

والنمور البيضاء، والنمور السوداء. إننا نسعى جاهدين كي نعيد إنشاء عالم آهورا مازدا، تمجّد اسمه، لأول مرة".

اصطحب الإسكندر الوفد بعد ذلك في عربة مقفلة كي يروا العاصمة وأنصابها، ومعابدها، وأروقتها ذات الأعمدة، وساحاتها.

قال شارحاً: "لدينا عاصمة أخرى، وهي إيجية التي تقع على أسفل سفوح جبل بيرميون، وهي المدينة التي انحدرت منها عائلتي، بالإضافة إلى أن ملوكنا مدفونون هناك. هل صحيح أن لديكم، بدوركم، أكثر من عاصمة واحدة؟".

أجاب آرساميس: "أجل أيها الأمير الشاب، لدينا أربع عواصم. وتعادل مدينة باسارجاداي مدينة إيجية عندكم، ولقد كانت مركز ملوكنا الأوائل. أما عند الهضبة التي تعصف فيها الرياح فيقع مدفن سيروس العظيم مؤسّس السلالة. وتأتي بعد ذلك إسباتانا في عيلام، وهي العاصمة الصيفية، وتقع في جبال زاغروس، ويكسوها الثلج معظم أيام السنة. إن جدران القلعة هناك مغطاة ببلاط مصنوعٍ من ألواحٍ ذهبية، وهكذا عندما تقع عليها أشعة الشمس، فإنّ المبنى بكامله يلتمع مثل جوهرة وسط خلفيةٍ من الثلج. إنه منظر مؤثر بالفعل أيها الأمير. أما العاصمة الثالثة فهي سوساً، حيث يسكن الملك العظيم خلال فصل الشتاء، أما المدينة الرابعة فهي برسيبوليس العظيمة، والتي شُيّدت في مكانٍ عالٍ، وعُطِّرت بعطور الأرز والبخور، وهي تربض فوق غابة من الأعمدةً ذات الألوان الأرجوانية والذهبية. إن الكنز الملكي محفوظ هناك، وهو الكنز الذي لا تحيط بعظمته الكلمات، آمل أن تقوم بزيارته في يومٍ من الأيام".

أصغى الإسكندر مأخوذاً بما سمع، وكاد يرى بمخيلته تلك المدن الرائعة، وحدائق الأحلام تلك، وكنز القرون الغابرة، وتلك الأراضي

التي لا حدود لها. وعندما رجع الضيوف إلى القصر طلب منهم الجلوس فوق مقاعد حجرية، وأمر بإحضار أكواب من العسل المذاب بالماء، فسألهم الإسكندر وهم يشربون: "أخبروني، ما مدى اتساع إمبراطورية الملك العظيم".

أضاءت عينا المرزبان وامتلأ صوته بالمشاعر، وراح يقول مثل شاعر يتغنى بجمال البلاد التي ولد فيها: "تمتد إمبراطورية الملك العظيم شمالاً إلى النقطة التي يعجز عن العيش فيها أي إنسان بسبب البرد، وتمتد جنوباً إلى حيث لا يستطيع أي إنسان العيش فيها بسبب الحرارة. إنه يحكم ما يزيد عن مئة شعب، بدءاً من ذوي البشرة السوداء والشعر الأجعد، والذين يرتدون جلود الفهود، إلى ذوي البشرة السوداء والشعر الأملس والذين يرتدون جلود النمور.

تتواجد ضمن حدود الإمبراطورية صحارٍ لا يجرؤ أحدٌ على عبورها، وجبال لم تجسر أيّ أقدام بشرية على تسلقها، وهي عالية إلى حدّ أن قممها تكاد تلامس القمر. إن أكبر أنهار الأرض الأربعة، والتي تقدسها الأسياد والبشر، تمر من خلال أراضي الإمبراطورية، وهي النيل، ودجلة، والفرات، والسند هذا بالإضافة إلى آلاف غيرها مثل الأراكس الوحشي، وهي التي تصب كلها في بحر الخزر[1]، وهو بحر غامض لا تزال حدوده غير معروفة حتى الآن، وهو من الاتساع بحيث يعكس خُمْسَ السماء... كما يوجد طريق من مدينة سرديس يعبر أراضي نصف مقاطعات الإمبراطورية، بحيث يصل إلى العاصمة سوسا، وهو طريق معبّد بالأحجار بكامله، ومزوّد ببوابات مصنوعة من الذهب".

---

(1) بحر الخزر هو بحر قزوين في أيامنا هذه، ودعي بالخزر نسبة إلى مملكة الخزر اليهودية التي قامت على شواطئه الشمالية.

صمت آرساميس فجأة، وتطلع في عينَي الإسكندر. رأى في عيني هذا الأمير الصغير توقاً قوياً إلى المغامرة ونور قوة حيوية لا تقهر، ففهم عـــندها أن روحاً أقوى من تلك التي عرفها في حياته تشتعل داخل هذا الـــشاب، تذكّر بعد ذلك قصة حادثة وقعت قبل سنين عديدة، وهي حادثـــة تـــرددت أصداؤها كثيراً في بلاد فارس: ذات يوم هبّت رياح (أنفـــاس) مفاجـــئة داخل معبد النار في جبل النور، آتية من المجهول، وأطفأت النار المبجّلة.

شعر آرساميس بالخوف في هذه اللحظة.

9

بدأت المطاردة عند انبلاج خيوط الفجر الأولى، وشارك فيها أصغر الشبان الذين يعيشون في البلاط، وذلك بناءً على رغبة الملك. وكان الإسكندر برفقة أصدقائه بيلاطس، وسلوقس، وهيفاستيون، وبيرديكاس، ولايسيماخوس، وليوناتوس، بالإضافة إلى بطليموس، وكراتيروس وآخرين.

دُعي إيومينيس كذلك للمشاركة، لكنه اعتذر بسبب اضطرابات في معدته، وأبرزَ مذكرةً من الطبيب فيليب الذي طلب منه الراحة التامة لعدة أيام، بالإضافة إلى دواءٍ يعتمد على بيضٍ مسلوق لمدة طويلة.

أرسل الإسكندر ملكَ إيبيروس مجموعةً من كلاب الصيد التي يحتفظ بها، كانت تلك كلاب صيدٍ خاصة تمتلك حاسة شمٍ ممتازة، والتي أطلقها المساعدون في هذا الوقت، وهم الذين أخذوا أماكنهم قبل ليلة في طرف الغابة التي تقع في قمة الجبل. جُلبت أسلاف هذه الكلاب من الشرق قبل أكثر من مئة سنة، وتأقلمت في منطقة إيبيروس بشكلٍ جيد. تواجدت أفضل مراكز تدريب الكلاب في البلاد التي يسكنها شعب مولوشا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلاب الصيد، والتي أصبحت تُدعى Molossians. إن قوة هذه الكلاب، وبنيتها الكبيرة، وقدرتها على تحمّل الألم، جعلتها أفضل نوع من الكلاب المناسبة لصيد الحيوانات الكبيرة.

أبلغ رعاة الماشية عن وجود أسد في المنطقة، وهو ذكرٌ ارتكب عدة مجازر إذ قتل العديد من النعاج والأبقار. تعمد فيليب انتظار هذه

المناسبة الخاصة للبدء في مطاردة الحيوان، فلقد أراد تعريف ابنه على التسلية الوحيدة التي تليق بالأرستقراطيين، وأن يقدم إلى ضيوفه الفرس تسلية تليق بمراكزهم العالية.

انطلق الجميع من بيلا قبل ثلاث ساعات من طلوع الفجر، وما إن طلعت الشمس حتى أدركوا أنهم في أسفل الجبال التي تفصل وادي آكسيوس عن وادي لودياس. كان الأسد يختبئ في مكانٍ ما يفصل ما بين غابتَي السنديان والزان اللتين تغطيان هذه الجبال.

أومأ الملك، وسرعان ما أسرع رؤساء حملة الصيد إلى نفخ أبواقهم. تضخّم الصوت نتيجة الصدى، وارتحل عالياً إلى القمم المكسوة بالأشجار فسمعه المساعدون الذين سارعوا إلى حثّ الكلاب على الانطلاق، ثم تبعوها مشياً على الأقدام، شارك هؤلاء في حملة إحداث الضجيج وراحوا يدقون حلقاتٍ معدنية معلقة على رماحهم وعلى دروعهم الواقية.

ردّد الوادي أصوات نباح مجموعة الكلاب، فجهّز الصيادون أنفسهم، وألّفوا نصف دائرة على امتداد نحو خمس عشرة ستاديا.

كان فيليب في مركز هذه الدائرة مع قادته: بارمينيون، وأنتيباتر، وكليتوس، وبلاك، فيما انتشر الفُرْس على الجناح الأيمن. لكنّ الجميع دُهشوا للتغيّر الذي حدث في مظاهرهم: إذ اختفت السترات المزركشة والعباءات الفاخرة. كان المرزبان، وفرقته، يرتدون ثياباً مثل أسلافهم البدو ومجهزين مثلهم، أي أنهم ارتدوا سراويل جلدية، وسترات، واعتمروا قبعات صلبة، وحمل كل واحدٍ منهم رمحين داخل حافظةٍ رماح، وقوساً مزدوجاً، مع علبة تحتوي على عددٍ من السهام. وقف الإسكندر ملك إيبيروس إلى يسار فيليب، وكذلك اصطفّ معه بطليموس وكراتيروس، ثم وقف خلفه أصغر الصيادين في المجموعة، أي الإسكندر، وهيفاستيون، وسلوقس، وآخرون.

انسابت غلالة رقيقة من الضباب بمحاذاة مجرى النهر، ونشرت ما يماثل حجاباً شفافاً فوق السهل الأخضر المليء بالأزهار، والذي كانت ظلال الجبل تخيّم على معظم مساحته. قطعت صرخة مفاجئة السكون المخيّم على المكان، وحجبت نباح الكلاب البعيد، كما صهلت الجياد بـــشدة، ثم راحـــت تضرب الأرض بحوافرها، بحيث كان من الصعب إعادتها إلى هدوئها.

بقـــي الجميع في مكانهم بطريقة ما، كما تمكنوا من انتظار الأسد حـــتى يخرج إلى العراء، انطلق في بداية الأمر زئيرٌ آخر، لكنه أعلى هذه المرة، وعلى الفور ترددت أصوات زئيرٍ آخر من بعيد، وبدا أنّه قادم من النهر، كانت اللبوة مجتمعة مع شريكها!

خـــرج الذكر الكبير أخيراً من بين الأشجار، فأطلق زئيراً أقوى كاد أن يهزّ الجبل هذه المرة، لكنه أفلح في إخافة الجياد، وذلك بعد أن اكتـــشف أنـــه محاصر، وظهرت الأنثى بدورها بعد وقتٍ قصير: تردد هـــذان في الـــتقدم إلى الأمام لأن الصيادين يتحلقون حولهما، لكن لم يـــستطع أيّ منهما الرجوع بسبب تقدّم المساعدين، وهكذا اندفعا نحو النهر.

أطلـــق فيليب إشارة بدء المطاردة، واندفع الجميع نحو السهل في اللحظة ذاتها التي طلعت فيها الشمس من وراء قمة الجبل غامرةً الوادي بالأنوار.

كـــان الإسكندر ورفاقه جالسين في موقعٍ قريبٍ من ضفة النهر، وكانـــت هذه المجموعة حريصة على إظهار شجاعتها، فأطلقت كلاب صيدها من أجل اعتراض طريق الأسدين.

قلـــق الملـــك في هذا الوقت من احتمال أن يتعرّض الشبان لخطرٍ مـــؤكّد، لـــذلك انطلق بدوره حاملاً رمحه بيده في جهوزية تامة، بينما

وسّع الفُرْسُ دائرة تواجدهم، ودفعوا جيادهم كي تزيد من سرعتها من أجل منع الأسدين من العودة إلى الغابة مجدداً ومواجهة الكلاب.

شعر الإسكندر بالإثارة نتيجة هذه المطاردة، وكان على وشك رمي رمحه نحو الجهة المكشوفة من الأسد الذكر عندما اندفعت كلاب الصيد خارجةً من الغابة وعندها، استدارت اللبوة إلى الجهة المقابلة بسبب خوفها، ووثبت على مؤخرة جواده، فدفعته إلى الأرض.

أحاطت الكلاب باللبوة على الفور، فأُجبرت على إرخاء قبضتها بحيث تمكّن الجواد من الوقوف على قوائمه وانطلق هارباً، وراح يرفس، ويصهل، وينزف دماً خلال ركضه فوق العشب.

وقف الإسكندر في مواجهة اللبوة، كان الأمير أعزل من سلاحه في هذه اللحظة لأنه فقد رمحه خلال سقوطه. ولكن، في تلك اللحظة بالذات وصل هيفاستيون ملوّحاً بسلاحه، وتمكّن من جرح اللبوة جرحاً طفيفاً، الأمر الذي جعلها تطلق زئيراً نتيجة الألم الذي شعرت به.

تمكنت اللبوة من جرح رقاب عدة كلاب صيد واستدارت نحو شريكها الذي كان يهاجم هيفاستيون بشراسة، دافع الفتى عن نفسه بشجاعة بواسطة رمحه، لكنّ الأسد كان يهاجمه بوحشية، ويزأر ضارباً جهتَي ظهره بذنبه.

اقترب فيليب وبارمينيون في هذا الوقت، لكن كل شيء كان يحدث بسرعة، إذ تمكّن الإسكندر من التقاط رمحه وصوّبه نحو الهدف، لكنه لم يدرك أن اللبوة كانت جاهزةً للانقضاض عليه مرة أخرى.

رفع أحد المحاربين الفرس قوسه في تلك اللحظة، وهو الذي كان على مسافة بعيدة عن المكان، ومن دون أن يوقف جواده شدّ السهم وأطلقه في الجو، قفزت اللبوة في اللحظة ذاتها التي صفر بها السهم مخترقاً

الهواء، فاخترق جنبها، ووقعت على الأرض بعد أن أصاب السهم منها مقتلاً.

وصــل فيلــيب وبارمينيون إلى الأسد فدفعاه برفق للابتعاد عن الفتيين. وجّه الملك الضربة الأولى، لكن الإسكندر وهيفاستيون ما لبثا أن عادا على الفور إلى الهجوم مرة أخرى، وتمكّنا من جرح الأسد هذه المــرة بحــيث إن كل ما تبقى على بارمينيون فعله هو توجيه الضربة الأخيرة.

راحــت جميع الكلاب بالنباح والعويل وكأنها ممسوسة، وسمح لها المساعدون بلعق دم الأسدين كي تتذكر الرائحة في المطاردة التالية.

ترجّل فيليب وعانق ابنه قائلاً: "لقد أخفتني يا بني، لكنك جعلتني أفخــر بك كذلك. ستكون ملكاً ذات يومٍ بالتأكيد، وملكاً عظيماً". عانــق هيفاســتيون أيضاً، وهو الذي خاطر بحياته من أجل إنقاذ حياة الإسكندر.

هــدأ الجمــيع قليلاً بعد حين، فبدأ كبار الصيادين بسلخ جلدي الأســدين، لكنّ الجميع تذكّروا تلك اللحظة الحاسمة، لحظة انقضاض اللبوة.

استدار الجميع فرأوا رجلاً غريباً، كان من فرقة **الرجال شديدي الــبأس،** لكــنه كان يقبع ساكناً فوق صهوة جواده من دون حراك، وكــان قوسه المزدوج لا يزال في يده، وهو القوس الذي رمى به اللبوة مــن مــسافة تزيد عن مئة قدم، كان الرجل يبتسم مظهراً صفين من الأسنان الأنصع بياضاً وسط لحيته الكثيفة السوداء.

أدرك الإســكندر في هــذه اللحظــة أن وجهــه مليء بالجراح والخدوش، كما لاحظ أن هيفاستيون ينــزف من جرحٍ سطحي، وإن كان مؤلماً، أحدثته مخالب الأسد. أمسك بصديقه بقوة، وأمر بنقله إلى

الجـــراحين كـــي يتمكنوا من مداواة جراحه، ثم التفت بعد ذلك إلى المحـــارب الفارسي الذي كان يراقبه من بعيد، من فوق صهوة جواده النيسي.

سار الإسكندر نحو الرجل الذي أنقذ حياته، وعندما أصبح على بعـــد خطـــوات قليلة منه نظر في عينيه وقال: "أشكرك، أيها الضيف الغريب، لن أنسىً ذلك أبداً".

لم يفهـــم الـــضيف كلمات الإسكندر لأنه لم يكن يونانياً، لكنه أدرك معـــناها تمامـــاً، ابتسم الرجل مرة أخرى، وأحنى رأسه، ثم نخس جواده بقدميه، وأسرع كي ينضم إلى رفاقه.

بعد قليل، استؤنفت المطاردة، واستمرت حتى مغيب الشمس، أي عند إعطاء الإشارة الأخيرة، فجمع المساعدون كل الطرائد التي وقعت بـــين أيدي الصيادين: أيلاً واحداً، وثلاثة حيوانات مقززة، وزوجاً من الظباء.

اجـــتمع الصيادون مع حلول المساء تحت خيمة كبيرة كان الخدم قد نـــصبوها وســـط السهل، وراحوا يضحكون، ويصرخون، ويسترجعون أحـــداث اللحظـــات المثيرة التي مرّت عليهم في ذلك اليوم، بينما انهمك الطـــباخون في تنظـــيف الطرائد وتقطيعها إلى قطعٍ صغيرة، ثم قدموها إلى المجتمعين. بدأوا بالملك أولاً والضيوف، ثم الأمير، وبعد ذلك الآخرين.

بـــدأ الـــشراب يدور بكثرة بعد وقت قصير، حتى إن الإسكندر وأصدقاءه نالوا قسطهم منه. كانت أفعالهم في ذلك اليوم دليلاً واضحاً على أنهم بلغوا مبالغ الرجال.

ووصـــلت النـــسوة بـــدورهن في وقت محدّد: عازفات الناي، والراقـــصات، كنّ ماهراتٍ في إضفاء الحيوية والحركة على هذه المأدبة عبر رقصهن، ونكاتهن، وطاقاتهن الشبابية في الحميمية.

كان فيليب مبتهجاً بشكلٍ خاص، وقرّر أن يشاركه كل ضيوفه في لعبة الكوتوبوس، ثم طلب من المترجم أن يفسّر للضيوف الفُرْس ما يقوله:

"أتـــرون تلك الفتاة الواقفة هناك؟" وأشار إلى إحدى الراقصات الـــتي كانـــت تنـــزع ثيابها في تلك اللحظة بالذات. "يتعيّن عليكم أن تصيبوها بين ساقيها بآخر قطرات الشراب التي تتبقى في أكوابكم، إن أي شـــخصٍ يصيب الهدف ستكون هي جائزته، انتبهوا، هكذا، راقِبوا جـــيداً!" أنـــزل سبابته وإصبعه الوسطى من خلال مسكتين، وقذف الـــشراب باتجاه الفتاة، أصابت قطرات الشراب وجه أحد الطباخين، فانفجـــر الجميع بالضحك، وتعالت الصيحات: "يتعيّن عليك أن تأخذ الطباخ الآن يا سيدي! الطباخ! الطباخ!".

هزّ فيليب كتفيه، وحاول مرةً أخرى، ولكن، بالرغم من اقتراب الفـــتاة منه وإمكانية إصابتها بسهولة إلا أن الملك أخطأ الهدف بفارقٍ بسيط.

لم يكـــن الفُرْس معتادين على شرب الشراب غير المخفّف، ولهذا كـــان معظمهـــم يتلوون على الأرض تحت الطاولات. أما بالنسبة إلى آرساميس، وهو ضيف الشرف، فلم يتمكن من التوقف عن التودد إلى الفتى الأشقر الذي رافقه في الليلة السابقة.

جـــرت محـــاولات عدة، لكن اللعبة لم تحرز نجاحاً كبيراً لسببٍ بسيطٍ، وهو أن الضيوف كانوا ثملين جداً كي ينجحوا في لعبة كهذه، وهـــي الـــتي تتطلب حداً معيناً من المهارة. نال كل شخصٍ أول فتاة صـــادفها في طريقه، بينما نال الملك، بصفته المضيف، الفتاة التي وعد بتقديمها كجائزة. فحين شارفت الوليمة على النهاية، انتهت إلى أعمال عربدة كما جرت العادة.

وقـف الإسكندر، وارتدى عباءته، ثم سار مبتعداً عن الستارة، وتـوجّه نحـو النهر، كان خرير المياه يتردد بين الصخور والأحجار، وكـان القمـر لا يـزال يتسلّق قبة السماء فوق قمة جبل بيرميون، وهكـذا أضـفى نوره غلالةً فضية على المياه ونشر لمعاناً خفيفاً فوق السهل.

خفتت في هذه الأثناء الصيحات المتصاعدة من تحت الخيمة، بينما قـويَ صوت الغابة: حفيف أوراق الأشجار، وخفقُ أجنحة الطيور، والهمـسات قـبل أن ينطلق صوت أغنية على حين غرة، بدا الصفير وكأنـه آتٍ من مصدر سري، سُمع رنين كان مخنوقاً في البداية، ثم ما لبث أن أصبح أكثر حدةً ووضوحاً. بدا الأمر وكأن عازف قيثارةٍ على مستوى عالٍ من المهارة، يعزف من أعماق الغابة التي تفوح منها روائح زكية، لكنّ ذلك كله كان ترنيمة عندليب.

وقـف الإسـكندر في مكانه مذهولاً وهو يصغي إلى ألحان هذا المطرب الصغير، ولذلك لم ينتبه إلى مرور الوقت. ولكنّه أدرك، فجأة، وجود شخصٍ إلى جانبه. التفتَ ليجد ليبتين، الفتاة التي أحضرها كي تساعد على إعداد موائد الطعام.

كانت تراقبه، وقد شبكت يديها في حضنها، بينما كانت نظراتها صـافيةً وهادئـة، تماماً مثل السماء فوقهما. داعب الإسكندر وجهها بـيديه، ودعاها إلى الجلوس إلى جانبه، وما لبث أن احتضنها بقوةٍ بين ذراعيه، وبصمت.

*

بـدأ الجميع، بمن فيهم الضيوف الفُرْس الذين تلقوا دعوةً للبقاء حتى إقامة الوليمة الرسمية التي كانت مقررة في اليوم التالي، بالعودة إلى بيلا مع خيوط الفجر الأولى.

استدعت الملكة أوليمبيا ابنها فور عودته، وضمّته بشدة بين ذراعيها عندما رأت الجراح والخدوش التي انتشرت فوق ذراعيه وساقيه، لكنه تراجع وسط شعوره بالخجل.

"أبلغوني بما فعلتَ، كان يُمكن أن تموت".

"أنا لا أخاف الموت يا أمي، لا يمكن تبرير السلطة والمجد اللذين يتمتع بهما الملك، إلاّ إذا كان مستعداً للتضحية بحياته عندما تحين اللحظة المناسبة".

"أعرف ذلك، لكن ما حدث يجعلني أرتجف من الخوف، أرجوك أن تُبقي جرأتك تحت التحكم، وأتوسل إليك ألاّ تُقدم على مخاطرات لا معنى لها. إنك لا تزال صبياً، ولا تزال بحاجة إلى فترة كي يكتمل نموّ جسمك، وعليك أن تضع قوةً أكبر في أطرافك".

حدّق الإسكندر إليها ملياً، وقال لها: "يتعيّن عليّ أن أمضي قُدُماً كي ألقى قدري، أما رحلتي فقد بدأت، أنا متأكد من ذلك، لكن ما لا أعرفه يا أماه، هو إلى أين يُمكن أن تقودني هذه الرحلة، ومتى ستنتهي".

قالت الملكة بصوتٍ مرتعش: "لا أحد يعلم ذلك يا بني، إن القدر يخفي وجهه بحجابٍ داكن".

10

دخل الإسكندر ملك إيبيروس إلى غرفة ابن شقيقته في اليوم التالي لرحيل الفُرْس، حاملاً بيده رزمةً صغيرة بين ذراعيه.

سأله الإسكندر: "ما هذه؟".

"إنـــه يتـــيم صغير عاثر الحظ، قُتلت والدته على يد لبوة منذ أيامٍ قلـــيلة. أتـــريده؟ إنه من مولوشيا، وإذا عاملته بالحسنى فسيعيد إليك إحسانك إليه ألف ضعف".

فتح الإسكندر الرزمة فوجد جرواً ذا لونٍ بني مائلٍ إلى البرتقالي، يتميز ببقعة أفتح لوناً في جبهته. "اسمه بيريتاس".

رفع الإسكندر الجرو نحوه، وأجلسه على ركبتيه ثم بدأ بتمسيده، وقال: "اسم جميلٌ، وهو جروٌ جميل، هل أستطيع الاحتفاظ به؟".

أجـــاب خالـــه: "إنه لك، لكن، يجب عليك الاهتمام به، لأنه لم يُفطَم بعد".

"ستهتم ليبتين بكل هذه الأمور، وسيكبر بسرعة، وسيكون كلب الصيد الخاص بـــي، ورفيقي كذلك. شكراً جزيلاً لك".

تحمست ليبتين كثيراً للمهمة الجديدة التي أوكلت بها، وبدأت بها على الفور بإحساسٍ كبير بالمسؤولية، وكانت علامات طفولتها البائسة قد بدأت بالتلاشي تدريجياً من ذاكرتها، وبدا أنها تزداد نضارةً يوماً بعد يـــوم. إذ بـــدأ لون بشرتها يميل إلى أن يصبح أفتحَ، وأكثر إشراقاً، أما عيـــناها فقـــد أصبحتا أكثر صفاءً، وأكثر تعبيراً، كما أن شعرها البني أصبح أكثر التماعاً مع خصلات بلون النحاس، وحتى أكثر إشراقاً.

ســأل هيفاستيون وهو يقهقه: "هل ستدعوها إلى الحميمية عندما تصبح جاهزة؟".

أجــاب الإسكندر: "يُحتمل ذلك، لكن ذلك ليس السبب الذي دفعني لانتشالها من البؤس الذي وجدتها تعيش فيه".

"لا؟ لماذا فعلتَ ذلك إذاً؟".

لم يعطِ الإسكندر إجابة عن هذا السؤال.

*

كان الشتاء التالي قاسياً بشكلٍ خاص، وتعرّض الملك لنوبات من الألم الحاد في ساقه اليسرى مراراً، وكان ذلك نتيجة جرحٍ قديم رفض التماثل إلى الشفاء بالرغم من مرور السنين.

سخّن الطبيب فيليب أحجاراً فوق النار ثم لفّها بقماشٍ صوفي كي يمــتصّ الرطوبة الزائدة، ثم مسّد المنطقة المؤلمة بزيت التربنتين الذي جاء به من شجرة التربنتين، ثم عمدَ في بعض الأحيان إلى إجبار الملك على طــيّ ركبــته حتى يلامس كاحله ردفه، وكان ذلك هو التمرين الذي يكرهه الملك أكثر من غيره لأنه كان أشدّ التمارين إيلاماً، لكنّ الخطر كان في احتمال أن تستمر هذه الساق بالتقلص، مع العلم أنها أقصر من الساق الثانية.

لم يكــن يخفى على أحد الأوقات التي يكون الملك فيها قد وصل إلى أقصى درجات احتماله، لأنه سرعان ما كان يبدأ بالزئير مثل أسدٍ محاصــر، ثم يــأتي دور ضجيج الصحون والأكواب المهشمة، وكلها كانــت دليلاً واضحاً على أنه أنهى رمي كل المراهم، والنقوع النباتية، والأدوية التي وصفها له سميّه الطبيب، عرض الحائط.

كــان الإسكندر يتعمد بين وقتٍ وآخر ترك القصر في بيلا كي يعــزل نفسه في إيجية، العاصمة القديمة التي تقع في كنف الجبال. كان

يُشعل ناراً في غرفته، ويجلس لساعات متأملاً الثلج المتساقط، والذي كان يغطي القمم، وغابات التنّوب الأزرق، وكل الأودية.

أحبّ الإسكندر مراقبة الدخان المتصاعد من أكواخ الرعاة المتناثرة على سفوح الجبل، ومن بيوت القرى، وكان يستمتع بالصمت المخيّم في فترات محددة من المساء أو الصباح على ذلك العالم الرائع المعلّق ما بين السماء والأرض. وكان يبقى مستيقظاً لفترة طويلة من الوقت، وسط الظلام، حتى بعد أن يأوي إلى سريره، مصغياً إلى أصوات عواء الذئاب المتردّد مثل أصوات النواح عبر الأودية البعيدة.

تعوّد الإسكندر في أوقات غروب الشمس، وعندما تكون السماء صافية، أن يتأمل مشدوهاً قمة جبل الأولمب، وقد تحولت إلى اللون الأحمر، وكذلك السحب التي تدفعها الرياح الشمالية بلطف دافعةً إياها نحو بلادٍ بعيدة، كان يحدّق كذلك إلى أسراب الطيور المهاجرة، ويتمنى لو كان في إمكانه أن يحلّق معها فوق أمواج المحيط، أو إلى كرة القمر المشرقة فوق أجنحة صقرٍ أو نسر.

ولكنّه أدرك مع ذلك، أن كل هذه الأمنيات مستحيلة، وأنه سيرقد بدوره، ذات يوم، تحت ربوة عالية في وادي إيجية، أي مثل الملوك الذين جاءوا من قبله.

أدرك الإسكندر أن طفولته قد أوشكت على الانتهاء، وأنه سرعان ما سيصبح رجلاً، لكنّ هذه الفكرة ترافقت مع كآبة وحماسة شديدتين. وتباينت حالات المزاج هذه حسب ما يتأمّله: سواء أكانَ أضواء مغيب شمس الشتاء المتلاشية تدريجياً مع آخر شعاعٍ أرجواني عبر جبل الأسياد، أو دوامة النار في المشاعل التي يشعلها المزارعون في الجبال كي تنقل الطاقة إلى الشمس وهي تختفي وراء الأفق كي يُقبل الليل.

التف بيريتاس على قدمي سيده قرب النار، وراح يراقب ويئن، وكأنه بالفعل يفهم كل شيء يجول في فكر الإسكندر.

أما ليبتين، فكانت منشغلة في مكان بعيد من القصر، ولم تظهر إلا بعد استدعائها من أجل تحضير غداء الإسكندر، أو من أجل تجهيز ميدان المعركة التي ستدور فيها اللعبة، وهي لعبة يدخل فيها جنود من السيراميك. أتقنت ليبتين اللعبة إلى درجة كبيرة، حتى إنها نجحت في هزيمة خصمها الملكي في بعض الأحيان، وكان وجهها يضيء عندما يحدث ذلك، وتضحك عيناها، ثم تقول: "إنني أفضل منك في هذه اللعبة! يجب أن تجعلني قائداً!".

ذات مساء، أمسك الإسكندر بيدها عندما لاحظ أنها سعيدة جداً، ثم سألها: "ليبتين، ألا تتذكرين شيئاً من طفولتك؟ ما اسمك؟ ومن أين أتيتِ؟ ومن أهلك؟".

تغيير وجه الفتاة فجأة، وأحنت رأسها مرتبكة، ثم بدأت بالارتجاف وكأن أطرافها أصيبت بنوبةٍ من البرد. وسمعها الإسكندر أكثر من مرة في تلك الليلة وهي تصرخ في نومها، وبلغاتٍ مختلفة.

*

تغيّرت أشياء كثيرة مع عودة الربيع، إذ بدأ الملك فيليب في ذلك الفصل بالاهتمام بنشر أمجاد ابنه داخل مقدونيا وخارجها. وقدّم الملك فيليب ابنه إلى جيشه المتجمّع أكثر من مرة، وحتى إنه قد اصطحبه معه في عدة حملات عسكرية قصيرة.

سمح فيليب للإسكندر في هذه المناسبات بحمل أجمل الأسلحة وأغلاها، والتي صنعها له صانع أسلحته الخاص، كما أمر بارمينيون أن يتأكد من حصول الإسكندر على حماية من أشجع الجنود، وكذلك

طلب منه أن يسمح له بالوصول إلى الخطوط الأمامية، وذلك كي يشتم رائحة الدم، كما قال.

كـــان الجـــنود يطلقون على الإسكندر لقب الملك تحبباً، وعلى فيلـــيب لقـــب القائد، وكأن الوالد تابع لابنه، وسرّ الملك كثيراً لهذا. وكذلك طلب فيليب من فنانين عديدين رسم لوحات للإسكندر، وأمر بـــصنع ميداليات وتماثيل نصفية ولوحات تمثلهما معاً، وذلك من أجل إعطائها كتذكارات إلى الأصدقاء، وعلى الأخص إلى الوفود الأجنبية، أو إلى المـــدن اليونانية في شبه الجزيرة. ظهر الإسكندر في تلك التماثيل واللـــوحات، بحسب القواعد اليونانية المتبعة، على أنه شاب مجنّد، كما ظهرت أجمل سماته، وتحديداً خصلات شعره الذهبية.

ازدادت وســـامة الأمـــير مع مرور الأيام، وكانت حرارة جسده الطبيعـــية أعلـــى من المعدل، كما أن وجهه كان خالياً من العلامات والـــبقع الجلديـــة التي كانت تبدو عادة على وجوه المراهقين. كانت ملامـــح وجهـــه ناعمة، وممتلئة، وخالية من العيوب، لكنّ بقعاً زهرية اللـــون ظهـــرت علـــى خدّيـــه وصدره. كان شعره كثيفاً، وناعماً، ومـــتموجاً، أمـــا عيناه فكانتا واسعتين ومعبّرتين، كما أنه تميز بطريقة فـــريدة في إمالـــة رأسه نحو كتفه اليمنى، وهو الأمر الذي أضفى عمقاً خاصاً إلى نظرته، إذ كان يبدو وكأنه يدقّق في أعماق أصدقائه.

ذات يوم، دعاه فيليب إلى غرفته الخاصة، والتي كانت عبارة عن غرفة متواضعة تغطي الرفوف جدرانها، والتي يحمل بعضها وثائق تتعلّق بالعلاقـــات مع الدول الأخرى، بينما تحمل رفوف أخرى أعمالاً أدبية كان الملك يستمتع بقراءتها.

حضر الإسكندر على الفور، وترك بيريتاس في الخارج، لكن هذا الجرو كان يتبعه إلى أي مكان، حتى إنه كان ينام في غرفته.

"إنها سنة في غاية الأهمية يا بني، إنها السنة التي ستصبح فيها رجلاً". مرّر فيليب إصبعه فوق شفة الإسكندر العليا، وأضاف: "أجل... بدأت بعض الشعيرات الصغيرة بالظهور هنا، لديّ هدية لك".

تناول علبة خشبية صغيرة مزينة بنجمة الأركاديين ذات الستة عشر طرفاً، ثم سلمها إلى الإسكندر، الذي فتحها، فوجد فيها شفرةً برونزية، وقد شُحذت إلى الحد الأقصى، ووجد معها مِسَناً كي تبقى كذلك.

"شكراً لك. لكن لا أعتقد أنك استدعيتني لأجل هذا الأمر فقط".

أجاب فيليب: "كلا، بالفعل".

"ولماذا استدعيتني إذاً؟".

"سنغادر بيلا في غضون وقت قصير".

"هل تقوم بإبعادي عن هذا المكان؟".

"أجل، إلى حدٍّ ما".

"وإلى أين تريدني أن أذهب؟".

"إلى ميزا".

"إنه مكانٌ قريب، لأنه أبعد بقليل من مسيرة يوم واحد. لكن لماذا؟".

"ستُمضي السنوات الثلاث القادمة في إتمام تعليمك. توجد في بيلا أشياء كثيرة تلهيك عن الدراسة: حياة البلاط، النساء، المآدب، والحفلات، أما في ميزا فقد أعددت لك مكاناً جميلاً: حديقة يجري عبرها جدول من أنقى وأعذب المياه، وغابة من أشجار السرو، والغار، والورود البرية...".

قاطعه الإسكندر: "أبـــي، ما خطبك؟".

ذُهل فيليب، وقال: "أنا؟ لا شيء، لكن لماذا؟".

"أنت تتحدث عن الورود، وعن الغابات... يشبه الأمر الإصغاء إلى دبٍّ وهو يتلو قصيدة للشاعر آلكايوس".

"يـــا بـــنيّ، إن ما أحاول أن أقوله لك هو إنني أعددت لك أجمل مكـــان أســـتطيع توفيره لك، والأكثر راحة. يمكنك أن تتابع تعليمك هناك، وتكوينك كرجلٍ".

"رأيـــتَني أمتطي الجياد، وأقاتل، وأصيد الأسود، وأعرف الرسم، وأعرف الهندسة، كما أنني أتحدث اللغتين المقدونية واليونانية...".

"إن هذه الأمور غير كافية يا بني، أتعلم ما هو اللقب الذي يطلقه علـــيّ اليونانـــيون بعد أن ربحت حربهم اللعينة، وبعد أن ضمنت لهم الـــسلام والرخاء في بلادهم؟ إنهم يدعونني فيليب البربري، أتعرف ما يعنيه هذا اللقب؟ يعني ذلك أنهم لن يقبلوا أن أكون مرشدهم وقائدهم لأنهم لا يكنّون لي إلا البغضاء مع أنهم يخافون مني.

تـــوجد وراءنا سهول لا حدود لها تسكنها قبائل بدوية وبربرية، أمـــا أمامـــنا فتتواجد المدن اليونانية، وهي كلها تشعّ، ويعكس البحر صورة أبنيتها. ولقد وصل الإنسان فيها إلى أعلى مستويات التفوق في الفنون، والعلوم، والشعر، والهندسة، والسياسة. إننا نشبه شخصاً يجلس قـــبالة نـــار مخـــيم في ليلةٍ شتائية، أي أن وجوهنا مضاءة بوهج النار، وصدرنا دافئ نتيجة ألسنة لهبها، أما ظهورنا فمعرّضة للظلمة والبرد.

هذا هو السبب الذي دفعني إلى الحفاظ على سلامة مقدونيا ضمن حدودٍ محكمة، وسأقوم بكل ما في وسعي كي أتأكد من أن ابني يظهر أمـــام اليونانـــيين كـــرجلٍ يوناني، سواء أكان ذلك في تفكيره، أو في عاداتـــه، أو حتى في صورته الجسدية، ستحصل يا بني على أفضل تعليمٍ

وأكثره اكتمالاً من أيّ تعليمٍ يمكن أن يحلم أي رجلٍ حي في هذه الأيام بالحصول عليه. ستكون قادراً على استشارة أعظم دماغٍ في العالم الإغريقي الشرقي والغربي".

"قل لي من هي تلك الشخصية الاستثنائية؟".

ابتسم فيليب وأجابه: "إنه ابن نيقوماخوس، الطبيب الذي أشرف على مجيئك إلى هذه الدنيا، إن معلمك الجديد هو أشهر تلميذ عند أفلاطون وألمعهم، واسمه أرسطو".

11

سأل الإسكندر بعد أن أصغى إلى الخطط التي يعدّها والده: "أيمكنني أن أصطحب أي شخصٍ معي؟".

"يمكنك أن تصطحب أي شخصٍ من الخدم".

"أريد أن أصطحب ليبتين. وهل أستطيع أخذ أصحابي أيضاً؟".

"أتعني هيفاستيون وبيرديكاس، وسلوقس، والآخرين؟".

"أحب أن يأتوا معي".

"يمكنهم أن يرافقوك، لكن ستكون هناك دروس خاصة مخصّصة لك فقط، وهي الدروس التي ستجعلك مختلفاً عن الآخرين، سيقرّر معلمك طريقة تعليمك، والمواد التي ستدرسونها، والمواد المخصّصة لك وحدك. أما النظام فسيكون صارماً، أي أن عدم الطاعة غير مسموح به، مهما كان نوعه. ولا يُسمح بأنواع اللهو، أو الكسل في التحصيل، وستنال عقابك إذا كنت تستحقه، مثلك مثل رفاقك".

"ومتى أغادر؟".

"قريباً جداً".

"متى بالتحديد؟".

"ستغادر بعد الغد، أريدك أن تحضّر أغراضك، ودعِ الفتاة تستعد للرحيل، ويمكنك كذلك أن تختار الخدم الآخرين الذين تحتاج إليهم، ويمكنك أن تمضي بعض الوقت مع والدتك".

أومأ الإسكندر، ثم وقف صامتاً، نظر فيليب نحو ابنه بتمعّن، ولاحظ أنه يعضّ شفته كي يخفي دموعه.

اقترب منه فيليب قليلاً ووضع يده على كتفه، ثم قال له: "يتعيّن علينا أن نفعل ذلك يا بني، صدّقني. أريدك أن تصبح يونانياً، وأريدك أن تصبح جزءاً من الحضارة الوحيدة في العالم التي تُنتج رجالاً بدلاً من الخدم، وهي خزّان التعليم الأكثر تقدماً، وهي الثقافة التي تتكلم لغة **الإلياذة والأوذيسة**، اللتين تظهران الأسياد كرجال، والرجال كالأسياد، لا يعني ذلك أنك ستتنكر لأصولك، لأنك ستبقى مقدونياً في أعماق روحك، ولأن أشبال الأسود ستكون أسوداً".

لم يقل الإسكندر شيئاً، لكنه أبقى يديه مشغولتين بالعلبة التي تحتوي على أداة حلاقته الجديدة.

راح الملك يداعب شعر الإسكندر بيده الكبيرة والخشنة، ثم استأنف حديثه: "لم نكن أبداً بهذا القرب في الماضي، يا بنيّ، لم يكن لدينا وقت كاف. أترى، إنني جندي. لكنّني فعلت ما في وسعي لأجلك: لقد أخضعت عالماً هو أكبر بثلاث مرات من العالم الذي ورثته عن جدّك إمينتاس، كما جعلت اليونانيين، والأثينيين منهم بشكلٍ خاص، يدركون أننا نمتلك في مقدونيا قوة عظيمة ينبغي عليهم احترامها، لكنني غير قادرٍ على قولبة عقلك. إذ لا أستطيع أنا أو المعلّمون الذين علموك حتى الآن في القصر القيام بذلك، إنهم لا يمتلكون أي شيء إضافي كي يعلموك إياه.

قال الإسكندر: "سأتصرّف بحسب رغبتك، وسأذهب إلى ميزا".

"أنا لا أرسلك إلى المنفى يا بنيّ لأننا سنرى بعضنا بعضاً، وسأزورك، كما ستتمكن والدتك وشقيقتك من زيارتك في بعض الأحيان، إن كل ما أردته هو تجهيز مكانٍ لائقٍ لدراستك. أما المدربون الذين يدربونك على السلاح فسيرافقونك كذلك، بالإضافة إلى

مـــدرّبك الخـــاص لركوب الخيل، وكذلك كبير رجال الصيد، إنني لا أريد فيلسوفاً، بل ملكاً".

"كما تريد يا والدي".

"هناك أمرٌ آخر، إن خالك الإسكندر سيغادرنا".

"ولماذا؟".

"كان يكتفي حتى الآن بالقيام بدور الملك، أي أنه كان ممثلاً على مـــسرح، إنه يرتدي ثوب السيادة والتاج، بينما بقيت بلاده في أيدي آريباس. بلغ خالك الآن العشرين من عمره، لكنّ الوقت أصبح مناسباً كـــي يـــبدأ دوره في الحـــياة. أريد أن أتخلص من آريباس، وأن أضع الإسكندر على عرش إيبيروس".

قـــال الإســـكندر، الذي تعوّد الإصغاء إلى خطط والده وكأنها أخـــذت طريقها إلى التنفيذ فعلاً: "إنني مسرور لأجله، لكنني سأتأسّف لذهابـــه. أدركُ كذلك أن آريباس يتمتع بدعم الأثينيين، وأن أسطولاً أثينـــياً يرابط في كورسيرا، وأن فريقاً من المشاة على أتم جهوزية كي ينـــزل إلى الشاطئ.

هـــل صـــحيح أن الأثينيين موجودون في كورسيرا، ويستعدون للنـــــزول إلى الشاطئ تمهيداً للغزو؟ أعتقد أنك ستنتهي بخوض صراعٍ معهم".

"لا أعاني من خصومة مع الأثينيين، إنني أكنُّ لهم احتراماً كبيراً في واقـــع الأمر. لكن، يتعيّن عليهم أن يفهموا أن الاقتراب من حدودي يـــشبه كـــثيراً وضع أيديهم في فم أسد، أما بالنسبة إلى خالك، فإنني متأسفٌ أنا أيضاً لمغادرته. إنه شابٌ رائع وجندي ممتاز و... إنني أتفاهم معه بشكلٍ أفضل مما أتفاهم مع والدتك".

"أعرف ذلك".

"يبدو لي أنه لم يبقَ عندنا ما نناقشه، لا تنسَ توديع شقيقتك، وخالك بطبيعة الحال، وكذلك ليونيداس الذي لا يُعتبر فيلسوفاً شهيراً، لكنه رجلٌ طيّب علّمك كل ما يقدر عليه، وهو فخور بك وكأنك ابنه".

تناهى إلى أسماعهما في الجهة المقابلة من الباب صوت بيريتاس وهو يخدش بمخالبه محاولاً دخول الغرفة.

أجاب الإسكندر: "سأفعل، هل أستطيع المغادرة الآن؟".

أومأ فيليب، ثم توجّه إلى المنضدة، وبدا وكأنه يبحث عن وثيقة ما، لكنه، في واقع الأمر، كان يرغب في إخفاء دموعه التي ملأت عينيه عن ابنه.

12

في اليوم التالي، توجّه الإسكندر لزيارة والدته، وكانت الشمس قد شارفت على المغيب. وحين وصل كانت أمّه قد أنهت وجبتها للتو، وأخذت الخادمات يرفعن الأطباق، فأومأت الملكة إليهنّ بالتوقف وإحضار كرسيّ.

سألته: "هل تناولتَ طعاماً؟ هل أحضر إليك شيئاً؟".

"لقد تناولت طعام العشاء الذي أقيم لوداع شقيقك يا أمي".

"أعرف... أعرف، سأودعه شخصياً قبل توجهي إلى النوم. إذاً... سيكون يوم غد يوماً مهماً بالنسبة إليك".

"يبدو الأمر كذلك".

"هل تشعر بالحزن؟".

"نوعاً ما".

"لا أريدك أن تكون حزيناً، هل تعرف كم سيتكلف والدك من أجل نقل نصف الأكاديمية إلى ميزا؟".

"ولماذا نصف الأكاديمية؟".

"لأن أرسطو ليس وحده، سيرافقه قريبه وتلميذه كاليستين، بالإضافة إلى ثيوفراستوس، العالِم الكبير".

"كم سيُنفق؟".

"سيُنفق خمس عشرة تالنتاً كل سنة، على مدى ثلاث سنوات. يعلم زيوس أنه يستطيع تحمّل هذه النفقات، لأن مناجم بانجايوس تدر عليه ألف تالنت ذهباً كل سنة، أنفق فيليب مقادير كبيرة من الذهب

علـــى مـــساعدة الأصـــدقاء، وعلى نشر الفساد بين الأعداء، وتمويل مشاريعه، كما وضع أموالاً كبيرة في التداول على مدى الأعوام الخمسة الماضـــية بحيث ارتفعت الأسعار في اليونان خمسة أضعاف، بما في ذلك أتعاب الفلاسفة!".

"ألاحظُ بأنكِ في مزاجٍ سيئ".

"وكـــيف لا أكـــون في مـــزاجٍ سيئ؟ أنت ستغادرني، وكذلك شقيقتي، سأبقى وحيدة".

"لكنّ كليوباترا ستظل هنا، إنها تحبكِ. أعتقد فعلاً أنها تحبك، إنها فتيّة جداً، ومع ذلك فإن لديها شخصية قوية وواثقة".

أومأت أوليمبيا: "بالطبع".

ساد الصّمت لفترة طويلة، ثمّ تناهى إلى مسامعهما صوتٌ إيقاعي ناتج عن تقدم خطوات الحرس الذين سيبدأون نوبة حراستهم الليلية.

"ألا توافقين على مغادرتي يا أمي؟".

هزّت أوليمبيا رأسها، وقالت: "كلا، ليس تلك هي المشكلة، في الحقيقة هذا القرار هو من أفضل القرارات التي اتخذها فيليب، أعتقد أن الـــسبب يكمـــن في صعوبة حياتي يا بني، وهي تزداد صعوبةً يوماً بعد يـــوم، ينظر إليّ الجميع هنا في بيلا على أنني *الأجنبية*، وهم لم يتقبلوني أبـــداً. لم أكن أهتم أبداً طالما أن والدك أحبني... وحتى إن الأمر كان ممتعاً. ولكن، الآن...".

"أعتقد أن والدي...".

"والـــدك ملك، إنه ليس كباقي الرجال الآخرين، فهو يتعين عليه الـــزواج عندما تتطلب مصالح مملكته ذلك. وهو كسائر الملوك الذين يفعلـــون ذلك مرة، أو مرتين، أو حتى ثلاث مرات، وأحياناً يضطرون إلى نـــبذ زوجـــاتهم للـــسبب ذاته وأحياناً إلى خوض حروب طويلة،

ويضطرون إلى التخطيط، وإلى عقد تحالفات، وإلغاء هذه التحالفات، وإلى خيانة الأصدقاء والأشقاء إذا لزم الأمر. أتعتقد فعلاً أنه يوجد مكانٌ لامرأةٍ مثلي في قلب رجلٍ كهذا؟ لكن، لا أريدك أن تشعر بالأسف لأجلي، فأنا لا أزال ملكة رغم كل شيء، وأنا أمّ الإسكندر".

"سأفكّر فيك كل يوم يا أمي، سأكتب إليك، وسأحضر لزيارتك كلما أمكنني ذلك، لكن تذكّري أن والدي أفضل من كثيرٍ من الرجال، وحتى أفضل من معظم الذين أعرفهم".

وقفت أوليمبيا واقتربت منه، ثم قالت: "أعرف، هل أستطيع أن أعانقك؟".

ضمّها الإسكندر إلى صدره، وشعر بدفء دموعها على خدّيه، ثم توجّه نحو الباب وخرج من الغرفة، عادت الملكة إلى كرسيّها مجدداً، وجلست هناك من دون حراك لفترةٍ طويلة، وراحت تحدّق إلى الفضاء.

*

ما إن رأت كليوباترا شقيقها حتى انهمرت دموعها وعانقته.

صاح الإسكندر: "مهلاً! إنني لا أذهب إلى المنفى، بل إلى ميزا فقط، إنها على بعد مسيرة ساعات قليلة فقط من هنا، أي أنك قادرة على زيارتي بين حينٍ وآخر، وهذا ما قاله والدي".

جفّفت كليوباترا دموعها، وهدّأت من روعها، ثم قالت وسط تنهداتها: "إنك تقول هذا كي ترفع من معنوياتي".

"كلا، ليس ذلك بصحيح، يوجد فتيان هنا في البلاط، حتى إنني سمعت أن واحداً أو اثنين منهم قد أظهرا اهتماماً خاصاً بك".

هزّت كليوباترا كتفيها.

"أتعنين أنك لا تحبين أحداً منهما؟".

لم تعلّق كليوباترا.

سألها شقيقها: "أتعلمين ماذا سمعت؟".

ملأها الفضول فجأة، وقالت: "ماذا؟".

"سمعـــتُ بأنـــك تحبين بيرديكاس، بينما يقول آخرون إنك تحبين إيومينيس، لكنني أتساءل أحياناً ما إذا كنتِ تحبين الاثنين معاً".

عانقته مجدداً ثم قالت: "إنك الشخص الوحيد الذي أحبّه!".

قـــال الإسكندر: "إنها كذبة رائعة، لكنني سأتظاهر بأنها الحقيقة، لأنـــني أحب هذه الفكرة كثيراً، وعلى كل حال، حتى لو كنت تحبين شخـــصاً ما، فلا بأس عندي. يتعيّن عليكِ ألاّ تفكّري في أشياء غريبة لأن أبـــي هو من سيقرر مسألة زواجك، وسيحدّد لك زوجك عندما يحـــين الوقت. ولكن، إذا حدث وكنتِ تحبين شخصاً آخر فستعانين كثيراً".

"أعرف ذلك".

"لـــو كان الأمر يرجع إليّ لكنت سمحت لك أن تتزوجي من أي شخصٍ ترغبين في الزواج منه، لكنني أعرف والدي جيداً. وهو لن يدع أي فائـــدة سياسية تفوته من وراء زواجك، إنني لا أعرف رجلاً على هذه الأرض لا يُظهر استعداده لفعل أي شيء بإمكانه كي يتزوج بك. إنك في غاية الجمال! إذاً هل ستعدينني بأنك ستأتين لزيارتي؟".

"أعدك بذلك".

"عـــديني كذلك بأنك لن تبدإي بالبكاء فور خروجي من ذلك الباب؟".

أومـــأت كليوباترا، بينما انهمرت دموعها بصمتٍ فوق خدّيها، طبع الإسكندر قبلةً أخيرة على خدّ أخته ثم غادر.

أمضى الإسكندر ما تبقى من المساء مع أصدقائه الذين حضّروا له احـــتفالاً وداعياً، وهو الحفل الذي ثمل فيه للمرة الأولى في حياته. حذا

الآخـــرون حـــذوه، لكنهم شعروا بالتوعك نتيجة عدم اعتيادهم على الشرب، وما لبثوا أن بدأوا بالتقيؤ. لم يبقَ بيريتاس بعيداً عن جو المجون هذا، وراح يتبوّل على الأرض.

أدرك الإســكندر عندما حاول التوجه إلى غرفة نومه أن المشي لم يكــن تلــك العملية السهلة. وفي وقت ما، ظهرت امرأة تحمل مشعلاً وســط الظلمـــة، وسرعان ما أعانته على السير وعلى الاستلقاء على سريره، ومسحت وجهه بقطعة رطبة، ورطّبت شفتيه بعصير الرمان قبل أن تغـــادر الغــرفة. ثمّ عاودت الظهور بعد وقت قصير، لكنها كانت تحمل معها هذه المرة كوباً يتصاعد منه البخار، وجعلته يشرب منقوع البابونج، وذلك قبل تغطيته بملاءات السرير.

تمكّــن الإسكندر بعد استعادته قدراً معيناً من الوعي من التعرّف إليها، كانت ليبتين.

*

كانـــت ميـيـــزا ذاتها مكاناً رائعاً. وكانت تختبئ بين تلال جبل بيرمـــيون الخـــضراء، والـــتي يعـــبرها جدول مياه، وتحيط بها غابات السنديان، أما المسكن الذي جهّزه فيليب فكان بغاية الروعة بحيث راح الإسكندر يتساءل ما إذا كان البستاني لم يتعلّم شيئاً من ضيوفه الفُرس، وكـــل ذلك بهدف جعل مقدونيا مثل عيلام أو سوسيانا الموجودتين في بلادهم.

لاحظ الإسكندر أنه تمّ ترميم مركزٍ للصيد بشكلٍ رائع، بحيث تمّ تحويله كي يتضمن غرف جلوس للضيوف، بالإضافة إلى غرف للمطالعة والـــدرس متـــصلة بالمكتبات، وصالة موسيقى، ومسرحٍ صغير يصلح لتمثـــيل المـــسرحيات، ولا سيما المسرحيات التراجيدية والمسرحيات الهزلية.

كمـــا كانت هناك غرفة درسٍ مخصصة لتصنيف النباتات، ومختبر صـــيدلاني. لكنّ الأمر الذي أدهش الإسكندر أكثر من أي شيء آخر كـــان مشغل الرسم والتلوين، بالإضافة إلى مسبكٍ متصلٍ مع المشغل، كـــان المـــسبك مجهزاً بأحدث الأدوات والمواد المرّتبة ترتيباً جيداً على رفوفها: الطين، والشمع، والرصاص، والنحاس، والفضة، وكلّها تحمل خـــتم النجمة الأركادية ذات الستة عشر طرفاً، وهو الختم الذي يُعتبر ضمانةً لقيمتها ومصدرها.

عرف الإسكندر أنه ماهر بالرسم، لذلك كان يتوقع رؤية مشغلٍ صغير ولامعٍ يحتوي على بضعة ألواحٍ بيضاء وبعض أعواد الفحم، لكنّ هذه التجهيزات الرائعة بدت وكأنها أكثر من اللازم بطريقةٍ ما.

*

قـــال الحـــارس موضحاً: "وصل الضيف الذي كنا نتوقعه، لكنّ والـــدك أمرني بحزم كي لا أخبرك أي شيء عنه. قال إن ذلك سيكون مفاجأة لك".

سأله الإسكندر: "أين هو؟".

"تعـــال". قاده الحارس إلى نافذة في الطبقة السفلية، لكنها تطل علـــى الباحة الداخلية للبناء، قال الحارس مشيراً إلى أكبر الرجال سناً بين ثلاثة كانوا يسيرون تحت الجناح الشرقي من الرواق المعمّد: "هاك هو".

كـــان رجلاً يقارب الأربعين من عمره، وكان نحيلاً، ومنتصب القامـــة في أثناء سيره، وهادئاً، ورزيناً، وحتى متفكراً في طريقة تحرّكه ووقوفه. وكانت عيناه صغيرتين، وتشعّان بالحيوية، وتتبعان كل إشارةٍ من إشارات رفاقه، وحتى كل حركةٍ من حركات شفاههم. ولكن، مع ذلك، لم يفته أي شيء مما يدور حوله.

أدرك الإسكندر على الفور أن ذلك الرجل كان يراقبه من دون أن يتطلع نحوه مباشرة، ولو حتى للحظة واحدة. توجه الإسكندر إلى الخارج، ووقف قبالة الباب منتظراً أنّ يكمل الضيف نصف الدائرة المتبقية من الرواق قبل وصوله إلى الباب.

وجد الإسكندر نفسه، بعد فترة وجيزة، أمام أرسطو بعينيه الرماديتين اللتين تستظلان جبهةً عالية وعريضة يميّزها خطّان عميقان عند وسطها. أما خدّاه فكانا بارزين ومعزّزين أكثر بفعل وجهه النحيل، فيما كان فمه منتظماً ومظلّلاً بشاربٍ كثيف، ولحية مشذبة جداً بدت وكأنها إطار للوجه، الأمر الذي أضفى على ملامحه هالة من العمق في التفكير.

لم تفت الإسكندر ملاحظة أن الفيلسوف يمشّط شعره بدءاً من خلف رقبته وصعوداً نحو الأعلى، وذلك كي يغطي صلعته التي احتلت منطقة أعلى رأسه. أدرك أرسطو المنطقة التي يتطلع إليها الإسكندر فجمُدت نظرته على الفور. وما كان من الأمير إلا أن أخفض بصره.

قدّم الفيلسوف يده للسلام، وقال له: "إنني مسرور بلقائك، أريدك أن تتعرّف إلى مساعدَيّ: ابن شقيقتي كاليستين الذي يدرس الأدب والتاريخ، وثيوفراستوس". وأشار إلى رفيقه الذي وقف إلى يساره. "يُحتمل أنك سمعتَ عن مهارته في علم الحيوان والنبات، وعندما التقينا والدك للمرة الأولى في آزوس الواقعة في طرود، ذُهل ثيوفراستوس على الفور لدى رؤيته أعواد الساريس. ولكن، عندما انتهى الملك من الكلام همس ثيوفراستوس في أذني: *قُطعت هذه من شجرة القرانيا المدماة، وذلك في شهر آب، وفي غمرة أنوار القمر الجديد، وأضيفت التوابل إليها، ثم صُقلت بالخفّان وشمع العسل. أتوجد مادة أشد صلابة ومرونة منها في عالم النبات؟* أليس هذا أمراً رائعاً؟".

تــرك الإسكندر يد أرسطو، وأكّد له: "حقاً، هو كذلك". تابع بعـد ذلـك مـصافحة أيدي مساعديه، فبدأ بكاليستين، ثم جاء دور ثيوفراستوس محترماً بذلك الترتيب الذي اتبعه معلمه في تقديمهما إليه.

قال الإسكندر متابعاً: "أهلاً بكم في مييزا، سأتشرّف إذا تناولتم طعام الغداء معي".

لم يـتوقف أرسطو عن عملية تفحّص الأمير، وذلك منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها. فلقد أعجب به كثيراً، إذ امتلك *ابن فيليب*، وهو الاسـم الذي كان يُعرف به في أثينا، عمقاً شديداً في نظرته، وتناسقاً مدهـشاً في ملامحـه، ونبرة صوت حيوية. كان كل ما يتعلّق بالأمير الشاب يوحي برغبةٍ مدمرة بالعيش والتعلّم، وبقدرةٍ كبيرة على الالتزام بالمسؤوليات والتطبيق.

انطلـق في تلك اللحظة بالذات نباح بيريتاس التّرحيبـيّ، فترددت أصـداؤه في الـساحة، وسرعان ما بدأ الجرو بعضّ أربطة حذاء الإسكندر مقاطعاً بذلك التواصل الصامت الذي كان جارياً ما بين المعلم وتلميذه.

فلاحظ ثيوفراستوس ذلك قائلاً: "إنه جروٌ جميل".

انحـنى الإسكندر كي يرفعه بين يديه، وقال: "اسمه بيريتاس، أعطاني إياه خالي كهدية، سبق للبوة أن قتلت أمه في آخر مطاردة شاركنا فيها".

علّق أرسطو بالقول: "إنه متعلق بك كثيراً".

لم يجب الإسكندر، لكنه تقدّم الجميع إلى غرفة المائدة، وقدّم إليهم مقاعـد كي يستريحوا فيها، ثم ما لبث أن استرخى بدوره في مقعده، فيما جلس أرسطو في المقعد المقابل له.

أحضر أحد الخدم وعاءً من الماء وحوضاً للغسل، ومنشفة . وبدأ خـادمٌ آخر بتقديم الوجبة المؤلفة من بيضٍ طيور مسلوق، وبعض المرق مـع دجاجةٍ مسلوقة، وخبزٍ، وحمامة مشوية، بالإضافة إلى شراب أحمر

من تاسوس. فيما وضع خادم ثالث على الأرض قرب الإسكندر وعاءً يحتوي على طعامٍ مخصصٍ لبيريتاس.

راح الإسكندر يراقب جروه وهو يهز ذيله، ثم سأل: "أتعتقد حقاً أن بيريتاس متعلق بـــي؟".

ردّ أرسطو بالقول: "بالتأكيد".

"لكـــن، ألا يعني ذلك أن الجرو يمتلك مشاعر، وهو الأمر الذي يعني أنه يمتلك روحاً؟".

قال أرسطو ملاحظاً وهو منهمك بتقشير بيضة: "إن هذا السؤال أكـــبر مـــنك، وأكـــبر مني كذلك، إنه سؤال ليست له إجابة محددة. ولكن، تذكّر أمراً واحداً أيها الإسكندر، وهو أن المعلم الجيّد هو الذي يعطي إجابات صادقة.

ســـأعلمك التعرّف على السمات المميزة للحيوانات والنباتات، وكيفـــية تصنيفها بحسب أجناسها، وسأعلّمك كذلك كيفية استخدام عينـــيك، وأذنـــيك، ويديك، من أجل معرفة أعماق الطبيعة التي تحيط بـــك. ويعني ذلك أيضاً أنه يتعيّن عليك أن تتعرف - قدر الإمكان - على القوانين التي تحكم الطبيعة.

انظـــر إلى هذه البيضة، قام طباخك بسلقها، وهكذا قضى على مـــستقبلها، لكن قشرتها كانت تحتوي على طائرٍ محتمل، والذي كان ســـيقدر على الطيران، وعلى تغذية نفسه، وعلى التناسل، والهجرة إلى مسافات تبلغ عشرة آلاف ستاديا [وحدة قديمة لقياس المسافات]. هذه الميـــزات غـــير متوفرة في البيضة بحدّ ذاتها، ومع ذلك فهي تحتوي في داخلها على كل ميزات جنسها، وعلى هيئتها إذا أمكننا قول ذلك.

تعمل الهيئة في المادة وهي تترافق مع نتائج أو عواقب متعددة. إن بيريتاس هو واحد من هذه العواقب، مثلما هي الحال معك، ومعي أنا".

تـــناول قـــسماً من البيضة، وقال متابعاً: "ومثلما هو حال هذه البيضة لو تسنى لها أن تصبح طيراً".

تطلّع الإسكندر نحو أرسطو، وأيقن أن الدروس قد بدأت للتو.

13

أعلــن أرســطو فور دخوله المكتبة: "لقد أحضرت لك هدية". وحمل بيديه صندوقاً خشبياً بدا قديماً جداً.

قال الإسكندر: "شكراً لك، لكن ما هذا؟".

اقترح الفيلسوف وهو يناوله الصندوق: "افتحه".

تناول الإسكندر الصندوق ووضعه على الطاولة ثم فتحه، فظهرت لفافــتان كــبيرتان من ورق البردى، وكانت كل واحدة منهما تحمل بطاقــة صغيرة بيضاء اللون، مربوطة بعصيّ اللفائف، كما تحمل أحرفاً مكتوبة بالحبر الأحمر.

صاح الإسكندر بحماسة شديدة: "**الإلياذة والأوذيسة**، إنها هدية رائعة، شكراً جزيلاً لك، إنها الهدية التي طال انتظاري لها".

شــرح أرسطو: "إنّهما نسختان قديمتان بعض الشيء، أي أنّهما من بــين أوائل النسخ الأثينية التي كتبها بيزيزستراتوس". أشار الفيلسوف إلى عنوانَي اللفافتين، ثم أكمل: "عندما كنت في الأكاديمية أمرتُ بكتابة ثلاث نسخٍ على نفقتي الخاصة، إنني مسرورٌ جداً لأنني أهديك واحدة منها".

راح الحارس، الذي كان على مقربة منهما، يفكر في أن أرسطو يــستطيع، بمــا يمتلكه من مال قدّمه إليه فيليب، إهداء الإسكندر هذه الهديــة القــيّمة، لكــنه أبقى أفكاره لنفسه، وعلى الأخص لأنه كان منهمكاً في تحضير المواد التي طلبها أرسطو لدروس ذلك اليوم.

"إن قــراءة ما كُتب عن أبطال الأيام الماضية، وعن أفعالهم، جزءٌ ضــروري مــن عملــية تعليم الشاب، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى

المسرحيات التراجيدية. إن القارئ، أو المشاهد، لا يستطيع إلا أن يُعجب بالأعمال العظيمة والنبيلة، لأنها تشهد على المسلك الكريم الذي اتّبعه الذين عانوا، وحتى الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل مجتمعاتهم، وفي سبيل مبادئهم، أو أولئك الذين دفعوا غالياً ثمن أخطائهم التي اقترفوها، أو التي اقترفها أسلافهم، ألا توافقني على هذا؟".

قال الإسكندر موافقاً وهو يُقفل الصندوق بعناية: "بالطبع، لكنني أريد أن أعرف منك شيئاً، لماذا يتعيّن عليّ أن أتعلّم على الطريقة اليونانية؟ لماذا لا أستطيع أن أكون مقدونياً بكل بساطة؟".

جلس أرسطو: "إنه سؤال مثير للاهتمام. ولكن، إذا أردت الإجابة عنه فسيتعيّن عليّ أن أشرح لك ماذا يعني أن تكون يونانياً، وبهذه الطريقة فقط يمكنك أن تقرر ما إذا كنتَ تريد أن تكرس نفسك، وأن تتعلم من تعاليمي. أيها الإسكندر أن يكون المرء يونانياً هي الطريقة القيّمة الوحيدة كي يحيا كإنسان، أتعرف أسطورة بروميثيوس؟".

" أجل... كان ذلك القوي [تيتان] الذي سرق النار من الأسياد ليعطيها إلى البشر كي يحررهم من بؤسهم".

"أجل، هذه هي الأسطورة، أما الآن، وبعد أن تمكّن الإنسان من تحرير ذاته من الظلمة، فقد جرت محاولات لتنظيم الحياة في مجتمعات، ونتيجة لذلك فقد ظهرت ثلاث طرائق: عندما يستلم شخصٌ واحدٌ القيادة فإن النظام يحمل اسم النظام الملكي. أما عندما يكون هناك أكثر من شخص واحد في مركز القيادة، فإن النظام يُعرف باسم حكم الأقلية. فيما يُعرف النظام الذي يمارس فيه كل المواطنين السلطة باسم النظام الديموقراطي، وهذه هي ميزة ما يعنيه أن يكون المرء يونانياً.

أما هنا، في مقدونيا، كما في أثينا فإن كلمة والدك هي ذاتها القانون السائد، ومع ذلك فإن الرجل الذي انتخبته أكثرية المواطنين،

حـــتى ولـــو كان إسكافياً، أو حمالاً، يستطيع أن يقف في المجلس كي يطلـــب إلغاء إجراءات سبق لحكومة المدينة أن صدّقت عليها، وذلك لمجرد قدرته على حشد ما يكفي من الناس لدعم تحركه.

أمـــا في مصر، أو في بلاد فارس، وهنا في مقدونيا أيضاً، فيوجد رجلٌ حرٌ واحدٌ فقط، وهو الملك، أما الآخرون فهم عبيدٌ جميعاً".

"أما النبلاء..." راح الإسكندر يبحث عن الكلمة المناسبة.

"وحتى النبلاء أيضاً. إنهم يمتلكون امتيازات كثيرة، وهم يعيشون حـــياة مـــسرات. ولكن، يتعيّن عليهم أن يطيعوا ويخضعوا بدورهم". صـــمت أرســـطو بعد ذلك لأنه لاحظ أن كلماته قد أصابت هدفها، لكـــنه أراد أن يتأكد من مرور ما يكفي من الوقت كي تنفد إلى روح الفتى.

أخيراً، أجاب الإسكندر: "لقد أعطيتني أعمال هوميروس كهدية، لكـــنّي كـــنت أعـــرف هـــذين العملين جزئياً، كما أتذكّر جيداً أن يوليـــسيس قـــد ألقـــى خطاباً في مجلس المحاربين، وذلك قبل أن يحتل ثيرســـتيس المنـــبر ويهاجم الأسياد، لكنه ضمن لنفسه ملاذاً من بطل هوميروس، فقد قال يوليسيس:

أيمكننا أن نحوز سلطة الملوك؟ لا نستطيع،
كما أن أسياداً كثيرة سيئة للغاية.
لـــيكن هـــناك قائـــد واحـــد – وسلطة واحدة – يحتفظ بموظفيه الملكيين،
وبألويته
بتفويضٍ من زيوس، ابن كرونوس ذي التفكير المعوج:
واحد يقود البقية.

كانت تلك كلمات هوميروس".

"أجـــل... إنك مصيب. لكنّ هوميروس يروي حكايات الأزمنة الماضية. فعندما كان وجود الملوك لا غنى عنه، كان الأمر كذلك، لأن

الأمـــور كانـــت مختلفة في ذلك الوقت. إذ حدثت في تلك الأوقات هجمـــات مستمرة شنّها البرابرة، والوحوش المفترسة في عالمٍ طبيعي ما زال بـــرياً وبدائـــياً. جلـــبت لك هدية من أشعار هوميروس، وهكذا تستطيع أن تكبر مع القراءة، وأن تطوّر مشاعرك النبيلة، مثل الصداقة، والقيَم، واحترام الكلمة التي تُعطى. ولكنّ رجل هذه الأيام يا إسكندر حـــيوان سياسي. إنني لا أشك في هذا، إن البيئة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن ينمو فيها هي المدينة الدولة، وهي المدينة بمفهوم الإغريق.

إن الحـــرية هـــي التي تسمح لكل شخصٍ، بالتعبير عن النفس، والإبداع، وبالوصول إلى العظمة. أترى معي أن الدولة المثالية هي تلك الـــتي يُحـــسن كل شخصٍ فيها القيادة خلال تقدّمه في السنّ، بعد أن يكون قد أطاع بإخلاص عندما كان شاباً؟".

"وهذا ما أفعله الآن، وما سأفعله في المستقبل".

أجاب أرسطو: "إنك شخصٌ واحد فقط، لكنني أتحدث عن آلافٍ عدة من المواطنين الذين يعيشون تحت حماية القانون والعدالة اللذين يوفران الحمايـــة الـــتي تعطـــي الشرف لمن يستحقه، وينظمان الحِرف والتجارة، واللـــذين يعاقبان من يرتكب الأخطاء ويُصلحانه. لا يرتبط هذا المجتمع مع بعضه بروابط الدم، ولكن بالقوانين التي تساوي بين جميع المواطنين، يُـــصلح القانـــون أخطاء الأفراد ويقوّم اعوجاجهم، ويحدّ من الصراع والمنافـــسة، ويكافئ من يمتلك إرادة العمل والإنجاز، ويشجّع القوي، ويدعم الضعيف، يقع العيب في مجتمعٍ كهذا، ليس في كون المرء ذليلاً وفقيراً، ولكن، في عدم بذل الفرد أي مجهود من أجل تحسين حالته".

جلس الإسكندر صامتاً، واستغرق في التأمل.

عاود أرسطو الحديث مجدداً: "سأعطيك الآن دليلاً ملموساً على الأمور التي أخبرتك عنها، تعالَ معي".

خـــرج من باب جانبـــي يطل على الجهة الخارجية للمبنى، وسار نحو نافذة صغيرة تطل على ورشة السبك.

قـــال وهـــو يـــشير إلى الداخل: "انظر، أيمكنك أن ترى ذلك الرجل؟".

أومأ الإسكندر عندما رأى رجلاً يبلغ الأربعين من عمره تقريباً، ويـــرتدي رداء عمل قصيراً ومئزراً جلدياً، وكان إلى جانبه مساعدان أحـــدهما في العـــشرين من عمره، فيما الآخر يبلغ السادسة عشرة من عمـــره تقـــريباً. وقـــد انهمك الثلاثة في ترتيب الأدوات، وفي تحضير السلسلة الكبيرة التي تمسك إناء الصهر، وتذكي نار الفرن.

سأل أرسطو: "أتعرف مَنْ هو؟".

"لم أره من قبل".

"إنه أعظم فنان يعيش في هذا العالم. إنه ليسيبوس من سيكيون".

"أتعـــني ليـــسيبوس العظيم... رأيت أحد تماثيله ذات مرة عندما كنت في معبد هيرا".

"وهل تعلم ماذا كان يعمل قبل أن يصبح على ما هو عليه اليوم؟ كـــان عاملاً، ظل عاملاً بسيطاً لمدة خمس عشرة سنة في مصنع سبكٍ مقابـــل قطعتي أوبول في اليوم. أيمكنك أن تخمّن كيف أصبح ليسيبوس العظيم؟ يعود الفضل في ذلك إلى نظام الحكم في المدينة، إنها المدينة التي تفسح المجال للمواهب، وهو النظام الذي يسمح لكل رجل من الرجال أن يكبر مثل نبتة سليمة".

تفحّـــص الإسكندر الضيف الجديد الذي بدا قوياً بكل المقاييس. كـــان عريض المنكبين، وكانت ذراعاه مفتولتي العضلات، فيما بدت يداه عريضتين بعد أن عملتا بجدٍ كبير لفترةٍ طويلة.

"لماذا يتواجد هنا؟".

"تعالَ، دعنا نقصده، وهو سيشرح لك بنفسه".

دخلا عبر الباب الرئيسي، وسارع الإسكندر إلى تحية النحّات.

"أنــا الإســكندر ابن فيليب ملك مقدونيا، أهلاً بك في ميزا يا ليــسيبوس، تشرفت بلقائك. وهذا هو معلمي أرسطو ابن نيقوماخوس من سكان ستاجيرا، إنه مقدوني أيضاً بمعنى من المعاني.

عــرّف ليسيبوس بمساعديه آرخيلوس وخاريس، لكنّ الإسكندر شعر أن عينَي ليسيبوس تحدّقان إلى ملامحه وكأنه يرسمها ويعيد رسمها في ذهنه.

"كلّفني والدك بأن أصنع تمثالاً برونــزياً لك، أريد أن أعرف متى ستتمكن من الجلوس أمامي".

تطلع الإسكندر نحو أرسطو الذي ابتسم، ثم قال: "إنني مستعد في أي وقــت تشاء يا ليسيبوس، يمكنني أن أدرّسه بسهولة خلال قيامك بصنع شبيهٍ له... هذا إذا كان وجودي لا يلهيك".

أجابَ ليسيبوس: "لا، مطلقاً، إنني أتشرّف بالاستماع إليك".

غــادر الإســكندر مشغل السبك، وذلك كي يعرّف آرخيلوس وخــاريس علــى مــا تبقى من المبنى، فسأل الفيلسوف بعد مغادرة الإسكندر: "ما رأيك بهذا الشاب؟".

"لديه ملامح سيد وسِماته".

14

تميّــزت الحياة في ميزا بإيقاعات شديدة الانتظام، كان الإسكندر ورفاقــه يستيقظون كل يوم قبل شروق الشمس، وكان طعام الفطور يتألف من بيض نيء، وعسل، وجبنٍ مطحون، وشراب، وطحين، ومزيجٍ من كوب *نسطور* الذي يحضّر من وصفة قديمة جاء ذكرها في **الإلياذة**. وكان الرفاق يخرجون بعد ذلك مع مدرب الفروسية لساعة أو اثنتين.

وبعــد إنهـــاء درس الفروســية كان الشبان يعملونَ مع مدرّب الأســلحة الذي درّبهم على المصارعة، والركض، والمبارزة، والرماية، ورمي الرمح، أما الوقت المتبقّي فكانوا يمضونه مع أرسطو ومساعديه.

كان مدرّب الأسلحة في بعض الأحيان، وبدلاً من تدريبهم على الأمور المعتادة، يأخذهم في جولات الصيد مع الضيوف الموجودين في المنــزل، وكانت الغابات المحيطة بالمكان مليئة بالحيوانات المقززة البرية، والأيائل، والظباء، والدببة، والوشوق، وحتى الأسود.

وفي أحــد الأيــام، التقى أرسطو الجماعة لدى عودهما من جولة الــصيد عند المدخل. كان يرتدي ملابسه بطريقة غريبة. إذ كان ينتعل حذاءً جلدياً عالياً يصل إلى منتصف ساقيه، بالإضافة إلى وضعه مئزراً، وارتدائـــه صـــدرية. راح يتفحص الحيوانات التي اصطادوها ثم اختار حيواناً مقززاً بدا أنه أنثى حامل.

قال أرسطو لكبير الصيادين: "دعوا أحداً يحضرها إلى مختبري من فــضلكم". وأومـــأ إلى الإسكندر كي يتبعه، وقصد أرسطو بذلك أن الدرس الذي كان يوشك على إعطائه مخصصٌ للأمير وحده.

نُفّـذت أوامر المعلم على الفور، وما لبث أنثى الحيوان المقزز أن وُضِـعت على الطاولة التي وضع ثيوفراستوس على حافتها مجموعةً من الأدوات الجراحية، وكلها حادة وملتمعة.

ثمّ طلب أرسطو إحضار مبضعٍ، والتفت نحو الأمير الشاب، وقال لـه: "أريدك أن تشارك في هذه العملية إذا لم تكن منهكاً من التعب، ستتعلم أشـياء كثيرة على درجةٍ من الأهمية، توجد هناك الأدوات الـضرورية للكـتابة"، وأشار إلى قلمٍ، ومحبرة، وبعض أوراق البردى، وكلها موضوعة فوق طاولة، ثمّ تابع قائلاً: "ستتمكن بهذه الطريقة من تدوين الملاحظات، ومن تذكّر كل شيء تراه خلال التشريح".

فوضع الإسكندر قوسه وحافظة سهامه عند الزاوية، ثم تناول قلماً وورقة بردى، وتحرك نحو الطاولة.

أحـدث الفيلسوف شقاً على طول بطن أنثى الحيوان المقزز، وما لبث أن ظهرت داخل رحمها ستة جراء صغيرة، فقام بقياس كل واحدٍ منها.

قـال أرسطو: "كانت ستولد بعد أسبوعين. انظر إلى هنا. ها هو الـرحم، أو القالـب الذي تأخذ الأجنة فيه أشكالها، أما هذا الكيس الداخلي فيدعى المشيمة".

تمكّـن الإسـكندر من التحكّم باشمئزازه الذي شعر به في البداية نتـيجة الرائحة، ومنظر الأجزاء الداخلية (الأمعاء) المليئة بالدماء، وبدأ بتدوين ملاحظات، وحتى بالرسم.

"أتـرى؟ إن أعضاء هذه الأنثى تشبه كثيراً أعضاء الإنسان، انظر إلى هـنا: هاتان الرئتان، أي الجهاز الذي يسمح لنا بالتنفس، وهذا هو الغـشاء الذي يفصل الأجزاء العليا من الأمعاء – وهي الجزء الأرفع – عـن الأجـزاء الـسفلى منها ويدعى الحجاب الحاجز. كان القدماء

يعـــتقدون أنه يحتوي على الروح. تحتوي لغتنا على كل الكلمات التي تدل على نشاط الفكر أو المنطق أو حتى الجنون الذي ينتج عن تدهور عملية التفكير، وهي كلها مشتقة من كلمة *phren*، أي غشاء".

كان الإسكندر يود أن يسأل عن العوامل التي تحرّك الغشاء، وما الذي ينظّم صعوده وهبوطه الإيقاعيين، لكنه كان يعرف الجواب الذي سيتلقاه مسبقاً، "لا توجد إجابات بسيطة عن مشاكل معقدة"، وهكذا فضّل ألاّ يقول شيئاً.

"والآن، هذا هو القلب، وهو المضخة التي تشبه تلك التي تُستخدم مـــن أجل إفراغ الأقسام السفلى من السفن، لكنه أكثر تعقيداً بكثير، وأكثـــر فعالية. إنه موطن المشاعر والفكر، لأن حركاته تتسارع عندما يكـــون الإنسان تحت تأثير الغضب أو الحب، أو حتى الشهوة البسيطة، إن حـــركات قلبـــي تتسارع، في واقع الأمر، بمجرد صعودي الدرج، وهذا الأمر يبرهن أنه مركز كل الوظائف في حياة الإنسان".

قال الإسكندر موافقاً: "إنه كذلك بالفعل". وراح يحدّق بذهول إلى يدي معلمه الملطختين بالدماء بسبب بحثه في أمعاء أنثى الحيوان.

"يُحتمل وجود فرضية معقولة، وهي أنه عندما تزداد حدة الحياة، يـــضطر الـــدم إلى الجريان بسرعةٍ أكبر. يوجد نظامان لدوران الدماء؛ أحدهما ينطلق من القلب، والآخر يعود بالدم إلى القلب، وهما منفصلان بالكامـــل كما ترى". وضع أرسطو المبضع على الصينية قبل أن يتابع حديثه: "إننا نشبه الحيوانات كثيراً من هذه الناحية، لكننا نختلف عنها بأمرٍ واحد يميّزنا".

طلـــب أرســـطو مـــن ثيوفراستوس على الفور أن يناوله المطرقة والإزميل، فأحضر الأخير هذه الأدوات على الفور. تمكن أرسطو بعد عدة ضرباتٍ محكمة وخبيرة من فتح جمجمة الحيوان. "هذا هو الدماغ،

لكنّ دماغنا أكبر بكثير، فكّرت كثيراً أن كل هذه اللفائف والتعرجات تهدف إلى المساعدة على تبديد حرارة الجسم، لكن يبدو لي أن الإنسان لا يُنتج حرارة أعلى من تلك التي تنتجها الحيوانات، إنها مشكلة سأخصّص لها فترةً من التفكير...".

أنهى أرسطو عمله، ومرّر الأدوات إلى ثيوفراستوس كي ينظفها، ثمّ غسل يديه بعد ذلك، وطلب من الإسكندر أن يناوله الملاحظات التي دوّنها والرسوم التي رسمها.

قال له: "ممتاز! لم أكن لأفعل ذلك بطريقةٍ أفضل، يمكنك الآن أن تعطي هذا الوحش للجزّار، إنني أحب الأحشاء، لكنني منذ مدة لم أعد أهضمها جيداً، دعهم يشوون لي بعضاً منها لطعام العشاء، هذا إذا لم يكن عندك مانع".

رأى الإسكندر أرسطو منكباً، في مناسبة أخرى، على العملية ذاتها، لكنه انشغل هذه المرة بشيء أصغر بكثير، أي بيضة دجاجة عمرها عشرة أيام.

"لم يعد نظري يساعدني كما كان في السابق، لذلك طلبت من ثيوفراستوس أن يساعدني، أريد أن تنتبه جيداً بدورك، لأنني سأطلب منك أن تساعدني في يومٍ من الأيام".

حمل ثيوفراستوس شفرةً رفيعةً شديدة الحدة ما بين إبهامه وسبابته، كان يستخدمها بدقة متناهية. وسرعان ما فرغ الرجل من إخراج الزلال، وعزل الجنين داخلَ المح.

"يمكنك تمييز قلب الصوص ورئتيه بعد مرور عشرة أيام، أيمكنك أن تراها؟ ما زال نظرك سليماً، أيمكنك أن تراها؟".

أشار ثيوفراستوس إلى كتلٍ صغيرة من الدماء، هي التي كان يتحدث عنها معلّمه، فقال الإسكندر: "يمكنني أن أراها".

"إنها هناك، كما أن العملية ذاتها مسؤولة عن تطور النبتة من بذرتها".

حدّق الإسكندر إلى عينَي أرسطو الرماديتين، ثم سأله: "هل فعلت ذلك مع إنسان؟".

"فعلت ذلك أكثر من مرة، وقمت بتشريح أجنة تبلغ من العمر عدّة أسابيع. كنت أدفع مالاً إلى قابلة كانت تجري عمليات إجهاضٍ لمومسات كن يعشن في دار بغاء في منطقة كيراميكوس في أثينا".

شحُب وجه الأمير الشاب.

قال أرسطو: "من المهم جداً ألاّ نخاف من الطبيعة، أتعلم أن كل الكائنات الحية تتشابه أكثر عند اقترابها من لحظة الولادة؟".

"هل يعني ذلك أن كل أنواع الحياة ترجع إلى المصدر ذاته؟".

"يُحتمل ذلك، لكن ليس بالضرورة. أما الحقيقة، يا بني، فهي أن المادة متوافرة بكثرة، بينما الحياة قصيرة، كما أن وسائل بحثنا محدودة جداً، هل عرفت الآن سبب صعوبة إعطاء الأجوبة؟ إن التواضع ضروري في هذا المجال. ويتعيّن على المرء أن يدرس، ويصف، ويصنّف، وأن يتدرج خطوة تلو الأخرى، وأن يصل إلى مستويات أعلى من المعرفة، أي مثلما يصعد المرء الدرج، خطوةً واحدة في كل مرةً".

قال الإسكندر مؤكداً: "بالتأكيد". لكنّ ملامحه أوحت بوجود قلقٍ خلف كلماته، وكأن رغبته في معرفة العالم لا يمكن أن تتوافق مع النظام الهادئ والمتأني الذي يقدمه إليه معلّمه.

*

بقي ليسيبوس غائباً فترة طويلة عن معظم الدروس، وعندما كان أرسطو يفسر، أو ينشغل بإحدى تجاربه، كان النحات يرسم صوراً لملامح وجه الإسكندر، سواء أكان ذلك على أوراق البردى أو على

الألواح الخشبية المطلية بالجص، أو الرصاص الأبيض. وفي أحد الأيام، تقدّم من الإسكندر وقال له: "إنني مستعد".

تعيّن على الإسكندر منذ ذلك الوقت فصاعداً أن يمضي ساعةً في اليوم على الأقل في مرسم ليسيبوس، وذلك من أجل وضع اللمسات الأخيرة لجلسات الرسم. وضع الفنان كتلةً من الطين على دعامة، ووضع عليها نموذجاً للوحة، ثمّ مرّر أصابعه برشاقة على كتلة الطين الرطبة، وراح يتفحّصها، ويشكّل الأشكال للحظةٍ في وجه نموذجه، أو في تلك التي انبعثت فجأة بتأثير نظرته.

ثمّ ما لبثت اليدان أن أقدمتا على تخريب النموذج الذي صنعتاه، وهكذا عادت المادة إلى حالتها قبل أن تأخذ شكلاً معيناً، وذلك تمهيداً لإعادة تشكيلها على الفور وبنشاط، وهكذا عادت العواطف، والتعابير، والحدس إلى الظهور.

تطلع أرسطو مذهولاً، وراح يتتبع حركات يدي النحات على الطين، اللتين بدتا وكأنهما تؤديان رقصة ما، ولاحظ الحساسية الغامضة التي تميّز يدَي ذلك النحات، وذلك في أثناء التشكيل لحظة بلحظة، وهو تقليد يكاد يكون مطابقاً للحياة تماماً.

فكّر الفيلسوف للحظة أن الصورة لا تشبهه، أي أنها ليست الإسكندر... كان ليسيبوس يصنع نموذجاً لسيد شاب يتصوّره يقف بالقرب منه. كان النموذج يمتلك عينَي وشفتَي وشعر الإسكندر، لكنه كان، بالرغم من كل شيء، شيئاً آخر، كان شيئاً أكبر وأقل في الوقت عينه.

راح العالِم يراقب الفنان، ويدرس غايته، ونظرته الثاقبة، ويلاحظ تلك المرآة الرائعة التي تستوعب الواقع وتعكسه بعد أن تحوّله وتصنعه، في عقله أولاً، وبين يديه في مرحلةٍ لاحقة.

كان نموذج الطين جاهزاً بعد ثلاث جلسات فقط، لكنّ ليسيبوس صنع شبيه الفتى، وأعاد صنعه آلاف المرات، ثمّ بدأ بعد ذلك في تشكيل النموذج الشمعي، وهو النموذج الذي سيعطي شكله المؤقّت إلى البرونز الذي يدوم أبد الدهر.

بدأ ضوء الشمس ينحدر مقترباً من قمة جبل بيرميون، وراحت الأشعة الذهبية تنتشر في الغرفة، وذلك في اللحظة ذاتها التي أدار فيها الفنان القاعدة المتحركة للوحة الدعم كي يُري الإسكندر لوحته.

صُعق الشاب عندما رأى شكله وقد أضفت عليه الأنوار المتسللة إلى الغرفة ظلالاً، كما شعر بموجةٍ من المشاعر تندفع إلى قلبه، وتحرّك أرسطو بدوره نحو هذا العمل.

شاهد الرجلان شيئاً يتعدى رسماً في هذا التمثال الذي يعكس في الوقت ذاته الفخر والرشاقة اللذين انعكسا كذلك في تلك الفوضى المرتعشة والمرتسمة على شعر الرأس الذي أحاط - إلى حدّ الحصار - بوجهٍ يتمتع بجمالٍ يفوق جمال البشر، وبجبهةٍ رزينة ومهيبة، وبعينين طويلتين تعانيان من كآبة غامضة، وبفمٍ شهواني ومتجبرٍ ذي شفتين شهوانيتين ولطيفتين.

ساد في تلك اللحظة صمتٌ عميق، وهدوء مهيب، في تلك الغرفة التي انتشر فيها نور المساء المتدفق واللطيف، وترددت في ذهن الإسكندر كلمات معلمه المتعلقة بتأثير الشكل على المادة، والفكر الذي يسيطر على الفوضى، والروح التي تترك بصمتها الخاصة بها على الجسد الفاني والمؤقّت.

التفت الأمير نحو أرسطو الذي كان يتأمله بعينيه الصغيرتين الرماديتين اللتين تشبهان عيني صقر، واللتين بدتا بمثابة معجزة تتحدى ما أوتي به من حدس، ثم سأل: "ما رأيك؟".

بدأ الفيلسوف كلامه، والتفت كي ينظر نحو الفنان الذي جلس خائـــر القوى على مقعده. بدا الأمر وكأن الطاقة التي استخدمها هذه الطريقة المنهكة طوال الأيام القليلة الماضية، قد نفدت على حين غرة.

قال أرسطو: "ما من بارعٍ موجود يمتلك يدَي ليسيبوس".

15

مكث ليسيبوس في ميزا طيلة ربيع ذلك العام، كما أن الإسكندر عقـــد صداقةً مع مساعدَيه اللذين أخبراه قصصاً رائعةً عن فن معلمهما وشخصيته.

وقف الأمير الشاب أمام النحّات مرةً أخرى، لكنه فعل ذلك هذه المـــرة من أجل صنع عملٍ يُظهر الجسم بالكامل، وإن كان على صهوة جواد. ذات يوم، لاحظ الإسكندر عندما دخل المشغل وكان ليسيبوس غائـــباً، رسمـــاً غريباً لأرسطو بين رسوم مكدسةٍ من دون ترتيب على الطاولة.

تناهـــى إلى سمع الإسكندر صوت النحّات الذي ظهر فجأة قرب كتفه في تلك اللحظة بالذات: "هل أعجبتك؟".

ذُهـــل الإسكندر قليلاً وقال: "أنا آسف، لم أقصد التطفل، لكنّ هذا الرسم رائعٌ جداً. هل جلس أمامك كي ترسمه؟".

"كـــلا، كنت أخطّط لرسمه بين حين وآخر عندما كنت أشاهده وهو يتكلم أو يمشي، أتريد أن تأخذه؟".

"كـــلا، احـــتفظ أنت به، يُحتمل أن يُطلب منك ذات يوم أن تصنع تمثالاً له، ألا تعتقد أن الحكيم يستحق أكثر مما يستحقه ملك أو أمير؟".

أجـــاب ليسيبوس بعد أن ارتسمت ابتسامة على شفتيه: "أعتقد أن كـــلاً مـــنهما يستحق ذلك، وخاصة إذا كان الملك، أو الأمير، حكيماً بدوره".

كـــان الإســـكندر يستقبل زواراً بين الحين والآخر، وكان قادراً طـــوال فتـــرة أشهر على تمضية أوقات أكثر مع أصدقائه بسبب زيادة أنشطتهم الرياضية والعسكرية، وعلى الأخص خلال تلك الفترات التي يغيب فيها أرسطو بسبب الأبحاث التي يقوم بها، أو بسبب المهمات التي كان فيليب يأمره بتنفيذها. وفي تلك الأوقات، كان الإسكندر يتوجه إلى بيلا كي يرى والديه وكليوباترا التي كانت تزداد جمالاً كل يوم.

أمـــا في ميزا فكان يعود إلى دراساته وتمارينه الروتينية التي أبقته مـــشغولاً علـــى الدوام، والتي استوعبت طاقاته الجسدية والذهنية. أما طريقة أرسطو المنهجية في أبحاثه فكانت تمثّل إلهاماً يساعد تلميذه على تنظيم دراسته.

صمّم أرسطو ساعة شمسية وُضعت في الباحة، بالإضافة إلى ساعة مائـــية وُضعت في المكتبة، وساعدته الساعتان على معرفة مدة الدروس الـــتي كـــان يعطيها، أو على العمل في المختبر بشكلٍ يعطي كل تلميذ القدر الصحيح من الوقت.

اســـتنبت أرســـطو في أحد أجنحة المبنى مجموعة لا بأس بها من النـــباتات الطبـــية، كمـــا احـــتفظ هناك بحيوانات محنّطة، وحشرات وفراشات، ومواد عضوية. وامتلك كذلك كميةً من القار التي أرسلها إلـــيه بعض أصدقائه من آتارنيوس في الشرق، كما أن الإسكندر دُهش عندما أقدم معلّمه على إشعالها وأصدرت لهيباً حاراً ذا رائحة نفاذة.

علّـــق الإسكندر بالقول: "أعتقد أن زيت الزيتون أفضل بكثير". وسارع أرسطو إلى موافقته على رأيه.

جمـــع المعلّم مختلف أنواع الأشياء التي تثير فضوله، وقام بتصنيف كـــل شـــيء معروفٍ في الطبيعة، حتى إنه خطّط خريطة تحدد مواقع مـــصادر المـــياه الحـــارة المنتشرة في أنحاء عدة من البلاد، كما درس

خصائصها الشافية، ولاحظ فيليب ذاته أن هذه المياه تريحه عندما أخضع ساقه لحمامات الوحل الساخن الذي أحضر من نبع لينكستس.

أما في مدرسة ميزا، فقد خُصّص جدارٌ بأكمله من الرفوف لمجموعة من الحيوانات التي وُجدت محفوظةً داخل الأحجار، كانت بعض هذه الحيوانات المحفوظة من السمك، لكن تواجدت كذلك النباتات، والأوراق، والحشرات، وحتى أحد الطيور.

أعرب الإسكندر عن ملاحظةٍ بدا أنها قيّمة: "يبدو لي أن كل هذا يبرهن عن وجود فيضانٍ في الماضي، لأن هذه الأسماك عُثر عليها في الجبال المتواجدة حولنا".

كان أرسطو يود لو أن في إمكانه تقديم تفسير آخر، لكنه اضطر، في تلك اللحظة على الأقل، إلى الاعتراف بأن أسطورة الفيضان هي الرواية الوحيدة التي تفسّر تلك الظاهرة. بدت هذه النقطة ذات أهمية ثانوية على كل حال، لأنه يعتقد أنه من الضروري تجميع هذه الأشياء وقياسها، ووصفها، ورسمها، وذلك كي يتمكن شخصٌ ما في السنين القادمة من العثور على تفسيرٍ علمي يستند إلى معطياتٍ قاطعة.

كانت علاقة الفيلسوف مع الإسكندر مصدر رضا عظيم لأرسطو، لأن ابن فيليب كان يطرح أسئلةً على الدوام، وهذا هو، تحديداً، ما يأمله كل معلمٍ من تلامذته.

أما في الحقل السياسي فقد جمع أرسطو في الماضي، وتابع ذلك في الوقت الحاضر بمساعدة مساعديه والإسكندر ذاته، دساتير الدول والمدن العديدة، سواء أكانت الشرقية منها أو الغربية، والإغريقية (اليونانية) منها أو البربرية.

سأله الإسكندر: "هل تهدف إلى جمع كل الدساتير الموجودة في العالم".

تـــأوه أرسطو قبل أن يقول: "فقط لو أمكنني القيام بذلك، لكنني أخشى من أنه عمل يصعب تحقيقه".

"إذاً، مـــا هو هدف أبحاثك؟ هل تريد العثور على أفضل دستورٍ بينها؟".

أجـــاب الفيلـــسوف: "يستحيل عليّ ذلك، أولاً، لأنه لا وجود لمقياسٍ ثابت يساعد على تحديد الدستور المثالي، وذلك بالرغم من رأي معلمي أفلاطون في هذا الموضوع. إنني لا أهدف إلى التوصّل إلى تحديد الدســتور المــثالي بقدر ما أهدف إلى ملاحظة كيفية تنظيم كل مجتمع بحـــسب متطلباته، والبيئة التي نشأ فيها، والوسائل الموضوعة بتصرفه، والأصدقاء والأعداء الذين يُفترض به التعامل معهم.

"يتـــضح لنا إذاً أن ذلك يعني استحالة وجود دستور مثالي. لكنّ الواقــع هـــو أن القوانين الديمقراطية للمدن اليونانية هي الوحيدة التي يمكنها أن تحكم حياة الناس الأحرار".

عـــبرت ليبـــتين الـــباحة في تلك اللحظة بالذات، وكانت تحمل قارورة مليئة بالمياه عند ردفها، وتصوّر الإسكندر، للحظة، وعورة جبل بانجايوس وقسوته.

قال الإسكندر: "وماذا بشأن العبيد؟ هل في الإمكان وجود عالم من دون عبيد؟".

أجـــاب أرسطو: "كلا، طالما يستحيل وجود نولٍ ينسج القماش مـــن تلقـــاء نفسه، أما إذا أصبح ذلك ممكناً فيُمكن عندها أن نتصور إمكانـــية وجـــود عـــالم من دون عبيد، لكنني لا أعتقد أبداً أن ذلك سيحدث في المستقبل".

سأل الأمير الشاب في أحد الأيام معلمه سؤالاً لم يسبق له أن تجرأ علـــى طرحه حتى تلك اللحظة: "إذا كانت القوانين الديمقراطية للمدن

اليونانية هي وحدها ذات قيمة للرجال الأحرار، فلماذا إذاً قبلتَ وظيفة تعليم ابن ملك، ولماذا أنت صديق فيليب؟".

"ما من مؤسسة إنسانية يمكن اعتبارها كاملة، كما أن لنظام المدينة اليوناني مشكلة كبيرة: الحرب. إذ تسعى مدنٌ كثيرة، وحتى لو كانت مدعومة بالقوانين الديمقراطية، إلى السيطرة على غيرها، وإلى كسب المزيد من الأراضي الخصبة، ومن التحالفات التي تزيدها قوة. ويؤدي هذا الوضع إلى نشوب حروب مستمرة، وهي التي تستنفد أفضل طاقاتها، بل وتفيد عدو اليونانيين القديم: الإمبراطورية الفارسية.

أما الملوك الذين يماثلون والدك فيأخذون على عاتقهم التصرّف كوسطاء، ويسعون إلى وضع حدٍّ لهذه الصراعات المميتة. يُمكن لوالدك أن يضمن نوعاً من أنواع الوحدة فوق هذا الانقسام، ويمكنه أن يصبح حَكَماً وموجّهاً يعرف كيفية فرض السلام إذا لزم الأمر، حتى ولو اضطره الأمر إلى استخدام القوة. إنني أفضّل ملكاً يونانياً يحمي الحضارة اليونانية من الدمار، على الحرب المستمرة التي يشنّها الجميع على الجميع، وهو الأمر الذي يؤدي بنا في النهاية إلى الوقوع تحت سيطرة وعبودية البرابرة.

هذه هي أفكاري، ولهذا السبب قبلت وظيفة تعليم ملك، وفيما عدا ذلك لا يستطيع أي مبلغ من المال شراء أرسطو مهما كان كبيراً".

أحسّ الإسكندر براحة كبيرة لدى سماعه هذا الجواب، وشعر أنه منصفٌ وصادق. أدركَ الإسكندر مع مرور الوقت وجود تناقضٍ مستعصٍ يتنامى في أعماقه: التعليم الذي يتلقاه من جهة، والذي كان متحمساً له، والذي كان يدفعه نحو الاعتدال في سلوكه، وفي تفكيره، وفي رغباته، وفي مواقفه تجاه الفن والمعرفة، وطبيعته التي تتصف بالجرأة

مـــن جهة ثانية، وهي التي تدفعه نحو اتّباع المُثُل القديمة لقِيَم المحاربين، وهـــي أمرٌ قريبٌ جداً من البطولة التي وجدها في أشعار هوميروس وفي كتّاب التراجيديا من المسرحيين.

تـــرجع أصول الإسكندر من جهة أمه إلى آخيل، بطل **الإلياذة**، وهو العدو القوي لطروادة، وهذه الأمور كانت من المسلمات بالنسبة إلـــيه. ولقـــد زوّدته قراءة **الإلياذة**، التي كان يحتفظ بها تحت وسادته، والتي، كرّس لها آخر الأوقات من يومه، بدفعٍ لروحه ومخيلته، وأيقظت فيه إثارة لا حدّ لها.

كانـــت ليبتين وحدها، قادرة على تهدئته في هذه المناسبات، وهو الـــذي سمح لها منذ مدة بالاقتراب منه أكثر فأكثر، وحتى إنه سعى في بعـــض الأوقات إلى الحصول على حميميةٍ أكبر معها، وكان له ما أراد. يُحـــتمل أن سبب ذلك يعود إلى حرمانه من عطف والدته وشقيقته، لكـــنّ السبب الأهم يكمن في الحاجة إلى الملامسة بطريقة خبيرة، وفي كيفية توزيع الضوء، وهذا ما أعطاه سروراً لذيذاً بدأ يتنامى إلى درجة زيادة اتّقاد عينيه وأطرافه. كانت ليبتين تعدّ له في كل مرة حماماً ساخناً وتـــدع المـــياه تندفع من فوق كتفيه وجذعه، وكانت تمسّد له شعره وظهره حتى يصل إلى قمة الشعور.

ترافقت لحظات الاسترخاء هذه مع رغبة جامحة في التحرك، وترْكِ هدوء هذا المنتجع من أجل السير على خطى الرجال العظام في التاريخ، بـــدأ هـــذا الغضب البدائي، وهذا التوق للصراع الجسدي يجد طريقه للتحقق حتى في تصرفاته اليومية. ففي إحدى المرات، خرج إلى الصيد مع رفاقه، وانتهى به الأمر بعراكٍ مع فيلوتاس بسبب ظبـــي ادّعى كل واحـــد مـــنهما أنه هو الذي اصطاده أولاً. عندها أمسك الإسكندر صديقه في وضعٍ خانقٍ، وكاد أن يقتله لولا تدخل الآخرين لإيقافه.

كـــاد الإسكندر في مناسبة أخرى أن يصفع كاليستين لأنه ألقى ظلالاً من الشك على صحة أعمالِ هوميروس.

راقـــبه أرســـطو بانتـــباه شديد، وحتى مع بعض القلق، ولاحظ أن الإســـكندر يمـــتلك طبيعتين: الشاب المهذب ذو الفضول الذي لا يشبع، والـــذي يطـــرح آلاف الأسئلة، والذي يعرف كيف يغني، ويرسم، ويتلو مـــسرحيات مآســـي يوريبيديس، والمحارب البربري ذو الطبيعة الشّرسة، والمقاتـــل المتـــشدّد الذي يبرز دائماً في الصفوف الأمامية خلال رحلات الصيد، والسباقات، والمناورات الحربية، وفي جلسات التدريب، والتي تبرز فيها جرأته إلى حدّ وضع طرف سيفه فوق رقبة الرجل الذي يقف قبله.

اعتقد الفيلسوف في تلك اللحظات أنه يفهم غموض تلك النظرة التي كانت تتلبد فجأة وترسم ظلالاً مقلقة، وهي التي كانت تتكثّف في أعمـــاق عينه اليسرى، لكنّ لحظة إطلاق الأسد الأركادي لم تكن قد حانت بعد.

شعر أرسطو أنه ما زال أمامه الكثير لتعليمه إيّاه، وأنّه يجب عليه توجـــيه طاقاته الاستثنائية، وذلك من أجل تزويده بغاية وهدف، كان عليه تجهيز ذلك الجسد، المعدّ منذ الولادة لعنف المعاركِ الشرسة، بعقلٍ سياسي قادرٍ على التفكير في خطة ومتابعة تنفيذها حتى النهاية. وهكذا يـــتمكن، وبهـــذه الطـــريقة فقـــط، من إكمال تحفته، أي مثلما فعل ليسيبوس.

*

مـــرّ الخـــريف وجاء الشتاء، وما كان من السعاة إلا أن جاءوا بالأخبار إلى ميبزا، والتي أفادت أن فيليب لن يعود إلى بيلا، أفادت هذه الأنباء كذلك أن ملوك تراقيا قد حصلوا على مساعدةٍ جديدة، ولذلك فهم يحتاجون إلى تلقينهم درساً جديداً.

كـــان يتوجّب على الجيش مواجهة قساوة الشتاء في تلك البقاع النائـــية الـــتي تعصف فيها الرياح القارسة، وتهب فوق سهول سكاثيا المكسوة بالثلوج، وفوق قمم هايمون المكسوة بالجليد.

كانـــت تلـــك حملةً شاقةً بشكلٍ مخيف، إذ تعيّن على الجنود أن يتعاملوا مع عدوٍ صعب يحارب فوق أرضه، أي أنه تعوّد على الصمود في وجـــه أصـــعب الظروف قساوةً. ولكن، عندما عاد فصل الربيع، كانـــت الأراضـــي الشاسعة الممتدة من شواطئ بحر إيجة حتى نهر إستر العظيم تنعم بسلامٍ تام بعد ضمّها إلى المملكة المقدونية.

أسّـــس الملـــك مدينةً وسط تلك الأراضي البرية، وأعطاها اسمه، فيليبوبولـــيس، وهكـــذا أعطى ديموستين فرصة للسخرية. فلقد أقدم ديموســـتين على وصفها بقوله *مدينة اللصوص*، أو *مدينة الخارجين على القانون*.

أمّـــا الـــربيع فلقد شهد عودة المراعي إلى تلك الأراضي البرية، وكذلك عودة قطعان الأبقار التي انتقلت من السهل نحو مراعي الجبل.

وذات يـــوم، خـــرقت أصوات الجياد المتقدمة الهدوء المخيّم على ميـــزا. فلقد تقدمت بخطواتٍ كبيرة، وسرعان ما تناهى وقع قوائمها إلى الأسمـــاع فـــتقدّم أحد فرسان الحرس الملكي، ودقّ على باب غرفة أرسطو.

"الملـــك فيليب موجود هنا، وهو يريد أن يرى ابنه وأن يتحدث إليك".

هـــبّ أرسطو واقفاً بسرعة، وتوجّه كي يرحّب بالضيف ذائع الصيت. كاد الفيلسوف أن يركض عبر الممر، وأسرع بإعطاء الأوامر إلى كـــل مـــن التقاه، وأبلغهم بضرورة تحضير حمامٍ ساخن، ووليمة للملك ومرافقيه.

وعندما وصل الفيلسوف إلى الباحة لاحظ أن الإسكندر قد سبقه إلى الترحيب بفيليب.

صاح الإسكندر وهو يركض نحو الملك: "والدي!".

صاح فيليب وهو يعانق الإسكندر لفترةٍ طويلة" "بنيّ!".

16

تراجع الإسكندر عن معانقة أبيه كي يتمكن من النظر إليه جيداً، فلاحظ أن الحملة على تراقيا قد تركت بصماتها القوية عليه. إذ بدا أنّ بشرته قد احترقت بفعل الصقيع، كما ارتسم جرحٌ كبير فوق حاجبه الأيمن، أما عينه اليمنى فكانت نصف مغلقة، كما غزا الشيب شعره.

"أبـــي، ماذا حدث لك؟".

"كانـــت تلك أصعب حملة في حياتي كلها يا بنيّ، كما أن الشتاء كان عدواً أشد قساوة وشراسة من الجنود التراقيين، لكنّ إمبراطوريتنا تمـــتد الآن مـــن الأدرياتيكي حتى البحر الأسود، ومن نهر إستر إلى ممر ثيرموبايلاي، ويتعيّن على اليونانيين الآن أن يعترفوا بـــي قائداً لهم".

أحـــبّ الإســـكندر أن يطرح ألف سؤالٍ آخر حول موضوعات شـــتى، لكنه رأى الخدم وفتيات القصر يسرعونَ إلى الاهتمام بفيليب، فقال له: "أنت بحاجة إلى حمّام يا والدي، سنتابع حديثنا عندما نتناول طعام العشاء، أتريد أنً نطبخ لك شيئاً خاصاً؟".

"أتمتلكون ظبياً؟".

"بقدر ما تستطيع أن تأكل، وكذلك شراباً من أتيكي".

"إذاً، يمكننا أن نشرب نخب صحة ديموستين".

صاح الإسكندر: "نخب ديموستين يا والدي!" وانطلق راكضاً نحو المطبخ كي يتأكد من تحضير كل شيء بطريقة مثالية.

انضمّ أرسطو إلى الملك في غرفة الحمام، وجلس قربه، وأصغى لما يقوله بينما تولت الفتيات تمسيد كتفيه وفركِ ظهره.

"إنه حمامٌ منشط مع الميريمية، ستشعر بتحسنٍ كبير نتيجته، كيف حالك يا سيدي؟".

"متعبٌ يا أرسطو، وما زال أمامي عملٌ كثير".

"أيمكـــنك المكـــوث هنا لأسبوعٍ أو أسبوعين؟ إنني لا أزعم أنني أســـتطيع إعادة شبابك إليك، لكنني أستطيع إعادة اللياقة إليك، وذلك عـــبر نظـــامٍ غذائي من أجل تنظيف جهازك الهضمي، والتمسيدات، والحمامات الساخنة، وإجراء التمارين لساقك. أما عينك تلك... أرى أنهـــا لم تُعـــالج بطريقة صحيحة، يتعيّن عليّ أن أفحصك ما إن يصبح لديك وقت".

"آه! لكن ليس لديّ وقت لكل هذه الكماليات، كما أن جرّاحي الجيش قاموا بما في وسعهم، أريد أن أشكرك كثيراً على النظام الغذائي الحربـــــي الـــشتوي الذي وصفتَه لجنودنا، نجح هذا النظام كثيراً، أما النـــتائج فكانـــت ممـــتازة، أعتقد أن هذا النظام قد نجح في إنقاذ حياة كثيرين".

أحنى الفيلسوف رأسه قليلاً. فعاد الملك للحديث من جديد: "إنني في ورطة يا أرسطو، إنني بحاجة إلى مساعدتك".

"تكلّم إذاً".

"أعرف بأنك لا توافقني الرأي، لكنني أتحضّر كي أحتل كل المدن الموجـــودة قـــرب المـــضائق، والتي لا تزال تحت سيطرة أثينا، أريد أن أمتحن بيرينثيا، وبيزنطة لأنني أريد معرفة إلى أي جهةٍ تميلان".

"إذا أجـــبرتهما على تحديد خيارٍ واحد فستختاران أثينا، وسيتعيّن عليك أن تستخدم القوة".

"نجحـــت في توظـــيف خـــدمات أفضل المهندسين العسكريين المتوفـــرين هذه الأيام، وقد بدأ في تصميم آلات ضخمة، بعضها يبلغ

تسعين قدماً في الارتفاع، ستكلفني هذه الآلات مبالغ طائلة، لكنها لن تضيع سدى".

"أعتقد، على كل حال، أن رأيي لن يجدي نفعاً في إقناعك".

"كلا، في واقع الأمر".

"إذاً لماذا طلبتَ نصيحتي؟".

"طلبتها بسبب الوضع السائد في أثينا، أبلغني المخبرون أن ديموستين يخطّط لإقامة تحالف هليني ضدي".

"إنه أمر منطقي ومفهوم، فهو يعتبرك أخطر عدوٍ لأثينا، وأكبر تهديد للاستقلال والديمقراطية في المدن اليونانية".

"لو أردتُ السيطرة على أثينا لكنت فعلت ذلك منذ زمن، لكنني فضّلت أن أفرض سيطرتي فقط على المنطقة التي تقع تحت النفوذ المقدوني مباشرة".

"لكنك سوّيتَ أولينثوس بالأرض...".

"أجل، لكنّ سكان أولينثوس أفقدوني صوابي!".

رفع أرسطو حاجبيه وتأوه، ثم قال: "أفهم ذلك".

"إذاً... ماذا يمكننا أن نفعل لمواجهة هذا التحالف؟ إذا نجح ديموستين فسأضطر إلى مواجهة التحالف بواسطة جيشي، وذلك في معركة مفتوحة".

"لا أعتقد في هذه اللحظة أنّ هناك أي خطر من ذلك التحالف، إن هذا النزاع، وهذه الخصومة، وهذا الحسد المتفشي في صفوف اليونانيين قد بلغت حداً من القوة بحيث فقد التحالف فعاليته، حسب ما أعتقد، لكنك إذا استمررت في سياستك العدائية فلن تنجح إلا في توحيدهم، أي مثلما حدث وقت الاجتياح الفارسي".

زمجـــر الملك صائحاً: "لكنني لست فارسياً!" وما لبث أن ضرب بقبـــضته علـــى طرف الحمّام، وهو الأمر الذي تسبّب بحدوث عاصفةٍ صغيرة في الحوض.

تكلّم أرسطو مجدداً ما إن هدأت المياه: "وما الفرق في ذلك، فمنذ أقدم الأزمنة، وكلما أحرزت إحدى القوى الكبرى السيطرة على كل القـــوى الأخـــرى، فـــإن هذه القوى تتكتل وتنشئ تحالفاً ضدها. إن اليونانيين مغرمون كثيراً باستقلالهم التام، وهم مستعدون لفعل أي شيء مـــن أجل الحفاظ عليه. إنك تدرك، من دون شك، أن ديموستين قادر علـــى عقـــد صفقةٍ مع الفرس؟ إنهم يعطون قيمةً كبيرة للحفاظ على استقلالهم أكبر من محافظتهم على روابط الدم والثقافة".

"بالتأكيد، إنني أعتزم الانتظار بهدوء كي أرى ماذا يحدث".

"كـــلا، يتعـــيّن علـــيك أن تدرك أنه في كل مرة تأخذ فيها مبادرةً عسكرية ضد الأراضي الأثينية أو حلفائها، فإنك تجلب المشاكل لأصدقائك في المدينة، لأنهم سيُعتَبرون خونة، أو من المشتبه أن يكونوا فاسدين".

قال فيليب من دون اكتراث: "وبعضهم هكذا بالفعل. أعرف، على كـــل حال، أنني على حق، ولذلك سأستمر في سلوك هذا النهج، أريد أن أطلـــب خدمـــةً منك. أعرف أن والد زوجتك هو حاكم آسوس لذلك أعتقد أنه إذا بدأ ديموستين بالتفاوض مع الفرس فسيعرف بالأمر".

قـــال أرســـطو واعداً إياه: "سأكتب إليه. ولكن، تذكّر أنك إذا كـــنتَ مصمماً على متابعة نهجك هذا فستجد نفسك عاجلاً أم آجلاً مضطراً إلى مواجهة تحالف ديموستين، أو ربما إلى شيء من هذا القبيل".

اســـتغرق الملك في هدوءٍ عميق، لكنه ما لبث أن هبّ واقفاً، و لم يـــسع الفيلـــسوف إلا أن يلاحـــظ خدوشاً جديدة في جسده، بينما انشغلت النساء بتجفيف المياه عنه بالمناشف، ثم ألبسنه ملابس نظيفة.

سأل فيليب على حين غرة: "وما هو التقدم الذي يحرزه ابني؟".

"إنـــه، بالفعل، أحد أفضل الرجال الاستثنائيين الذين قابلتهم في حـــياتي كلـــها. لكـــن، يصعب عليّ مع مرور كل يوم إبقاؤه تحت السيطرة، إنه يتتبع كل محاولاتك، وأعتقد أنه بدأ في محاولة تذوق طعم النصر، إنه يريد تأمين بعض المجد الآن، وذلك كي يُظهر قيمته، يخشى ابنك ألاّ يتبقى له أي شيء ليهزمه عندما يحين دوره".

هزّ فيليب رأسه قبل أن يبتسم، ثم قال: "لا أعتقد أن هذه مشكلة حقيقـــية... سأتكلّم معه، أريده أن يبقى هنا في هذه الفترة، إذ يتعيّن عليه أن يُكمل تعليمه".

"هل رأيت اللوحة التي رسمها ليسيبوس لابنك؟".

"ليس بعد، لكنني سمعت أنها رائعة".

"إنهـــا كـــذلك بالفعل، قرّر الإسكندر أنه لن يسمحُ لأحد غير ليسيبوس برسمه، أثّرت اللوحة فيه كثيراً".

"ســـبق لي أن أمـــرت أن تُصنع نسخ منها وتوزع في كل المدن المـــتحالفة معـــنا، وذلك كي تُعرض أمام الجمهور، إنني أريد أن يرى اليونانيون أن ابني قد كبُر على سفوح جبل الأسياد".

رافقـــه أرسطو إلى غرفة الطعام التي من الأفضل أن نطلق عليها اسم المطعـــم، حيث أقدم الفيلسوف على إبعاد كل الأسرة التي كانت مخصصة لتناول الطعام، وكذلك كل الطاولات والكراسي منخفضة العلو، وأمر بإحـــضار كراسٍ وطاولات تشبه تلك الموجودة في منازل الفقراء، أو تلـــك الـــتي توضع في الخَيَم العسكرية. فلقد بدا له هذا الترتيب أكثر ملاءمة لجو التربية والدرس الذي جهد للمحافظة عليه في ميبزا.

قـــال الملك عندما بدأ بالسير في أحد الممرات: "هل لاحظتَ أنه يقيم علاقات مع الفتيات؟ إنه الوقت المناسب كي يبدأ بها".

"إنـــه يمتلك طبيعة محافظةً جداً، تقترب من الخجل. ولكن، هناك فتاة واحدة، وأعتقد أنها تُدعى ليبتين".

ظهر العبوس على جبهة فيليب، وقال: "تابِع".

"لا يوجد الكثير للتحدث عنه، إنها مخلصة له، وكأنها تبجله، وهي الأنثى الوحيدة التي تستطيع الوصول إليه في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، لكنني لا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

"بدأ فيليب بحكّ ذقنه من خلال لحيته الكثة، وقال: "لا أريده أن يُـــنجب ولداً غير شرعي من تلك الخادمة، يُحتمل أنه من الأفضل أن أرســـل له خليلة تعرف هذه الصنعة، وهكذا لن تكون هناك تعقيدات، كما أنها ستكون قادرة على تعليمه بضعة أمورٍ مهمة".

وكانـــا في ذلـــك الـــوقت قد وصلا إلى مدخل غرفة المائدة، فـــتوقف أرسطو عن السير ليقول: "لو كنت مكانك ما كنت لأفعل ذلك".

"لكـــنها لن تؤثر في عملك مطلقاً، إنني أتحدث عن امرأة تمتلك ثقافة من الدرجة الأولى وتجربة ممتازة".

قال الفيلسوف: "إنني لا أتحدث عن هذا، سمح لك الإسكندر أن تخـــتار معلمه والفنان الذي يرسمه، وذلك لأنه يحبك، ولأنه ناضجٌ جداً بالنـــسبة إلى عمــــره، لكنني لا أظن أنه سيسمح لك أن تتجاوز تلك الأمور، أي أنه لن يسمح لك بالتدخل في حياته الخاصة".

تمتم فيليب بشيء غير مفهوم، ثم قال: "إنني جائع، ألا يوجد شيء كي نأكله في هذا المكان؟".

*

أكـــل الجمـــيع بسرور، أما بيريتاس فجلس تحت الطاولة، وبدأ بقضم عظام الظبـــي التي رموها إليه على الأرض.

أراد الإسكندر أن يسمع بنفسه كل تفاصيل حملة تراقيا، أراد أن يعرف عن الأسلحة التي يملكها الأعداء، والطريقة التي يستخدمونها في القتال، أراد كذلك أن يعرف ما إذا كانت قراهم ومدنهم محصنة، بالإضافة إلى الطريقة التي حارب فيها الملكان العدوّان، سيرسوبيليب وتيريس.

خاطب فيليب كل الموجودين خلال انشغال الخدم في رفع مائدة الطعام والتنظيف، وقال لهم: "والآن، اسمحوا لي أن آذن لكم بالخلود إلى النوم متمنياً لكم ليلةً سعيدة. أرغب في تمضية بعض الوقت مع ابني بمفردنا".

وقف الجميع، وتمنوا للملك ليلةً سعيدة، وتُرك فيليب والإسكندر بمفردهما في قاعة كبيرة فارغة ينيرها ضوء المشعل، أما كل ما كان يُسمع فيها فكان صوت مضغ العظام وكسرها الذي يصدر من تحت الطاولة. وكان بيريتاس قد كبُر في هذه الفترة، وأصبحت لديه أسنان تماثل أسنان الأسد في قوتها.

سأله الإسكندر: "أصحيحٌ أنك ستغادر على الفور، أي يوم غد".

"أجل".

"كنت آمل أن تمكث بضعة أيام".

"كنت آمل ذلك أنا أيضاً يا بنيّ".

خيّمت على المكان فترة صمتٍ طويلة، ولم يكن من عادة فيليب أن يبرّر قراراته.

"وماذا تعتزم أن تفعل؟".

"أعتزم أن أحتلّ المستعمرات الأثينية في شبه جزيرة شيرسونيا، إنني أصنع أكبر الآلات الهجومية التي صُنعت على الإطلاق، أريد إيصال أسطولنا إلى المضائق".

"يمرّ قمح أثينا عبر المضائق".

"بالضبط".

"لكن هذا يعني نشوب حرب".

"ليس بالضرورة، أريد أن أفرض احترامي عليهم، وإذا كان لا بد من وجود تحالف هليني فلا بد أن يفهم الجميع أنه ما من أحد يمكن أن يترأسه غيري".

"خذني معك يا والدي".

حدّق فيليب إلى عينَي ابنه وأجاب: "لم يحن الوقت بعد يا بنيّ، يتعيّن عليك أن تُكمل دراستك، وتثقيفك، وتدريباتك".

"لكنّني...".

"اسمع، إن خبرتك محدودة جداً في الحملات العسكرية، أعرف أنك أظهرت الشجاعة والقدرة في الصيد، وأعرف أنك ماهر جداً في استخدام أسلحتك. ولكن، صدّقني عندما أقول لك إن الأمور التي ستضطر إلى مواجهتها في المستقبل ستكون أصعب آلاف المرات. رأيت رجالي يموتون من البرد والإجهاد، ورأيتهم يعانون من محَنٍ قاسية تشمل تمزّق أجسادهم، رأيت غيرهم يهوون من ارتفاعاتٍ عالية خلال محاولاتهم تسلّق أسوار المدينة، لأسمعهم بعد ذلك يصرخونَ نتيجة الألم المبرّح... كنت أصغي إلى أن يحلّ الصمت.

انظر إليّ، وتطلع إلى ذراعيّ اللتين تبدوان مثل جذع شجرة أنشب فيها دبٌّ مخالبه، سبق لي أن جُرحت إحدى عشرة مرة، وعانيت من الشلل، كما أنني نصف أعمى، *الإسكندر، الإسكندر*، إنك ترى المجد، لكن الحرب تعني الرعب قبل كل شيء، إنها دم، وعرق، وإفرازات، إنها غبار ووحل، وهي العطش والجوع، والصقيع الذي لا يُحتمل، والحرارة التي لا تُحتمل، دعني أواجه كل هذه الأمور بالنيابة عنك طالما أنني أقدر على ذلك. ابقَ هنا في ميزا يا بني سنة إضافية فقط".

لم يقـــل الشاب شيئاً، لأنه أدرك أن هذه الكلمات لا تترك مجالاً للرد، لكنّ والده الجريح، ونظرته المتعبة، كانا يتوسلانه أن يفهم، وألاّ يكرهه على هذا القرار.

أمـــا في الخـــارج فقد تناهت من البعيد أصوات الرعد وومضات الـــبرق التي بدأت تنير على حين غرة أطراف الغيوم المحملة بالعواصف، والتي تجمعت فوق قمم جبل بيرميون.

سأل الإسكندر فجأة: "كيف حال أمي؟".

خفض فيليب نظره.

"سمعت أنك اتخذتَ زوجة جديدة، علمت كذلك أنها ابنة ملك من البرابرة".

"إنه زعيم سكاثيا، اضطررت أن أعقد هذا الزواج، وأنت ستفعل الأمر ذاته عندما يحين دورك".

"أعرف، لكن كيف هي حال أمي؟".

"إنها بخير، ضمن هذه الظروف".

"إذاً سأســـتأذن، ليلة طيبة يا والدي". وقف الإسكندر، ثم مشى نحـــو الباب يتبعه كلبه، شعر فيليب أنه يحسد ذلك الحيوان لأنه يرافق ابنه، كما أنه يسمع صوت أنفاسه في أثناء الليل.

بـــدأت السماء تمطر، هطلت في البداية عدة نقاط ثقيلة، لكنها ما لبثت أن تكاثرت. هبّ الملك واقفاً بعد أن أصبح وحده في القاعة، ثمّ خرج بعد ذلك إلى الرواق ذي الأعمدة في الوقت الذي التمع فيه برق يُعمي الأبصار، والذي أضاء الفناء الفسيح، و لم يتأخر بعد ذلك الرعد المـــدوّي الذي يصمّ الآذان. فاستند فيليب على عمودٍ ووقف هناك بلا حراك وهو يراقب قطرات المطر التي تنهمر بغزارة.

17

سارت الأمور بحسب ما توقع أرسطو بالضبط. فلقد أعلنت بيرينثوس وبيزانتيوم دعمهما لأثينا، وذلك بعد حشرهما في الزاوية، وردّ فيليب بفرض الحصار على بيرينثوس، وهي مدينة تقع على الساحل الشمالي لهيليسبونت، والتي شيّدت فوق رأسٍ صخري يتصل باليابسة عبر برزخ.

نصب فيليب معسكره فوق سهلٍ يسمح له بالسيطرة على الوضع بكامله، وكان يدعو قادته في كل مساء إلى اجتماعٍ معه: أنتيباتر، وبارمينيون، وكليتوس الذي يُعرف باسم *الأسود* بسبب شعره الأسود، وعينيه السوداوين، وملامحه الداكنة، حتى إنه كان يظهر في حالة سوداوية (مكتئبة) على الدوام، لكنه كان قائداً ممتازاً.

سأل الملك فور دخوله، وحتى قبل أن يجلس: "هل قرروا التفاوض على الاستسلام، نعم أم لا؟".

قال بارمينيون: "كلا، أعتقد كذلك أنهم لا يفكرون في هذا الاحتمال، إن المدينة معزولة عن البر بفضل خنادقنا، لكنهم يستمرون في تلقي المؤن بحراً بفضل الأسطول البيزنطي".

أضاف الأسود: "ولا يمكننا فعل أي شيء بهذا الشأن، إننا لا نسيطر على البحر".

ضرب فيليب قبضته على الطاولة، وصاح قائلاً: "لا أكترث أبداً بالسيطرة على البحر! ستكون أبراجي الهجومية جاهزة في غضون أيامٍ قليلة، وسأدمر أسوارهم، أريد أن أرى مدى شجاعتهم عند ذلك!".

هزّ الأسود رأسه.

"وما المشكلة في ذلك؟".

"لا مشكلة، إنني لا أعتقد، وبكل بساطة، أن الأمر سيكون بهذه السهولة".

"إذاً، أنت لا تعتقد هذا، أليس كذلك؟ حسناً يمكنك الإصغاء إلى ما سأقوله الآن: أريد أن تكون هذه الآلات اللعينة جاهزة للتحرك خلال يومين على الأكثر، وإلا فسأجلد ظهوركم بدءاً من كبير المهندسين وصولاً إلى أصغر المجندين، هل فهمتم جميعاً؟".

أجاب أنتيباتر بصبره المعهود: "لقد فهمنا تماماً يا سيدي".

تمكن غضب فيليب من إنجاز ما لا ينجز في ظروف محددة، فبدأت الآلات تقدّمها نحو الأسوار في غضون ثلاثة أيام، وأصدرت خلال هذا التقدم أصوات الصخب والصليل. كانت هذه الآلات أبراجاً قائمة بحدّ ذاتها، وأكبر من التحصينات التي أقامتها بيرينثوس، وكانت تعمل بواسطة نظامٍ من الأثقال المتقابلة، يمكن لكل واحدة منها أن تحمل مئات الجنود المزوّدين بمنجنيقاتهم وأسلحتهم الهجومية الأخرى.

فهم السكان المحاصرون ماذا سيحدث لهم، وخاصة لأن ذكرى ما حدث في أولينثوس، وهي المدينة التي حوّل غضب الملك المقدوني أبنيتها إلى رماد، قد ضاعفت من طاقاتهم، فأقدم هؤلاء على شنّ غاراتٍ ليلية، وحفروا الخنادق، وأحرقوا بعض الآلات، فأعاد فيليب صنعها، وحفر خنادق مضادة كي يُضعف أساسات الأسوار، بينما تابعت المدفعية عملها ليلاً ونهاراً من دون توقف، بينما ترددت أصداء الهجمات في أنحاء المدينة بأكملها.

وفي النهاية، انهارت الأسوار. لكنّ مفاجأة مريرة كانت تنتظر القادة المقدونيين، ولقد كُلّف أنتيباتر، وهو أكبر قائد وأكثر القادة احتراماً، بمهمة نقل الأنباء السيئة إلى الملك.

"سيّدي، لقد انهارت الأسوار، لكنني أنصحك ألاّ ترسل جنوداً مشاة إلى داخل المدينة".

"لا؟ ولماذا لا أفعل ذلك؟".

"تعال معي، وانظر بنفسك".

قصدا أحد الأبراج، وتسلّقا أعلى قمته، لكن المنظر الذي شاهداه وراء الأسوار أعجزه عن النطق. عمد سكان بيرينثوس إلى وصل كل المباني في صفوف من المنازل، وهكذا شكّلت سلسلة أولى للمدينة، أي أنهم أقدموا من الناحية العملية على إنشاء سور ثانٍ. كانت بيرينثوس مبنية على سفح تلة، أي أن هذه التقنية كانت مكررةً إلى ما لانهاية.

زمجر الملك عندما بدأ بالنزول عبر البرج عائداً إلى الأرض: "اللعنة".

توجّه الملك إلى خيمته وبقي هناك لعدة أيام كاتماً غضبه، وراح يفكّر في طريقة تخرجه من هذا المأزق العصيب الذي وقع فيه، كانت هناك أخبار سيئة أخرى تنتظره، ولهذا جاء كل رؤساء الأركان كي ينقلوها إليه بشكلٍ جماعي.

أعلن بارمينيون: "سيدي، جنّد الأثينيون عشرة آلافٍ من المرتزقة مستخدمين الأموال التي قدمها إليهم الحكام الفرس في آسيا الصغرى، وقد وصل هؤلاء بالفعل إلى شاطئ بيرينثوس".

خفض فيليب رأسه، وأدرك، لأسفه الشديد، أن الحتمية التي خشي منها أرسطو قد تحققت، وها هي فارس تتحالف مباشرة ضد مقدونيا.

زاد الأسود الطين بلة، وكأن الجو ليس متجهماً بما يكفي عندما قال: "إن ذلك مشكلة كبرى".

أضاف أنتيباتر: "لكن ذلك ليس كل شيء".

صاح فيليب: "وماذا هناك بعد، هل تتوقعون مني أن أسحب الكلمات من أفواهكم بكماشة".

تابع بارمينيون كلامه بالقول: "الأمر بسيط جداً، إن أسطولنا عالقٌ في البحر الأسود".

صاح الملك بصوتٍ أعلى: "ماذا؟ وماذا كان أسطولنا يفعل في البحر الأسود؟".

"كان يحاول قطع طريق قافلة من القمح متجهة إلى-بيرينثوس، لكنّ الأثينيين أدركوا ما يجري، وهكذا أقدموا في خطوةٍ مفاجئة على سدّ البوسفور بأسطولهم".

تهالك فيليب على مقعده من هول الصدمة، وأحاط رأسه بيديه، ثم تمتم قائلاً: "مئة وثلاثون سفينة، وثلاثة آلاف رجل". ثم بدأ يصيح بعد ذلك: "لا أستطيع الاستغناء عنهم بأي شكل من الأشكال!" وهبّ واقفاً، وراح يذرع الخيمة ذهاباً وإياباً بخطواتٍ واسعة.

في هذه الأثناء، انطلق البحارة الأثينيونً بإنشاد أغاني النصر على متن سفنهم الراسية في البوسفور. وعمد هؤلاء في كل مساء إلى إشعال النار في الأواني النحاسية بحيث تنعكس النّار على دروعهم المصقولة فتحجم السفن المقدونية عن محاولة استغلال الظلام من أجل فك الحصار. لم يدرك البحارة أنه عندما يتعرض فيليب للحصار، ويصبح عاجزاً عن استخدام قوته الرهيبة، فإنه سيتحول إلى الخداع، وهو الأمر الذي يضاعف من خطورته.

وحدث ذات ليلة، أن قبطان إحدى السفن الأثينية التي كانت تجوب الساحل الغربي من المضائق، رأى قارباً مقدونياً صغيراً وهو يبحر مع التيار، ويحاول البقاء قرب الشاطئ قدر الإمكان وذلك كي يتجنب كشفه. فأمر القبطان أن توجه أنوار النار المشتعلة في الأواني

النحاســية نحو الشاطئ، وهكذا أصبح القارب مرئياً على الفور بفعل الأنوار الساطعة المنعكسة.

صاح القبطان آمراً: "قف حيث أنت، وإلا فإنني سأغرق قاربك!" وطلــب مــن قائــد الدفــة أن يلتف نحو الميمنة، وأن يصوّب المدفع البرونــزي الكبير الذي تحمله السفينة باتجاه القارب الصغير.

خــاف الــبحارة الموجودون في القارب وتوقفوا عن التجذيف، وعندما طلب منهم القبطان الأثيني الاقتراب أكثر نفذوا ما أُمروا به، ثم صعدوا إلى متن السفينة.

تــرافق أمــرٌ غريب مع تصرفاقم، ومع مظاهرهم، لكنهم عندما فتحوا أفواههم ليتكلموا تأكد القبطان الأثيني من أمرٍ واحد، وهو أنهم كانوا مقدونيين بالتأكيد، أي أنهم لم يكونوا صيادين تراقيين كما ادّعوا في البداية.

أمــر القبطان بتفتيشهم، فتبيّن نتيجة التفتيش أن أحدهم قد علّق علــى رقبــته أسطوانة جلدية تتضمن رسالة في داخلها، كانت تلك، بالتأكــيد لــيلة حظّه! فطلب من أحد رجاله إحضار مشعل كي يقرأ الرسالة:

*

فيليب، ملك المقدونيين إلى أنتيباتر.

تحية أيها القائد!

أمامــنا الآن فرصــة لإنــزال الهزيمة الساحقة بالأسطول الأثيني في البوســفور، أرسـل مئة سفينة ودعها تتجاوز تاسوس، ثم دعها تشكّل سداً للمخرج الجنوبــي من هيليسبونت، أما أنا فسأرسل أسطولاً يتوجه إلى الجنوب وهكذا يصبحون بين فكّي كماشة بحيث لا يجدون أي مهربٍ لهــم، يتعــيّن علــيك أن تكون في المضيق في الليلة الأولى من القمر الجديد.

انتبه جيداً.

"يـــا للهول!" صاح القبطان ما إن فرغ من قراءة الرسالة. "ليس لدينا أي وقت نضيّعه".

أصـــدر القـــبطان أمـــره على الفور إلى قائد الدفة، وإلى رجال الـــتجذيف، كي يلتفّوا ويجذّفوا بكل قواهم باتجاه المضائق حيث ترسو سفينة القيادة، صعد القبطان إلى متن سفينة القيادة، وطلب التحدث مع النافارو وهو قائدٌ كبير في السّنّ ولديه خبرة عظيمة، ويدعى فوكيون، ثم أعطاه الرسالة التي تمكّن من اعتراضها، قرأها الضابط الكبير بسرعة، ثم مرّرها إلى الكاتب، وهو رجل كفوء سبق له أن عمل لسنواتٍ عدة بصفته أميناً للمجلس الأثيني.

تفحـــص الـــرجل محتويات الرسالة بتمعن، ثم قال: "سبق لي أن رأيت رسائل أخرى من فيليب في أرشيفنا، لذلك أستطيع أن أؤكد لك أن هذه الرسالة كُتبت بخط يده، كما أن الختم ختمه".

أرســـل النافارو بعد قليل، ومن مقدمة سفينة القيادة، إشارة من أحد الدروع تفيد أنه يتعيّن على جميع سفن الأسطول أن تنسحب.

وصلت السفن إلى تاسوس بعد ثلاثة أيام، لتكتشف أنه لا وجود لأســـطول أنتيباتـــر، وهو أمر لم يشكل مفاجأة بالفعل، لأن أنتيباتر لا يمـــتلك أســـطولاً على الإطلاق. في هذا الوقت، تمكنت السفن الملكية المقدونـــية من الإبحار بسلام عبر البوسفور وهيليسبونت، وتمكنت من إيجاد مرفأ آمنٍ لها.

ســـبق لديموســـتين أن وصف فيليب في أحد خطاباته المعادية له بالـــثعلب، لكـــنه أيقن عندما سمع بما حدث أن هذا الوصف يستحقه فعلاً، أكثر من أي وصفٍ آخر.

تخلـــى الملـــك المقـــدوني عن حصار بيرينثوس مع بداية فصل الخـــريف، لكنه توجه بجيشه شمالاً من أجل معاقبة قبائل سكاثيا التي

رفـضت إرسـال تعزيزات إلى جيشه. وهزم فيليب آتاس ملك هذه القبائل وقتله، وقد كان ملكاً يحارب بنفسه مع أنه تعدى التسعين من العمر.

وفي أثـناء رحلة العودة التي حدثت منتصف فصل الشتاء، تعرّض جيش فيليب إلى الهجوم من قِبل أشرس قبائل تراقيا، أي التربالليين. عانى المقدونيون من خسائر فادحة، واضطروا إلى التخلي عن غنائمهم. حتى إن المـلـك فيليب جرح هو الآخر، وبالكاد تمكّن من قيادة جنوده إلى بلادهم، واضطر إلى القتال كي يفتح الطريق أمامهم.

عـاد فيليب إلى قصره في بيلا وقد أثخنته جراحه، وأتعبته المعارك الـتي خاضـها، بالإضافة إلى الآلام الحادة بسبب ساقه المجروحة. كان متعباً، ولم يكن بإمكان المرء التعرّف عليه تقريباً. طلب فيليب في ذلك الـيوم عقد اجتماع استشاري، حيث يُبلّغ بكل الأمور التي حدثت في اليونان وفي مقدونيا في أثناء غيابه.

لم يـسمع المـلـك أي أخبارٍ سارة، لذلك كان سيثور مثل الثور الهائج لو بقي لديه قدرٌ قليل من الطاقة.

قرّر فيليب أن كل ما يستطيع فعله هو الاستسلام للنوم، وفي اليوم التالي قام باستدعاء فيليب الطبيب وقال له: "أريدك أن تفحصني بدقة، ما رأيك؟".

تفحـصه الطبيب ملياً صعوداً ونـزولاً، فلاحظ ملامحه الشاحبة، ونظـرته الـتي تفتقد إلى الحياة، وشفتيه المتشققتين والجافتين، وصوته المرتعش: "إنك في حالة سيئة يا سيدي".

قال الملك ملاحظاً: "إنك لا تلطّف كلماتك".

"إنـك تحـتاج إلى طبـيب ماهر، أما عندما تحتاج إلى أشخاص يبجلونك ويتملقونك فإنك تعرف أين تبحث عنهم".

"أنت على حق، أما الآن فعليك أن تصغي إليّ، إنني على استعداد لـــشرب أي مـــزيجٍ تصفه لي، وأنا مستعد كذلك إلى تعريض ظهري ورقـــبتي للكـــسر من قِبل المدلّكين الذين يعملون تحت إشرافك، وأن أخضع للحقن، وأن آكل الأسماك الفاسدة بدلاً من اللحم الأحمر، ولأي فترةٍ تأمرني بها، وأن أشرب مياه الينابيع الصافية حتى تتجمع مستعمرة مـــن الـــضفادع في بطني، لكن بحق الأسياد دعني أستعيد مقدرتي على الوقـــوف على قدميّ، لأنني أريد مع قدوم الصيف أن تدوي صرختي حتى تصل إلى أثينا وما بعدها".

سأل الطبيب بخجل: "هل ستنفذ تعليماتي بكل دقة".

"أجل، سأنفذها".

"أتعني أنك لن ترمي أدويتي ونقيعي عرض الحائط؟".

"كلا، لن أفعل ذلك".

"إذاً، تعالَ إلى عيادتي، أريد أن أفحصك".

*

مـــرّ بعض الوقت قبل أن يظهر فيليب، ومن دون إعلان مسبق، في جـــناح الملكة في إحدى الأمسيات الهادئة. ألقت الملكة نظرةً على نفسها في المرآة بعد أن تلقت تنبيهاً من وصيفاتها، وذلك قبل أن تقابله عـــند الباب. "إنني مسرورة لأنني رأيتك قد تعافيت يا سيدي. تعالَ، واجلس، إنني أتشرف عندما أستقبل ملك مقدونيا هنا في هذه الغرف".

جلـــس فيلـــيب، لكنه بقي صامتاً لمدةٍ من الزمن، وأبقى بصره منخفـــضاً. "هل كل هذه الرسميات ضرورية؟ ألا نستطيع أن نتحدث كزوجٍ وزوجة أمضيا معاً سنين عديدة؟".

أجابت أوليمبيا: "إن كلمة *معاً* لم تعد الكلمة المناسبة".

"إن لسانك أشد حدةً من سيف قاطعٍ. أتيت كي أتحدث معك".

"سأصغي".

"أريد أن أطلب منك معروفاً، لم تكن حملاتي العسكرية الأخيرة موفقة، خسرت رجالاً كثيرين، وبدّدت موارد ثمينة. يعتقدون في أثينا أنني انتهيت، وهم يصغون لما يقوله ديموستين وكأنه ضالع".

"هكذا سمعت أنا أيضاً".

"أوليمبيا، لا أريد مواجهة مباشرة في هذا الوقت، ولا أريد أن أفعل أي شيء قد يؤدي إلى مواجهة، ينبغي أن تسود النيّات الصافية في هذا الوقت، أريد أن نمتلك الإرادة كي نصلح ذات البين، ونصلح الضرر الذي...".

"كيف يمكنني أن أساعدك؟".

"لا أستطيع إرسال بعثة إلى أثينا في هذا الوقت، لكنني أعتقد أنك إذا قمتِ أنت، الملكة، بهذا فإن ذلك قد يغيّر أشياء كثيرة، إذ لم يسبق لكِ أن قمتِ بأي مبادرةٍ ضدهم. يعتقد الأثينيون أنك ضحية من ضحايا فيليب".

لم تعلّق أوليمبيا.

"سأختصر وأقول إنها ستكون نوعاً من بعثة من قوة محايدة، ألا تعتقدين ذلك؟ أوليمبيا، إنني أحتاج إلى الوقت، ساعديني أرجوكِ! وإذا لم ترغبي في مساعدتي، فكّري بابنك، إنني أؤسّس مملكته، وأساعد على فرض سيطرته على العالم اليوناني بأكمله، هذا هو ما أحضّر له".

صمت قليلاً، وتمكّن من الحفاظ على هدوئه بعد توسلاته العاطفية. التفتت أوليمبيا نحو النافذة، وكأنها تسعى إلى تفادي نظرته، لكنها بقيت صامتة للحظة بدورها، ثم قالت بعد ذلك: "سأقوم بهذه المهمة، سأرسل أوريوس، مساعدي الخاص، إنه رجل حكيم ومتعقّل".

ردّ فيلـــيب مـــوافقاً: "إنه خيار ممتاز". لم يتوقع الملك مثل هذا الاستقبال الذي لقيه من الملكة.

ســـألت الملكـــة مجدداً، وإن كان ذلك بنبرة باردة توحي بانتهاء المقابلة: "أيمكنني مساعدتك بشيء آخر".

"أردت أن أخـــبرك أنني سأذهب إلى ميزا في غضون أيامٍ قليلة".

تغيّـــرت ملامـــح الملكـــة فجأة لدى سماعها هذه الأخبار، وتوهجت وجنتاها الشاحبتان باللون الوردي، فأضاف الملك: "سأتوجه إلى هناك كي أعود بالإسكندر إلى المنـــزل".

غطـــت الملكة وجهها بشالها، لكنها لم تنجح في إخفاء عاطفتها التي سيطرت عليها في تلك اللحظة.

سألها فيليب: "لم تسأليني ما إذا كنتُ قد تناولت الطعام أم لا".

رفعت أوليمبيا عينيها المغرورقتين بالدموع، وكرّرت بصورةٍ آلية: "هل أكلتَ؟".

"كـــلا، كنت... كنت آمل أن تطلبـــي مني أن أبقى معك هذا المساء".

خفضت الملكة رأسها: "لستُ على ما يرام هذا اليوم، أنا آسفة".

عضّ فيليب شفته قبل أن يغادر ويصفق الباب وراءه.

اســـتندت أوليمبـــيا إلى جـــدارٍ وكأنها على وشك أن تصاب بالإغمـــاء، وأصـــغت إلى وقع خطوات زوجها الثقيلة وهي تتردد في أرجاء الممر، وذلك قبل أن تتلاشى عندما وصل إلى أسفل الدرج.

18

كـــان المرج مغموراً بأنوار الربيع ومزيناً بالزهور عندما ركض الإســـكندر فوقه، كان حافياً ونصف عارٍ، لكنه تحرك بسرعة عكس الـــرياح الـــتي هـــبّت وتخللت شعره حاملةً معها رائحة رذاذ أمواج البحر.

كـــان بيريتاس يركض إلى جانبه ويضبط خطواته بحيث لا يسبق ســـيده أو يضيّع أثره. وكان ينبح بين الفينة والأخرى كي يجذب انتباه الإسكندر، وكان الأمير يلتفت نحو الجرو ويبتسم. ولكن، من دون أن يتوقف.

كـــان الإسكندر يطلق العنان لروحه التي كانت تحلّق مثل طائر، وتقفـــز مثل جواد. تجلّت في تلك اللحظات طبيعته الغامضة والمشوشة الـــتي تشبه القنطورس، والعنيفة والحسّاسة، الداكنة والمضيئة وكل ذلك في حـــركة متناسقة تشبه رقصة بدائية تحت أنوار الشمس الساطعة، أو تحت ظلالٍ غيمة.

كان جسده المفتول العضلات يتقلص في البداية قبل أن يتمدد، وكـــل ذلك في حركة طويلة، وكان شعره الذهبـــي الناعم يتواثب فـــوق ظهره مثل عرفٍ الأسد، أما ذراعاه الرشيقتان فكانتا ترافقان حـــركة صـــدره في صـــعودها وهـــبوطها، نتيجة التعب الناتج عن الركض.

راقـــبه فيليب بصمت، وجلس من دون حراك على صهوة جواده في طـــرف الغابة، وأدرك بعد ذلك أن ابنه قريب جداً منه، وسمع نباح

الجرو يتزايد فجأة عندما انتبه لوجوده. نخس جواده، واقترب من ابنه، فلـــوّح له بيده، وحتى إنه ابتسم له، ولكن من دون أن يوقفه لأنه فُتن بالشاب الراكض، ودُهش بأطرافه التي لا تتعب.

توقـــف الإسكندر فوق ضفة نهرٍ صغير، ثم قفز إلى مياهه، ترجّل فيلـــيب، وراح ينتظره، خرج الفتى من النهر مع جروه، وراح كلاهما ينفضان المياه عن جسديهما، عانق فيليب ابنه بشدة، كما شعر أن ابنه يفعـــل الشيء ذاته، وهي العلامة التي تدل على أن الصبـــي قد أصبح رجلاً.

قال له: "أتيت لآخذك، إننا عائدان إلى المنـــزل".

تطلـــع فيلـــيب نحـــوه، وكأنه غير مصدّق: "وهل هذه كلمة الملك؟".

أجـــاب فيليب مؤكّداً: "إنها كلمة الملك، لكن سيأتي اليوم الذي تتذكر فيه، بأسف، أن هذه الفترة من حياتك قد انتهت، إنني لم أحظَ بفرصـــة كهذه، ولم أتعلم الأغاني أو الشعر، ولم أستمع إلى محاضرات حكيمة، إنني منهك لهذا السبب يا بني، من ثقل السنين".

لم يقـــل الإســـكندر شيئاً، لكنهما سارا معاً عبر المرج قاصدَين المنـــزل. سار الشاب يتبعه جروه، بينما أمسك الوالد بلجام جواده.

سُـــمع فجأة صوت صهيل جواد يتناهى إلى سمعيهما صادراً من وراء تلـــة تحجب منظر منتجع مييزا. كان صهيلاً حاداً، ونفّاذاً، ونداءً قـــوياً مثل ذلك الذي يصدره حيوان بري، أو مخلوق خرافي، سمعا بعد ذلـــك أصوات رجالٍ يصرخون ويصيحون، أما أصوات الحوافر القوية المحمية بالبرونـــز فقد جعلت الأرض تهتز.

تعالت أصوات الصهيل مجدداً، لكنها هذه المرة كانت أكثر حدة وأشد غضباً، فالتفت فيليب نحو ابنه، وقال: "أحضرت لك هدية".

وصلا إلى قمة التلة، فتوقف الإسكندر مدهوشاً ممّا رآه؛ في أسفل التلة جواد أدهم يقف على قائمتيه الخلفيتين، بينما التمعَ جسده نتيجة العــرق المتــصبب منه، فبدا مثل تمثالٍ برونــزي تحت زخّات المطر. أمــسك بالجــواد خمــسة رجال يشدّون حبالاً ولجاماتٍ في أيديهم، وجهدوا من أجل إبقاء هذه القوة العاتية تحت السيطرة.

كان الجواد أشد اسوداداً من جناحي غراب، كما كانت لديه في جبهته نجمة بيضاء على شكل جمجمة ثور. تمكن الجواد مع كل حركةٍ تــصدر عــن رقبته، أو النصف الخلفي من جذعه، من بعثرة الرجال وإلقــائهم أرضاً، قبل أن يجرّهم فوق العشب كأنهم دمى لا حياة فيها. بعــد ذلك أخفض الجواد رأسه قبل أن يقف على قائمتيه الأماميتين ثم يبدأ بالرفس بوحشية مستخدماً قائمتيه الخلفيتين، ويضرب الهواء بذيله، فــيما يــتهادى عــرفه(*) ملتمعاً في الهواء من إحدى جهتَي رقبته إلى الأخرى.

ظهرت حول فم ذلك الحيوان المدهش رغوة دامية، وكان يتوقف بين الفينة والأخرى عن الحراك، ويحني رقبته، وكأنه يريد أن يتنشق من الهــواء بقــدر ما يستطيع، مالئاً صدره بالهواء كي يُخرجه زفيراً أشبه بأنفــاس النار، أي مثلما ينفث التنين. صهل الجواد مجدداً، وهزّ رقبته الــرائعة، ثم مــدّد عضلاته المنتفخة، وقلّصها وهو الأمر الذي زاد من حجم صهيله.

شــعر الإسكندر وكأنه أصيب بضربة سوط، فتقدم فجأة وراح يصيح: "اتركوه! أطلقوا سراح الجواد!".

فوضع فيليب يده على كتف ابنه قائلاً: "انتظر قليلاً يا بني، انتظر حتى نروضه، اصبر قليلاً، وسيكون لك".

(*) العرف: الشعر النابت في محدَّب رقبة الجواد.

صـــاح الإســـكندر: "لا! لا! لا يـــستطيع ترويضه أحدٌ غيري، اتركوه! طلبت منكم أن تتركوه".

قـــال فيليب: "لكنه سيهرب يا بنيّ، لقد دفعت ثروةً مقابل هذا الجواد!".

سأله الإسكندر: "كم دفعتَ؟ كم كلّفك يا أبـــي؟".

"ثلاث عشرة تالنتاً".

"ســـأراهن بالمبلغ ذاته على أنني أستطيع ترويضه! لكن اطلب من هؤلاء الحمقى أن يتركوه! أتوسل إليك!".

نظـــر فيليب إلى ابنه فلاحظ أنّه يكاد يجنّ من فرط العاطفة، بينما بـــرز ودجـــاه اللـــذان انتفخا مثل ذلك الحيوان الغاضب. فالتفت إلى الرجال، وأعطاهم أمره القاطع: "اتركوه!".

أطـــاع الرجال على الفور، وراحوا يفكّون الحبال واللجام من أيـــديهم. وعلـــى الفـــور، ركض الحيوان إلى السهل، فيما ركض الإسكندر وراءه، وتمكّن من الإمساك به بطريقةٍ ما وسط دهشة الملك والرجال.

هزّ فيليب رأسه وتمتم: "سينفطر قلب الفتى، سينفطر قلبه". كشّر بيريـــتاس الـــذي كان بين ذراعي أحد الرجال عن أنيابه، وراح يزمجر وينبح، لكنّ الرجل هدّأه، وأشار إلى الآخرين كي يصغوا. سمع الجميع الإسكندر وهو يتكلم مع الجواد بعد كل الركض الذي أنهكه، وصرخ بشيء ما لكنّ الرياح أخفت كلماته، بينما تصاعد الصهيل الذي بدا، وبطريقةٍ ما، وكأنه يجيبه.

هـــدأ الجـــواد فجأة عندما بدا أن الشاب قد ينهار نتيجة المجهود الـــذي بذله، وراح يركض لفترةٍ قصيرة، ثم بدأ بالسير وهو يهزّ رأسه ويتنفس بعمق.

اقترب منه الإسكندر مجدداً، ولكن ببطء، وقد أصبحت الشمس وراءه، وتمكّن من رؤيته في هذه اللحظة وقد غمره نور الشمس، واستطاع أن يرى جبهته السوداء العريضة بعلامتها البيضاء على شكل جمجمة ثور.

همس له: "بوسيفالاس. بوسيفالاس... اهدأ، هذا هو اسمك. اهدأ، ما رأيك... هل أعجبك؟ لقد أحببت الاسم، أليس كذلك؟". اقترب منه أكثر فأكثر إلى حدّ أنه كاد يلمسه، فهزّ الحيوان رأسه، ولكنه لم يتحرك. مدّ الفتى يده، ولمس رقبته بلطف، ثم خدّيه بعد ذلك، ومقدمة وجهه، لكنه فعل ذلك بأرقّ ما يستطيع.

قال الإسكندر: "أتريد أن تجري معي؟ أتريد أن تركض؟".

صهل الحيوان، ورفع رأسه المتفاخر، ففهم الإسكندر أنه يقول نعم، حدّق إلى عينيه المتوهجتين للحظة، ثم قفز برشاقة إلى صهوته وصاح به: "هيا يا بوسيفالاس!" ثمّ نخس الإسكندر بطن الجواد بكعبَي قدميه برفق فانطلق الجواد في قفزته، وراح يمطّ ظهره الملتمع، ويمدّ رأسه وقائمتيه الخلفيتين وذيله الطويل. ركض بسرعة الريح عبر السهل حتى وصل إلى الغابة والنهر، بينما ترددت أصوات وقع حوافره مثل قصف الرعد.

توقفا أمام فيليب الذي ألفى نفسه يتساءل ما إذا كان ينبغي عليه أن يصدّق عينيه أم لا.

ترجّل الإسكندر عن صهوة الجواد: "يشبه الأمر ركوب بيغاسوس يا أبي، وكأن لديه أجنحة، ولا بد أن جوادي آخيل، باليوس، وزانثوس، وهما ولدا الريح، كانا مثله، شكراً على هديتك". راح يربّت على رقبة الجواد، وصدره المتعرق وهو يتفوه بهذه الكلمات. بدأ بيريتاس بالنباح، ولا بد أنه شعر بالغيرة بسبب هذا

الـــصديق الجديد لصاحبه، لكن الإسكندر راح يربت على ظهره هو الآخر كي يهدّئه.

تطلع فيليب نحوه بدهشة، محاولاً أن يفهم ما حدث، ثم قبّل رأس الإســـكندر، وقال له: "بنيّ، يتعيّن عليك أن تحصل على مملكة أخرى لنفسك، أعتقد أن مقدونيا وحدها لا تكفيك".

19

سأل الإسكندر بينما كان يمتطي صهوة جواده إلى جانب والده: "هل دفعتَ بالفعل ثلاث عشرة تالنتاً كي تحصل عليه؟".

أومـــأ فيليب: "أعتقد أن ذلك هو أغلى سعر دُفع مقابل الحصول علـــى جواد، إنه أجمل جواد أنتجته إسطبلات فيلونيكو في تساليا منذ سنوات عديدة".

راح الإسكندر يربّت على ظهر بوسيفالاس ويقول: "إنه يساوي أكثر من ذلك، أعتقد أنه ما من حصان غيره في العالم يستحقني".

تـــناولا الطعام مع أرسطو وكاليستين. أما ثيوفراستوس فقد رجع إلى آسيا كي يُكمل بحوثه، وكثيراً ما كان يبعث إلى سيّده أخبار اكتشافاته.

جلـــس إلى جانب الرجال الأربعة على المائدة رسامان معروفان بـــرسمهما علـــى السيراميك كان أرسطو قد استدعاهما من كورينث، ولكـــن ليس بهدف أن يرسما على الأواني، بل ليعملا في مهمة أخرى أكثـــر دقـــة، وهي المهمة التي أمر بها فيليب شخصيّاً؛ ألا وهي رسم خريطة للعالم المعروف.

سأل الملك بعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام: "هل أستطيع أن أراها؟".

أجاب أرسطو: "بالتأكيد، تمكّنا من ضمّ كل هذه البلاد المختلفة. بفضل فتوحاتك في حقيقة الأمر".

انـــتقل الجميع إلى غرفة رحبة مضاءة بشكلٍ جيد، ومزيّنة بخريطة كبيرة مرسومة على جلد ثورٍ مدبوغ، ومثبتة على لوحة خشبية بالحجم

ذاتـــه بواســـطة ملاقط. أما الألوان التي استخدمها الرسامان كي تمثّل البحار، والجبال، والأنهار، والبحيرات، والخلجان، والجزر، فقد كانت كلها مشرقة ومميزة.

تطلـــع فيلـــيب مذهولاً، وجال ببصره فوق خطوط الخريطة من طرفها الشرقي وحتى الغربـــي، أي من أعمدة هرقل إلى سهل سكاثيا الفـــسيح، ومـــن البوســـفور إلى القوقاز، ومن مصر إلى سوريا. وبدأ بملامـــسة الخريطة بأصابعه برفق، وكأنه كان خائفاً من لمسها في أثناء بحـــثه عن البلدان، سواءً أكانت صديقة أو عدوة، وشعّت عيناه عندما تعـــرّف علـــى المدينة التي أسّسها حديثاً في تراقيا، والتي أعطاها اسمه، فيليبوبوليس، وأدرك عندها أنه رأى أخيراً تجسيداً مادياً لسيطرته.

أمـــا من جهة الشرق والشمال فإن الخريطة انتهت إلى لا شيء، وينطـــبق الأمر ذاته على جهة الجنوب، حيث بدت الرمال اللامتناهية للصحراء الليبية.

رأى علـــى طرف إحدى الطاولات أوراقاً عدة من البردى والتي يـــستخدمها الفـــنانون من أجل رسومهم التحضيرية، تطلع فيليب إلى بعض هذه الأوراق، وتأمّل أحد الرسوم التي تمثّل الأرض.

سأل فيليب أرسطو: "أتعتقد أنها كروية؟".

ردّ الفيلسوف: "لا أعتقد ذلك، بل أنا على يقينٍ منه. لأن الظل الذي تتركه الأرض على القمر خلال الخسوف مستدير. وإذا ما راقبتَ ســـفينة تُبحر مبتعدة عن الميناء، فإنك سترى هيكلها يغيب عن نظرك أولاً، ثم ما تلبث السارية أن تغيب عن الأنظار بعد ذلك، أما إذا راقبتَ سفينة في أثناء اقترابها من الميناء فإن العكس هو الذي يحدث".

ســـأل الملـــك وهو يشير إلى منطقة مكتوب عليها *القطب*: "وما تلك المنطقة في الأسفل؟".

"لا أحـــد يعـــرف، لكـــنني أعتقد أن مساحة تلك البلاد تعادل مساحة بلادنا، إنها مسألة توازن، لكن المشكلة تكمن، في واقع الأمر، في أننا لا نعرف مدى اتساع المناطق الشمالية".

الـــتفت الإسكندر نحو أرسطو، ثم ما لبث أن أخفض بصره، وبدا أنه مذهول بمدى اتساع تلك الإمبراطورية الكبيرة التي يُقال إنها تمـــتد من بحر إيجة إلى الهند. وتذكر الأمير الكلمات التي قالها ضيفه الفارسي في وصف بلاده قبل ثلاث سنوات من الزمن. ثمّ تخيّل نفسه ممتطـــياً صـــهوة بوسيفالاس فوق هذه المرتفعات المترامية الأطراف، وتخيّل أنه يطير فوق الجبال والصحاري إلى أقاصي الأرض، وحتى إنه يتخطى أمواج الأوقيانوس الذي قال عنه هوميروس إنه يحيط بالعالم كله.

قطـــع صوت والده ولمسة يده، تأمّلاته. "رتّب كل أغراضك يا بنيّ، وقل لخدمك أن يجهزوا أمتعتك، وكل شيء تريد أن تأخذه معك إلى منـــزلك في بيلا، أريدك أن تودّع معلمك، لأنك لن تراه في الفترة القادمة".

تحـــرك الملـــك بعد أن قال ذلك، وتركهما كي يودّعا بعضهما بعضاً.

قال أرسطو: "لقد مضى الوقت بسرعة، أشعر وكأنني وصلت إلى ميزا البارحة".

سأل الإسكندر: "وإلى أين ستذهب؟".

"ســـأبقى هنا لبعض الوقت، أعتقد أنني جمعت مواد وملاحظات كـــثيرة، وهـــي كلها تحتاج إلى الترتيب بعناية، سيتطلّب الأمر بعض الوقت، يُضاف إلى ذلك أنني أقوم ببعض الأبحاث حول انتقال الأمراض من شخصٍ إلى آخر".

"إنني سعيد لأنك ستبقى، يعني ذلك أنني سأتمكّن من زيارتك بين الحين والآخر، لديّ العديد من الأسئلة أريد أن أطرحها عليك".

تطلع أرسطو نحوه، وتمكّن في لحظةٍ واحدة من قراءة كل الأسئلة من خلال الضوء المتغيّر والقلق الذي ارتسم في عيني الأمير.

"إن الأسئلة التي لا تزال تجول في خاطرك أيها الإسكندر هي تلك التي لا تمتلك أي إجابة عنها... أو إذا ما كنت تمتلك أجوبة، فيمكنك أن تأمل في إيجادها في أعماق روحك أنت".

أضـــاء نـــور ذلك المساء الربيعي كل الأوراق المبعثرة التي كُتبت فوقها الملاحظات والرسوم، وأضاء كذلك كل الأوعية التي يستخدمها الرسامون، وألوان طلائهم، وفراشيهم، وخريطة العالم المعروف الكبيرة، بالإضافة إلى العينين الرماديتين الرزينتين للفيلسوف.

سأل الإسكندر مجدداً: "وبعد ذلك، إلى أين ستذهب؟".

"سأقصد ستاجيرا، ومنـــزلي".

"أتعتقد أنك نجحت في تحويلي إلى رجلٍ يوناني؟".

"أعـــتقد أنـــني ساعدتك على أن تصبح رجلاً، لكنني، وقبل كل شـــيء، فهمت شيئاً واحداً: إنك لن تصبح، أبداً، يونانياً أو مقدونياً، أنـــت الإســـكندر. علّمتك كل ما أقدر عليه، والآن عليك أن تنطلق بمفـــردك، ولا يستطيع أحد أن يعرف إلى أين ستصل، أما الأمر الوحيد الأكـــيد فهـــو أن أي شخصٍ يختار أن يذهب معك سيتعيّن عليه أن يتخلى عن كل شيء: المنـــزل، والحب، والوطن، وذلك لأنه سينطلق في مغامرة إلى المجهول. وداعاً أيها الإسكندر".

"وداعاً أرسطو".

هكذا ودّع الرجلان بعضهما بعضاً، أي بنظرةٍ طويلة، ولم يقدّر للرجلين أن يريا بعضهما مرةً أخرى.

ظـــل الإســـكندر صاحياً حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وظل عرضةً لقلقٍ عميق منعه من الاستسلام للنومً، تطلع من خلال نافذته إلى الخارج نحو الريف الساكن، ونحو القمر الذي أضاء قمم جبلي بيرميون وأولمـــبوس البيضاء والساكنة، لكنّ أذنيه بدأتا بسماع صليل الأسلحة المعدنية، وصهيل الجياد وهي ترعد في أثناء قفزاتها الطويلة.

راح يفكّـــر في المجـــد الذي أحرزه آخيل، فلقد كان من العظمة بحـــيث استحقّ أغنية من هوميروس. كان ذهنه مليئاً بغضب المعركة، وتصادم الأسلحة، وصدام الأذرع، لكنه لم يستطِع فهم كيف أن كل هذه العوامل تسكن روحه جانباً إلى جانب مع تعاليم أرسطو، وأعمال ليسيبوس، وأغاني آلكايوس وسافو.

فكّـــر في أنـــه يُحتمل أن يكمن السبب في أصوله، أي في طبيعة والدته أوليمبيا، وهي الطبيعة الشرسة والحزينة في آن واحد، وفي طبيعة والده الودية والقاسية، المندفعة والعقلانية. يُحتمل أنً السبب يكمن في شـــعبه، الذي يتحدّر من أشرس القبائل البربرية، ويجد من خلفه المدن اليونانية الزاهرة التي بناها اليونانيون بما فيها من معابد ومكتبات.

كان سينضم في اليوم التالي إلى والدته وشقيقته، كم تغيّرتا؟ وكم تغيّر؟ وكيف سيكون وضعه في قصر بيلا في الوقت الحاضر؟

أراد الإســـكندر أن يهـــدئ القلـــق الـــذي سيطر على روحه بالموســـيقى، فتـــناول القيثارة، وجلس عند إطار النافذة، وعزف أغنية كـــان قد سمعها مراتٍ عديدة من جنود والده خلال الليالي التي كانوا يـــتحلقون فـــيها حـــول نيران الحراسة، كانت أغنية فظة مثل لهجتهم الجبلية، لكنها كانت مليئة بالعاطفة والحنين.

أدرك بعـــد قليل أن ليبتين قد دخلت إلى غرفته عندما سمعت اللحن الذي بدا وكأنه يناديها، وها هي الآن تجلس على طرف السرير، وتصغي.

داعــب ضــوء القمر وجهها، وكتفيها وذراعيها البيضاء، وضع الإسكندر قيثارته جانباً بينما مدّت ليبتين ذراعيها نحوه، وأرفقت ذلك بألطــف الإيمــاءات والإشــارات، استلقى إلى جانبها فجذبته نحوها، وأمسكت رأسه عند صدرها، بينما راحت تمسّد شعره.

20

قُـــدِّمَ الإسكندر إلى الجيش المتجمّع في بيلا بعد مرور ثلاثة أيام على عودته إليها. وضع الإسكندر دروعه، وامتطى بوسيفالاس، وراح يستعرض الجنود. مرّ أولاً، ومن جهة اليمين، بالفرسان الذين يحملون أســلحة ثقيلة، والذين يُطلق عليهم اسم *رفاق الملك*، وهم من خيرة النــبلاء الذين جرى انتقاؤهم من القبائل المقدونية التي تسكن الجبال، جــاء بعــد ذلك دور المشاة الذين يُطلق عليهم اسم *الرفاق المشاة*، ويتألف هؤلاء من المزارعين الآتين من السهول ويؤلفون معاً ما يدعى *الكتيــبة*، وقــف الجنود في خمسة صفوف حاملين معهم رايات ذات تــزايد في الطــول، بحيث تظهر كل النقاط في الصف الأمامي عند خفضها.

صرخ أحد القادة بأمر تقديم السلاح، وما لبثت أن ظهرت غابة مــن الــرماح المكسوة بالحديد، وبرزت بفخرٍ لتقديم الولاء إلى الملك وولي عهده.

قــال فيليب: "تذكّر يا بني أن الكتيبة هي السندان، وأن الفرسان هــم المطرقة، عندما يُدفع جيش العدو نحو ذلك السد من السهام فلن يجد ذلك الجيش أي مهرب له".

أمــا في الجــناح الأيمن فظهرت *الطليعة*، وهي مجموعة الفرسان الملكيين الذين كان كل منهم على صهوة جواده. كانت هذه الفرقة من الرجال والجياد هي التي تُرسل في الأوقات الحاسمة من المعركة من أجل إنــزال ضربة المطرقة الكفيلة بتشتيت خطوط الخصم.

صـــرخ فرسان الخيّالة: "يحيا الإسكندر!" وراحوا يدقّون رماحهم على دروعهم، وهي علامة الولاء المخصصة لتحية قادهم.

شرح فيليب: "إنك قائدهم، وأنت ستقود الكتيبة في المعارك من الآن فصاعداً". اخترقت الصفوف في تلك اللحظة بالذات مجموعة من الفرســان الذين يضعون دروعاً رائعة، بينما يحمون رؤوسهم ويزينونها بخــوذات لامعـــة تحمل ريشاً طويلاً، أما لجام جيادهم فمصنوعة من الفــضة، كمـــا أن أغطية الجياد المزركشة كانت محبوكة من أصواف أرجوانية اللون. تميّزت هذه الجياد عن غيرها بأحجامها ونبالة أصولها. بـــدأت الجياد بالوثوب على الفور، وكأنها وسط هجومٍ شرسٍ، وبعد ذلـــك، أي عند إطلاق إشارة معينة نفذت هذه الفرقة دوراناً عريضاً، ومدهشاً، ونموذجياً، أما الفارس الذي وقف في مركز الدائرة فقد ثبّت جواده، بينما استمر الآخرون في ركوب جيادهم بسرعة أكبر بحيث إن آخر الفرسان لم يضطر إلى إبطاء سرعته أبداً.

ومـــا إن انـــتهت هذه المناورة المدهشة حتى أطلقت الفرقة العنان لجـــيادها، فراحت تثب بحيث بدت الكتف على الكتف، والرأس على الرأس تاركة خلفها غلالة سميكة من الغبار قبل توقفها بغتةً بشكل مثيرٍ أمام الأمير.

صـــرخ أحد القادة بصوت جهوري: "يحيا الإسكندر!" خرقت الفـــرقة الأصـــول المتّـــبعة في النهاية، فأحاطت بالأمير، وكاد الرجال ينــــزلونه عن صهوة جواده، ثم أمسكوا به في ما بدا وكأنه عناقٌ لا نهايـــة لــــه، وكـــل ذلك أمام أنظار الملك وجنوده الذين تسمروا في صفوفهم.

احتـــشد الأصـــدقاء حـــول أميرهم، وراحوا يصيحون ابتهاجاً، ويرمون أسلحتهم في الهواء، ويتقافزون ويرقصون مثل المجانين.

انضم إيومينيس إلى المجموعة عند نهاية الاستعراض، وذلك لأنه كان يونانياً ولم يكن جزءاً من الجيش، لكنه أصبح في هذا الوقت مساعد فيليب الخاص، وهكذا تمكّن من أن يلعب دوراً حيوياً في البلاط.

في ذلك المساء بالذات، حضر الإسكندر مأدبة حضّرها له أصدقاؤه في منزل بطليموس، زيّنت الغرفة بشكلٍ مدهش وبعناية. فلقد صُفّت الطاولات والمقاعد الخشبية المزخرفة بمعدن البرونز، أما حاملات المشاعل فكانت عبارة عن تماثيل كورينثية جميلة من البرونز على أشكال فتيات صغيرات، وتدلت مشاعل أخرى من سقف الغرفة على هيئة أوانٍ تحمل أشكالاً متشابكة، وهي التي تسلط أشكالاً متماوجة من الضوء على جدران الغرفة. كانت جميع الأطباق على الطاولة مصنوعة من الفضة الخالصة التي تحمل زخرفةً بديعة على جوانبها، أما الطعام فقد حضّره طباخون جاءوا من سميرنا وساموس، وهما جزيرتان يونانيتان معروفتان من حيث الأذواق، لأن أهلهما يشتهرون بتذوق المأكولات الآسيوية.

جاءت أصناف الشراب من قبرص، ورودس، وكورينث، وحتى من صقلية البعيدة، حيث كان المزارعون المستعمرون (اليونانيون) يتفوقون على نظرائهم في بلدهم الأم من حيث النوعية وفخامة منتجاتهم. كان الشراب يُسكب من خابية أتيكية كبيرة يكاد عمرها يصل إلى مئة عام، وهي مزينة برسوم أسياد إغريقية ترقص وتطارد نساءً شبه عاريات. كانت كل طاولة مجهزة بإناء زخرفه الفنان ذاته بمشاهد إيحائية: عازفات ناي (مزمار) بين أذرع رجالٍ يشربون الشراب ويضعون تيجاناً من اللبلاب فوق رؤوسهم، بدت هذه الرسوم، وكأنها مقدمة لما تخبئه الأمسية بين طياتها.

قـــوبل الإسكندر عند دخوله بالهتافات المرحبة، وتوجهت نحوه مجمـــوعة من الرجال، وكل واحد منهم يحمل كوباً ذا مسكتين طافحاً بالشراب القبرصي. "حسناً، أيها الإسكندر! بعد أن شربت ماءً صافياً لمـــدة ثـــلاث سنوات في ميزا ينبغي لك أن تضع بعض الضفادع كي تـــتجول في بطنك، أما نحن فقد سبقناك إلى الخروج من ذلك المكان! اشرب بعضاً من هذا فتفرح".

ســـأل إيومينيس: "إذاً، ماذا بالضبط علّمك أرسطو من دروسه السرية التي لقّنك إياها؟".

تـــدخل هيفاســـتيون فقال: "ومن أين حصلت على ذلك الجواد الذي لم أشاهد مثيلاً له في حياتي؟".

لم ينتظر إيومينيس ردّ الإسكندر، فعلّق بالقول: "أراهن أنك لم تفعل، كلّف الجواد ثلاث عشرة تالنتاً، وأنا بنفسي وقّعت على أمر الدفع".

قـــال الإســـكندر مؤكّداً: "أجل، كان هديةً من والدي، لكنني كـــسبت ما يساوي ثمنه، لأنني راهنت على أنني سأتمكن من السيطرة عليه، ليتكم رأيتم المشهد". ازدادت حماسته خلال حديثه الذي أكمله قـــائلاً: "كان خمسة رجال يمسكون به، بينما كان الحيوان مرتعباً لأنهم كانوا يجذبونه من لجامه، وهكذا تسببوا بإيذائه".

سأل بيرديكاس: "وماذا فعلتَ؟".

"أنـــا؟ لم أفعـــل شـــيئاً، أمرت هؤلاء الحمقى بالابتعاد عنه، ثم ركضت خلفه...".

حـــاول بطلـــيموس فـــرض نوعٍ من النظام، للحدّ من الضجيج الـــصادر عـــن الأصدقاء خلال تحلقهم حول الإسكندر، فصاح قائلاً: "كفـــاكم كلامـــاً عن الجياد، دعونا نتحدث عن النساء! أريدكم أن تأخذوا أماكنكم لأن العشاء جاهز".

صرخ سلوقس بصوت أعلى: "على ذكر النساء، أتعلم أن بيرديكاس قد وقع في غرام شقيقتك؟".

توردت وجنتا بيرديكاس قليلاً، وما لبث أن دفع سلوقس، وأرسله متدحرجاً على الأرض.

بقي سلوقس على الأرض، لكنه قال مصراً: "ما أقوله حقيقي! رأيته ينظر نحوها خلال حفلٍ رسمي. يا له من حارسٍ شخصي لديه نظرة حبٍ في عينيه! ها ها". تابع تدحرجه، وهو يضحك هذه المرة.

أضاف بطليموس: "أعتقد أنك لم تسمع بعد ما سأقوله لك، سيترأس غداً المرافقين الذين سيصطحبون الأميرة لتقديم الأضاحي الأولية لآرتميس. لكن، لو كنت مكانك ما كنت لأثق به أبداً".

لاحظ الإسكندر أن وجه بيرديكاس قد تحوّل إلى اللون القرمزي لذلك سعى إلى تخليصه من الموقف المحرج الذي وقع فيه، وهكذا غيّر موضوع الحديث وقال: "حسناً، أيها الشبان! أريد أن أقول شيئاً... أريدكم أن تعلموا جميعاً أنني مسرور لرؤيتكم مجدداً، كما أشعر بالفخر لأنّكم، يا أصدقائي ورفاقي، تشكلون جزءاً من فرقة جنود الإسكندر!" ثمّ رفع كوبه، وشرب محتوياته بجرعةٍ واحدة.

قال بطليموس آمراً: "الشرابَ! اسكبوا الشراب للجميع". صفق بيديه بعد ذلك، وما لبث الخدم أن باشروا بسكب الشراب من الخابية في أكواب الضيوف الذين استرخوا في مقاعدهم التي كانت عبارة عن أسرّة مخصصة لتناول الطعام. بدأ خدمٌ آخرون بتقديم الطعام: لحم الحجل على أسياخ، والدجاج الجبلي، والبط، وأخيراً الطبق المميز؛ الدرّاج.

طلب الإسكندر أن يجلس هيفاستيون، وهو أعزّ أصدقائه، إلى يمينه، بينما جلس مضيفه بطليموس إلى يساره.

جاء دور لحم العجل بعد أن فرغ الجميع من تناول لحم الطرائد، كـــان مشوياً ومقطعاً، وتكفل أحد النحاتين بتقديمه، فيما انشغل الخدم الآخـــرون بإحـــضار سلالٍ من الخبز الطازج تفوح منه رائحة شهية، بالإضافة إلى الجوز غير المقشر، وبيض البط المسلوق.

وبعـــد قليل، دخلت عازفات الناي مع آلاهن وبدأن بالعزف، كـــن جمـــيعهن من الفتيات الجميلات والرائعات، كما أهن أتين من مناطق مختلفة: ميجيا، وكاري، وتراقيا، وبثنيا، وقد رفعن شعرهن إلى الأعلى بواسطة أشرطة أو قبعات ملونة مزينة بالفضة والذهب. كانت ملابسهن تشبه ريش الببغاء في ألوانها، وكانت تنانيرهن قصيرة، كما حملن أقواساً وحاملات سهام. عمدت الفتيات بعد ذلك إلى التعري، فالـــتمعت أجـــسادهن الفتـــية تحت أضواء المشاعل، وفاحت رائحة الـــزيوت المعطـــرة. بدأن بالرقص على أنغام النايات وقرع الطبول، ورحـــن يرقـــصن أمام الطاولات، ويسرن بين تلك المخصصة لتناول الطعام.

توقـــف الأصـــدقاء عـــن تـــناول الطعام، لكنهم تابعوا الشرب وأصـــبحوا في حالـــة من الإثارة الكلية. وقف بعضهم كي ينضم إلى الرقص مع إيقاعات الطبول والدفوف المتسارعة.

أمسك بطليموس فتاةً بيده على حين غرة، فأوقف حركة دورانها، وقرّبها بحيث يتمكن الإسكندر من تفحصها عن قرب.

قـــال: "إنهـــا الأجمـــل بين المجموعة، وها أنا قد أمسكتها من أجلك".

سأل هيفاستيون: "وماذا بشأني؟".

ســـأله الإسكندر عندما أوقف فتاةً جميلةً أخرى ذات شعرٍ أحمر: "أتحب هذه الفتاة".

أعطى بطليموس أوامره إلى الخدم كي يعمدوا إلى ملء المشاعل بحيث ينطفئ بعضها قبل الآخر، وبحيث ينفد الزيت من بعضها قبل الآخر مما يتسبب بظلمة جزئية في الغرفة.

بدأ الشبان والشابات بمداعبة بعضهم بعضاً. وفي هذه الأثناء، تصاعدت الأنغام الموسيقية من النايات وترددت بين أرجاء جدران الغرفة المزخرفة، وهو الأمر الذي أعطى إيقاعات تردّدت مع أصداء أنفاس الراقصين، واندفاعات أجسادهم الملتمعة على أنوار المشاعل القليلة التي بقيت مضاءةً في زوايا تلك الغرفة الكبيرة.

غادر الإسكندر عند منتصف الليل، وذلك بعد أن شعر بإثارة وإنهاك شديدين لا يستطيع السيطرة عليهما. بدا الأمر وكأن قوة مكبوتة منذ زمنٍ طويل قد انطلقت فجأة وسيطرت عليه تماماً.

توقف فوق إحدى شرفات القصر التي كانت عرضةً للرياح الشمالية، وذلك كي يستعيد القليل من صفاء ذهنه، ووقف هناك ممسكاً بالجدار الفاصل، وبقي هكذا حتى رأى القمر يغيب وراء جبال إيورديا.

فكّر في منتجع ميزا الذي يقع هناك وسط الظلمة، وبأرسطو الذي يُحتمل أنه منشغل الآن في إشعال زيت منتصف الليل في أثناء اتباعه خيط أفكاره الدقيق، أحسّ أن سنوات عديدة قد مرّت منذ أن ترك معلمه.

*

أيقظه أحد الحراس قبل طلوع الفجر بقليل. جرّ نفسه إلى وضعية الجلوس، وأسند رأسه المرتجف بيديه.

"آمل أن يكون لديك سبب وجيه لإيقاظي. لكن، إذا كان الأمر غير ذلك...".

"الـــسبب هو أن الملك قد أرسل في طلبك أيها الأمير، يريدك أن تذهب لمقابلته على الفور".

جهد الشاب كي يقف على قدميه، وتمكّن بطريقة ما أن يصل إلى حوض الغسل، فغطس رأسه فيه مرات عديدة. وضع عباءةً فوق كتفيه العاريتين، وشد أربطة حذائه، ثم سار خلف دليله.

الـــتقاه فيلـــيب في غرفة تابعة لمستودعات الأسلحة الملكية، لكنه لاحظ أنه في حالةٍ متوترة.

قـــال لـــه: "حـــدث شيء خطير جداً، طلبت من والدتك، قبل عـــودتك من ميبزا، أن تساعدني في مهمةٍ دقيقة، وهي إرسال مبعوثٍ إلى أثيـــنا بهدف إحباط خطة أعدّها ديموستين بهدف إفشال سياساتنا. فكّـــرت في أن موفداً من الملَكة لديه فرصة أكبر لسماعه، وللحصول على شيء ما. كنتُ مخطئاً لسوء الحظ، لأن الموفد أُتُّهم بأنّه جاسوس، وعُذّب حتى الموت، هل تدرك ماذا يعني ذلك؟".

اســـتعاد الإسكندر وعيه بعد أن رأى حالة والده فأجاب: "يعني ذلك أنه يجب علينا إعلان الحرب على أثينا".

"الأمـــر ليس بهذه السهولة، لأن ديموستين يحاول تشكيل تحالف هليني يقود الحرب ضدنا".

"سنهزمهم".

"حان الوقت أيها *الإسكندر*، كي تعلم أن السلاح لا يشكّل حلاً لكـــل المشاكل، وها أنا قد فعلت كل ما في وسعي كي يعترفوا بـــي قائـــداً للـــتحالف الهليني، وليس عدواً لهذا التحالف. إن لديّ مشروعاً طمـــوحاً: أريـــد إشعال حربٍ ضد الفُرْس في آسيا، وأن أهزمهم، ثم الانطلاق إلى ما وراء شواطئ بحرٍ إيجة حيث يتواجد الأعداء التاريخيون لليونانـــيين. وأريد أن أفرض سيطرتي على جميع الطرقات التجارية التي

تـــصل إلى شـــواطئنا مـــن الشرق، أما إذا أردت تحقيق هذا الهدف، فـــسيتعيّن عليّ أن أفرض نفسي قائداً غير متنازعٍ عليه لذلك التحالف العظيم الذي يوحّد كل قوى الدول اليونانية، يتعيّن عليّ أن أفعل ذلك بحـــيث يفرض الداعمون لي المتواجدون في كل المدن المهمة وجودهم، وليس أولئك الذين يتمنون موتي".

أومأ الإسكندر: "وماذا ستفعل؟".

"سأنتظر في الوقت الحاضر، لأنني تكبدت خسائر كبيرة في حملتي السابقة. ولذلك سأعيد بناء أقسام الجيش التي تضررت في الحرب على هيليـــسبونت وتراقيا. إنني لا أخاف من القتال، لكنني أفضّل أن أفعل ذلك عندما تكون فرص الفوز هي الأكبر.

أريـــد أن يحـــافظ كـــل المخـــبرين الذين يعملون لصالحنا على جهوزيـــتهم في أثيـــنا، وطيبة، وفي المدن اليونانية الأخرى، وذلك كي نحصل على أخبارٍ متواصلة عن التطورات السياسية والعسكرية. يحتاج ديموستين إلى دعم طيبة إذا أراد الحصول على أمل، ولو ضئيل، في أي معـــركة ضدنا، وذلك لأن طيبة تمتلك أقوى القوات البرية بعدنا نحن. ولهـــذا الـــسبب، يتعيّن علينا أن ننتظر اللحظة المناسبة كي تحول دون حـــصول تحالف معادٍ لنا، إن ذلك ليس بالأمر الصعب علينا، لأن أثينا وطيبة كانتا على عداء منذ أقدم الأزمنة. ولكن، إذا قدّر لهذا التحالف أن يتحقق فسنضطّر إلى الضرب بيد من حديد بسرعة البرق.

انتهت مرحلة تعليمك أيها الإسكندر، ومن الآن فصاعداً ستكون علـــى علمٍ بكل الأمور التي تؤثر فينا، ليلاً ونهاراً، وسواء أكان الطقس جميلاً أم لا. والآن، أطلب منك أن تتوجه إلى والدتك كي تبلغها بخبر مـــوت مـــبعوثها، كانت تحبه كثيراً، لذلك أريدك ألاّ تخفي عنها أيّ تفاصيل، لأنني أريدها أن تعرف كل شيء. أما أنت فأريدك أن تكون

جاهزاً منذ الآن فصاعداً، لأنك عندما تقود جنودك في المرة القادمة فلن يكون ذلك لمطاردة أسد أو دب... بل في إطار الحرب".

غـــادر الإسكندر متوجهاً إلى جناح والدته، فالتقى كليوباترا في الـــرواق، ولاحظ أنها ترتدي فستاناً جميلاً، يحيط به حزام مطرز، من صـــنع أيونـــيا، وأن وصـــيفتين تـــرافقانها وتحملان صندوقاً ضخماً، وتنـــزلان الدرج معها.

قال لها: "أصحيح أنك ذاهبة في نـــزهة".

أجابـــت شقيقته، وهي تشير إلى الصندوق: "أجل، إنني ذاهبة إلى معبد آرتميس كي أقدم كل الألعاب والدمى التي كانت بحوزتي في أثناء طفولتي إلى الأسياد".

"هكذا تماماً، لقد أصبحتِ امرأة الآن. إن الوقت يمر بسرعة الآن، أتريدين إهداء كل هذه الألعاب إليها".

ابتـــسمت كليوباترا: "لا، ليس كلها تماماً... أتتذكر تلك الدمية المصرية بذراعيها وساقيها المربوطة، وعلبة أدوات التزيين الصغيرة، التي أهداني إياها والدي بمناسبة ذكرى ميلادي؟".

أجـــاب الإسكندر وهو يحثّ ذاكرته على تذكّر الدمية: "أجل، أعتقد ذلك".

"حـــسناً، أريـــد أن أحـــتفظ بهـــا، أتعـــتقد أن الأســـياد ستسامحني؟".

"أوه، لا أشك في ذلك، أتمنى أن ترافقك السلامة في جولتك هذه يا شقيقتي الصغيرة".

طبعت كليوباترا قبلة على خد شقيقها، ثم نـــزلت الدرج تتبعها وصـــيفتاها، وسارعن إلى منـــزل الحرس حيث كانت العربة تنتظرهن مع المرافق بيرديكاس.

قالــت متشكّية: "لكنّني لا أريد أن أستقل عربة. ألا أستطيع أن أمتطي جواداً؟".

هـــزّ بيرديكاس رأسه: "لديّ أوامر... وخاصة مع ارتدائك هذه الملابس يا أميرتي".

رفعـــت كليوباترا طرف حزامها حتى وصل إلى مستوى ذقنها، وأظهرت لمرافقها أنها ترتدي تنورة قصيرة تحت فستانها الرائع. "أترى؟ ألا تعتقد أنني أبدو كالببغاء؟".

تحول لون بيرديكاس إلى القرمزي، وقال وهو يبلع ريقه: "أعتقد ذلك أيتها الأميرة".

"إذاً". قالـــت الأمـــيرة ذلـــك وهي تسمح لحزامها أن يصل إلى كاحليها.

تـــنهد بيرديكاس، وقال: "تعلمين جيداً أنني لا أستطيع أن أرفض لـــك طلـــباً. لكن، دعينا نعالج الأمر بهذه الطريقة. اصعدي الآن إلى العربة، لكن بعد أن نقطع مسافة معينة، ونبتعد عن القصر بحيث لا يرانا أحد ستتمكن من التبديل، يمكنك عندها أن تأخذي جواد أحد الحراس بيـــنما يـــركب هو العربة، وأنا متأكد من أنه لن يمانع في الركوب مع وصيفتيك".

صاحت الفتاة: "رائع!".

انطلقـــا مـــا إن بدأت الشمس بالظهور من وراء جبل رودوب، وسارا فوق طريق يؤدي إلى الشمال نحو يوروبوس. يقع معبد آرتميس عـــند منتـــصف الطـــريق الممتد بمحاذاة برزخ يقسم المياه إلى بحيرتين متماثلتين، كان ذلك مكاناً يتميز بجمال طبيعي مدهش.

مـــا إن غـــاب موقع القصر عن أنظارهم حتى صاحت كليوباترا بسائق العربة كي يوقفها، وما لبثت أن نـــزعت حزامها وسط دهشة

وصيفتيها، ثم امتطت صهوة جواد تابعٍ لحارس بعد أن حملته على أخذ مكانها في العربة. ثمّ انطلق الموكب مجدداً وسط قهقهات الوصيفتين.

قالت كليوباترا: "أترى؟ إن هذا الوضع مسلٍ للجميع".

أومـــأ بيرديكاس، وحاول إبقاء نظره على الطريق أمامه، لكنه لم يستطع إلا أن يلتفت كي يتطلع على ساقي الأميرة العاريتين، مما سبّب له تشويشاً كبيراً في تفكيره.

قالت الفتاة معتذرة: "أنا آسفة لأنني سبّبت كل هذه الفوضى".

ردّ بيرديكاس: "لا تهتمي... لأنني، في واقع الأمر، تطوعت لهذه المهمة".

ســألته كليوباتـــرا وهـــي تخفض رأسها كي تنظر إليه مباشرة: "حقاً؟".

أومأ بيرديكاس مجدداً، وشعر بخجلٍ أكثر من ذي قبل.

"إنـــني ممتـــنة لك كثيراً، ومسرورة بشكلٍ خاص لأنك اخترت مرافقتي بنفسك، سمعت أنك شجاعٌ جداً".

شعر الشاب وكأن قلبه يقفز بين ضلوعه، لكنه جاهد كثيراً كي يضبط نفسه، ليس فقط بسبب تربيته الحسنة، بل لأنه أدرك أن الرجال يراقبونه.

توقـــف الموكب عندما ارتفعت الشمس في السماء، فنـــزل الجميع، وتجمعوا في ظل شجرة. طلب بيرديكاس من كليوباترا أن تغيّر ملابسها وتعود إلى مكانها في العربة، وذلك لأنهم لم يعودوا بعيدين عن المعبد.

قالـــت الفـــتاة موافقة: "إنك على حق". ثمّ طلبت من الحارس الخروج من العربة، وما لبثت أن ارتدت ثوبها الاحتفالي مجدداً.

وصـــل الموكب إلى المعبد عند المساء، فدخلت كليوباترا، وتبعتها وصيفتاها وهما تحملان الصندوق. تقدم الجميع حتى أصبحوا تحت تمثال

آرتمـيس، كان تمثالاً جميلاً لكنه موغلٌ في القِدَم، وهو تمثال محفور من الخـشب ومطلـي بالألوان. وضعوا مجموعة الألعاب والدمى والإناء المـصغّر، والطاسات، عند قدمَيْ التمثال، وتضرعت كليوباترا لآرتميس قائلـة: "أيـتها العـذراء، سأترك هنا عند قدميك تذكارات طفولتي، وأتوسّـل إلـيك أن تتفهمي موقفي إذا عجزت عن امتلاك القوة، أو الإرادة كـي أبقى عذراء مثلك، أتوسل إليك أن تكوني مسرورة بهذه الهدايا، وأرجوك ألاّ تنظري إليّ بعين الحسد إذا اخترتُ أن أتمتع بمباهج الحب". وقبل مغادرتها، تركت كليوباترا تقديماتٍ سخية لرجال الدين في المعبد.

كـان المكان شديد الروعة، فالمعبد الصغير محاط بأجمات الورود، ويقـع وسط مرجٍ أخضر وينعكس منظره على سطح البحيرتين التوأم من جهة اليمين وجهة اليسار، وبدا لونه أزرق مماثلاً لزرقة السماء.

اقتـرب بيرديكاس وقال: "أمرت بتجهيز الغرف لك ولوصيفتيك كي تبتن الليلة هنا في جناح الضيوف التابع للمعبد".

"وماذا عنك أنت؟".

"سأحرسك خلال نومك يا سيدتي".

خفضت الفتاة رأسها، وقالت: "طوال الليل؟".

"بالطبع، طوال الليل. إنني مسؤول عن...".

رفعـت كليوباترا عينيها، وابتسمت: "أعرف أنك طيب جداً يا بيرديكاس، لكنني آسفة لأنك ستبقى مستيقظاً طوال الليل. ظننت بأنك قد...".

سأل الشاب بينما تسارعت نبضات قلبه: "بماذا تفكرين سيدتي؟".

"كنت أفكّر في أنك تستطيع أن تأتي لتتحدث معي قليلاً، إذا ما شعرتَ بالضجر".

"أوه، سيكون ذلك مدعاة سرورٍ وشرفٍ كبيرين لي و...".

"سأترك الباب مفتوحاً في هذه الحالة".

ابتـــسمت له ابتسامة فاتنة، ثم سارعت بالانضمام إلى وصيفتيها اللتين كانتا تلعبان بالكرة بين الورود المتفتحة الموجودة في المرج.

21

اجتمع مجلس المعبد في دلفي بعد وقت قصيرٍ من عودة الإسكندر إلى بـــيلا، وطلب المجلس من فيليب أن يتدخل بالنيابة عن معبد أبولو ضد مدينة أمفيسا التي بدأ سكانها بزراعة أراضٍ تعود ملكيتها إلى معبد أبولـــو بطـــريقة غير مشروعة. وكان الملك قد عرف أخباراً في غاية الأهمية من آسيا في الوقت الذي بدأ فيه التفكير في الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء شنّ هذه الحرب المبجلة الجديدة.

جاءت هذه الأخبار مباشرةً من أحد جواسيسه، وهو رجلٌ يوناني من صـــقلية يدعى يومولبس، ولديه مصالح تجارية في سولوي، وكان قد وصل إلى بيلا بحراً عن طريق مرفأ ثيرماي، فاستقبله الملك وحده في مكتبه الخاص.

"أحضرت إليك هدية يا سيدي". أعلن الجاسوس ذلك وهو يضع على طاولة فيليب تمثالاً ثميناً لعشتار مصنوعاً من اللازورد. "هذا التمثال تحفـــةٌ نـــادرةٌ جداً، ويمثّل ما يعادل أفروديت بالنسبة إلى الكنعانيين، سيحمي هذا التمثال رجولتك لوقت طويلٍ جداً".

"شـــكراً لـــك، إن رجولتي غالية عليّ جداً، لكنني أعتقد أنك لم تقطع كل هذه المسافة من أجل هذا السبب فقط".

أجـــاب يومولبس: "بالطبع لا، جئتك بأخبار مهمة من عاصمة الفرس. سُمّم الإمبراطور أرتحشستا الثالث من قِبل طبيبه بناءً على أوامر محددة، ويبدو أنها صدرت من أحد خصيان البلاط".

هزّ فيليب رأسه: "هؤلاء الخصيان كلهم من الخونة، أرادوا ذات مـــرة أن يعطوني شراباً، لكنني رفضت عرضهم، إنهم يحسدون الجميع،

وكــل شـــخص يمتلك ما حرموا منه، إن ذلك أمر مفهوم تماماً. وإنّ الأخبار التي نقلتها إليّ تؤكد أنني فعلت الشيء الصائب".

"يُدعى ذلك المخصي باغاوس. يبدو لي أنها جريمة غيرة".

قـــال فيليب: "ينبغي القضاء على ذلك المخصي الشاذ، أعتقد أن هذا أمر طبيعي، وماذا سيحدث الآن؟".

"لقـــد حدث، وانتهى الأمر يا سيدي. أقنع ذلك المدعو باغاوس بالاشتراك مع إحدى زوجات أرتحشستا نبلاء البلاط بأن يقدموا التاج إلى آرســـيس، وهـــو ابن الراحل أرتحشستا، ها هو". مدّ يده إلى جيبه وتـــناول منها عملة معدنية، وأعطاها إلى فيليب من فوق الطاولة. "لقد سُكّت حديثاً".

تفحّـــص الملك ملامح الوجه النصفية للإمبراطور الجديد، والذي يتميز بأنف كبير يشبه منقار طائر. "لا يبدو مطمئناً جداً، يبدو لي كأنه أسوأ من والده، وذو شخصية متشددة، أتعتقد أنه سيستمر؟".

تنهّد يومولبس وهو يهزّ كتفيه: "من يدري؟ يصعب عليّ القول. إن مخـــبرينا يتفقون على أن باغاوس يريد أن يحكم من خلال آرسيس، وهكذا فإن الإمبراطور سيستمر طالما أنّ باغاوس يريده أن يبقى".

"إن الوضـــع واضـــح جداً بالنسبة إليّ، أعتزم إرسال تحياتي إلى الإمـــبراطور الجديـــد، وإلى ذلك المخصي باغاوس، وسوف نرى رد فعلـــهما، أريدك أن تبقيني على اطلاع دائم بكل شيء يحدث في بلاط سوســـا، وســـتكون راضياً. أريدك أن تمر على مساعدي الآن، وهو سيدفع لك الأجر الذي اتفقنا عليه، قل له بعد ذلك أن يوافيني".

غـــادر يومولبس بطريقة رسمية، ثم اختفى بعد ذلك عن الأنظار، وتـــرك فيليب يفكّر في ما يجدر به فعله. ولكن عندما حضر إيومينيس كان الملك قد اتّخذ قراره.

"هل ناديتني يا سيدي؟".

"اجلس واكتب".

جلس إيومينيس على مقعد، وتناول لوح كتابة وريشة، بينما بدأ الملك في إملاء ما يريده:

مـن فيلـيب ملـك مقدونيا إلى آرسيس إمبراطور الفرس، وملك الملوك، ونور أنوار الآريين...

تحياتي!

أهاننا الإمبراطور أرتحشثنا الثالث – والدك وسلفك – كثيراً من دون أي سـببٍ مـن جانبنا. فقد أقدم على تجنيد أفرادٍ من المرتزقة للعمل لصالح أعدائنا، بينما كنا مشغولين بحصار بيرينثوس، وبالحرب ضد بيزنطة. تكـبدنا خسائر فادحة جراء هذه الأعمال الفظيعة، ولهذا السبب فإننا نطلب الآن تعويضات بقيمة...

رفع إيومينيس رأسه في أثناء انتظاره معرفة الرقم.

... خمسمئة تالنت.

لم يستطع إيومينيس منع نفسه عن الصفير.

وإذا تخلفتم عن تلبية طلبنا هذا فسنضطر إلى اعتباركم أعداء لنا، بما في ذلك كل الأمور التي ستنجم عن هذا الوضع.

خذوا حذركم، وغير ذلك، وغير ذلك...

"اكـتب هـذا الـنص على ورق البردى، وسلّمني الرسالة كي أختمها، أريد إرسالها مع مبعوث سريع".

صـاح إيومينـيس: "بحق زيوس يا سيدي! إنها أكثر الرسائل الـتي قرأتها في حياتي صرامةً، لم يبقَ أمام آرسيس سوى الرد باللهجة ذاتها".

قـال الملـك مـؤكداً: "هذا ما أريده بالضبط، دعنا نفترض أن الرسالة ستستغرق شهراً أو شهرين قبل أن تصل إلى مقصدها، بالإضافة إلى شـهرٍ أو اثـنين كـي يأتي الرد، سيعطيني هذا وقتاً كافياً لترتيب

الأوضـــاع في اليونان، سأهتم بعد ذلك بالمخصي الصغير. أريد أن يقرأ الإسكندر هذه الرسالة، كما أريد معرفة رأيه فيها".

*

قرأ الإسكندر الرسالة، فأدرك أن والده قد صمّم على غزو آسيا، لكنه كان يبحث عن ذريعة كي يُشعل الحرب.

عاد إلى مييزا فور فراغه من المسائل التي انشغل بها منذ عودته إلى بيلا: المشاركة في الاجتماعات الحكومية، واستقبال الضيوف الأجانب، والبعـــثات والوفـــود، وتجمعـــات الجيش، وهي كلها أمور ضرورية للعلاقات ما بين التاج، والنبلاء الذين يدعمونه.

كـــان أرسطو قد غادر المكان، لكنّ قريبه كاليستين كان لا يزال هـــناك، يعمل على تجميع مجموعة التاريخ الطبيعي، بالإضافة إلى تحضير البحـــثين اللـــذين خصصهما الفيلسوف لتلميذه الملكي: أحدهما حول الحكم الملكي، أما الآخر فكان عن الاستعمار، وهو البحث الذي توقع فـــيه انتـــشار نموذج المدينة - الدولة يوناني في كل أنحاء العالم، وهذا النموذج هو الوسيلة الوحيدة للحرية، وتجربة في الحضارة المادية.

مكث الإسكندر في مييزا أيام عدة على كل حال، وخصّص هذه الفترة للراحة والتأمل. تناول وجبات طعامه مع كاليستين، وهو شاب مثقفٌ لديه معرفة محترمة بالوضع السياسي في الدول اليونانية.

وقـــاده شغفه بالتاريخ إلى تجميع ليس فقط الأعمال الكلاسيكية العظـــيمة لهـــيكاتايوس الميلـــيتي، وهيرودوتس، وثوسيديد، بل أعمال المـــؤرخين الغربيين من أمثال فيليستوس السيراكوزي الذي روى تاريخ المدن اليونانية في صقلية وإيطاليا، وهما البلدان اللذان بدأت تبرز فيهما قـــوى جديدة، مثل مدينة روما التي أسسها البطل الطروادي آينياس، والتي زارها هرقل في رحلة عودته من إيبيريا البعيدة.

كانا يجلسان تحت الرواق المعمّد بعد العشاء، ويتحدثان حتى وقت متأخر. "عندما كان والدك يحارب السكاثيين أعلن مجلس دلفي حرباً مبجلة جديدة ضد سكان أمفيسا".

أجاب الأمير: "أعرف ذلك، أعتقد أن الطرفين يفتقدان إلى القوة الكافية لحسم النزاع، إن سكان طيبة يدعمون أمفيسا، لكنهم يرفضون إظهار دعمهم لأنهم يخشون إثارة غضب المجلس. أعتقد أن الوضع قد أصبح حرجاً مجدداً، وعلى الأخص في ما يتعلق بالتحرك الذي ستقرره أثينا، وسبق للمجلس أن أرسل طلباً رسمياً للتدخل، ولا أعتقد أنه سيضطر إلى تكرار طلبه مجدداً".

سكب كاليستين مزيداً من الشراب لكليهما، وقال: "يتزعم التساليون، أصدقاؤك، ذلك المجلس... وبحسب معرفتي بوالدك، فإنني لن أُدهش لدى معرفتي أنه رتّب هذه المناورة برمتها".

تطلع الإسكندر في عينيه مباشرة بينما كان يرتشف الشراب من دون اكتراث من كوبه. "أيعني ذلك أنك كنت تتنصت يا كاليستين؟".

وضع الشاب كوبه على الطاولة، وقال: "إنني مؤرخ أيها الإسكندر، وأعتقد أنني كنت تلميذاً مجتهداً عند خالي، مثلك تماماً. يتعيّن عليك ألاّ تتفاجأ إذا استخدمت الوسائل المنطقية بدلاً من الإصغاء إلى الشائعات التي يتناقلها الناس.

دعني أخمّن الآن، يعرف والدك جيداً أن الرأي العام في أثينا لا يميل إلى سكان طيبة، لكنه يعرف كذلك أن ديموستين سيجرّب أي شيء في متناول يده كي يضمن أن يغيّر الأثينيون موقفهم ويدعموا موقف سكان طيبة الداعم لأمفيسا ضد مجلس المعبد، أي ضد فيليب.

أما ديموستين، فهو يعرف من جهته أنه عبر توحيد قوى أثينا وطيبة قد تتوفّر له الفرصة لتجنّب سيطرة المقدونيين التامة على اليونان،

وهكـــذا فإنـــه سيفعل أي شيء من أجل إقامة حلفٍ مع سكان طيبة، حـــتى ولو كان ذلك يعني تحدي أعلى مجلسٍ ديني في اليونان، بالإضافة إلى ضالع أبولو".

ســـأل الإســـكندر بعد أن صمّم على معرفة رأي رفيقه بعمق: "وكيف سيتصرف سكان طيبة برأيك؟".

"يتعلق الأمر بعاملين: مناورات الأثينيين، وأداء الجيش المقدوني في وســـط الـــيونان. سيحاول والدك وضع أكبر قدرٍ من الضغوط على ســـكان طيبة من أجل منعهم من إقامة تحالفٍ مع أثينا. إنه يعرف جيداً أنـــه إذا نجح الطرفان في إقامة تحالف، فإنه سيواجه أقوى القوات البرية بالإضـــافة إلى أقوى قوة بحرية في اليونان كلها، حتى بالنسبة إلى ملك مقدونيا".

بقي الإسكندر هادئاً تماماً لفترة، وكأنه كان يصغي إلى الأصوات الليلـــية التي كانت تتناهى إلى سمعيهما من الغابة المجاورة، بينما سكب كاليستين مزيداً من الشراب.

سأل الإسكندر بعد أن تناول رشفة من المشروب: "ماذا ستفعل بعد أن تنتهي من عملك هنا في ميزا؟".

"أعـــتقد أنني سأنضم إلى خالي في ستاجيرا، لكنني أحب أن أتابع الحرب عن قرب".

"يمكـــنك أن تتبعني إذا أردت. وكذلك إذا طلب مني والدي أن أنضم إليه".

أجاب كاليستين: "سأكون مسروراً جداً بالانضمام إليك". كان مـــن الواضـــح أنه كان يأمل بسماع طلبٍ كهذا، وكان ذلك ترتيباً يلبـــي طموحات الطرفين.

"إذاً، تعالَ إلى بيلا عندما تُنهي عملك هنا في ميزا".

قــبِل كاليستين بحماسة، تركا بعضهما بعضاً في وقتٍ متأخرٍ من الليل بعد أن تحدثا مطولاً حول قضايا فلسفية. وفي اليوم التّالي، أعطى الــشاب البحثين اللذين حضّرهما أرسطو إلى ضيفه، بحسب ما وعده، وكان كل بحث مرفقاً برسالةٍ خطية من الفيلسوف.

*

عــاد الإســكندر إلى القصر بعد مرور ثلاثة أيام، وكان الوقت مساءً، وذلك كي يشارك في مجلس الحرب الذي دعا إليه والده. حضر القادة أنتيباتر، وبارمينيون، وكليتوس، والأسود، بالإضافة إلى قادة كل الوحدات الرئيسة في الكتيبة وفرق الخيّالة، كما حضر الإسكندر بصفته قائد قوات الطليعة.

بــرزت علــى الجدار الخلفي لقاعة المجلس خريطة لبلاد اليونان، وهــي الخريطة التي أمر فيليب بصنعها قبل سنوات قليلة على يد أحد الجغــرافيين من سميرنا، أخذ الملك يشرح بمساعدة هذه الأداة البصرية الخطوات العملية التي ينوي اتخاذها.

قال فيليب: "لا أنوي مهاجمة أمفيسا على الفور، إن منطقة وسط اليونان منطقة خطرة ومنيعة، بحيث يسهل على المرء أن ينتهي سجيناً في الأوديــة الضيقة، بينما تختفي كل منافذ النجاة أمامه ليجد نفسه محاطاً بالعدو. إن أول شيء ينبغي لنا فعله هو أن نسيطر على المدن المهمة في المــنطقة، أي كيثينــيون وإيلاتيا، وسنقرر بعدها ما يمكننا فعله. بدأت قواتنا بالتحرك فعلاً، ونحن الآن نعبر تساليا. وسأنضم أنا وبارمينيون إلى هــذه القــوات في وقــتٍ قريب، أي أننا سنغادر في الغد. أما أنتيباتر فسوف يحتفظ بقيادة القوات التي ستبقى هنا لحماية مقدونيا".

انتظــر الإسكندر بقلقٍ أن يوزّع والده المهام التي خصّصها له في العمليات الحربية، لكنه أصيبَ بخيبة أمل.

"سأترك ختم أركاديا مع ابني بحيث يمكنه أن يمثلني خلال فترة غيابي، إن كل مرسوم يصدر عنه سيتمتع بمنزلة مرسوم ملكي".

هيأ الأمير الشاب للوقوف، لكنّ نظرة واحدة من أبيه أبقته جالساً. في تلك اللحظة، دخل إيومينيس وسلّم الختم إلى الإسكندر الذي سارع إلى وضعه في إصبعه، وقال من دون أن يُظهر أي حماسة كبيرة: "إنني ممتن للشرف الذي منحتني إياه، وسأسعى إلى أن أكون جديراً به".

التفت فيليب إلى مساعده، وقال له: "اقرأ على مسامع القادة الرسالة التي أرسلتها إلى إمبراطور الفرس الجديد، أريدهم أن يعلموا أن بعضهم سيضطر إلى المغادرة سريعاً إلى آسيا كي يفتحوا الطريق أمامنا".

قرأ إيومينيس الرسالة بصوته الصافي، لكنه فعل ذلك بنبرة رزينة، تابع الملك حديثه عند الانتهاء من قراءة الرسالة: "إذا جاء الرد كما أتوقع فسيتمكن بارمينيون من عبور المضائق، ويسير بمحاذاة الشاطئ الشرقي تحضيراً لبداية غزونا لآسيا. وفي هذا الوقت، سنركّز على تعليم اليونانيين درساً لن ينسوه طوال حياتهم، وهو عدم إمكانية تواجد غير تحالف هليني واحد بقيادتي، هذا كل ما أردت قوله لكم. يمكنكم الآن العودة إلى نشاطاتكم المعتادة".

انتظر الإسكندر مغادرة الجميع في نهاية الاجتماع، وذلك كي يتمكن من الحديث مع والده وجهاً لوجه.

"لماذا أنت مصرٌ على تركي في بيلا؟ أريد أن أقود فرقة الطليعة في ميدان المعركة، وليس خلال الاستعراضات فقط، يستطيع أنتيباتر إدارة شؤون الدولة خلال غيابك".

"فكّرت ملياً ومطولاً قبل أن أتّخذ هذا القرار، ولا أرغب بتغييره الآن. إن إدارة الدولة أمرٌ أشد صعوبة من الحرب، ولعلها أكثر أهمية.

إن أعدائي كُثُر أيها الإسكندر، ليس فقط في أثينا وطيبة، ولكن في بيلا ومقدونيا كذلك، هذا من دون ذكر بلاد فارس، أريد أن أتأكد من أنني أترك ورائي وضعاً مستقراً بأيدٍ أمينة خلال خوضي المعارك خارج البلاد، إنني أثق بك".

أخفض الشاب رأسه، ووجد أنه من المستحيل الاعتراض على كلمات أبيه، قدّر فيليب مشاعر ابنه فتابع حديثه: "إن الختم الذي تسلمته هو إحدى أعلى علامات الشرف في العالم كله، واعلم أن حمل ذلك الختم يتطلب قدراتٍ أعظم بكثير من تلك المطلوبة لقيادة فرقةٍ من الخيالة.

ستتعلم هنا في هذا القصر كيف تصبح ملكاً، وليس في ميدان المعركة، إن السياسة هي مهنة الملوك، وليس استخدام الرمح والسيف، أقول لك، بالرغم من ذلك كله، إنه إذا حانت لحظة النزال النهائي بشكلٍ لا يمكنني تجنبه، وإذا وجدت نفسي في حاجةٍ إلى كل القوى التي أستطيع تجنيدها، فإنني سأبعث في طلبك، وأنت الذي سيقود فرقة الطليعة في ميدان المعركة، وليس أي شخصٍ آخر. تعالَ الآن، تخل عن هذا القلق، لأنني حضّرتُ لك مفاجأة كي أرفع من معنوياتك".

هزّ الإسكندر رأسه وقال: "ماذا لديك من خطط بعد، يا والدي؟".

قال فيليب وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: "سترى". وقف بعد ذلك وترك قاعة الاجتماع. وبعد قليل، سمعه الإسكندر وهو ينادي على تابعه بصوتٍ عالٍ، وأمره أن يُحضر جواده ملجوماً، وطلب منه تنبيه الحارس. خرج الأمير كي يتطلع من فوق الرواق الذي يُشرف على الباحة في الوقت المناسب كي يرى فيليب وهو يثب بجواده وسط ظلمة الليل.

بقـــي الإسكندر في غرفته حتى وقت متأخرٍ من الليل، وانشغل بتحـــضير مهمـــات الـــيوم التالي، أطفأ المشعل عند حلول منتصف اللـــيل وقصد جناحه، ونادى ليبتين فور دخوله الغرفة، لكنّ الفتاة لم ترد.

كرّر نداءه بعد أن عيل صبره: "ليبتين!" إما أنها مريضة، أو غاضبة منه لسببٍ ما. وتناهى إلى سمعه صوت آخر من غرفة نومه: "اضطرت ليبتين إلى المغادرة، لكنها ستعود في الغد".

صـــاح الإسكندر عند سماعه ذلك الصوت الغريب وسط غرفته: "بحق زيوس!" تناول سيفه ودخل الغرفة.

قـــال الـــصوت: "أعتقد أنك لا تريد أن تغرز ذلك السيف فيّ، بل...". رأى أمامه فتاة رائعة الجمال تجلس على سريره لم يسبق له أن رآها من قبل.

سألها: "مَن أنت، ومن أعطاكِ الإذن بدخول غرفتي؟".

"إنـــني المفاجـــأة التي وعدكَ بها والدك الملك فيليب، ورتّبها من أجلك، اسمي بانكاسب".

أجاب الإسكندر: "أنا آسف يا بانكاسب، لكنني إذا كنت أسعى إلى الحـــصول علـــى هذا النوع من المفاجآت، فإنني قادر على ترتيبها بنفسي، وداعاً".

هبّت الفتاة واقفةً على قدميها. ولكن، بدلاً من الاتجاه نحو الباب، أقـــدمت بحـــركة من رسغها على حلّ مشابك فستانها، فوقفت أمام الإسكندر بملابسها المصنوعة من أشرطة فضية.

أما ذراع الإسكندر التي سبق له أن رفعها كي يؤشر بها إلى الباب فقـــد انخفضت على جانبه، وراح يمتّع نظره فيها بصمت، كانت أجمل امـــرأة رآهـــا في حـــياته، وكانت من الروعة بحيث خطفت أنفاسه،

وجعلـــت الدماء تجري بسرعة في شرايينه. كان عنقها ناعماً وطرياً... فشعر أن لسانه قد جفّ في حلقه.

اقتـــربت مـــنه الـــشابة، وأمـــسكته بيدها، ثم قادته نحو غرفة الاستحمام، قالت له: "أيمكنني أن أنـــزع عنك ثيابك؟" ثم ما لبثت أن بدأت بفك أزرار ردائه وسترته العسكرية الصغيرة وعباءته.

بدأ الإسكندر يتمتم: "إنني قلق من أن تغضب ليبتين، وأن...".

"ربما ستغضب، لكنك ستكون سعيداً وراضياً، أؤكد لك ذلك".

ثم أضافت: "سيكون الأمر أفضل هنا، سترى".

رضخ الإسكندر، فبدأت الفتاة في تمسيده بكل خبرة ومهارة، ثم تـــراجعت بكـــل خفة كي تبدأ تمسيداها مجدداً في مناطق أخرى من جسده.

عـــندما شـــعرت الفـــتاة أنـــه يكـــاد يتفجر خرجت من غرفة الاســـتحمام، وذهبت كي تستلقي على السرير، وكان جسدها يقطر بنقاط الماء المعطر تحت أنوار المشاعل الذهبية.

... فهـــم الأمـــير الشاب في تلك الليلة أنها أخذته إلى مستويات أعلـــى بـــآلاف المرات من تجربته مع ليبتين التي قدمت إليه حباً خشناً وبدائياً.

22

ظـــلّ الإســـكندر يستقبل يومياً، وبشكلٍ مستمرٍ، مبعوثين منذ لحظـــة مغـــادرة فيلـــيب، وهكـــذا ظل على علمٍ بتطورات المعارك الحـــربية. علم الإسكندر بهذه الطريقة أن فيليب قد حقّق هدفه منذ خطـــوته الأولى، وذلـــك عندما احتل كيثينون وإيلاتيا في نهاية فصل الصيف.

فيليب، ملك مقدونيا، يحيّي الإسكندر.
فـــي هـــذا الـــيوم، الـــثالث مـــن شـــهر ميتاغيتنيون، تمكنت من احتلال إيلاتيا.
ســـببت إنجازاتـــي الرعب في أثينا لأن الجميع هناك شعروا بأنني أخطط لقـــيادة جيـــشي ضدهم، وأنني سأجبر سكان طيبة على الزحف معي. لكن ديموستين أقنع المواطنين أن نواياي تقتصر على الضغط على سكان طيبة كـــي يمتـــنعوا عن عقد حلفٍ مع أثينا، أقنعهم كذلك بضرورة إرساله إلى طيبة مع وفد من أجل هذه الغاية بالذات، أي من أجل عقد الحلف. وقررت بـــدوري أن أرســـل بعثةً إلى تلك المدينة من أجل إقناع سكانها بعدم إتمام ذلك الحلف، سأبقيك على علمٍ بما يجري.
انتبه لنفسك، ولوالدتك الملكة.

*

أرســـل الإسكندر في طلب كاليستين، الذي انضمّ إليه في القصر قبل أيامٍ قليلة، وقال له: "تتطور الأمور بحسب توقعك تقريباً، استقبلت لـــتوي مـــبعوثاً من والدي ليخبرني عن تطور حملته. ستقوم بعثتان – واحـــدة أثينية وأخرى مقدونية – بمحاولة إقناع أهل طيبة بعقد تحالفٍ مع جهةٍ أو أخرى، من سيفوز برأيك؟".

وضـــع كاليستين عباءته فوق ذراعه اليسرى بطريقة متعالية نوعاً

مـــا، ثم قـــال: "توقع الأحداث أمر في غاية الخطورة، وهو عمل يليق بضالع أكثر مما يليق بمؤرخ، لكن من يترأس البعثة الأثينية؟".

"أهو ديموستين؟".

"يعـــني ذلك أنه هو الذي سيفوز، لا يوجد خطيب مفوّه يفوقه مقدرة في اليونان كلها، يمكنك أن تتحضّر لمغادرة بيلا".

"ماذا تعني؟".

"أعـــني أن يوم المواجهة الأخيرة بات قريباً، وسيرغب والدك بأن تكون إلى جانبه في ميدان المعركة".

تطلع الإسكندر في عينيه: "إذا ما حدث ذلك فستقوم أنت بكتابة تاريخ أعمالي عندما تحين اللحظة".

*

أدرك الأمـــير جيداً مدى صواب رأي والده القائل إن استخدام الـــسلطة السياسية هو أشد إنهاكاً من القتال في ميدان المعركة، وشعر كل الموجودين في البلاط أنه من واجبهم إسداء النصح إليه، وذلك لأنه كان في مقتبل العمر. كما اعتقد الجميع، وعلى الأخص والدته، بأنهم يستطيعون التأثير في قراراته.

دعـــته والدتـــه ذات مساء كي يتناول العشاء معها في جناحها، وذلك بحجة إعطائه العباءة التي طرّزتها من أجله.

قـــال الإســـكندر ما إن رأى العباءة: "إنها رائعة". وتنبّه على الفـــور علـــى أنها عباءة مصنوعة باليد مثل تلك التي تشتهر إفيسوس بـــصنعها، وأضـــاف قـــائلاً: "لا بـــد من أنك أمضيت شهوراً في خياطتها".

رأى الإسكندر مقعدين فقط بالإضافة إلى طاولتين قليلتي الارتفاع موضوعتين إلى جانب بعضهما.

"ظننت أن كليوباترا قد تكون معنا هنا هذه الليلة".

"أصيبت بنـــزلة بردٍ خفيفة، وبارتفاعٍ خفيفٍ في حرارتها، أرجو أن تعـــذرها. ولكـــن، تصرّف على هواك من فضلك، كما أن العشاء جاهز".

اســـتلقى الإسكندر على أريكته ثم تناول بعض حبوب اللوز من أحد الأطباق الكبيرة، بينما بدأت فتاة بسكب حساء لحم الإوز، ونوع من أنواع الخبز المحضّر فوق الجمار. كانت الوجبات التي تتناولها والدته بسيطة على الدوام، وقليلة من حيث الكمية.

اســـترخت أوليمبـــيا في جلستها على أريكتها، وأمرت الفتاة أن تسكب الحساء في طبقها.

تـــناولت بـــضع ملاعق من الحساء ثم سألته: "حسناً، أخبرني ما شعورك عند جلوسك على عرش أبيك؟".

لم يحـــاول ابـــنها إخفاء بعض الانـــزعاج الذي شعر به عندما أجابهـــا: "لا أحـــسّ بأي شعور يختلف عن ذاك الذي أشعر به عندما أجلس على أيّ كرسي آخر".

حدجـــته أوليمبـــيا بنظرة تأنيب: "لا تناور حول السؤال، أنت تعرف تماماً ما أقصده".

"أعرف يا أمي، لكن ماذا عساي أقول؟ أحاول أن أعطي أفضل ما عندي، وأن أتجنب ارتكاب الأخطاء، وأن أرعى شؤون الدولة بكل جدية".

ردّت الملكة: "رائع".

وضـــعت إحدى الخادمات وعاءً يحتوي على بذورٍ نباتية، وبعض الـــسَلَطة علـــى الطاولة أمامهما، ثم مضت كي تضيف إليها الزيت، والخلّ، والملح".

عـــادت أوليمبيا إلى الحديث مجدداً: "أيها الاسكندر، هل فكّرت في أن والدك قد يموت على نحوٍ مفاجئ؟".

"يقاتل والدي في الصفوف الأمامية مع جنوده، لذلك إن حدوث هذا الأمر محتمل".

"وماذا سيحصل إذا حدث ذلك فعلاً؟".

صبّت الخادمة مزيداً من الشراب، ثم ما لبثت أن أخذت الوعاء، وعـــادت بـــسيخٍ مـــن لحم الكركي المشوي، وبكوبٍ من البازيلاء المهروسة، لكنّ الأمير رفضها بإشارةٍ صغيرةٍ من يده.

"أنـــا آسفة، نسيت أنك تكره البازيلاء. حسناً... هل فكّرت في هذا الاحتمال؟".

"سأشعر بأسفٍ شديد، لأنني أحب والدي؟".

"لم يكـــن ذلكَ ما قصدته أيها الإسكندر، إنني أتحدّث عن خلافة العرش".

"لا يحق لأحد أن يشكّك في أحقيتي بالعرش".

"طالما أن والدكَ حيّ، وطالما أنا على قيد الحياة...".

"إنك تبلغين السابعة والثلاثين من عمرك يا والدتي".

"لا يعـــني ذلك شيئاً، يُمكن للقدر أن يضرب أي شخص، إن ما أقـــصده هو أن ابن عمك إمينتاس يكبرك بخمس سنوات، وكان ولياً للعهد قبل أن تولد، يُحتمل أن يُقدم أحدهم على ترشيحه بدلاً منك، يُضاف إلى ذلك أن والدك لديه ابن آخر من إحدى... عرائسه".

هـــزّ الإســـكندر كتفيه: "آرهيدايوس شاب مسكين يفتقد إلى الذكاء".

"إنه يفتقد إلى الذكاء، لكن الدماء الملكية تجري في شرايينه. ولهذا إنّ بإمكانه أن يتسبب لك بالمتاعب".

"إذاً، برأيك ماذا يجدر بـــي أن أفعل؟".

"إنك تمسك بالسلطة في غياب أبيك، كما أن يديك تطال الخزنة الملكـــية، أي أنك قادر على فعل ما تريد، إن كل ما تحتاج إليه هو أن تدفع لأحدهم".

تـــزايد قلق الإسكندر فقال: "سمح والدي لإمينتاس أن يعيش، وحـــتى بعـــد ولادتي، كما أنني لا أنوي أن أفعل ما تقترحينه عليّ، أبداً".

هـــزّت أوليمبيا رأسها: "لا بد أن أرسطو ملأ دماغك بمفاهيمه حـــول الديمقراطية، لكنّ الأمور تختلف بالنسبة إلى الملوك، يتعيّن على الملك أن يضمن مسألة وراثته، ألا تفهم ذلك؟".

"يكفي هذا يا أمي، إن والدي لا يزال حياً، وأنتِ تتمتعين بصحة جـــيدة، وهـــذا هو كل ما في الأمر. أما إذا وجدت نفسي بحاجة إلى مساعدة ذات يوم فسأطلب مساعدة شقيقك، ملك إيبيروس. إنه يحبني وسيساندني".

أصرّت أوليمبيا على موقفها وقالت: "اسمعني...".

لكـــنّ صـــبر الإسكندر كان قد أوشك على النفاد، فهبّ واقفاً بحـــركةٍ سريعة، وقبّل والدته على عجلٍ على خدّها، وقال: "أشكرك على هذه الوجبة يا أمي، يتعيّن عليّ الذهاب الآن، طابت ليلتك".

ثم قـــصد الباحة الداخلية للقصر، وتفقّد الحرس قبل أن يصعد من أجل رؤية إيومينيس الذي كان مشغولاً في غرفته بترتيب بريد الملك.

سأله: "هل من أخبارٍ عن والدي؟".

"أجـــل، لكن كل شيء في غاية الهدوء، لم يقرّر سكان طيبة مع أي جهة سيقفون".

"وماذا يخطّط إمينتاس هذه الأيام؟".

نظـــر إيومينيس نحوه بدهشةٍ ارتسمت على جميع ملامح وجهه: "ماذا تعني؟".

"ما قلتُه بالضبط".

"حسناً... لا أعرف، أعتقد أنه يتصيّد في لينكستس".

"حسناً، أعطِه مهمة دبلوماسية لدى عودته".

"دبلوماسية؟ لكن أي نوعٍ من المهام الدبلوماسية تقصد؟".

"اخترها أنت، لا بد أن تناسبه إحدى المهام، أليس كذلك؟ سواء أكـــان ذلك في آسيا، أم في تراقيا، أم في الجزر، أم في أي مكان تختاره أنت".

بدأ إيومينيس بالاعتراض: "حقاً... لا أعرف ماذا...".

لكنّ الإسكندر كان قد غادر الغرفة.

*

وصل مبعوثو فيليب إلى طيبة في وقتٍ متأخرٍ من الخريف، وسُمح لهم بالكلام أمام مجلس المواطنين الذين تجمعوا في المسرح.

أراد مجلـــس المستشارين من المواطنين أن يكون قادراً على تقييم الاقتراحين من خلال مقارنتهما، ومن دون السماح بمرور وقتٍ طويل على تقديمهما. وهكذا سُمح للبعثة الأثينية بدخول المدينة، وهي البعثة التي كانت برئاسة ديموستين ذاته...

كان فيليب قد ناقش مع قادة وحدات جيشه الاقتراحات التي يتعيّن تقـــديمها لـــسكان طيبة. ولقد فعل ذلك مع بعض التفصيل، كما اعتقد بـــصلابة أن هذه التفاصيل مفيدة لهم بحيث لن يترددوا أبداً في قبولها. و لم تتضمن خططه أن يطلب منهم إنشاء تحالف معه، لأنه يعرف تماماً أن طيبة تقـــف وراء أمفيسا، وهي المدينة التي أُعلنتً ضدها الحرب المبجلة. أي أنّ ضـــمان حياد المدينة كان يكفيه، وقدّم إليهم مقابل الحياد مكاسب مالية

كـــثيرة، بالإضـــافة إلى الأراضي، وهدّد فيليب بأنهم إذا رفضوا، فسيدمر المدينة وينهبها. لذا فمن هو الرجل المجنون كي يرفض؟

ختم إيوديموس، وهو رئيس الوفد المقدوني، خطابه بعبارات رزينة من المديح، والتهديد، والابتزاز، ثم غادر المسرح بعد ذلك.

بعد وقت قصير، قابل أحد أصدقائه من سكان طيبة، وهو مخبرٌ في الـــوقت نفـــسه، فقاده إلى نقطة مشرفة يمكنه من خلالها أن يسمع ما يجـــري في المجلس. أدرك الرجل أن فيليب سيطلب منه تقريراً عن كل الأمور التي سمعها بنفسه بدلاً من نقلها عن طرف ثالث.

أخـــذ المجلـــس اســـتراحةً قصيرة جداً كي يتأكد من عدم التقاء الـــوفدين المقـــدوني والأثيني، ولتجنّب أي شجار محتمل. وبعد ذلك، دخل الوفد الذي يترأسه ديموستين المسرح.

كـــان ذلك الخطيب المفوّه صارماً في مظهره، ومتفلسفاً، وذا بنية نحيلة ورشيقة، وعينين معبرتين تحت جبهة ترتسم عليها تكشيرة دائمة. قيل عنه إنه عانى في صغره من مشاكل في الكلام، ومن صوت ضعيف، وأن طمـــوحه في أن يصبح خطيباً قد دفعه إلى إلقاء أشعار ليوريبيديس مـــن فوق شاطئ صخري في أثناء العواصف. وقيل كذلك إنه لم يكن يتحدث من دون أوراق لأنه لم يتقن الحفظ، لذلك لم يفاجأ أحد عندما تناول من تحت عباءته رزمة من الأوراق.

بدأ بالقراءة بصوت مدروس، وتحدث عن المراحل المختلفة لتقدّم فيلـــيب الـــذي يـــصعب وقفه، وعن خروقاته المستمرة للمعاهدات والاتفاقـــيات، وبلغـــت بـــه حماسته في إحدى المراحل حد تقديم هذا الالتماس المؤثر:

"لكـــن، ألا تدركون معي، يا سكان طيبة، أن الحرب المبجلة ما هي إلا ذريعة، أي كما كانت سابقاتها، وتلك التي سبقتها؟ يريد فيليب

الحصول على حيادكم لأنه يريد تقسيم قوى اليونان الحرة، والقضاء على معاقل الحرية واحداً بعد الآخر. إذا تركتم الأثينيين يقفون ضده وحدهم فسيأتي دوركم، وستخضعون له.

وهكذا، إذا وقفتم ضد فيليب وحدكم وخسرتم، فإن أثينا لن تقدر وحدها على الدفاع عن نفسها. إنه يريد تقسيمنا لأنه يعلم جيداً أن قواتنا المتحدة وحدها تستطيع الوقوف ضد عدوانه.

إنني أعرف بوجود أسباب عديدة تدعو إلى الصراع، وحتى الحرب في ما بيننا. ولكنها كلها صراعات بين مدن حرة. ولكن، لدينا اليوم طاغية من جهة، ورجال أحرار من جهة أخرى. ولا يمكننا التشكيك في خياركم يا مواطني طيبة!

إننا نعتزم تسليمكم قيادة قواتنا البرية كعربون عن ثقتنا بكم، بينما سنحتفظ بقيادة أسطولنا، ونتعهد بتمويل ثلثي إجمالي التكاليف".

تصاعدت تمتمات من صفوف المجتمعين، فأدرك الخطيب أن كلماته قد تركت أثرها بين المستمعين. وتحضّر بعد ذلك لتقديم ضربته الأخيرة مع إدراكه المخاطرة التي سيُقدم عليها، أي احتمال أن تُقدم حكومته على نبذه.

استأنف الخطيب حديثه بالقول: "بقيت مدينتا بواتيا وثيسبياي لمدة نصف قرن من الزمن حليفتين لأثينا بالرغم من كونهما جزءاً من بواتيا. كما أن أثينا من جهتها ضمنت استقلال هاتين المدينتين. إننا على استعداد الآن لوضع هاتين المدينتين تحت سيطرة مدينتكم، ولإقناعهما بقبول هذه السيطرة، هذا إذا ما قبلتم اقتراحنا، وتوحدتم معنا في المعركة المقبلة ضد الطاغية".

تضافرت حماسة ديموستين، ونبرته الموحية، والطابع الذي اتخذه صوته، وقوة حججه، لمساعدته على الوصول إلى هدفه المرجو. وما إن

فرغ من إلقاء خطابه، وقد تقطعت أنفاسه، وتصبّب العرق من جبهته، حتى وقف عدد كبير من الحاضرين مصفقين له، وانضم إليهم آخرون، ثم انضمّ عددٌ آخر إلى فريق المصفقين حتى لم يبقَ أحد في المسرح لم يشارك في الهتافات التي استمرت طويلاً.

إن ما ساعد على إقناعهم، بالإضافة إلى طاقة الخطيب الأثيني، كان غرور موفد الملك فيليب، إضافة إلى التهديد والابتزاز الذي عبّر عنه الوفد المقدوني. وسرعان ما صدّق رئيس المجلس على القرارات المتخذة، ودعا مساعده لكي يُعلم أفراد بعثة ملك مقدونيا أن مدينة طيبة قد رفضت، وبالإجماع، طلباته وعروضاته، وأنه يُطلب منهم مغادرة أراضي بواتيا عند غروب شمس اليوم التالي، وذلك تحت طائلة اعتقال أفراد البعثة ومحاكمتهم بتهمة التجسس.

وعند سماع فيليب هذه الأخبار تحوّل إلى ثورٍ هائج لأنه لم يتصوّر أبداً أن سكان طيبة يُمكن أن يصل بهم الجنون إلى حد تحديه، في حين أنه قد وصل إلى حدود أراضيهم من الناحية العملية. ولكن، كان عليه القبول بنتائج مناقشاتهم.

جلس فيليب بعد أن هدأ قليلاً، وسحب العباءة كي تغطي ركبتيه، ثم ما لبث أن تمتم بكلمات الشكر إلى إيوديموس من أوريوس، والذي لم يفعل سوى تنفيذ أوامر الملك. أما المبعوث الذي بقي واقفاً حتى تلك اللحظة، والذي شهد غضب الملك فقد أدرك أنه شهد أسوأ ما في الأمر، وطلب الإذن قبل أن يتحرك نحو الباب.

ناداه فيليب: "انتظر! كيف هو ديموستين؟".

توقف إيوديموس عند عتبة الباب، والتفت نحو الملك.

أجاب قبل أن يغادر: "كتلة من الأعصاب التي تنادي *الحرية*!".

*

لم يكد فيليب يخرج من صدمته حتى تحرك الحلفاء الجدد وباشروا بالعمل. تمكّنت قوّات المشاة الخفيفة التابعة لطيبة وأثينا من احتلال كل المعابــر الجبلية بهدف قطع كل المبادرات العسكرية المعادية تجاه بواتيا وأتيكـــي، أما الملك الذي وجد نفسه في ورطة نتيجة الطقس السيئ، والأوضاع العامة التي أصبحت صعبة وخطرة بشكلٍ خاص، فقد صمّم علـــى العودة إلى بيلا تاركاً وراءه فرقة عسكرية تحت إمرة بارمينيون وكليتوس الأسود.

تـــولى الإســـكندر قـــيادة فرقة الحرس الملكي، وتوجه لملاقاة والـــده عند الحدود مع تساليا، ورافقه من هناك في طريق عودته إلى المنـــزل.

قال فيليب لابنه بعد أن تبادلا التحية: "هل فهمتَ الآن ما قصدته ســـابقاً؟ لم يكـــن هـــناك من داعٍ للعجلة. فنحن لم نبدأ بعد التحرك الفعلي، وما زالت اللعبة مفتوحة على مصراعيها".

"لكن يبدو أن كل الأمور تعاكسنا، تحالفت طيبة وأثينا، وتمكنتا من إحراز نجاحات مهمة".

لـــوّح الملك بيده، وكأنه يطارد مصدراً من مصادر الإزعاج، وما لـــبث أن صـــاح قـــائلاً: "آه! دع الجميع يحلمون ويستمتعون بحلاوة نجاحاتهم، لكنهم سيستيقظون على مرارةٍ أشد من انتصاراتهم، لم أقصد أبـــداً مواجهة الأثينيين، ولم أطلب من طيبة إلا الوقوف على الحياد في هذا الصراع. لكنّ طيبة فضّلت أن تجرّنا جراً نحو هذه الحرب. والآن، يتعيّن عليّ أن ألقنهم درساً ليعرفوا بعده من هو الأقوى، سيسقط المزيد من القتلى، وسيحدث دمار كثير، إنني أمقت كل هذه الأمور، لكنهم لم يتركوا لي خياراً آخر".

سأل الإسكندر: "وماذا تنوي أن تفعل؟".

"سأنتظر الآن حتى بداية الربيع، إن القتال في الطقس الدافئ أسهل بكـــثير. لكنّ الأهم من ذلك كله هو أنني أحتاج إلى وقتٍ للتفكير في هـــذا الوضـــع. تذكّر يا بنيّ أنني لا أحارب لأنني أحب أصوات قرقعة الأسلحة، إن الحرب بالنسبة إليّ هي ممارسة السياسة بطرائق أخرى".

ثمّ ما لبثا أن مكثا لبعض الوقت وسط صمتٍ تام، وبدا أن الملك يراقب الريف والأشخاص الذين يعملون في الحقول. وبعد ذلك كسر الملـــك الصمت المخيم بشكلٍ مفاجئ، وسأل: "بالمناسبة، كيف كانت المفاجأة التي أعددتها لك؟".

23

صـــاح الإسكندر: "أنا لا أفهم والدي بالفعل! كان عندنا فرصة للفــوز في هــذه المعركة عبر السلاح، لكنه اختار الإذلال من خلال إرســاله ذلك الخطيب الأثيني، لذلك خرج خاسراً. كان في إمكانه أن يهاجم أولاً ويفاوض لاحقاً".

أجــاب هيفاســتيون: "إنني أوافقك هذا الرأي، أعتقد أنها غلطة كبيرة. اضرب أولاً، وتحدث لاحقاً".

كان إيومينيس وكاليستين خلفهما على جواديهما ويسيران على الوتيرة ذاتها، وكانوا جميعاً يتجهون نحو فارسالوس كي يسلموا رسالة من فيليب إلى حلفائه في التحالف التسالونيكي.

انــضمّ إيومينيس إلى الحديث: "لكنني أفهم منطقه تماماً، وأوافقه عليه. أنت تعرف جيداً أن والدك عاش أيام شبابه في طيبة لمدة تزيد عن الــسنة كــرهينة، وذلــك في منــــزل بيلوبيداس، الذي كان أعظم المخططين الاستراتيجيين اليونانيين في القرن المنصرم. كان والدك متأثراً جداً بالنظام السياسي لمجلس طيبة المدينة - الدولة، وبتنظيمها العسكري الــرهيب، وبثقافــتها الغنية. لذا خطرت لوالدك فكرة نشر الحضارة الهلينـــية في أنحــاء مقدونيا، وتوحيد اليونانيين في اتحادٍ كبير موحد من تجربته المؤثرة هذه في طيبة".

قال كاليستين ملاحظاً: "أي كما كانت الأمور في زمن حرب طــروادة، هذه هي الفكرة الراسخة في ذهن والدك، وهو يريد أولاً توحــيد الدول اليونانية، ثم قيادتها ضد آسيا، أي مثلما فعل آغاممنون

مع الملك بريام منذ ما يقارب ألف سنة مضت".

صـــاح الإسكندر: "ألف سنةٍ مضتٍ! هل مضت ألف سنة على حرب طروادة؟".

أجـــاب كاليـــستين: "بقـــيت خمس سنوات فقط قبل الذكرى الألفية".

تمتم الإسكندر: "لا بد أنها علامة، لا بد أنها علامة".

سأل إيومينيس: "ماذا تعني؟".

"لا أعـــني شـــيئاً، لكن ألا يبدو غريباً لك أنه بعد مضي خمس سـنوات ســأبلغ العمر ذاته الذي بلغه آخيل عندما بدأ الزحف على طروادة، وأن ذلك سوف يتزامن مع الذكرى الألفية للحرب التي تغنى بها هوميروس؟".

أجـــاب كاليـــستين: "كلا، لا يبدو ذلك غريباً بالنسبة إليّ، لأن الـــتاريخ يُظهر لنا، كل عدد معين من السنين، تركيبات الظروف ذاتها الـــتي تؤدي إلى الإنجازات العظيمة. لكنّ شيئاً لا يكرّر نفسه بالطريقة ذاتها بالتحديد".

ســأل الإسكندر: "هل أنت متأكد من صحة ما تقوله؟" قطّب الإســكندر جبيـــنه وكأنه غارق في متابعة صور بعيدة تمر مسرعةً في ذهنه.

وضـــع هيفاستيون يده على كتف الإسكندر، وقال: "أعرف ما تفكّر فيه، إنني سأتبعك مهما كانت قراراتك، وفي كل ما تقرّر فعله".

التفت الإسكندر، وتطلع في عينيه مباشرة، وقال: "أعرف ذلك".

وصـــلوا إلى مقـــصدهم عند مغيب الشمس، وتلقى الإسكندر التكـــريم الذي يليق بولي عهد مقدونيا. ثمّ توجه بعد ذلك مع أصحابه لتـــناول طعـــام العشاء الذي أعدّه لهم ممثلو الاتحاد التسالونيكي. حمل

فيليب في ذلك الوقت لقب *تاجوس*، رئيس الاتحاد، ولقد كان بالفعل يحمل لقبين لمركزين: الأول بوصفه ملكاً، والآخر بوصفه رئيساً.

كان أهالي تسالونيكي يحبّون الإكثار من الشرب مثل المقدونيين، لكنّ إيومينيس لم يشرب نقطة في أثناء العشاء، بل فضّل أن يستفيد إلى الحد الأقصى من عقد صفقة شراء جياد مع أحد النبلاء الذين يشعرون بالسرور، كانت شروط الصفقة وبنودها مفيدة بالنسبة إليه وكذلك بالنسبة إلى مقدونيا.

أتمّ الإسكندر مهمته في اليوم التالي، فغادر مع أصدقائه. ولكنه ما لبث أن بدّل ملابسه بعد أن قطع مسافة قصيرة من الطريق، ثم أمر الحارس بالانصراف، وما لبث أن أخذ الطريق المتجه جنوباً.

سأله إيومينيس بعد أن فوجئ بتغيّر الخطة: "إلى أين تذهب؟".

قال هيفاستيون: "إنني ذاهبٌ معه".

"أجل، ولكن إلى أين؟".

قال الإسكندر: إلى أوليس".

علّق كاليستين ببساطة: "إلى الميناء الذي انطلق منه الآخيون لشنّ الحرب ضد طروادة".

صاح إيومينيس: "أوليس؟ لكن لا بد أنك أصبت بالجنون! تقع أوليس في بواتيا، أي في مركز المنطقة المعادية لنا".

قال الأمير مؤكّداً: "لكنني أريد رؤية ذلك المكان، وسأراه، ولن يلاحظنا أحد".

مضى إيومينيس متابعاً حديثه: "سأكرّر، إنك مجنون، لأنهم سيلاحظون وجودكما بالتأكيد، وما إن تفتحا فاهيكما حتى سيلاحظوا لهجتكما، أما إذا لم تفتحا فاهيكما فإنهم سيتساءلون عن السبب. ولا تنسَ أيها الإسكندر أن رسمك قد وزّع في مدنٍ كثيرة، ألا تدرك

العواقب الناتجة عن إلقاء القبض عليك؟ سيضطر والدك إلى عقد صفقة، وإلى التخلـــي عن خططه، هذا إذا سارت الأمور على ما يرام، وذلك كـــي يدفع الفدية التي ستكون باهظة جداً، وكأنه خسر الحرب. كلا، أنـــا لـــن أشارك في هذا الجنون، دعنا نفترض أنني لم أسمعكما وأنتما تـــتحدثان عـــن هـــذا الموضوع، أو دعنا نفترض أنني لم أركما على الإطلاق، وأنكما غادرتما المكان بصمت قبل بزوغ الفجر".

أومـــأ الإســـكندر: "حسناً، لكن لا تقلق، لا تبعد أوليس سوى بضع مئات من السناديات داخل حدود أراضي بواتيا، سنصل إلى هناك ونعود خلال يومين. أما إذا أقدم أحدٌ ما على توقيفنا فسنقول إننا زوار في طريقنا للحصول على استشارة من ضالع دلفي".

"في بواتيا؟ لكنّ دلفي تقع في فوكيس".

نخـــس هيفاســـتيون جواده دافعاً إياه كي ينطلق، وقال صارخاً: "سنقول لهم إننا تهنا في الطريق!".

نظر كاليستين إلى رفيق سفره الوحيد، وكأنه غير متأكدٍ مما يجدر به القيام به.

سأله إيومينيس: "ماذا تنوي أن تفعل؟".

"أنـــا؟ حسناً، إذا كان حبـــي العميق للإسكندر يدفعني من جهة إلى الـــرغبة في اللحـــاق به، إلاّ أنّ تعقلي من جهة أخرى يدفعني إلى تفضيل...".

قاطعـــه إيومينـــيس صارخاً: "فهمت، توقفا! ليضربكما زيوس بـــصاعقته إذا لم تتوقفا". نفّذ الإسكندر وهيفاستيون ما طلبه منهما، لكـــن إيومينيس راح يقول وراءهما: "أنا على الأقل لا أتكلم بلهجةٍ مقدونـــية. ولكـــن إذا اضطررت فأنا أستطيع أن أعبر بوصفي أحمق من بواتيا".

قال هيفاستيون: "ها! ما من شكٍ في ذلك!".

راح إيومينيس يتمتم وهو يحث جواده على الإسراع: "اضحك ما طاب لك، لكن لو كان الملك فيليب هنا لكان جعلك تضحك من جرّاء جلدات عدة على ظهرك، هيا بنا، دعونا نتحرك وننتهي من مهمتنا".

سأل الإسكندر: "وماذا بشأن كاليستين؟".

أجاب إيومينيس: "سيلحق بنا، سيلحق بنا، فإلى أين يمكنه الذهاب وحده".

وفي اليوم التالي، عبروا بوابات ثيرموبايلاي. وهناك، توقف الإسكندر ليزور مقابر الجنود الإسبارطيين الذين سقطوا قبل مئة وأربعين سنة في أثناء المعارك مع الغزاة الفرس، وقرأ الإسكندر النقش البسيط المكتوب باللهجة اللاكونية الذي يخلّد تضحياهم الجسيمة، ثم وقف بصمت كي يصغي إلى الريح التي أخذت تهبّ من جهة البحر.

صاح قائلاً: "كم هو قاسٍ قدر الإنسان! إن كل ما تبقى بعد ضجيج ذلك الصدام الرهيب الذي هزّ العالم بأكمله، والبطولات الجديرة بتخليدها في أشعار هوميروس هو هذه الأسطر القليلة، أما الآن فكل شيء هادئ".

تنقّلوا عبر لوكريس وفوكيس من دون مشقةٍ تُذكر وفي غضون بضعة أيام، ثم دخلوا بواتيا عبر الطريق البحري، فامتدّ أمامهم ساحل جزيرة إيوبويا التي نحتتها أشعة الشّمس مساءً، والمياه الرائعة لمضيق يوروبوس. كان أسطول صغير مؤلف من دزينة سفن يُبحر بمحاذاة الشاطئ، بينما ارتسمت على أشرعته التي نفختها الرياح علامة البومة، وهي رمز أثينا.

راح إيومينيس يتمتم: "لو أن ذلك القبطان يعرف هوية من يقف هنا على هذا الشاطئ ويراقب سفنه التي تمخر عباب البحر...".

قال كاليستين: "هيا بنا، دعونا ننهي هذه الجولة بأسرع ما يمكننا، لقــد اقتربنا الآن". كان خائفاً في قرارة نفسه من أن يقرر الإسكندر الطلب منهم مرافقته في مهمة أكثر تهوراً.

ومـا إن وصـلوا إلى قمّـة المرتفع، حتى تراءى أمامهم فجأة خليج أوليس الصغير. رأوا قبالتهم مدينة خالقيس تبدو من بعيد بأنوارها البيضاء فوق ساحل أيونيا. كانت المياه باللون الأزرق الغامق، بينما الغابات دائمة الخضرة وغابات أشجار السنديان التي تغطي سفوح المرتفع تكاد تصل إلى البحـر، وذلك قبل أن تتحول إلى بساط من أجمات الآس وأشجار الفريز، لتتحول بعد ذلك إلى شريط من الحصى والرمل الأحمر.

أبحـر قـارب صيد وحيد قبالة المرفأ المهجور، وهو المرفأ الذي أبحرت منه ألف سفينة للآخيين.

ترجل الرجال الأربعة، ونظروا بصمت إلى المكان الذي كان يشبه كثيراً ألف نقطة أخرى تتواجد على الساحل الهليني، لكنه يختلف عنها بطـريقة ما، وتذكّر الإسكندر في تلك اللحظات كلمات والده عندما حملـه - وكان لا يزال صغيراً - على شرفة قصر بيلا وأخبره عن آسيا البعيدة، والتي لا حدود لها.

كـسر هيفاسـتيون جدار الصمت المخيّم، وقال ملاحظاً: "لا يستطيع هذا المكان، إطلاقاً، أن يتسع لألف سفينة".

علّق كاليستين قائلاً: "كلا، لكنّ الشاعر يستطيع تخيّل عددٍ أكبر من هذا. إن الشاعر، يا هيفاستيون، لا ينظم الشعر الغنائي بهدفٍ رواية أحـداث البشر كما تحدث، بل من أجل منحنا فرصة عيش عواطف وأحاسيس الأبطال، حتى ولو فصلتنا عنهم قرون عديدة".

التفت الإسكندر نحوه وعيناه تطفحان بالمشاعر، وقال: "أتعتقد أنّه في الإمكان وجود رجل في مكانٍ ما في زماننا قادر على إنجاز البطولات التي تُلهم شاعراً بمثل عظمة هوميروس؟".

قال كاليستين: "يستطيع الشعراء أن يبتدعوا الأبطال أيها الإسكندر. لكنّ العكس ليس صحيحاً، لأن الشعراء يولدون عندما يكون البحر، والسماء، والأرض في تناغمٍ تام".

وفي طريق عودتهم، صادفوا عند دخولهم تساليا وحدةً من الحرس الملكي أرسلت بهدف البحث عنهم. فاضطر إيومينيس إلى تلفيق رواية عن تعرّضه للمرض، وعن قرار الآخرين بعدم تركه، لكنّ أحداً لم يصدّقه. إلاّ أنّ هذه الرحلة إلى أوليس أعطت الإسكندر برهاناً على أن أصدقاءه لن يتخلوا عنه، حتى ولو كانوا خائفين، أي مثلما كان إيومينيس وكاليستين بالفعل. وأدرك الإسكندر، فيما عدا ذلك، أن الابتعاد عن بانكاسب قد ولّد لديه نوعاً من التوتر، وأنّه ينتظر بالفعل أن يراها فوق سريره وسط أنوار المشاعل الذهبية.

لكنّ أحداثاً عدة تخللت عودة الإسكندر إلى بيلا. فلقد ساء الوضع كثيراً، وعلى نحوٍ مفاجئ، ولذلك اضطر الملك، وبعد أن حشد جيشه، إلى السير نحو فوكيس من أجل السيطرة على المضائق. ولم يُفلح مرور الوقت في عقلنة المتخاصمين، فطغت صيحات الحرب على ما عداها.

وفي الليلة ذاتها، استدعى الملك الإسكندر إلى خيمته لكنه لم يسأل ابنه ووريثه شيئاً عن سبب تأخره في العودة من مهمته في تساليا، بل اكتفى بأن عرض عليه الخريطة التي نشرها فوق طاولته، ثم قال له:

"شوهد تشارز، القائد الأثيني الذي يعمل عشرة آلاف من المرتزقة تحت إمرته، على الطريق ما بين كيثينيون وأمفيسا، لكنه لا يعلم

بوجـــودنا هـــناك. وأنا أعتزم أن أسير بالجيش طيلة الليل وصباح غد، لأوقظـــه بنفسي من نومه. يتعيّن عليك أن تحافظ على هذا الموقع، وألاّ تتركه أبداً لأي سببٍ كان، سأعود من هذا الطريق فور أن أنتهي من أمـــر تشارز، أي من خلال وادي كريسوس، كما أعتزم عزل الأثينيين وجـــنود طيـــبة في معابـــرهم الجبلية، أعتقد أنهم سيضطرون إلى ترك مـــواقعهم والتراجع إلى معاقلهم القوية الأولى في بواتيا". ثمّ وضع الملك سبابته على الخريطة عند النقطة التي اعتقد أن أعداءه سينسحبون إليها. "وهناك، عند تشايرونيا، ستنضم إليّ أنت وفرسانك".

24

عـــند الفجـــر، فوجئ جيش تشارز المؤلف من المرتزقة بوصول قوات فيليب المهاجمة والتي تمكّنت من سحقه، بينما تمكن فرسان الخيّالة من تشتيت العدد القليل الذي نجا من المعارك. ولكن، بدلاً من أن يتابع الملك الزحف نحو أمفيسا، عاد - كما سبق وأعلن - وقطع المعابر التي يحتلها الأثينيون وسكان طيبة، ولم يترك للفريقين سوى خيار التراجع.

علم الإسكندر بعد مرور ثلاثة أيام أن فيليب قد اتخذ موقعاً له في سهل تشايرونيا، وأن خمسة وعشرين ألفاً من جنود المشاة، بالإضافة إلى خمـــسة آلاف مـــن فرسان الخيّالة، يحاربون بإمرته، أما أوامره فكانت الانضمام إلى والده بأسرع وقت ممكن. لذا، طلب الإسكندر من خدمه أن يقيموا معسكراً، ويعتنوا بقافلة المؤن، من أجل إطلاق إشارة المغادرة قـــبل طلـــوع الفجر. كانت الفكرة هي البدء بالزحف قبل أن ترتفع درجـــة الحرارة كثيراً، وكذلك الحفاظ على وتيرة تقدم لا تتعب الجياد كثيراً.

تفحص الإسكندر فرقة الطليعة بمساعدة ضوء مشعل، ومن فوق ظهـــر بوســـيفالاس، أمـــا كل واحد من رفاقه، فقد كان يقود فرقة مـــستقلة، وقـــد رفعـــوا رماحهم تحيةً له، كانوا مدججين بالسلاح وجاهـــزين للمواجهة. ولكن، كان من الواضح أن بعضهم لم ينم أبداً، وهم الذين لم يمرّوا بعد بمثل هذا اليوم الشاق.

حـــثّ الإســـكندر رجاله على متابعة المسير بالقول: "تذكروا يا رجال! إن فرقة الكتيبة هي السندان، وأن فرسان الخيالة هم المطرقة، أما

فـــرقة الطلـــيعة فهي... رأس المطرقة!" ثمّ نخس بوسيفالاس قُدُماً نحو بطلـــيموس الذي كان على رأس الفرقة الأولى إلى اليمين، وأخبره أن راية معركتهم هي فوبوس كاي ديموس.

كرّر بطليموس وراءه "فوبوس كاي ديموس! لا توجد رايةٌ أخرى تتفوق عليها من حيث تناسبها مع المعركة". وأعطى الراية بعد ذلك إلى أول فارسٍ على يمينه، وطلب منه تمريرها بين صفوف الجنود.

أومـــأ الإســـكندر إلى نافخ البوق الذي عزف لحن المغادرة، وما لبـــثت الجماعـــة أن تحـــركت بكل تناغم؛ تحرّك الإسكندر أولاً، ثم هيفاستيون، وتبعه الباقون بعد ذلك، وتحرّكت فرقة بطليموس بوصفها الحامية.

عـــبر الجيش كريسوس قبل طلوع الفجر، وما إن طلعت الشمس فـــوق السهل حتى تمكنوا من رؤية جنود الجيش المقدوني وقد التمعت دروعهـــم بفعل ضوء الشمس، فبدوا وكأهم الرؤوس اللامعة لسنابل حقل قمح جاهزٍ للحصاد.

ما إن لمح فيليب القادم نحوه حتى امتطى جواده وأسرع كي ينضم إلى ابنه، وأمسكه من ظهره قبل أن يقول له: "مرحباً يا بني! يسير كل شـــيء بحسب ما توقعته. إهم ينتظروننا، لكنني أريدك أن تنظم الرجال في الجـــناح الأيسر قبل أن تنضم إليّ، إنني أناقش في هذا الوقت خطة المعـــركة مـــع بارمينيون والأسود، لكن كنا بانتظارك قبل التوصل إلى قرار، أي أنك وصلت في الوقت المناسب، كيف حالك؟".

"مرحباً أبـــي، أنا في أحسن حال، وسأكون معك في الحال".

تـــوجه الإسكندر إلى فرقته، ودار بها نحو جهة اليسار كي ينتظم الجنود في صفوف، فيما مدّ هيفاستيون يده وذراعه نحو التلة، ثم صاح: "آه، أيـــتها الأسياد في العلى، تطلعي! شاء والدك أن نواجه أفراد فرقة

طيبة المجلة: أتستطيعين تمييزهم هناك في الأسفل؟ إنهم أولئك الذين يلبسون أرديةً وعباءات حمراء بلون الدماء، إنهم أقوياء أيها الإسكندر، لأنه ما من أحدٍ تمكّن من إلحاق الهزيمة بهم من قبل".

"إنني أراهم يا هيفاستيون، سنهزمهم. نظّم الرجال في ثلاثة صفوف، سنهاجم على شكل موجاتٍ متلاحقة".

صاح سلوقس: "يا زيوس العظيم! أتعلمون لماذا يُطلق عليهم اسم الفرقة المبجلة؟ لأن كل واحد منهم قد أقسم يميناً معظمةً أمام رفيقه بألاّ يترك بعضهم بعضاً حتى يفرقهم الموت".

قال بيرديكاس: "هذا صحيح، قالوا كذلك إنهم يحبون بعضهم، وهو الأمر الذي يشكّل رابطة أقوى في ما بينهم".

قال الإسكندر: "لكن الحب الذي يجمعهم لن يحميهم من قوتنا. حافظوا على مواقعكم حتى أعود".

ظل الإسكندر ينخس جواده حتى وصل إلى فيليب، وبارمينيون، والأسود الذين تراجعوا قليلاً إلى هضبة صغيرة تتيح لهم رؤية مساحة لا بأس بها من ميدان المعركة. أما في الجهة المقابلة، أي على مسافة قليلة إلى يمينهم فقد كان بإمكانهم رؤية قلعة أكروبوليس تشايرونيا بما فيها من معابد.

أما إلى الوسط وإلى اليسار، وفوق سلسلة من التلال التي تحيط بالسهل، فقد اصطفت القوات الأثينية، ووقف وراءها جنود طيبة، وقد لمعت دروعهم نتيجة انعكاس نور الشمس المشرقة عليها، بينما امتلأت السماء جزئياً بالسحب البيضاء الكبيرة، أما من جهة أقصى اليمين حيث يقف جنود طيبة فقد انتشر اللون القرمزي الذي يميّز الفرقة المبجلة.

وضع فيليب إلى يمينه فرقتين من رجال الدروع، وهم جنود فرقة الهجوم الذين تمكنوا قبل ثلاثة أيام من سحق جيش تشارز، وذلك تحت

قـــيادة الملك المباشرة. ولقد حصلت هذه الفرقة على اسمها من دروعها المزينة برسوم النجوم الأركادية بألوانها النحاسية والفضية.

أمـــا في الوسط فقد تجمعت اثنتا عشرة كتيبة من فرقة الفالانج، واصـــطف جنود هذه الفرق في خمسة صفوف ليألفوا سداً من الرماح، وغابـــة يـــصعب اختراقها من رؤوس الرماح الحديدية، والتي ظهرت مصفوفةً على شكل خط مائلٍ، أما في الجناح الأيسر فقد وقف فرسان رفـــاق الملك جميعاً، ووقفت وراءهم فرقة الطليعة، الفرقة التي يقودها الإسكندر.

قـــال فيليب: "سأهاجم أولاً، وسأقوم بمشاغلة الأثينيين، وسأقوم بالتحـــرك رجـــوعاً إذا تبعوني. ثم يقوم بارمينيون بقيادة إحدى فرق الفـــالانج إلى هذه الثغرة، وهكذا تنقسم قوى الأعداء إلى قسمين، ثم تُطلق بعدها الكتائب الست الباقية، وسيتبعك الأسود مع بقية الجيش.

ســـتحين لحظتك بعد ذلك أيها الإسكندر: ستقتحم مع فرسانك ميمـــنة جنود طيبة، وستهاجم مع أفراد فرقة الطليعة التي تقودها الفرقة المبجلة، وإذا تمكّنت من تحقيق اختراق فستعرف ما يجدر بك فعله".

"أعـــرف تماماً يا والدي: ستكون الفالانج هي السندان، وفرسان الخيالة سيكونون المطرقة".

ضمّه فيليب بشدة إلى صدره لوهلة، فتذكر نفسه فجأة وهو يقف وســـط غرفة الملكة شبه المعتمة في بيلا وهو يحمل طفلاً ولد حديثاً، ثمّ قال له: "انتبه يا بني، لأن الطعنات في المعركة تأتي من كل الجهات".

أجاب الإسكندر: "سأنتبه يا والدي". وقفز بعد ذلك إلى صهوة جواده بوسيفالاس الذي راح يثب أمام الكتائب المتجمعة إلى أن وصل إلى فرقته، فيما تبعه فيليب بعينيه لفترة، وما لبث أن التفت إلى مساعده الميداني وقال له: "أعطني درعي".

"لكن، سيدي...".

كرّر بلهجة حازمة: "أعطني درعي".

ساعده المساعد الميداني على إدخال ذراعيه من خلال أربطة الدرع، وهي الطريقة الوحيدة لحمل درع أركادي من الذهب الخالص.

تناهت من قمم التلال أصوات الأبواق الحادة، ثم تبعتها على الفور أصوات الصفارات المتواصلة التي أخذت إيقاعها من قرع الطبول، وهي الأصوات التي تصاحب الجنود في أثناء تقدمهم. وعكست حركة الخط الأمامي في أثناء هبوط الجنود أنوار الشمس، وفي خطوات المشاة الذين يرتدون دروعهم الحديدية، وترددت كل هذه القرقعة المخيفة في كل أرجاء الوادي.

كان أفراد فرقة الطليعة مصطفين على شكل وتد، فيما أخذ الإسكندر موقعه بصفته الفارس الأول في المقدمة، وركّز انتباهه على الجناح الأيمن من خطوط العدو، أي الفرقة المبجلة التي لا تُقهر. شعر بوسيفالاس بالتوتر، وراح يضرب الأرض بحوافره الأمامية، ويصهل بأصوات عالية من خلال منخريه، ويصفّق بذيله على جانبيه.

اقترب أحد الفرسان من فيليب بينما كان يستعد لإطلاق إشارة الهجوم، وصاح به الرجل بعد أن ترجّل عن جواده: "سيدي، أخذ ديموستين موقعاً مع جنود المشاة الأثينيين".

قال الملك: "لا أريده أن يُقتل، مرّر هذا الأمر إلى جنودي".

ثمّ التفت كي ينظر إلى رجاله الذين حملوا الدروع. كانت وجوههم تقطر عرقاً تحت الجزء الشفاف من خوذهم، وكانت عيونهم تحدّق بثبات في الأنوار المنعكسة على أسلحة أعدائهم، كما أن التوتر بدا في عضلات أطرافهم التي تتحفز للمواجهة. كانت تلك هي اللحظة التي تأمّل فيها كل واحد منهم بالموت، وهي اللحظة التي كان فيها شوق كل واحدٍ منهم إلى

المــوت أقــوى من أي شيء آخر، وكانت تلك هي اللحظة التي تفرض عليهم أن يتحرّروا من قبضة القلق، وأن يبدأوا بالهجوم.

رفع فيليب سيفه، وأطلق صيحة الحرب وما لبث رجاله أن تبعوه وهــم يصرخون مثل قطيع من الحيوانات المفترسة، وتمكنوا بذلك من طــرد كل المخاوف من صدورهم، وتعجلوا في إلقاء أنفسهم في أتون المعركة وطاحونتها متناسين كل شيء، حتى أنفسهم.

بــدأوا يــتقدمون بوتيرة سريعة، فصاح بهم قادهم كي يتقدموا بــصورة منتظمة، ويحافظوا على النظام في صفوفهم، وذلك كي يبدأوا بالصدام وهم كتلة متراصة وثابتة.

في هذا الوقت، اقتربوا كثيراً من الأثينيين الذين تابعوا التقدم كتفاً على كتف، ودرعاً قرب درع، بينما كانت رماحهم ممدودة إلى الأمام. تقدموا بثبات وسط الأصوات الحادة لصفاراتهم، ووسط القرع الأخّاذ للطبول والصراخ الذي رافق كل خطوةٍ من خطواتهم:

آلالالاي!

دوّت في أرجاء الوادي أصوات الصليل الحاد للأسلحة التي بدت مــثل قــصف الــرعد، أو صوت تصادم الآلات البرونــزية؛ ترددت الأصوات فوق سفوح التلال واخترقت السماء، كانت أصوات عشرين ألف جندي عالقين في أتون المعركة.

حــارب فيلــيب - الذي كان مميّزاً بفضل نجمته الذهبية - في الصف الأمامي مدفوعاً بحماسة لا تفتر، وكان يضرب بسيفه ودرعه، فيما أحاط به عملاقان من التراقيين مدججان بالفؤوس المزدوجة الحد، وكان شكلهما يولّد الخوف في النفوس بسبب شعرهما الأحمر الشائك الذي يغطي رأسيهما، وكذلك الشعر الذي يغطي جسديهما، والأوشام التي تغطي وجهيهما، وأذرعهما، وصدريهما.

تـــداعت الجبهة الأثينية تحت وطأة الهجوم الساحق. لكنّ صوتاً حـــاداً اختـــرق الأجواء مثل صرخة صقر دفعهم إلى الأمام، وأعطاهم الـــشجاعة الـــتي كانوا يحتاجون إليها. كان ذلك الصوت هو صوت ديموســـتين الـــذي كان يحثهم على القتال، والذي طغى على أصوات الصفارات والطبول، إذ انطلق الصوت صارخاً: "أيها الأثينيون! كونوا شـــجعاناً! حاربوا أيها الرجال! حاربوا من أجل نسائكم، وأولادكم! أرسلوا ذلك الطاغية متراجعاً إلى الوراء؛ إلى مكانه الصحيح!".

اشـــتدّ القـــتال وازداد عـــنفاً، وسقط عدد من الجنود قتلى من الجانـــبين. لكنّ فيليب أعطى أوامر مشدّدة بألاّ يتوقف أحد من الجنود كي ينهب الجثث إلا بعد انتهاء المعركة. كان الجنود يبحثون عن ثغرة يـــستطيعون من خلالها إنفاذ سيوفهم من أجل إحداث شقٍّ في صفوف العدو.

غطـــت الدماء دروع جنود المشاة في الصفوف الأمامية، وراحت قطـــرات الدماء تتسلّل من حواف هذه الدروع إلى التربة التي أصبحت زلقـــة نتـــيجة الجثث. فبعد سقوط أيّ جندي كان جندي من الصف خلفه يتقدّم كي يأخذ مكانه، ولكي تظل المعركة مستمرة.

أشـــار فيلـــيب إلى أحد حَمَلة الأبواق كي ينفخ أمراً، فبدأ أفراد كتيبتين من حاملي الدروع بالتراجع تاركين قتلاهم وجرحاهم وراءهم في ميدان المعركة. تراجع أفراد الكتيبتين ببطء، وأبقوا دروعهم مرفوعة، وكانوا يردون الضربة بضربة مماثلة برماحهم وسيوفهم.

رأى الأثينيون أعداءهم يتراجعون، فاستغلوا الأفضلية التي يعطيها إيـــاهم موقعهم، وضاعفوا جهودهم، وراحوا يحثّون بعضهم بعضاً على الـــتقدم بالصراخ. أما جنود المشاة المتجمّعون في الصفّين الثاني والثالث فكانوا يدفعون رفاقهم قُدُماً بواسطة دروعهم.

كـــان فيليب قد أصدر أوامره قبل الهجوم، لذلك عندما وصلت صـــفوف حَمَلَـــة الدروع خلال تراجعها إلى أرضٍ صخرية تقع على مسافة مئة خطوة إلى جهة اليسار، غيّر الجنود اتجاههم وبدأوا بالركض.

كان الأثينيون في هذه الأثناء عالقين في حماسة القتال، ومستغرقين بالـــصراخ، ومذهولين من منظر الدماء وقرقعة الأسلحة، كما سكروا بنـــشوة النصر الوشيك الذي ظنوه في متناول أيديهم، لذلك مضوا في تعقب أعدائهم، وعزموا على القضاء عليهم، أما قائدهم ستراتوكليس، فـــبدلاً من محاولة حثهم على البقاء صفاً واحداً، راح يصرخ بهم بأعلى صوته ليحثهم على ملاحقة أعدائهم حتى مقدونيا.

صدحت أصوات المزيد من الأبواق في جهة اليسار، وما لبث أن قرع طبل ضخم معلق بين عربتين، ونشر صوته الراعد متردداً في أرجاء السهل الفسيح. فأعطى بارمينيون الإشارة، وما لبثت اثنتا عشرة كتيبة من كتائب الفالانج أن بدأت تقدمها ببطء وثبات وسارت متبعةً خطاً مائلاً.

اندفع سكان طيبة في الهجوم عند رؤيتهم ذلك المشهد، وقاتلوا في صـــفوف متراصة بعد أن رفعوا رماحهم الثقيلة المصنوعة من أخشاب الأشـــجار النفـــضية، لكـــنّ أفراد الكتيبة المقدونية سرعان ما حشروا أنفـــسهم بـــين حشود الخط الأثيني المتقدم الذي فقد انتظامه في ذلك الـــوقت بسبب اندفاعه المجنون للإمساك بحاملي الدروع، وبين أقصى ميسرة خطوط قتال سكان طيبة.

تخلّى فيليب عن درعه الذي لوّثته الدماء، وأصابته ضربات أدت إلى التوائه، فأعطاه إلى مساعده قبل أن يقفز عن صهوة جواده مسرعاً به نحو بارمينيون، كان القائد يحدّق بثبات وقلق نحو الفرقة المبجلة التي كـــان أفرادها يتقدمون ببطء، بدوا غير مكترثين أبداً بكل شيء يجري

حـــولهم. فلقد تقدموا بعناد، وكانت رماحهم ذات الرؤوس الحديدية أمامهم.

أما في الوسط فقد كان أفراد الكتيبة المقدونية الأولى، الذين كانوا يـــتقدمون في أعلـــى التلة، يجهدون أنفسهم في عملية التسلق، وعندما اندفـــع أفـــراد فرقة من جنود طيبة كي يسدوا تلك الثغرة، عمد أفراد الفـــرقة المهاجمـــة إلى خفض حرابهم، وحصدوا نظراءهم في مواجهةٍ مباشـــرة، لكن من دون تماسٍ جسدي. وسرعان ما اندفع أفراد الفرقة بـــشكل أعمق، وتسارعت خطوات المقاتلين بالتناغم مع صوت ذلك الطبل الضخم الذي رافق سيرهم بدءاً من السهل.

أسرع آخرون من الخلف، واصطفوا بخطٍ مائل حتى الخط الثالث، وحملـــوا رايـــاتهم المخفوضة، بينما كان أفرادٌ الحرس الخلفي من المشاة يحملون رايات مرفوعة كانت ترتفع وتنخفض خلال تقدمهم الإيقاعي، فـــبدت مـــثل ســـنابل القمح التي تتمايل مع هبوب الرياح، أما قرقعة الأســـلحة المعدنـــية الـــتي رافقت التقدم المجهد والبطيء فقد وصلت أصـــداؤها إلى آذان الأعداء عندما وصل المقاتلون إلى الجهة المقابلة. بدا ذلك بمثابة نذير شؤم، أي مثل الصوت الذي يبشّر بالموت.

"الآن". أعطى الملك الأمر للقائد الذي أسرع إلى استخدام درعٍ مـــصقول كي يرسل إشارة إلى الإسكندر. وكانت الإشارة عبارة عن انعكـــاس الضوء على الدرع ثلاث مرات، وهي إشارة البدء للفرسان، والتي تعطي فرقة الطليعة حرية التصرف بشكلٍ مطلق.

رفـــع الأمير رمحه الذي أمسكه بإحكام وصرخ: "ثلاث موجات أيها الرجال!" ثم صرخ مجدداً بصوتٍ أعلى "Phobos Kdi Deimos"، ونخس جانبَي جواده بوسيفالاس بقدميه، فانطلق الجواد واثباً عبر الحقل الـــذي اكتظ بالقتلى والجنود الذين كانوا يصيحون نتيجة الألم. كان

الجـــواد أســـود مثل غضب الجحيم، وقد حمل راكبه المغطى بدروعه الملتمعة، وكان جذعه المرتفع يخترق الهواء.

تـــبع أفـــراد فرقة الطليعة قائدهم، وبقوا على مسافة قريبة منه، وكانت الجياد تثب بحماسة بسبب سرعة بوسيفالاس الرهيبة، وزاد من حماســتها حـــثّ الفرســـان الراكبين على صهواتها، وكذلك أصوات الأبواق.

رصّت الفرقة المبجلة صفوفها، وزرع رجالها رماحهم في الأرض، لكـــنهم وجّهوا رؤوس الرماح الحديدية باتجاه المهاجمين المقتربين منهم. وما إن اقترب المهاجمون حتى أطلقت فرقة الإسكندر وابلاً من السهام، سرعان ما تبعته الدفعة الثانية ثم الثالثة، وذلك قبل أن تعود سهام الدفعة الأولى إلى الأرض. اضـــطر عـــدد كبير من جنود طيبة إلى التخلي عن دروعهم التي امتلأت في هذا الوقت بسهام الأعداء، وهكذا حاربوا من دون حماية. وبعد ذلك، جعل الإسكندر فرقته تأخذ شكل الوتد مجدداً، وأخـــذ مـــوقعه علـــى رأس هذا الوتد قبل أن يقود الجنود مباشرةً إلى خطـــوط الأعداء. أخذ ينخس بوسيفالاس وسط جنود الفرقة المبجلة، وراح يضرب برمحه ذات اليمين وذات الشمال، وذلك بعد أن تخلى عن درعه وسيفه كذلك.

وفّـــر هيفاستيون التغطية حول الإسكندر، وكان يرفع درعه من أجل حمايته بينما تجمّع رجاله خلفه.

بـــدا لهـــم أن كل مقاتل يسقط من الفرقة المبجلة كان يُستبدل بمقاتلٍ آخر يأخذ مكانه، لذلك بدت الفرقة وكأنها جسم يُنبت أطرافاً جديـــدة على نحوٍ مفاجئ، وكان جنودها يسدّون الثغرات التي تحدث في كـــتلة دروعهـــم، ويردّون على الضربة بضربة مماثلة، ويفعلون كل ذلك مستعينين بطاقة لا تنضب، وبإقدام، وبجرأة قلّ نظيرها.

تراجع الإسكندر ونادى هيفاستيون: "أريدك أن تقود رجالك إلى تلك الجهة لكي تفتح ثغرة وتهاجم وسط قوات جنود طيبة من الخلف، دع الفرقة المبجلة لي!".

نفـذ هيفاستيون الأمـر، وتقـدم مع بيرديكاس، وسلوقس، وفيلوتاس، ولايسيماخوس، وكراتيروس وليوناتوس، فأوجدوا ثغرةً بين الفـرقة المبجلة وبين بقية جنود طيبة، ونفذوا بعد ذلك انعطافاً واسعاً، وذلـك في خطـوةٍ تشبه تلك التي نفذوها في الميدان حول الإسكندر، وهكـذا تمكـنوا من الإمساك بالعدو من الخلف ودفعوه نحو غابةٍ من سهام فرقة الفالانج (الكتيبة) والتي كانت لا تزال تتقدم بثبات.

ربـح المقدونيون المعركة قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء، وجـاء الإسكندر إلى بارمينيون ممسكاً سيفه بيده، وكان درعه لا يزال مغطـى بالـدماء، وحتى أنّ صدر بوسيفالاس وجانبيه كانت مضرجة بالدماء.

"لم يعد هناك من وجود للفرقة المبجلة".

صاح بارمينيون: "أحرزنا النصر على جميع الجبهات!".

سأل الإسكندر: "أين الملك؟".

الـتفت بارمينيون نحو السهل الذي غطّته طبقة سميكة من الغبار الـذي تكوّن نتيجة المعركة، ثم أشار إلى رجل طويل كان يرقص بين جثث القتلى مثل رجلٍ مجنون بالرغم من عرجه.

قال بارمينيون: "إنه هناك".

25

سقط ألفان من الجنود الأثينيين في معركة تشايرونيا، كما تم أسر عدد كبير منهم. وكان من بين الأسرى الخطيب ديماديس الذي أُحضر أمـــام الملك، وكان لا يزال حاملاً درعه وينـــزف من جرحٍ أصابه في ذراعه، في حين تمكّن ديموستين من الهرب عبر المعابر التي تؤدي جنوباً نحو لاباديا وبلاتيا.

تكبّد جنود طيبة وحلفاؤهم الآخيّون النصيب الأكبر من الخسائر، وهـــم الـــذين كانـــوا وســـط ميدان المعركة. أما الفرسان التابعون للإســـكندر فقـــد أمـــسكوا - بعد أن نجحوا بالقضاء على الفرقة المبجلة - بالقوات المتمركزة في الوسط، وأجبروهم على الاندفاع نحو الـــسد الذي شكّله جنود الفالانج، وهو الأمر الذي أسفر عن حصول مجزرة بينهم.

انـــصبّ غضب فيليب على جنود طيبة إذ اعتبر أنهم خانوه، فباع الأســـرى كعبيد، كما رفض تسليم جثث القتلى كي تُدفن الأمر الذي أثار استياء الإسكندر.

قـــال الإسكندر بعد أن هدأ ضجيج نشوة النصر قليلاً: "أبـــي، لقد طلبت منّي ذات مرة أن أظهر الرأفة عندما يكون ذلك ممكناً. أعاد آخـــيل جثة هيكتور إلى الملك العجوز بريام، وذلك بعد توسلاته التي امتـــزجت بالدمـــوع. لقد حارب هؤلاء الرجال مثل السباع، ووهبوا حـــياتهم دفاعاً عن مدينتهم. إنهم يستحقون الاحترام، أخبرني الآن ما فائدة معاملة الموتى بهذه الطريقة؟".

امتنع فيليب عن الرد. ولكن، كان من الواضح أن كلمات ابنه قد أثّرت فيه قليلاً.

"هناك أسير في الخارج، وهو ضابط أثيني، يريد التحدث معك".

صاح فيليب: "ليس الآن".

"قال إنك إذا رفضت مقابلته فإنه سينـــزف حتى الموت".

"حسناً! سينقص الذين يثيرون قلقنا واحداً".

"كما تريد، سأهتم بذلك".

خرج ونادى على اثنين من حاملي الدروع: "خذا هذا الرجل إلى خيمتي، واستدعيا جراحاً".

نفذ الجنديان الأمر، وهكذا وضعا الرجل على نقالة مؤقتة قبل أن يقوما بنـــزع ثيابه عنه وتنظيفه.

عاد أحد حاملي الدروع إلى الخيمة حاملاً أخباراً سيئة: "سيدي، إن جميع الجراحين مشغولون بمعالجة جنودنا، وهم يحاولون إنقاذ المصابين بجروحٍ بليغة وخطرة، لكنك إذا أصدرت أوامر حازمة فسيأتون".

أجاب الأمير: "لا عليكم، سأهتم بالأمر بنفسي. أعطوني سكيناً، وإبـرة، وخيطاً، كما أريدكم أن تسخنوا بعض المياه، وأريد بعض الأربطة النظيفة". تطلّع الرجال إليه بذهول، لكنّ الجريح شعر بذهولٍ أكبر.

قال لـه الإسكندر: "أخشى أنه يتعيّن علينا أن نفعل ذلك، لا أستطيع السماح بأن يموت جندي مقدوني من أجل إنقاذ أحد جنود الأعداء".

دخل كاليستين في هذه اللحظة بالذات، ورأى وريث عرش مقدونيا مرتدياً مئزراً مربوطاً عند الخصر، ومنشغلاً بغسل يديه.

"لكن ماذا...".

"دع هـذا الأمـر بيننا فقط، هل اتفقنا؟ لكن بما أنك حضرتَ صـفوف التـشريح عند أرسطو، يمكنك أن تساعدني. اغسل الجرح بالـشراب والخـل، ثم جهّز الإبرة والخيط... لا أستطيع الرؤية جيداً بسبب العرق الذي يغطي عينيّ.

سارع كاليستين إلى التحرّك برشاقة، فبدأ الأمير بتفحّص الجرح: "أعطِني المقص، إنه جرح عميق".

"ها هو المقص".

سأل الإسكندر الأسير: "ما اسمك؟".

"ديماديس".

توسعت حدقتا عيني كاليستين، وهمس في أذن صديقه: "إنّه ذلك الخطيب الذائع الصيت". لم يُظهر الإسكندر أي دهشة لدى سماعه هذه المعلومة.

كـشّر ديماديس عندما بدأ ذلك الجرّاح البديل بقطع لحمه، وما لـبث *الطبيب* أن طلب الإبرة والخيط. وضع الإسكندر الإبرة فوق لهـب المـشعل قبل أن يبدأ بالخياطة، بينما أمسك كاليستين جانبَي الجرح معاً.

سأل الأمير في هذه الأثناء: "أخبرني عن ديموستين".

أجـاب ديماديس من بين أسنانه المطبقة: "إنه... إنه وطنيّ، لكننا ننظر إلى الأمور بطريقة مختلفة".

"إنه وطني، لكن بأي معنى بالضبط؟ ضع إصبعك هنا". أشار إلى الموضـع بالـتحديد، فـسارع كاليستين، الذي يعمل الآن *كمساعد للجرّاح*، إلى تنفيذ الأمر، ووضع إصبعه على الخيط الذي أصبح جاهزاً كي يُربَط.

بـــدأ الجـــريح بالشرح قبل أن يحبس أنفاسه: "بمعنى... بمعنى أنني كنت ضد فكرة القتال إلى جانب طيبة، وقلت ذلك علناً". تنهد بعمق بينما كان الإسكندر يعقد الخيط.

همس كاليستين: "هذا صحيح، ولديّ نسخ عن أحاديثه".

قـــال الأمير: "أنهيت، ويمكننا أن نبدأ الآن بوضع الضمادات". ثمّ التفت إلى كاليستين وقال: "دع طبيباً حقيقياً يكشف عليه في الغد، إذا تـــورّم الجـــرح والتهب فيجب أن يتمّ علاجه، وأفضّل أن يقوم جرّاحٌ حقيقي بهذا العمل".

قال ديماديس، وهو يحاول الجلوس على السرير الميداني: "كيف لي أن أشكرك؟".

"يمكـــنك أن تشكر معلمي أرسطو، لأنه علّمني هذه الأمور، لا أستطيع أن أفهم كيف لم تتمسكوا به، أنتم الأثينيون بكل قواكم كي يبقى معكم".

"غـــادر أرسطو بسبب مشكلة حدثت في الأكاديمية... لكن لا علاقة لهذه المشكلة بالمدينة ذاتها".

"اسمعني جيداً، هل يستطيع الجيش المتجمع أن يقوم بتزكية منحك منصباً سياسياً؟".

"أجـــل... من الناحية النظرية، يُحتمل أن يكون هناك في الوقت الحاضر من هو أجدر مني هنا، أو هناك في أثينا".

"تحـــدّث معهم، وتأكد من كونك الممثّل المسؤول عن التفاوض على شروط السلام مع الملك".

سأل ديماديس بدهشة بينما كان يرتدي ملابسه: "هل أنت جاد؟".

"يمكـــنك أن تأخذ ثياباً نظيفة من صندوقي، سأتحدث مع أبـــي لترتيب بقية الأمور، سيرتّب لك كاليستين مكاناً كي تبيت فيه".

"شـــكراً لك... أنا..." لم يمتلك ديماديس الوقت إلا كي يتلفظ بهذه الكلمات، لأن الإسكندر غادر الغرفة بالفعل وتوجّه إلى خيمة أبيه فيلـــيب فوجده جالساً مع بارمينيون، وكليتوس، وبعض قادة الفِرَق، وهو يتناول طعام عشائه.

سأله الملك: "هل أنت جائع؟ يمكنك أن تتناول لحم الحجل".

أوضح بارمينيون: "هناك الآلاف من طيور الحجل التي تطير فوق بحـــيرة كوبـــياس في الـــصباح، ثم تمضي النهار باحثة عن الطعام على ضفاف الأنهر".

جلس الإسكندر على أحد المقاعد.

كان الملك قد هدأ في هذا الوقت، وبدا أنه في مزاجٍ أفضل.

قال الملك وهو يربت بيده على كتف ابنه: "حسناً إذاً، ما رأيك بابني يا بارمينيون؟".

"إنه رائع يا فيليب، وقد قاد الهجوم بشكلٍ أفضل من أي جندي من جنود فرقة الرفاق".

قال الإسكندر: "لكنّ ابنك فيلوتاس، أيها القائد، حارب بشجاعةٍ كبيرة".

سأل الملك: "ماذا فعلتَ بذلك الأسير الأثيني؟".

"هل عرفتَ من هو؟ إنه ديماديس".

هبّ فيليب واقفاً على قدميه: "هل أنت متأكد؟".

"اسأل كاليستين".

"بحق الأسياد! أريدك أن تستدعي أحد الجراحين للاهتمام به على الفور، كان الرجل يساند سياساتنا على الدوام".

"فرغت للتو من تقطيب جرحه، ولولا ذلك لنـــزف حتى الموت، كما أعطيته قدراً من حرية الحركة داخل المعسكر، أعتقد أنه سيحضّر

خطة سلام، وستكون جاهزة في الغد، أعتقد أنك تفضّل تجنب الحرب مع أثينا".

"أجـــل، إن إلحاق الهزيمة بمدينة بحرية يعني السيطرة على البحار، وهـــو أمـــر لم نتجهّـــز له بعد بالتأكيد، وهذا ما توضح لي جيداً في بيرينـــثوس وبيـــزنطة، سأصـــغي إليك بكل سرور إذا كانت لديك اقتراحات محددة، كما سأوضح لك أفكاري، سأنتظرك كي تنتهي من تناول هذه اللحوم مع أنني أشعر بالبرد".

*

أمـــا في مدينة أثينا فإن الناجين من معركة تشايرونيا لم ينشروا في الـــبداية سوى اليأس بين المواطنين. فيما امتلأت المدينة بأصوات العويل والذعـــر عـــندما بـــدأ هؤلاء في رواية أخبار الهزيمة، ووصف القتلى والأسرى، وذلك لأن كثيرين كانوا لا يعرفون شيئاً عن أحبائهم، وعما إذا كانوا في عداد الأحياء أو الأموات.

تغيّر الجو في وقتٍ لاحق عندما أدرك الجميع ما يُمكن أن يحدث لاحقـــاً، فلقد دُعي الجَميع إلى القتال دفاعاً عن أثينا، حتى من هم في العقد السادس من عمرهم، وكذلك العبيد الذين وُعدوا بالحرية إذا ما وافقوا بدورهم على القتال.

كـــان ديموستين لا يزال متعباً وجريحاً، لكنه تابع حثّ الأثينيين على القتال حتى النهاية، واقترح أن يتم جلب سكان أتيكي إلى داخل المدينة. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يتحقق لأن وفداً مصحوباً بمرافقة وصل من قِبَل الملك فيليب بعد أيامٍ عديدة، وطلب أن يُسمَح له بتقديم اقتراح لمعاهدة سلام إلى المجلس التمثيلي في المدينة. دُهش ممثلو الشعب عندما علمـــوا أن المواطنين المسجونين في تشايرونيا قد صدّقوا على الاقتراح، وأن توقيع ديماديس موجود عليه.

دخل الموفد حلقة كبيرة بشكل نصف دائرة حيث كان الأثينيون جالسين في العراء تحت أشعة شمس الربيع، وحصل الموفد على الإذن بالكلام، فقال: "إن رفيقكم المواطن ديماديس، والذي لا يزال ضيفاً على الملك فيليب، قد تفاوض بالنيابة عنكم على معاهدة تشتمل على شروط أعتقد أنكم ستعتبرونها مفيدة لكم.

إن الملك ليس عدواً لكم، لأنه معجبٌ فعلاً بمدينتكم وبعجائبها إلى حدٍّ كبير، ولقد أسف كثيراً لأنه اضطر إلى قتالكم، وذلك لأنه وببساطة، كان يستجيب لطلبٍ قدمه إليه دلفي".

لم يتجاوب المجلس كما توقع الخطيب، لأن الممثلين التزموا الصمت، وراحوا يتابعون باهتمام الاستماع إلى الشروط الحقيقية للمعاهدة، لكنّ الموفد تابع حديثه.

"سيتخلى فيليب الآن عن أي فكرة لاستغلال نصره في هذا الوضع، كما سيعترف بامتلاككم كلّ الجزر الموجودة في بحر إيجة، وسيعيد إليكم أوروبوس، وثيسبياي، وبلاتيا، وهي المدن التي تنازل عنها قادتكم لصالح طيبة وهو الأمر الذي يعدّ خيانة لصداقتنا القديمة معكم".

كان ديموستين جالساً على أحد مقاعد الصفوف الأمامية، أي قرب ممثلي الحكومة، فهمس في أذن أقرب الأشخاص إليه: "لكن، ألا ترى أنه يحتفظ بسيطرته على جميع مدننا الواقعة في المضائق؟ إنه لم يذكر هذه المدن بالاسم".

أتاه الرد على الشكل التالي: "كان للأمر أن يكون أسوأ بكثير، دعنا نسمع ما تبقى لديه ليقوله".

تابع الموفد كلامه: "لا يطلب الملك أي تعويضات، ولا يطلب فدية، لأنه سيعيد أسراكم، كما سيعيد إليكم أشلاء قتلاكم كي تُدفن بشكلٍ لائق، أما ابنه الإسكندر فسيتولى شخصياً هذه المهمة المؤسفة".

أقـــنعت الاستجابة الإيجابية لممثلي المجلس ديموستين أنه لم يتبقَ لديه أي أمـــل، فلقـــد لمـــس فيليب مشاعرهم العميقة، كما أنه مصمّم على إرســـال ابنه كي ينفذ هذا الدور من أدوار الرأفة. وكان قد صعُب كثيراً على العائلات أن تعلم أن جثة أحد أولادها تقبع من دون دفن في ميدان المعركة، وهي عرضة للطيور والكلاب، ومحرومة من المراسم المتبعة للدفن.

راح ديموستين يهمس مجدداً: "ستسمع الآن ماذا يريده مقابل كل هذا الكرم".

"وفي المقابل لا يطلب فيليب من الأثينيين إلا أن يصبحوا أصدقاءه وحلفـــاءه. يعتـــزم الملك مقابلة ممثلي اليونانيين في كورينث في فصل الخريف، وذلك كي يضع حداً للقتال الداخلي، ومن أجل إرساء سلامٍ دائـــم، ومـــن أجل إعلان خطةٍ كبرى لم يسبق له أن جرّبها قبل الآن، وهي الخطة التي تضع في حسبانها مشاركة كل الشعوب اليونانية. ويعني ذلـــك أنه يتوجب على أثينا أن تقوم بحلّ حلفها البحري، وأن تدخل ضمن الحلف الهليني الكبير، وهو الحلف الحقيقي الوحيد الذي يؤسّسه الملك فيليب الآن. ويعتزم الملك أن يضع حداً للصراعات الداخلية التي استمرت منذ قرون في شبه الجزيرة هذه، كما يعتزم تحرير المدن اليونانية في آسيا من نير الاحتلال الفارسي.

ســـأترككم الآن كي تتمكنوا من التقرير بحكمة أيها الأثينيون، دعـــوني أعـــرف قراركم عندما تنتهون من مشاوراتكم، وذلك تمهيداً لإحالته إلى الرجل الذي أرسلني".

*

صُـــدّق ذلك الاقتراح بأغلبية كبيرة، وذلك بالرغم من خطاب ديموســـتين الحماسي الذي دعا فيه المدينة إلى القتال حتى النهاية. وأراد المجلس كذلك أن يُعرب عن تقديره للملك لأنه أخذ على عاتقه تأمين

دفـــنٍ لائق للقتلى الذين ماتوا في المعركة. لذا، حملت الوثيقة، بالإضافة إلى توقيع ديماديس، تواقيع جميع ممثلي الحكومة، ثم أعيدت إلى فيليب.

مـــا إن سمع الملك هذه الأخبار حتى أرسل ابنه الإسكندر إلى أثينا برفقة وفد من العربات المحملة برماد وعظام القتلى الذين أُحرقت جثثهم في مـــيدانِ المعركة. تمكّن الأسرى من التعرّف على جثثٍ كثيرة، وبناء على هذه المعلومات أمر إيومينيس بنقش اسم القتيل، واسم عائلته على قوارير صغيرة.

أمـــا الجنود المجهولون فقد تم تجميعهم في العربات الأخيرة، مع أن الأطباء قد دونوا سمات الجثث، أي العلامات الفارقة في حال وجودها، مثل لون الشعر، والعينين، وغير ذلك من العلامات.

أراد فيليب التعبير عن حسن نيته فسمح للأثينيين باستعادة بعض أســـلحتهم من أجل تسهيل التعرّف على المقاتلين مجهولي الهوية. وقال للإسكندر في أثناء تحضّره للانطلاق: "إنني أحسدك يا بنيّ، لأنك على وشك أن ترى أجمل مدينة في العالم".

وحضر رفاقه كذلك من أجل توديعه.

قال الأمير لهيفاستيون: "انتبه إلى بوسيفالاس بالنيابة عني، لا أريد أن أتعبه، أو أن أجعله يخوض مخاطر لا لزوم لها في رحلةٍ طويلةٍ كهذه".

أجـــاب صـــديقه: "سأعامله وكأنه امرأة جميلة، لا تقلق، لكنني آسفٌ لأنّك...".

"لأنني ماذا؟".

"لأنك لم تطلب مني أن أعتني ببانكاسب كذلك".

قـــال الإســـكندر بعـــد أن بدأ بالضحك: "كفّ عن ذلك أيها الأحمـــق!" ثمّ ركـــب بعد ذلك عربةً متينة أحضرها إليه أحد المرافقين للتو، ثم أعطى إشارة الانطلاق.

بدأت القافلة الطويلة مسيرتها تصاحبها أصوات دواليب العربات، سار الأسرى الأثينيون خلف العربات على الأقدام، وحمل كل واحد منهم حزمة تحتوي على عدد قليل من الأغراض الشخصية، وما تمكنّ من جمعه من طعام. أُعطي ديماديس جواداً اعترافاً بدوره المميّز الذي لعبه في تأمين توقيع معاهدة السلام.

بقي القتلى من أهل طيبة في الأمكنة التي سقطوا فيها، فكانت الجثث عرضةً للغربان والطيور الجارحة، بينما تولت الكلاب البرية، والطيور الليلية، عملها خلال الليل. شاهدت أمهات كثيرات قدمن من المدينة كل هذه المشاهد، حيث تجمعن على أطراف ميدان المعركة، وتصاعدت أصوات عويلهن المرعب في أرجاء السماء. فيما أجرت أمهات أخريات داخل خليج تشايرونيا شعائر غريبة، هدفن من ورائها إلى توسّل أبشع ميتة لفيليب.

لكنّ لعناهن وتوسلاهن لم تجدِ نفعاً على الإطلاق، لأن الملك رفض على الدوام السماح بدفن قتلاهن، وذلك لسبب بسيط، وهو أنه اعتبر أهل طيبة جميعاً من الخونة.

إلاّ أنّ الملك ما لبث أن أذعن في نهاية الأمر، بعد أن أقنعه إصرار أصدقائه الذين كانوا يخشون العواقب الحتمية لمثل هذه السياسة القاسية.

ترك سكان طيبة مدينتهم في حالة حداد، وذلك بعد أن تصاعدت أصوات النائحين المستأجَرين، ثم حفروا حفرةً كبيرة وضعوا فيها أشلاء جثث شباهم الذين سقطوا في ميدان المعركة. ثمّ كدّس السكان التراب من أجل تكوين تلة، وهناك بنوا تمثالاً حجرياً ضخماً يمثّل أسداً، وذلك من أجل تخليد ذكرى شجاعة جنودهم.

وفي النهاية، تمّ التوقيع على معاهدة سلام مع سكان طيبة. لكن، تعيّن عليهم قبول تواجد حامية مقدونية ترابط في قلعتهم، بالإضافة

إلى حـــلّ تحالـــف بلاتـــيا، والدخول في التحالف الهليني الذي أقامه فيليب.

لقـــي الإسكندر ترحيباً في أثينا بوصفه ضيفاً مهماً، كما تلقى التكريم الذي يستحقه، وقرر مجلس أثينا إقامة تمثال له في مكان عام، وذلك اعترافاً بفضله في المهمة الإنسانية التي قام بها، وتقديراً لحسن معاملـــة المقدونـــيين لأسرى المدينة. وهكذا، اضطر الإسكندر إلى أن يجلـــس أمـــام الـــنحات الأثـــيني العظيم بروتوجينيس، وذلك بالـــرغم من إعلانه ذات مرة أن ليسيبوس وحده هو المخوّل بصنع تماثيله.

حـــافظ ســـكان أثينا على محبتهم لديموستين بالرغم من الهزيمة، وأُرسل إلى كالوريا، وهي جزيرة قريبة من مدينة طروزين، وذلك من أجل تجنيبه أي احتكاك محرجٍ مع المقدونيين.

فهـــم الإسكندر هذا الوضع، لذلك تجنب، وعن حق، الاستفهام عن أخبار خصم مقدونيا وحين انتهت مهمات الإسكندر الرسمية، أراد زيـــارة الأكروبول حيث توجد التماثيل التي أثنى عليها أرسطو كثيراً، ومكّنه من رؤية رسومها.

وذات صـــباح، تـــسلق التلة، وكان ذلك بعد هبوب عاصفة في الليلة السابقة، فذهل من روعة الألوان ومن جمال التماثيل واللوحات. ارتفـــع البارثينون وسط هذه المساحة الواسعة، وقد زيّنته مجموعة من التماثـــيل التي نحتها فيدياس، وهي التماثيل التي ترمز إلى ولادة أثينا من جـــبهة زيـــوس. كانت التماثيل ضخمة وكانت وضعيتها تتبع ميلان مـــنحدرات السقوف: كانت التماثيل التي هي في وضعية الوقوف في الوسط حيث تتحرك الشخصيات الرئيسة تدريجياً نحو الخارج، وتظهر تماثيل أخرى في وضعية الركوع، أو الاستلقاء.

كانـــت كل التماثيل مطلية بالألوان الزاهية، ومزينة بمواد معدنية من البرونـــز والذهب.

أما بمحاذاة ذلك المعبد، أي إلى جانب درج المدخل فقد انتصب تمـــثالٌ من البرونـــز سبق أن نحته فيدياس، وهو أول شيء يراه البحارة الأثينيون عندما يعودون إلى مينائهم بعد انتهاء رحلتهم.

لكـــن، أكثر ما رغب الإسكندر في رؤيته فقد كان ذلك التمثال الـــضخم لأثينا، والموجود داخل المعبد، وهو التمثال الذي نحته فيدياس كذلك.

دخل الإسكندر بهدوء واحترام يليقان بذلك المكان، وسرعان ما ألفى نفسه هناك في مواجهة تمثالٍ عملاق من الذهب والعاج، وهو من العجائب التي استمع إلى أوصافها منذ أن كان صبياً.

كـــان الهـــواء داخل المعبد مشبعاً برائحة البخور، وكانت الغرفة الداخلية شبه مظلمة، وهو الأمر الذي أبرز ذهب التمثال وعاجه أكثر فأكثـــر، وتـــلألأت الأنـــوار المنعكسة عليه من نهاية الصف المزدوج للأعمدة التي تدعم السقف.

*

وقف الإسكندر هناك وقد اعترته نشوة عارمة عندما راح يتأمل في عظمة المعبد، ويفكر في مجد أثينا وسلطتها وفي عظمة الرجال الذين شـــيّدوا المـــسارح والهياكل، والذين صهروا البرونـــز ونحتوا الرخام، ولوّنـــوا تماثـــيل الجصّ ذات الجمال الأخّاذ، فكّر كذلك في شجاعة الـــبحارة الذين تمتعوا لسنواتٍ طويلة بسيطرةٍ على البحار من دون أن يـــنازعهم عليها أحد، وفكّرٍ في الفلاسفة الذين قدّموا معتقداتهم على جوانب هذه التماثيل الملتمعة، وفي الشعراء، وكتّاب المسرحيات الذين عرضوا مسرحيات المآسي أمام آلاف المشاهدين المعجبين.

شعر أنه يمتلئ إعجاباً، ثم ما لبث أن شعر بشيء من الخجل عندما تذكـــر والده الذي يعاني من العرج، وتذكّر رقصته المخزية بين القتلى الذي سقطوا في تشايرونيا.

26

زار الإسكندر مسرح ديونيسيوس الذي يقبع عند أقدام الأكروبول، والذي يشتمل على مبانٍ وتماثيل موضوعة وسط الساحة التي يتمثّل فيها تاريخ المدينة، وأعجب كثيراً بصفوف الأعمدة المزينة، والتي كانت عبارة عن سلسلة من التماثيل التي نُحتت من وحي الحرب مع بلاد فارس، والتي لوّنها بوليغنوتوس، وخلبت لبّه.

كانت معركة الماراثون مرسومةً بكل مآثرها البطولية، بما فيها المنظر الذي يُظهر فيديبيديس، وهو الرياضي الذي ركض نحو مدينة أثينا كي ينقل أخبار النصر، وذلك قبل أن يسقط ميتاً نتيجة الإجهاد.

كما ارتسمت على مسافة قريبة من ذلك المكان معارك الحرب الفارسية الثانية، أي عندما ترك الأثينيون مدينتهم وهربوا إلى جزيرة سلاميس، وراقبوا بأعينٍ دامية الأكروبول وهو يحترق، والهياكل في أثناء تداعيها. وبرزت بعد ذلك معركة سلاميس البحرية الكبرى، والتي تمكّن الأسطول الأثيني فيها من تلقين سفن البحرية الفارسية درساً لا يُنسى، كانت نتيجته هروب الملك العظيم وسط حالةٍ من الرعب، وقد تبع ذلك تجمّع الغيوم السوداء وهبوب الرياح القوية.

أحبّ الإسكندر أن يبقى في ذلك المكان الرائع الذي يضمّ كنزاً من الإبداعات الإنسانية التي تركت بصماتها على شكل موجودات حضارية ثمينة، لكنّ نداء الواجب والرسائل التي وردت إليه من أبيه دفعته للعودة إلى بيلا.

وكذلك، كتبت والدته أوليمبيا رسائل عدة إليه، هنأته فيها على معركة تشايرونيا، وأخبرته أنها اشتاقت إليه. لم توضح والدته سبب إصرارها على كتابة هذه الرسائل، لكنه فهم بفطرته أنه لا بد وأن يكون هناك سبب يدفعها إلى إرسال هذه الرسائل. إذ ربّما يكون قد طرأ شيء جديد هناك، أو أنّ هناك مشكلة مؤلمة، إنه يعرف والدته جيداً، وهو يجيد قراءة ما بين السطور التي تكتبها.

لذا، سرعان ما غادر في أحد صباحات فصل الصيف مع مرافقيه، وتوجهوا شمالاً. دخل الموكب منطقة بواتيا في تاناغرا، ومرّوا قرب مدينة طيبة في إحدى الأمسيات الحارة، وعبروا السهل تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم تابعوا المسير بمحاذاة بحيرة كوبياس التي كان يغلّفها ضبابٌ كثيف.

كانت طيور مالك الحزين التي تبدو مثل الأشباح، تصفق بأجنحتها بين الحين والآخر من خلال الضباب الذي خيّم على الشواطئ الضحلة، واخترقت أصوات تلك الطيور غير المرئية الأجواء الرطبة والحارة وكأنها تطلق صرخاتٍ مكتومة، وشاهد الموكب الستائر السوداء التي علّقت على مداخلِ القرية، وعلى أبواب المنازل نتيجة الحرب والموت اللذين أصابا عائلاتٍ كثيرة وأخذا أحباءها.

وصل الإسكندر إلى تشايرونيا وعند مغيب شمس اليوم التالي. وبدت له المدينة مسكونة بالأشباح لأنها مهجورة تحت السماء الداكنة فيما بدأ القمر الجديد بتسلّقها. صَعُب على الإسكندر أن يضع تصوراً مرضياً لهذا النصر الجديد الذي أحرزته مقدونيا. وتصاعدت أصوات أبناء آوى، ونعيق البوم، وأضافت جواً من الكَرَب إلى هذه الليلة الطويلة المليئة بالكوابيس، والتي أمضاها في الخيمة المنصوبة في ظلال شجرة سنديان ضخمة ووحيدة.

لم يستقبله والده في بيلا بسبب وجوده في لينكستس من أجل الاجتماع مع قبائل إيليريا. لذلك، دخل الأمير الشاب إلى القصر بعد مغيب الشمس من دون أن يلاحظه أحد تقريباً، لم يرحب به أحد غير جروه بيريتاس، جروه، وأظهر سروراً لا حدّ له، وراح يركض حوله، ويهزّ ذنبه، ويقفز على سيّده ويلعق وجهه ويديه.

لم يكن يحتاج إلاّ إلى تربيتة أو اثنتين كي يصبح سعيداً، أما الإسكندر فقد توجّه على الفور إلى جناحه الخاص حيث كانت بانكاسب بانتظاره.

ركضت الفتاة نحو الإسكندر وضمّته بقوة، ثم نزعت عنه ثيابه المغطاة بطبقة من الغبار، واصطحبته إلى الحمام، وراحت يداها الناعمتان تدلّكان أطرافه المتعبة. غادر الإسكندر الحمّام، لكنّ ليبتين دخلت في تلك اللحظة بالذات، فاحمرّ وجهها خجلاً، وأخفضت بصرها.

قالت: "تريد أوليمبيا أن تقابلها بأسرع ما يمكن، إنها تأمل أن تتمكن من تناول طعام العشاء معها".

أجاب الإسكندر: "سأفعل". غادرت ليبتين الغرفة، فهمس بأذن بانكاسب: "انتظريني".

ضمّته الملكة إلى صدرها بقوة لا توصف حالما رأته.

فسأل الشاب وهو يبتعد كي يتمكن من النظر إليها: "ما خطبك أمي؟".

لم ترمش عينا أوليمبيا الدّاكنتان مثل البحيرات التي تتواجد في جبال موطنها. كانت نظرتها في تلك اللحظة تعكس وبكل وضوح المشاعر المتلاطمة التي كانت تعتمل في أعماقها.

خفضت رأسها، ثم عضّت شفتها.

كرّر الإسكندر سؤاله: "ما خطبك أمي؟".

التفتت أوليمبيا نحو النافذة كي تخبّئ حزنها وشعورها بالإهانة.

"إنّ لدى والدك عشيقة".

"لـــدى والدي سبع زوجات، إنه رجل نشيط، ولا تكفيه امرأة واحدة، يُضاف إلى ذلك أنه ملكنا".

"لكنّ الأمر يختلف هذه المرة، لأنه وقع بحب فتاة من عمر شقيقتك".

"ليست تلك المرة الأولى، سيتخطى الأمر".

"قلـــت لك إن الأمر مختلف هذه المرة، إنه واقعٌ في الحب إلى حد أنّه فقد رشده، يشبه الأمر..." تنهدت بعمق قبل أن تكمل: "... يشبه الأمر ما حدث عندما التقينا للمرة الأولى".

"لكن ما الفرق في ذلك؟".

أجابـــت أوليمبيا: "إنه فرق كبير، إن الفتاة حامل منه، وهو يريد أن يتزوجها".

سأل الإسكندر وقد توترت ملامحه: "ومن هي هذه الفتاة؟".

"إنهـــا يوريديس، ابنة القائد آتالوس، هل أدركتَ الآن لماذا أشعر بالقلق؟ إن يوريديس هي فتاة مقدونية، وتتحدر من أسرة نبيلة... إنها ليست أجنبية مثلي".

"لا يعـــني هـــذا الأمر شيئاً، إنك تتحدرين من أسرةٍ من الملوك، وأنت سليلة بيروس ابن آخيل وأندروماك عروسة هيكتور".

"إنها مجرد تمنيات يا بني، دعنا نفترض أن الفتاة أنجبت صبياً...".

صمت الإسكندر تماماً، وكأن شعوراً من الخوف قد سيطر عليه على نحوٍ مفاجئ.

"اشرحي لي ما تعنينه بالضبط. أخبريني بماذا تفكرين، أعتقد أنه ما من أحد يسمعنا".

"دعنا نفترض أن فيليب طلّقني، ثم أعلن يوريديس ملكة، وهو أمرٌ يستطيع الإقدام عليه. عندها، سيتحوّل ابن يوريديس في هذه الحالة إلى الـــوريث الشرعي للعرش، بينما تتحول أنت إلى ابن غير شرعي، وابنٍ لأجنبية مطلّقة".

"لكن، لماذا يفعل ذلك؟ لقد أحبّني أبـــي على الدوام، وهو يتمنى الأفضل لي، وقد هيّأني كي أستلم الحكم".

"لا أعـــتقد أنك تفهم ما أعنيه، تستطيع فتاة جميلة وقديرة تغيير رأي رجلٍ ناضج، كما أن مولوداً جديداً سيجذب كل انتباهه، لأنه سيجعله يشعر بالشباب مجدداً، إن ابناً جديداً سيعكس مرور الوقت الحتمي".

عجز الإسكندر عن الكلام للحظة، وكان من الواضح أن كلمات والدته جعلته يشعر بالتوتر كثيراً.

جلس على مقعد، وأسند جبهته على يده اليسرى، وكأنه يحاول أن يستجمع أفكاره: "ماذا يجدر بـــي أن أفعل برأيك؟".

اعترفت الملكة: "إنني لا أعرف بالضبط، إنني ساخطة، وأشعر بالإهانة، وبالغضب إزاء هذه الإهانة التي ألحقها بـــي. آهٍ، لو كنت رجلاً...".

قال الإسكندر: "إنني رجل".

"لكنك ابنه".

"ماذا تقصدين بذلك؟".

"لا أقصد شيئاً، إن الإذلال الذي يتعيّن عليّ أن أتحمّله قد أفقدني صوابـــي".

"حسناً... ماذا يجدر بـــي أن أفعل برأيك؟".

"لا يجدر بك شيئاً، لا يمكننا فعل أي شيء الآن، لكنني أردت أن أخبرك كي تأخذ حذرك، لأن أي شيء قد يحدث منذ الآن فصاعداً".

"هل هي جميلة جداً بالفعل؟".

أخفضت أوليمبيا رأسها، وكان من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال مؤلمة بالنسبة إليها: "إن جمالها يفوق قدرتك على التصوّر، أعتقد أن والدها آتالوس هو الذي رتّب تواجدها في سريره، اتّضح لي أنه وضع خطة محكمة، وأن عدداً من النبلاء المقدونيين يقفون إلى جانبه، أعرف أنهم يكرهونني".

وقف الإسكندر استعداداً للمغادرة.

"ألا تريد تناول العشاء معي؟ أمرت بطهو بعض الطعام من أجلك، وبتحضير كلّ الأطعمة التي تحبها".

"لست جائعاً أمي، إنني متعبٌ فقط، أستأذنك الآن، وسنرى بعضنا قريباً، لا أعتقد أنه يمكننا فعل أي شيء في الوقت الحاضر".

تركته هذه المحادثة مع والدته محطماً، إذ لم يسبق أن خطرت في ذهنه فكرة إقدام والده على التخلي عنه، واستبعاده عن مخططاته بشكل مفاجئ، ولم يكن يتوقع أبداً أن يتزامن كل ذلك مع لحظة تلقيه الثناء على دوره الحاسم في إحراز النصر في معركة تشايرونيا، وكذلك في ترؤسه المهمّة الدبلوماسية الدقيقة في أثينا.

أراد أن يطرد هذه الأفكار المقلقة من رأسه، فنزل إلى الإسطبلات كي يرى بوسيفالاس، تعرّف الجواد فوراً على صوته، وراح يضرب الأرض بحوافره ويصهل، كان مربط الجواد مرتباً، وفاحت منه رائحة الحشيش الذي قُطع حديثاً، وكان غطاء الجواد لامعاً، كما أن عرفه وذيله كانا ممشطين بعناية تماثل عناية الفتاة بشعرها. اقترب الإسكندر من الجواد وعانقه، ثم راح يمسّد رقبته ولجامه.

تناهى إليه من خلفه صوت يقول: "إذاً، لقد عدتَ أخيراً! عرفت أنك ستكون هنا، حسناً؟ كيف حال بوسيفالاس؟ أترى كيف اعتنيتُ به كما ولو أنه امرأة جميلة، وعدتك بأنني سأفعل ذلك".

"هيفاستيون، هذا أنت؟".

تقـــدّم الشاب نحو الأمير وضربه ضربة خفيفة على ظهره، وقال: "اشتقت إليك أيها الخبيث".

فعـــل الإســـكندر الأمر ذاته وأجاب: "اشتقت إليك أنا أيضاً يا سارق الجياد!".

تعانـــق الاثنان بحرارة لفترةٍ طويلة، وبشكلٍ يفوق عناق الصداقة، وبشكلٍ أقوى من الزمن، وحتى من الموت.

انتظرته بانكاسب تلك الليلة، ولكن من دون طائل.

*

عاد فيليب بعد أيامٍ قليلة، فأسرع إلى دعوة الإسكندر للقدوم إلى جناحه، حيث عانقه بحرارة فور دخوله الغرفة.

"تـــبدو وسيماً! كيف سارت الأمور معك في أثينا؟" أحس الملك على الفور بتردد ابنه في مبادلته الشوق.

"ما خطبك يا بني؟ ألم يحسن الأثينيون استقبالك؟ ألم يعرفّوك على حـــضارتهم المهيبة؟ أم هل وقعتَ في الحب؟ أوه، بحق هرقل، لا تقل لي إنـــك وقعتَ في الحب؟ ها! ألم أرتّب لك الحصول على أكثر *الرفيقات* خـــبرة، وها أنت تقع في الحب مع... مع من؟ مع فتاةٍ أثينية جميلة؟ لا تقـــل أي شـــيء... أعرف ذلك، وهل من شيء يضاهي فتنة فتاة أثينـــية، آه، أجـــل، لا بد أنها فتاة مناسبة لك، يجب أن أُبلّغ بارمينيون بذلك".

"لم أقـــع في الحب يا أبـــي، لكنني سمعت أنك أنت من وقع في الحب".

جمُـــد فيليب للحظة، ثم ما لبث أن بدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطـــواتٍ واسعة. صاح قائلاً: "إنها والدتك! إنها والدتك! إنها مستاءةٌ

كـثيراً، كما أن الغيرة والشك قد سيطرا عليها، ها هي الآن تحاول أن تقلبك ضدي، هذا هو الواقع، أليس كذلك؟".

قال الإسكندر ببرود: "ألديك امرأة أخرى؟".

"ومـاذا في ذلك؟ إنها ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة... إنها وردة... وجميلة مثل الشمس... إنها مثل أفروديت، وحتى أجمل منها! وجـدتها بـين ذراعيّ، كان جسمها ناعماً، ومعطراً، كما سهلت لي طـريق دخول قلبها، ماذا يُفترض بـي أن أفعل؟ إن والدتك تكرهني، وهـي تمقتني، حتى إنها تود أن تبصق في وجهي لو كانت تستطيع أن تنجو بفعلتها! ثم أن هذه الفتاة تفوق العسل حلاوةً".

تهالـك على أحد المقاعد، كما أنـزل عباءته إلى ركبتيه بحركة صغيرة من معصمه، وهي علامة أكيدة تدل على غضبه الشديد.

"لا أستطيع أن أحدّد لك من تحمل إلى سريرك، مولاي".

"توقف عن مناداتي مولاي... إننا وحدنا هنا!".

"لكن أمي تشعر هذه المرة بالإهانة، وبأنها غير مرغوبٍ فيها، كما أنها قلقة جداً".

صـاح فيلـيب: "فهمت! فهمت! إنها تحاول أن تقلبك ضدّي بالفعـل، ومـن دون سـببٍ وجيه. تعال، تعال معي، تعالَ وشاهِد المفاجـأة التي أعددتها من أجلك قبل أن تُفسد يومي بهذه الترهات، تعالَ!".

جـرّ فيلـيب الإسكندر نحو درجٍ، ثم إلى نهاية ممر كان قريباً من مشاغل القصر، فتح أحد الأبواب وكاد يدفع ابنه إلى الداخل.

"انظر!".

كان الإسكندر وسط غرفة يدخلها النور عبر نافذة كبيرة في أحد جوانبها، رأى تمثالاً طينياً مستديرً الشكل فوق إحدى الطّاولات، وهو

تمثال يُظهره بشكلٍ نصفي، وقد وضع إكليلاً من الغار حول رأسه، أي أنه ظهر مثل أبولو.

سأله صوت انطلق من زاويةٍ مظلمة: "هل أعجبكَ؟".

التفت الإسكندر على الفور ليعانق الفنان: "ليسيبوس!".

كرّر فيليب من خلفه "هل أعجبك؟".

"لكن، ما هذا؟".

أجــاب الملــك: "إنه نموذج عملة ذهبية في مملكة مقدونيا، والتي ستُــسكّ بــدءاً مــن يــوم غد فصاعداً لتكون تذكاراً لانتصارك في تشايرونيا، ولدورك بوصفك وريثاً للعرش. أنوي سكّ عشرة آلاف من هذه القطع، وستوزّع في أنحاء العالم".

فخفض الإسكندر بصره من فرط الحيرة.

27

ســاعدت البادرة التي قام بها فيليب، وحضور ليسيبوس إلى بلاط القــصر على تبديد السحب التي خيّمت بظلالها على العلاقة بين الوالد وابــنه. لكنّ الإسكندر ما لبث أن أدرك مدى عمق العلاقة التي تجمع بين والده ويوريديس.

ولكن، بالرّغم من كلّ شيء تمكنت مشاغل البلاط السياسية من صرف انتباه الملك والأمير عن أمور البلاط الخاصة.

أما الرد الذي بعثه آرسيس، ملك بلاد فارس فكان مليئاً بازدراء فــاق ذاك الذي حملته رسالة فيليب. ولقد قرأ إيومينيس الرسالة على مسامع الملك ما إن استلمها من مبعوث الملك الفارسي.

مــن آرســيس، ملــك الفرس، وملك الملوك، ونور الآريين، وسيّد جهات الأرض الأربع، إلى فيليب ملك مقدونيا.

إن الإجــراءات التــي قام بها والدي أرتحششتا، ثالث من حمل هذا الاسم، كانــت مناسبة وصادقة، ولهذا أنت من يتوجب عليه دفع الجزية، كما كان يفعل أسلافك، وذلك لأنك من أتباعنا.

نــادى الملك الإسكندر على الفور، ودعاه إلى قراءة الرسالة، ثم قــال لــه: "حدث ما تصورته بالضبط، إن خطتي بدأت تتحقق بكل تفاصيلها، رفض ذلك الفارسي دفع الجزية عن الأضرار التي تسبب بها والــده، إن ذلك سبب أكثر من كافٍ لإعلان الحرب عليه، وها هو حلمي يتحول إلى حقيقة، سأوحّد كل اليونانيين والمستعمرات الشرقية، وســأحمي الحــضارة الهلينــية وأنشرها في أنحاء العالم كافة، لم يفهم ديموســتين خطتي فحاربني وكأنني طاغية. ولكن، انظر من حولك! إن

جميع اليونانيين أحرار. لكنني أبقيت على حامية مقدونية في قلعة أهل طيبة الخونة، وقمت كذلك بحماية الأركاديين، وسكان ميسينيا، وكنت أكثر من مرة بطل معبد دلفي".

دُهش الإسكندر من هذا الإقرار وسط كل الفخر الذي يتحدث عنه والده، فسأله: "هل تريد حقاً أن تتحرك نحو آسيا؟".

حدّق فيليب إلى عينَي ابنه.

"أجل، أعتزم أن أعلن عن هذه المهمة أمام حلفائنا في كورينث، وسأطلب منهم جميعاً تقديم الرجال والسفن الحربية من أجل هذه المهمة التي لم يسبق لأي يوناني أن أكملها".

*

"أتعتقد أنهم سيطيعونك في هذه المهمة؟".

أجاب فيليب: "لا أشكّ في ذلك، سأشرح لهم أن غاية هذه المهمة هي تحرير المدن اليونانية في آسيا من السيطرة البربرية، أعتقد أنه لن يسعهم الرفض".

"لكن هل هذه هي الغاية حقاً؟".

قال الملك: "إن لدينا أقوى جيشٍ في العالم، وآسيا واسعة جداً، ولا حدود للمجد الذي يمكن للمرء أن يصل إليه يا بنيّ".

وصل ضيفٌ آخر إلى بيلا بعد مرور أيام قليلة، وكان الرسام آبيل الذي يعتبره كثيرون الأفضل في العالم. استدعاه فيليب كي يرسمه إلى جانب الملكة، وطلب منه أن يجري بعض التعديلات والتصحيحات. كان الملك يريد تعليق تلك اللوحة الرسمية في معبد دلفي، لكن أوليمبيا رفضت الجلوس إلى جانب زوجها، لذلك اضطر آبيل إلى اختلاس بعض النظرات نحو الملكة من أجل الرسوم التحضيرية.

سرّ فيليب كثيراً عندما رأى الرسم النهائي، وطلب من الرسام أن يرسم الإسكندر أيضاً، لكنّ الأمير رفض ذلك.

قال له: "أفضّل أن ترسم صديقتي".

سأل آبيل: "عارية؟".

"أجل، إنني أشتاق إليها كثيراً عندما أبتعد عنها، أريدك أن ترسم لها صورة. ولكن، لا أريدها كبيرة، وذلك كي أتمكن من حملها معي، إلاّ أنّني أريدها أن تكون صورة مطابقة تماماً".

وهكــذا اســتلقت بانكاسب، التي يُقال إنها أجمل امرأة في العالم اليوناني، عارضةً جمالها أمام أعظم الرسامين.

كــان الإســكندر متحمساً لرؤية نتيجة هذا الالتقاء الاستثنائي للمــواهب، فكان كل يوم يمرّ كي يرى تقدم العمل، لكنه سرعان ما أدرك أنــه ما مِن تقدم على الإطلاق، أو على الأقل كان التقدم بطيئاً. كان آبيل يرسم مخططاته، ويعيد ما رسمه.

علّــق الأمــير الــشاب: "يــبدو لي أن هذه اللوحة تشبه كفن بنيلوبــي، أي بلا نهاية، ما المشكلة؟".

"الحقــيقة يــا مولاي... هي أنني لا أطيق فكرة الابتعاد عن هذا الجمال الفاتن".

تطلــع الإســكندر بتركيز إلى بانكاسب والفنان الذي يرسمها، وســرعان مــا أدرك أنــه خلال تلك الجلسات الطويلة كانا يُشغلان نفــسيهما بأشياء تتعدى مجرد الرسم الفني، قال الإسكندر: "فهمت". وفكّــر في تلــك اللحظة في ليبتين التي كانت عيناها محمرّتين من فرط الــبكاء، وقرّر أنه لن يعاني من نقصٍ في الفتيات الجميلات في المستقبل كلمــا أراد الحصول عليهن، كما تذكر بألم أن بانكاسب تزداد وقاحةً وتطلباً يوماً بعد يوم. لذا، اقترب من الرسام ثم همس في أذنه: "أريد أن

أعرض عليك اقتراحاً، أنت تعطيني الرسم، وبالمقابل تحصل على الفتاة، هذا إذا ما وافقت، بالطبع".

قال الفنان العظيم وهو يطفح بالمشاعر: "أوه، يا مولاي... كيف يمكنني أن أشكرك؟ أنا... أنا...".

ربّت الأمير الشاب على ظهر آبيل، وقال له: "المهم أن تكونا سعيدين، وأن يكون الرسم جميلاً". ثمّ فتح الإسكندر الباب، وغادر الغرفة.

*

توجه فيليب والإسكندر إلى كورينث عند نهاية فصل الصيف، وأقاما في ضيافة المدينة. لم يختارا المكان صدفةً، لأنه في كورينث أقسم اليونانيون قبل مئة وخمسين عاماً على مقاومة الغزاة الفرس، ومن هناك انطلق التزامٌ جديدٌ يتضمن توحيد كل اليونانيين في القارة وفي الجزر في مهمةٍ كبيرة واحدة وهي اجتياح آسيا. وكانت هذه المهمة كفيلة بأن تجعل أمجاد حرب طروادة التي تغنى بها هوميروس، تذوي أمام ضخامتها.

عدّد فيليب في خطابٍ حماسي له أمام ممثلي المناطق الأدوار التاريخية المتعددة للصراع القائم بين أوروبا وآسيا. حتى إنه روى تلك الأحداث التي تُعتبر من الأساطير، تحدّث عن قتلى الماراثون وثيرموبايلاي، وعن حريق الأكروبول، ومعابد أثينا الأخرى. وكانت كل تلك الأحداث قد حدثت منذ أجيال عدة، لكنها لا تزال حية في الموروث الشعبي، ولعل ذلك يعود جزئياً إلى أن فارس لن تتوقف أبداً عن التدخل في الشؤون الداخلية للدول اليونانية.

لكن الأهم من كل هذه الذكريات الغابرة عن الغزوات الفارسية كان تصميم فيليب على إقناعهم بضرورة تنفيذ خطته، وجعلهم

يدركــون أنه لا بديل عما اعتزم عليه، وأن طريقته السياسية تتضمن اســتخدام أداة الحرب. وكان مصير طيبة وحلفائها ما زال ماثلاً أمام أعين الجميع.

حــصل ملك مقدونيا في نهاية الاجتماع على اعتراف رسمي بأنّه قائــد الــتحالف الهليني، وأنه قائد تلك المهمة العظيمة، أيْ غزو بلاد فــارس، لكنّ عدداً من الممثلين اعتبروا أن كل ذلك ما هو إلا نوع من الدعاية المثيرة، وكانوا مخطئين في اعتقادهم هذا.

تمكّــن الإسكندر خلال الأيام التي أمضاها في كورينث من رؤية شــيء مــا فيها، وهي المدينة التي لم يسبق له أن زارها. إذ توجّه مع كاليستين إلى الأكروبول الذي كان قلعةً حصينة جداً، وأُعجب كذلك بمعابــد أبولــو وبوسيدون القديمة؛ وبوسيدون هو سيد البحر وحامي المدينة.

أمــا أكثر ما أثار إعجابه فكان الجرار البحري الذي كان عبارة عن مزلقة لجر السفن بحيث تتمكن من العبور من خليج سارونيكي إلى خليج كورينث عبر البرزخ الذي يفصل بينهما، وهكذا تتفادى السفن الــدوران حول جزر البيلوبونيز التي تتميز برؤوسها الصخرية المتعددة ومياهها الضحلة.

كان الجرّار عبارة عن مزلقة خشبية يُدهن سطحها بشحم الثيران باســتمرار في أثناء تسلقها أعلى نقطة في البرزخ، وذلك قبل هبوطها علــى الجهــة المقابلة من خليج كورينث. وكانت السفينة تُجرّ بقوة الــثيران إلى القمــة وتنتظر هناك حتى تصل سفينة أخرى ثم تُربط بها. وكانــت السفينة التي في الأعلى تُدفع نــزولاً على الجهة المقابلة بحيث تــساعد في أثــناء هبوطها على سحب السفينة الأخرى، والتي تعمل بــدورها عمل المكابح التي تخفف من حدة هبوط السفينة الأولى، وبعد

أن تـــصل السفينة الثانية إلى القمة تنتظر أن تُربط بها سفينة ثالثة بينما تتمكن السفينة الأولى من الإبحار، وهكذا دواليك.

سأل الإسكندر مضيفيه الكورينثيين: "ألم يفكر أحد في حفر قناة تصل ما بين الخليجين؟".

أجاب الدليل: "لو أرادت الأسياد أن يكون البحر مكان اليابسة لكـــان في مقدورهم أن يجعلوا من البيلوبونيز جزيرة، ألا تعتقد ذلك؟ يتذكر المرء ما حدث لملك الفرس العظيم عندما غزا اليونان، بنى ذلك الملك جسراً فوق البحر بحيث يتمكن الجنود من عبور المضائق، ثم قطع شبه جزيرة جبل أثوس بقناة بحيث يتمكن أسطوله البحري من المرور، لكنه تعرّض لهزائم كبيرة، وعوقب على استكباره".

ردّ الإســـكندر معتـــرفاً: "هذا صحيح، أخذني والدي ذات مرة لـــرؤية تلك القناة العظيمة، وأخبرني عن جميع إنجازات الملك العظيم، وهذا هو السبب بالذات الذي دفعني إلى التفكير في حفر القناة".

أخبره مضيفوه كذلك عن ديوجينيس الذي يعيش في مكانٍ مجاورٍ لهـــم، وهـــو الفيلسوف الساحر الذي كان مصدر إلهام لعددٍ كبير من القصص المثيرة.

أجـــاب الإســـكندر: "أوه، أجل أعرف، شرح لي أرسطو نظريات الفلاســـفة الـــساخرين. يعـــتقد ديوجينيس أن الطريقة الوحيدة لحصول الإنسان على أملٍ بتحرير نفسه من كل الرغبات، وطرد كل التعاسة، هي حرمان النفس من كل شيء كمالي، أو زائد عن حاجات الإنسان".

قـــال كاليـــستين: "إنها نظرية غريبة، لأن حرمان النفس من كل شـــيء، ليس بهدف الوصول إلى السعادة، بل بهدف الوصول إلى مجرد الهـــدوء أعتبره عملاً مملاً، هذا إذا لم يُعتبر هدراً لا معنى له. يشبه الأمر إحراق الخشب بهدف بيع الرماد، ألا توافقني الرأي؟".

قال الإسكندر: "ربّما كان ذلك صحيحاً. ولكن، أريد مع ذلك أن ألتقيه، هل صحيح أنه يعيش داخل جرة زيت كبيرة؟".

"أجــل بالفعل، فخلال الحرب الأخيرة، وفي ذروة الحصار الذي فرضــه والــدك سارع كل المواطنين إلى تدعيم كل الجدران وانشغلوا بكــل أنواع التحضيرات، فيما بدأ ديوجينيس، وبشكلٍ مفاجئ، بدفع جــرته الكبيرة إلى أعلى التلة، ثم تركها تتدحرج، وذلك قبل أن يبدأ بدفعها مجدداً، سأله المجتمعون: "لماذا تفعل ذلك؟" أجابهم بالقول: *ليس لــسبب معيّن، لكن يبدو أن الجميع منشغلون جداً، ولا أرغب في أن يعتــبرني الآخرون، وكأنني أهرب من العمل*. يعطي هذا الموقف فكرة عــن الرجل، تصوّر أن كل ما يمتلكه من أدوات منــزلية لا يزيد عن وعاءٍ صغير يستخدمه كي يشرب من النبع، لكنه شاهد ذات يوم صبياً يــشرب بيديه المضمومتين معاً، لذلك أقدم على رمي وعائه، هل أنت متأكد من أنك ترغب في لقائه؟".

أجاب الإسكندر: "أجل من فضلكم".

تــأوه كاليــستين بنفاد صبر وقال: "لا بأس إذا كنتَ تريد ذلك حقاً، لكنني أؤكد لك أنه لن يكون لقاءً مثمراً، أتعرف لماذا يُطلق على ديوجينــيس وأتباعه لقب الساخرين؟ لأنه بحسب نظرياتهم لا يجوز أن يُحكَــم على أي شيء طبيعي على أنه بذيء، لذلك فهم يفعلون كل شيء علناً، أي مثل الكلاب تماماً".

قــال الدلــيل موافقاً: "هذا صحيح. تعالَ، إنه لا يعيش، هذا إذا صــحّ أن نعتــبره يعيش، بعيداً عن هنا. إنه يسكن إلى جانب الطريق حيث يسهل عليه تلقي الصدقات من المارة".

ساروا مسافة قصيرة على الطريق الذي يؤدي من المزلقة البحرية إلى معبد بوسيدون، وكان الإسكندر أول من لمح ديوجينيس من البعيد.

كان رجلاً مسناً يبلغ ما يقارب السبعين من عمره. وكان عارياً تمامـــاً، ويجلس ويستند بظهره إلى جرة طينية كبيرة، لاحظ الإسكندر داخلها سريراً من القش، وغطاءً رثاً. ففكّر في أن بيت الكلب بيريتاس مـــريح أكثـــر من جرته. فيما جلس كلب صغير بالقرب من الرجل، وكـــان كلباً هجيناً صغيراً، وربما كان يتناول أصناف الطعام ذاتها التي يتناولها الفيلسوف، كما يقاسمه النوم على السرير ذاته.

أسند ديوجينيس في جلسته هذه ذراعيه إلى ركبتيه، وأسند رأسه إلى جـــرته المتواضـــعة بيـــنما كانت أشعة شمس الصيف تدفئ أطرافه النحـــيلة. كان أصلع بالكامل، لكنّ الشعر النابت خلف رقبته نما حتى وصـــل إلى وســـط ظهره تقريباً. أما وجهه فكان نحيلاً، وظهرت عليه التجاعـــيد العميقة، بينما كانت لحية رفيعة ومتشابكة تحيط بهذا الوجه الـــذي بـــرزت فيه عظام الخد، أما عيناه فكانتا غائرتين تحت جبهته العريضة التي بدت ملتمعةً بطريقة ما.

كانت عيناه مغمضتين، كما جلس من دون حراك.

توقـــف الإسكندر على الفور، وراح يتأمل الرجل بصمت، لم يُظهر الفيلسوف أي علامة تدل على ملاحظته وصول زائريه، ولم يفتح عينيه أبداً.

تـــساءل الإسكندر عن طبيعة الأفكار التي يمكن أن تجول في ذلك الـــرأس المتعب الذي يقبع فوق تلك الرقبة النحيلة، وفوق ذلك الجسم النحـــيل والهش، وحول السّبب الذي دفعه بعد أن عاش حياة مكرسة للـــبحث في أعمـــاق النفس الإنسانية للاستلقاء وهو عارٍ ومعدم على قارعة الطريق، معرضاً نفسه لسخرية المارة وشفقتهم؟

تأثـــر الإسكندر بهذا الاعتزاز بالفقر، وبالبساطة الكلية، وبالجسم الـــذي يـــسعى في حضرة الموت إلى التخلص من كل شيء، وإلى أن يكون نقياً مثل الطفل ساعة الولادة.

تمـــنى الإسكندر لو أن أرسطو كان برفقته، وتمنى لو أنه يستطيع مشاهدة هذين العقلين قابعَين تحت الشمس مثل بطلين يحمل كل واحد مـــنهما رمحاً وسيفاً، وتمنى كذلك لو يقول كم هو معجب به. ولكنه، بدلاً من ذلك، قدّم إليه عرضاً لا نصيب له من القبول.

"مرحباً يا ديوجينيس! إن الرجل الذي يقف أمامك هو الإسكندر المقدوني، تستطيع طلب ما تريد، وسأكون مسروراً لإعطائه إليك".

فـــتح الرجل العجوز فمه الخالي من الأسنان، وقال بصوتٍ حادٍ، ولكن من دون أن يفتح عينيه: "أتقول أي شيء؟".

كرّر الإسكندر: "أي شيء على الإطلاق".

"حـــسناً، ابـــتعد عني قليلاً لأنك تمنع أشعة الشمس من الوصول إليّ".

تحرك الإسكندر على الفور، وجلس إلى جانب الرجل، عند قدميه بالـــتحديد، وكأنه أحد التابعين الذين يطلبون الموافقة على ترفيعهم إلى مـــرتبة أعلـــى، ثمّ التفت نحو كاليستين، وقال له: "اتركنا وحدنا من فضلك، لا أعرف ما إذا كان سيقول لي شيئاً، لكنه إذا فعل فلن تكون كلماته صالحةً للكتابة يا صديقي".

لاحظ كاليستين أن عيني الإسكندر كانتا رطبتين.

"يُحتمل أن تكون على حق، ويُحتمل أن يذهب كل شيء هباء، مـــثل إحـــراق الحطب لبيع الرماد، لكنني مستعد لفعل أي شيء لكي أعرف ماذا يدور وراء هذين الجفنين المغلقين، صدّقني لو لم أكن ما أنا عليه، ولو لم أكن الإسكندر، لوددت أن أكون ديوجينيس".

28

لم يعـــرف أحد ماذا دار في أثناء المحادثة التي جرت بين الرجلين. ولكن، من المؤكد أن الإسكندر لم ينسَ ذلك اللقاء، ولعل ديوجينيس لم ينسَ الأمر كذلك.

بعـــد يومين، انطلق فيليب والوفد المرافق له مع الأمير، في الطريق الشمالي الذي يؤدي إلى مقدونيا.

ركّـــز الملك فور وصول الموكب إلى بيلا على التحضير للمهمة العظـــيمة لاستكشاف الشرق. وكان مجلس الحرب ينعقد بشكلٍ يومي تقـــريباً، وبمشاركة من القادة آتالوس، وكليتوس، وأنتيباتر وبارمينيون. عمل المجتمعون على تجنيد الجنود، وتحضير عتادهم، ومؤنهم. وساعدهم العلاقـــات الطيبة مع أثينا على ضمان السلامة في البحر، بالإضافة إلى تـــأمين وسيلة نقل عملية من أجل نقل الجيش المتجمع إلى آسيا، وذلك بالتعاون ما بين الأسطول المقدوني وسفن الحلفاء.

شـــغل الإسكندر معظم أوقاته بهذا النشاط المحموم، ولم يُظهر أي اهتمام بمسألة حمل يوريديس، ولا حتى بعذابات والدته، مع أن أوليمبيا دأبـــت على إرسال الرسائل إليه عندما كان بعيداً عن بيلا، وكانت في بعـــض الأحيان ترسل إليه طلبات ملحة للتحدث بشكل سري عندما يكون في بيلا.

*

انشغلت أوليمبيا كذلك بمراسلات نشطة مع شقيقها، إسكندر إيبيروس، وذلك بهدف تأمينه دعم لها. إذ شعرت أنها وحيدة أكثر من

أي وقــتٍ مــضى، وأنهــا في طــور الانحدار، وأنها شيء مهمل في جناحها.

لم تفكــر في أي شيء آخر، وكانت محنتها هي موضوع حديثها الوحيد مع الأشخاص الذين حافظوا على ولائهم لها. فلقد نظرت إلى مــستقبلها علــى أنه مستقبل كئيب من العزلة والوحدة التامة، كانت أوليمبــيا تعــرف جيداً أنه منذ اللحظة التي تُعطى فيها الملكة الجديدة امتــيازاتها الملكــية بــشكلٍ رسمي، فإنها ستفقد حقها في الظهور في المناسبات الرسمية، وستفقد هكذا حقها في المتعة الوحيدة التي بقيت لها، أي الالتقاء بالضيوف والوفود من الأجانب في اللقاءات الرسمية، وهي المناسبات التي تستقبل خلالها في جناحها زوجات وصديقات الزوار.

لكــنها قلقــت كــثيراً مــن أنها ستفقد ما تبقى لها من السلطة الشخصية كوالدة ولي العهد.

كان قلق الإسكندر أقل بكثير من قلق والدته، وعلى الأخص لأنه محاط بأصدقائه الذين داوموا على إظهار وفائهم وإخلاصهم له.

تمــتع الإسكندر كذلك بالاحترام العميق والحقيقي الذي أظهره القائدان بارمينيون وأنتيباتر، وهما اليدان اليمنى واليسرى لوالده الملك، رأى القائدان الإسكندر وهو يتصرّف كرجل دولة، وكذلك في ميدان المعركة، فعرفا أن المملكة ستكون بأيدٍ أمينة إذا ما تُركت يوماً ما بين يديــه. لكنّ وضع السلالة الملكية، في واقع الأمر، لم يكن مؤكداً بأي شــكلٍ مــن الأشــكال، لأنّ ابنَــي عم الإسكندر، إمينتاس وشقيقه آرخــيلاوس، كانا يتمتعان بقدرٍ معيّن من المساندة في أوساط النبلاء، بيــنما شقيقه الآخر من أبيه، آرهيدايوس لم يكن كامل الذكاء، لذلك بدا أنه لا يشكل تهديداً في الوقت الحاضر.

*

أُعلِــن عن موعد الزفاف الرسمي للملك فيليب في بداية الشتاء. وبالرغم من أن هذه الأخبار كانت متوقعة منذ مدة من الزمن، إلاّ أنّها نــزلت على الجميع كالصاعقة.

فلقــد صُــدم الجمــيع بمدى الجدية والفخامة التي أراد الملك أن يضفيها على الاحتفال.

بــدأ إيومينيس في هذه الأثناء بإدارة المكتب الملكي وحده، لكنه أبقى الإسكندر على اطلاعٍ بكل التفاصيل: ترتيب الضيوف المدعوين، ونفقات الملابس، ومظاهر الزينة، والطعام، وأنواع الشراب، والجواهر المقدمة إلى العروس ووصيفاتها.

حــاول الإسكندر إخفاء معظم هذه التفاصيل عن والدته، وذلك كــي يتجنب إيذاء مشاعرها بقدر الإمكان، لكنّ أوليمبيا كانت تبثّ عــيوناً ترى وآذاناً تسمع في كل مكان، وكانت تعرف بالضبط ماذا سيحدث قبل علم الإسكندر به.

تــسلّم الإســكندر ووالدتــه دعــوة رسمية للمشاركة في ذلك الاحــتفال، وذلك قبل وقتٍ قليل من حلوله. وعرف كلاهما أن دعوة فيلــيب هذه كانت بمثابة أمرٍ من الناحية العملية، لذلك بدأت الوالدة وابــنها، وإن علــى مضض، بتحضير نفسيهما لهذه المناسبة، ولحضور احتفال الزفاف الفخم الذي سيليه.

أبلــى إيومينيس بلاءً حسناً في ما يتعلق بالمهارة الدبلوماسية التي أبداها في ترتيب أسرّة طعام الضيوف، والطاولات، وذلك بهدف تجنب الاحتكاكات التي قد تؤدي إلى جدالات، أو حتى إلى مشاكل. وُضعت الــصفوف المخصصة لزعماء القبائل والأمراء المقدونيين بشكل صفّين مــتقابلين تقريباً، وذلك تحسباً لجريان الدم بعد تقديم الشراب، وذلك بعد تبادل عبارات، أو إشارات، يُساء فهمها.

كانــت العروس جميلةً بشكلٍ يفوق الوصف، وكانت ملابسها تليق بملكة حقيقية، لكنّ دلائل حملها كانت واضحة للعيان. كانت قد وضــعت تاجــاً ذهبياً، فيما كان شعرها مرفوعاً فوق رقبتها وملفوفاً ومثبــتاً بدبابــيس ذهبــية ذات رؤوسٍ من المرجان، أما رداؤها فكان محبوكاً بخيوط الفضة ومزيناً بتطريزات رائعة الجمال تقلد أعمال الفنانين الــذين يرسمون على السيراميك، كما ظهر رسم يمثّل وصيفات يرقصن أمام تمثال أفروديت، أما وجهها فكان مغطى بنقاب ثوب الزفاف الذي غطى جبهتها جزئياً.

طُلــب من الإسكندر، بوصفه وريثاً للعرش، الجلوس إلى جانب الملــك وعروسه الجديدة، وكذلك كان من المتوقع أن يجلس قرب أبيه عــندما تبدأ الوليمة في وقتٍ لاحق. فيما جلست أوليمبيا مع وصيفاتها في الجهــة المقابلة لجهة فيليب. ولكن، في طرف قاعة الطعام الكبيرة. كمــا جلست معها الأميرة كليوباترا التي اختارت أن تظل إلى جانبها، لأنها لم تتوافق مع يوريديس، بالرغم من كونهما متقاربتين بالسن.

صُــفّت أسرة الطعام على شكل مستطيل، ولم تترك فسحة بين الطــاولات إلا في طــرف الجهة اليمنى، وهي فسحةٌ تسمح بدخول الطباخين، وبمرور الأطباق والنُدل الذين يداومون على تقديم الشراب، وعلى تنظيف الأرض من كل ما يُرمى عليها.

بــدأت مجمــوعة مــن عازفات الناي بالعزف إلى جانب بعض الراقصات اللواتي كن يتمايلن بين الطاولات، وفي الفسحة الوسطى التي تتوسط المستطيل الكبير الذي تمثله قاعة الطعام، سيطر على الإسكندر الــذي لم يــشرب حتى نقطة شراب واحدة شعور بالضّيق، فقد ظل يتطلع نحو والدته بشكلٍ خفي، كانت والدته تجسد الجمال والكبرياء. كان وجهها شاحباً، أما نظرتها فباردة، وبدا أنها تتخطى ما يدور حولها

من صخب الرجال الثملين، وحتى أصوات النايات الحادة، كانت أقرب إلى تمـــثال ســـيدة الانتقام الجامدة. لم تأكل، وحتى إنها لم تشرب شيئاً طيلة الاحتفال، بينما تصرّف فيليب على سجيّته طيلة الوقت، وجرّب كل أنواع المجون ليس فقط مع عروسه الشابة التي أظهرت مقاومتها من خـــلال القهقهات الخجولة، ولكن مع الراقصات عندما كن يتحركن بالقرب منه. أما الضيوف الآخرون، المقدونيون منهم تحديداً، فقد فعلوا الشيء ذاته.

حانت بعد ذلك اللحظة التي توجب فيها على كل الحاضرين أن يـــشربوا نخـــب الـــزوجين اللذين تزوجا حديثاً. وبحسب تقاليد هذه الاحـــتفالات، كان يتوجب على والد العروس أن يرفع كأسه ويشرب نخب صحة العروسين. كان آتالوس تحت تأثير الشراب مثل الآخرين، فوقـــف وترنح قليلاً ثم رفع كأسه الطافحة بالشراب الذي طال ليس فقـــط علـــى سريره هو، بل الأسرّة المجاورة كذلك. ثمّ قال بعد ذلك بـــصوت مـــرتجف: "أشـــربُ نخب الزوجين الملكيين! أشربُ لفحولة العـــريسٍ ولجمـــال العروس، كما أطلب من الأسياد أن تمنحهما وريثاً شرعياً لعرش مقدونيا!".

كان ذلك أسوأ ما يمكن أن يتفوه به في تلك اللحظة. وساعدت كلماته هذه في تعزيز الشائعات التي سرت بين النبلاء المقدونيين، والتي تحـــدثت عـــن عـــدم إخلاص الملكة وكان ذلك بالطبع إهانة كبيرة للإسكندر؛ الوريث المعيّن للعرش.

شـــحُب لون أوليمبيا على الفور، وصمُت كل الأشخاص الذين سمعـــوا كلام آتالوس خلال شربه نخب العروسين، والتفتوا جميعهم نحو الإسكندر الذي هبّ واقفاً، وقد اكتسى وجهه اللون القرمزي بعد أن انتابته فورة غضبٍ رهيبة.

صــاح الإسكندر قائلاً: "أيها الأحمق، أيها الحقير! ما دوري أنا إذاً؟ هل أنا ابن غير شرعي؟ اسحب كلماتك، وإلا سأقطع رقبتك من الأذن حــتى الأذن!" وتناول سيفه من غمده كي يعطي معنى لتهديده هذا.

غــضب فيليب عند هذه النقطة من كلام الإسكندر الذي أهان والد زوجته، ولأنه أفسد حفل زواجه. كان فيليب تحت تأثير الشراب وفاقداً رشده، فسحب سيفه هو الآخر، وتقدّم كي يواجه ابنه. امتلأت القاعــة بالــصراخ على نحوٍ مفاجئ، وهربت الراقصات، بينما بحث الطباخون عن أمكنةٍ يختبئون فيها في ظل هذه العاصفة التي كانت على وشك الهبوب.

ولكــن، بينما كان فيليب يتنقل من سريرٍ إلى آخر في طريقه إلى الإســكندر تعثّر، ووقع بصخبٍ على الأرض، بينما ثبُت ابنه في مكانه منتظراً بدء الهجوم، أسقط فيليب الستائر في أثناء سقوطه، وكذلك الأواني الفخارية، وكل ما تبقى من طعام، وانتهى في بركة من الشراب الأحمر. حاول أن يقف على قدميه لكنه تعثّر مجدداً، وسقط على وجهه.

اقتــرب الإســكندر منه من دون أن يُخفض سيفه الذي أمسكه بثــبات، فخــيّم علــى القاعة صمت يماثل صمت القبور، وتجمعت الراقــصات مرتعشاتٍ في إحدى الزوايا، أما آتالوس فقد شحُب لونه، وانــساب خــيط مــن اللعاب من إحدى زاويتي فمه نصف المفتوح، وانــدفعت العــروس الشابة بالبكاء، وقالت: "أوقفوهما بحق الأسياد، وليفعل أحدكم شيئاً!".

صاح الإسكندر ضاحكاً: "ها هو! انظروا إلى الرجل الذي يريد أن يتحرك من أوروبا إلى آسيا، ومع ذلك فهو عاجز حتى عن الانتقال من سريرٍ إلى آخر من دون أن يتعثّر".

زحف فيليب في بركة الشراب، وبقايا الطعام وهو يهدر بصوته: "سأقتلك! سأقتلك!".

لكنّ الإسكندر لم يرمش له جفن، بل قال: "سيكون ذلك إنجازاً عظيماً لك، إذا تمكّنتَ من الوقوف على قدميك". ثمّ التفت بعد ذلك إلى الخدم، وقال: "ساعدوه على النهوض، واغسلوه جيداً".

وتــوجه بعد ذلك إلى أوليمبيا، وقال لها: "يجب أن نغادر في هذه اللحظة يا أمي. كنتِ على حق، إن هذا المكان لا يليق بنا".

29

غـــادر الإســـكندر القصر بسرعة متأبطاً ذراع والدته، وتبعهما فيليب بنظراته الغاضبة وصراخه. سأل الإسكندر أوليمبيا ما إن وصلا إلى الـــباحة: "أترغبين في القيام بجولة على صهوة جواد، أم أطلب من الخدم تحضير إحدى العربات؟".

"كلا. أفضّل أن أمتطي صهوة جواد".

"غيّري ثيابك، وكوني جاهزةً عند مدخل جناحك، سألاقيك في أســـرع وقـــت، لا تنـــسي عباءتك وملابسك السميكة، سنتجه نحو الجبال".

صاحت الملكة: "أخيراً!".

ركض الإسكندر نحو الإسطبلات كي يجهّز بوسيفالاس والجواد البنّـــي المحمر، بالإضافة إلى لوازم الرحلة، ثمّ أخذ الجوادين إلى الزاوية الشمالية للقصر.

صاح به صوت من خلفه: "إسكندر! انتظر!".

"هيفاســـتيون! عـــد أدراجـــك، سيتحول والدي ضدك إذا لم تفعل".

"لا يهـــم... فلتحل عليّ اللعنة إن تركتك وحيداً، إلى أين أنت ذاهب؟".

"إنني ذاهبٌ إلى إيبيروس، لزيارة خالي".

"وأي الطرقات ستسلك؟".

"بيرويا".

"انطلق الآن، وسألحق بك".

"حسناً، ودّع الجميع بالنيابة عني، وقل لإيومينيس أن يهتم بالجرو بيريتاس".

قال هيفاستيون وهو يبتعد: "بالطبع... لا تقلق، سأهتم به".

صاح الإسكندر وراءه: "أعطِه عظمة على الأقل كل يوم، من أجل أسنانه!".

أومأ صديقه علامةً على أنه فهم، واختفى مجدداً داخل الإسطبلات.

كانت أوليمبيا جاهزةً بعد أن جمعت شعرها على شكل كعكة، وارتدت سترة جلدية، وسروالاً من صنع إيليريا، ووضعت حقيبتين فوق كتفيها، وبعض المواد الغذائية، ومحفظتها. تبعتها إحدى خادماتها وهي تبكي: "لكن يا مليكتي... مليكتي...".

قالت أوليمبيا آمرةً: "عودي إلى الداخل، إلى غرفتك".

ناولها الإسكندر لجام جوادها، وسألها: "أين كليوباترا يا أمي؟ لا أستطيع أن أغادر من دون توديعها".

"أرسلت إحدى خادماتها لتقول لك إنها تنتظرك في الباحة المركزية لجناح النساء. لكن، ألا تدرك أن كل لحظةٍ نضيّعها قد تكون قاتلة؟".

"لن أتأخر يا أمي".

غطى رأسه بقبعة عباءته، وأسرع راكضاً تجاه شقيقته، رآها شاحبةً ومرتجفة، وكانت لا تزال ترتدي الثياب الفاخرة التي ارتدتها في حفلة الزفاف.

ما إن رأته كليوباترا حتى أحاطت رقبته بذراعيها وبدأت بالبكاء:

"لا تذهب! أرجوك لا تذهب، سأطلب منه أن يسامحك، سأركع أمامه... لن يستطيع أن يرفض ما أطلبه منه".

"أين هو الآن؟".

"نقلوه إلى جناحه".

" هل كان ثملاً جداً؟".

أومأت كليوباترا.

"إننا مضطران إلى المغادرة الآن، قبل أن يستعيد وعيه. لم يعد من مكـــان لي هنا الآن، كما أن والدتنا لا تستطيع البقاء في هذا القصر، سأكتب إليك إذا استطعت، أحبك يا شقيقتي الصغيرة".

انفجرت كليوباترا بالبكاء، وسالت الدموع غزيرةً على خدّيها، واضطر الإسكندر إلى أن ينسحب من عناقها.

صاحت الفتاة وراءه: "متى سأراك مجدداً؟".

أجاب الإسكندر: "عندما تشاء الأسياد، لكنك ستبقين في قلبـــي على الدوام!".

عاد مسرعاً إلى والدته التي كانت جاهزة ومنتظرة.

صـــاح بها: "هيا بنا!"، ثمّ تطلع نحوها بسرعة وصاح: "أمي، إنك جميلة، تبدين بمثل جمال الأمازون". هزّت أوليمبيا رأسها وقالت: "تبدو الأم جمـــيلة دائمـــاً في عينَي ولدها، لكن، شكراً لك على كل حال يا بـــنيّ". ثمّ نخـــست جـــوادها، فيما تمكّن الإسكندر بقفزةٍ رشيقة من الوصول إلى صهوة بوسيفالاس، ودفعه كي يلحق بها.

لم يسلكا الطرقات المكتظة بالمارة، بل سلكا في إحدى المراحل طـــريقاً جبلـــياً سبق للإسكندر أن سلكه مرات عدة عندما كان في ميـــزا. سارا مسافةً طويلة من دون أن تعترضهما أي مشاكل، وقبل حلول الظلام.

توقفا مرات عدة كي يريحا الحيوانين، ولكي يسقياهما، وذلك قبل وصـــولهما إلى غابـــة كبيرة تغطي إيورديا ووادي هالياكمون. دخلا كهفاً عند مدخله نبع ماءٍ فوار، وسمح الإسكندر للجوادين بالرعي بكل حـــرية في الخـــارج. وأســـرع بعـــد ذلك إلى الانشغال بإشعال النار مستخدماً عصوين وقوس.

شـــرح لهـــا: "علّمـــني أرســـطو أن الاحـــتكاك يـــولّد الحرارة".

"هل استفدت من تجربة مييزا؟".

"كانت سنوات رائعة. لكنّ تلك الحياة لا تناسب فتى مثلي". جمع بعـــض الأوراق اليابسة حول العصوين وبدأ بالنفخ عندما رأى الدخان يتصاعد.

بـــدأ لهـــبٌ خفـــيف بالظهور، وما لبث أن قويَ عندما أضاف الإسكندر إلى النار أوراقاً وبعض العصي.

عـــندما كـــبرت ألسنة اللهب وضع الإسكندر أعواداً أكبر من الخشب على النار، ثم نشر عباءته على الأرض قربها.

"خذي راحتك أمي، سأعد لك العشاء هذه الليلة".

جلـــست أوليمبيا، وراحت تحدّق مذهولة بتراقص ألسنة اللهب، وبهذا السكون الذي يخيّم على الغابة، بينما انشغل ابنها بفتح الحقائب، وتـــناول منها بعض قطع الخبز وراح يحمّصها فوق النار، ثمّ قطع بعد ذلك قطعة من الجبن بسكّينه، وناولها إياها.

بدأا يأكلان بصمت.

قالـــت أوليمبـــيا: "هذا أشهى عشاء تناولته منذ سنواتٍ عديدة، وفي هـــذا الموقع الذي هو أجمل من أي قصر. أشعر وكأنني عدت من جديد فتاةً صغيرة تجلس في جبالها التي نشأت فيها".

غـــرف الإسكندر كوباً من مياه النبع وقدّمه إليها: "لكنّ هذا لن يرضيك، لأنك سرعان ما ستشتاقين إلى السياسة، وإلى علاقاتك، وإلى دسائسك، ألا تعتقدين ذلك؟".

"يُحـــتمل ذلك. لكن، دعني أحلم الآن، إن آخر مرة نمنا فيها في الغـــرفة ذاتهـــا كانت عند بداية تعلمك المشي. وعندها، كان والدك يحبني".

جلسا هناك يتحدثان بهدوء ويستمعان إلى نسيمات المساء خلال مرورها بين أغصان السنديان مصدرة صوت حفيف، وإلى فرقعة النيران التي أوقداها في مكانهما المنعزل. وفي نهاية الأمر، استسلما إلى النوم بعد أن أنهكتهما أحداث يومهما الطويل.

كانـــت مشاعر الكآبة قد خيّمت عليهما، لأنهما أصبحا منفيين وهـــاربَين، ومشردَّين ومن دون أصدقاء. وامتعض كلاهما بمرارة نتيجة انفصالهما عن الرجل الذي كان قاسياً، وعنيفاً، ومستبداً، لكنه يعرف كيف يكسب محبة الناس أكثر من أي رجلٍ آخر.

فتح الإسكندر عينيه ليلاً بعد أن أيقظه ضجيج مبهم، وسرعان ما أدرك أن والدتـــه لم تعد إلى جانبه، تطلع حوله فرأى تحت ضوء القمر خـــيالاً وســـط الطـــريق المتعرج بين أشجار السنديان المعمرة. كانت أوليمبـــيا واقفةً أمام شجرةٍ ضخمة، وبدا أنها تتحدث مع شخصٍ ما، تحرّك بهدوء زاحفاً فوق أجمات الآشنة حتى أصبح قريباً منها إلى حدّ أنه سمـــع تمـــتماتها وهي تتحدث بلغة لا يعرفها، صمتت بعد ذلك وكأنها تلقت رداً، ثم ما لبثت أن تابعت الحديث مجدداً وراحت تهمس بأشياء غير مفهومة.

بقـــي الإسكندر كامناً في مكانه بعيداً عن الأنظار، وراح يراقبها مـــن وراء شـــجرة سنديان ضخمة، رآها بعد ذلك تنطلق فوق طريق

تتراءى فيه ظلال الأغصان المتطاولة التي تمتد تحت ضوء القمر الشفاف، تــبعها، لكـــنه بقي بعيداً عنها وحريصاً على ألا يُحدث أي ضجيج. تـــوقفت أوليمبـــيا أمام خرائب مزارٍ قديم حيث كانت بقايا التمثال الخـــشبـــي لسيدٍ مبجل بالكاد تُرى بسبب تقادم الزمن عليه، وتوالي العـــوامل الطبيعـــية. كان ذلك تمثالاً قديماً لديونيسيوس، سيد طقوس الغـــضب والنـــشوة، وكان مضاءً بعددٍ قليلٍ من المشاعل، الأمر الذي يظهر أن الزائرين ما زالوا يقصدون هذا المكان.

مـــشت أوليمبيا بتؤدة نحو التمثال، وكأنها كانت على وشك أن تبدأ برقصة ما. وضعت يدها على قاعدة التمثال، فظهر فجأة ناي من قصب، وكأن ذلك حدث بقدرة قادر، ثم بدأت بالعزف مطلقةً أنغاماً عمـــيقة وفاتنة، لكنّ اللحن احتوى على قدرٍ كبيرٍ من الغموض، طغى اللحن الفاتن على أصوات الغابة الليلية، وتسلَّل بعيداً عبر الأغصان التي كانت تتحرك قليلاً بفعل هبوب نسمات لطيفة.

مرّ بعض الوقت، وسرعان ما تناهت من الغابة أصوات موسيقى وكأنهـــا تـــرد على ناي الملكة. كان صوتاً صعُب تمييزه في البداية من أصـــوات حفـــيف أوراق الشجر، ثم بعد ذلك من أصوات العندليب، وذلـــك قـــبل أن يتحوّل في النهاية إلى صوتٍ أشدّ صفاءً ودقةً: كان سلـــسلة من النغمات، المكتومة والعميقة في البداية مثل خرير مياه النبع الموجود عند مدخل الكهف، ثم ما لبث أن أصبح أعلى وأشد صفاء.

صـــدرت الموسيقى من ناي آخر، أو ربما من نايات قصبية بدائية عـــدة، أما اللحن الذي عُزف فكان طويلاً ومشدوداً بحيث بدا، وكأن مصدره الرياح ذاتها.

وضـــعت أوليمبيا آلتها على قاعدة التمثال، ثم نـــزعت رداءها وبـــدأت بالرقص على إيقاع اللحن إلى أن ظهر رجال ونساء من أنحاء

الغابة. كانت وجوههم مغطاة بأقنعة تمثل رؤوس حيوانات، وهو الأمر الذي جعلهم يبدون مثل الساطير (أشباه الأسياد). بدأوا بنزع ثيابهم تدريجياً، وتمسكوا ببعضهم بعضاً، وراحوا يرقصون في البداية، ثم افترشوا الأرض حول التمثال مطلقين صرخات النشوة وأصوات تنم عن ممارسة وحشية للحميمية.

وقفت أوليمبيا فجأةً من دون حراك وسط هذه الفوضى من الأصوات والأشكال، وبدت مثل ذلك التمثال الخشبي الذي يمثّل ديونيسيوس، أو مثل سيدة ليلية مبجلة. تابع الرجال المقنعون الزحف على أيديهم وأقدامهم، مثل الحيوانات، تحت ضوء القمر، ثم بدأوا بالاقتراب منها.

شعر الإسكندر بالإثارة، لكنه كان منزعجاً في الوقت ذاته من المنظر الذي يشاهده، حتى إنه وضع يده على مقبض سيفه، لكنه جمُد في مكانه من فرط دهشته عندما رأى شيئاً على جذع الشجرة التي تفصله عن الأشخاص المتحلقين حول التمثال، خرجت أفعى كبيرة من مكانها تحت الأرض وراحت تنزلق نحو تمثال السيد المبجل، ثم ما لبثت أن لفّت نفسها حول ساقَي والدته.

لم تتحرك أوليمبيا، وشعرت بتصلب في أطرافها بينما راحت عيناها تحدقان بثبات إلى الفراغ. بدا وكأنها لم تسمع ولم ترَ شيئاً مما يجري، ظهرت أفعى أخرى من تحت الأرض، وما لبثت أن ظهرت أفعى ثالثة ورابعة. التفّت الأفاعي الأربع حول ساقَي الملكة.

رفعت كبرى الأفاعي، وهي التي ظهرت أولاً، نفسها فوق الأفاعي الأخرى وراحت تلتف حول جسم أوليمبيا إلى أن ارتفع رأسها فوق جسم الملكة.

تـــوقفت الموسيقى المسعورة على نحوٍ مفاجئ، وسرعان ما تراجع الأشخاص الأربعة إلى أطراف الباحة. بدا الأمر وكأنهم دُفعوا دفعاً إلى الوراء وارتعبوا من هذا الحدث الخارق. فتحت الأفعى بعد ذلك فكّيها إلى أقصى حدّ، وحركّت لسانها الرفيع ذا الشُعَب ثم مضت كي تصدر الصوت ذاته الذي صدَرَ عن ناي أوليمبيا. سمعت نغمة شجية، عميقة وحـــزينة ومرتعـــشة مـــثل صـــوت الريح التي تعصف وسط أشجار السنديان.

بدأت أنوار المشاعل بالانطفاء واحداً تلو الآخر، لكنّ الإسكندر رأى، تحـــت ضوء القمر، حراشف ذلك الحيوان الزاحف وهي تلتمع وســـط شـــبه الظلمة لتتلاشى وتختفي. تنهّد بعمق، ومسح حبيبات العـــرق الـــبارد التي تساقطت من جبهته، لكنه عندما نظر مجدداً نحو ذلـــك المزار المتداعي كانت الباحة خالية وهادئة تماماً، وكأنّ شيئاً لم يكن.

شـــعر فجـــأة بأحدهم يلمس كتفه، فالتفتَ بسرعة مستلاً سيفه بيده.

قالت أوليمبيا: "هذا أنا يا بنيّ". تطلعت نحوه والدهشة بادية على قـــسمات وجههـــا. "استيقظت لأكتشف أنك قد ذهبت، ماذا تفعل هنا؟".

مدّ الإسكندر يده نحوها، وكأنه غير مصدّقٍ ما يراه.

سألته الملكة مجدداً: "ما الذي تفعله هنا؟".

هزّ الإسكندر رأسه، وكأنه يحاول أن يوقظ نفسه من حلمٍ أو من كابـــوس، ونظـــر إلى عينَي أمه، ولاحظ أنهما أشد عمقاً وغموضاً مما كانتا عليه خلال الليل.

أجاب: "لا أفعل شيئاً، دعينا نعود".

وفي اليوم التالي، نهضا مع بداية تراقص أشعة الشمس فوق مياه النبع، وانطلقا مجدداً وبصمت، ناحية الغرب. بدا وكأنّ أياً منهما لا يجسر على الكلام.

التفت الإسكندر نحوها فجأةً وقال: "أمي... يروي الناس قصصاً غريبةً عنك".

سألت أوليمبيا من دون أن تلتفت نحوه: "أيّ قصص؟".

"إنهم يقولون... إنك تشاركين في طقوس سرّية لعبادة السيد المبجل ديونيسيوس، وفي احتفالاتٍ ليلية، وأنك تمتلكين قوى خارقة".

"وهل تصدّق كل هذه الأشياء؟".

"لا أعرف".

لم تردّ أوليمبيا، فتابعا المسير، وكان حصاناهما يسيران في خطواتٍ متناسقة، ولكن بصمت.

عاد الإسكندر للحديث مجدداً: "رأيتك الليلة الماضية".

"وماذا رأيت؟".

"رأيتك تدعين إلى حفلة عربدة بصوت الناي، ورأيتك تفتنين الأفاعي وتخرجينها من تحت سطح الأرض".

التفتت أوليمبيا، ونظرت نحوه فالتمعت عيناها مثل الضوء الذي التمع في عيون الأفاعي التي ظهرت في فسحة الأرض.

"إنك تجسّد أحلامي هناك في الغابة، وأنت تبعتَ روحي التي هي عبارة عن هيولى فارغة، أي مثل خيالات الموتى، حدث ذلك لأنك جزء مني، ولأنك تلقيت نعمةً من قوة مبجلة".

قال الإسكندر محتجاً: "لم يكن ذلك حلماً، إنني متأكد من الأشياء التي رأيتها".

"تــوجد أماكن وأوقات محددة يختلط فيها الحلم بالواقع. وهناك أشـــخاصٌ يستطيعون تجاوز قيود الواقع كي يتحركوا إلى تلك المجالات المــسكونة بالألغـــاز. ســتتخلى عني ذات يوم، وسأضطر إلى مغادرة جـــسدي كي أطير خلال الليل وأصل إليك، وأسمع صوتك، وصوت أنفاسك، ولكي أكون قربك عندما تحتاج إليّ، وفي أي وقتٍ تحين فيه تلك اللحظة".

لم يقـــل أي مـــنهما أي كلمة أخرى إلى أن ارتفعت الشمس في كـــبد الـــسماء، وكانا قد وصلا إلى الطريق المؤدي إلى بيرويا، فالتقيا هيفاستيون هناك، فترجل الإسكندر وركض نحو صديقه.

سأل الإسكندر: "كيف تمكنتَ من إيجادنا؟".

"يترك بوسيفالاس آثاراً واضحة تشبه آثار ثورٍ بري، لم يكن الأمر صعباً".

"وهل هناك أخبار؟".

"لا، ليـــست لدي أمور كثيرة أخبرك عنها، تركت المدينة بعد وقتٍ قـــصير من مغادرتك لها، أعتقد أن الملك كان ثملاً إلى درجة أنه لم يتمكن من الوقوف على قدميه، أعتقد أنهم غسلوه قبل نقله إلى سريره".

"أتعتقد أنه سيرسل جنوداً للبحث عنا؟".

"ولماذا يفعل ذلك؟".

"لأنه أراد أن يقتلني".

"كـــان ثمـــلاً. أراهـــن أنـــه ســـيقول مـــا إن يـــستيقظ *أين الإسكندر؟*".

"لست متأكداً إلى هذا الحد، لأننا تبادلنا بعض العبارات السيئة، وسيصعب علينا نسيانها، وحتى إذا افترضنا أن والدي على استعداد لأن ينسى كل شيء، فإن أحدهم سيتبرع بتذكيره بها".

"إنه أمرٌ ممكن على وجه التأكيد".

"هل أمرتَ إيومينيس بالاهتمام بالجرو؟".

"هذا أول شيء فعلته".

"مسكين بيريتاس، سيفتقدني، وسيعتقد أنني تخليت عنه".

"لـــن يكون الوحيد الذي سيفتقدك أيها الإسكندر، فأنا مثلاً، لا أطيق فكرة الابتعاد عنك، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى اتّخاذ قرار المجيء معك".

دفـــع الاثـــنان جـــواديهما كي يلحقا بأوليمبيا التي كانت تسير بجوادها وحيدة.

قال هيفاستيون: "مرحباً يا مليكتي".

أجابـــت أوليمبيا: "مرحباً أيها الشاب". وبعد ذلك، تابع الثلاثة رحلتهم معاً.

*

"أين الإسكندر؟".

كان فيليب قد خرج لتوّه من غرفة الحمّام بينما انشغلت النسوة بتدليك كتفيه وظهره بمنشفة من الكتّان.

فتقدّم منه مساعده وقال: "إنه ليس هنا يا مولاي".

"أعرف أنه ليس موجوداً هنا، اذهب وقل له أن يأتي حالاً".

"إن ما أعنيه، يا مولاي، هو أنه غادر القصر".

"غادر؟ غادر، إلى أين؟".

صـــرخ فيلـــيب: "آه!" رمى بالمنشفة إلى الأرض، وراح يتجوّل عارياً في أنحاء الغرفة. "أريده هنا على الفور! أريده أن يعتذر عن الأمور الـــتي قالهـــا! جعلـــني أبدو كالأحمق أمام ضيوفي وأمام زوجتي، جده وأحـــضِره على الفور! سألكُمُ وجهه حتى يسيل منه الدم! سأفقده كل

شعورٍ بالحياة! أريد أن..." وقف مساعده من دون حراك، وبصمت، فقال له: "بحق زيوس، هل تصغي إليّ؟".

"إنني أصغي يا مولاي، لكنّ الإسكندر غادر فور خروجه من قاعة الطعام، وكنت أنتَ... تعاني من صعوبة شديدة بحيث لم تتمكن من القيام بأيّ شيء في هذا الشأن...".

راح فيليب يصرخ في وجهه بينما التفت كي يواجهه: "أتحاول أن تقول لي إنني كنت ثملاً جداً بحيث لم أتمكّن من إصدار الأوامر، هل هذا صحيح؟".

"في الحقيقة يا مولاي لم تُصدر أيّ أوامر و...".

"دع الملكة تأتي إليّ! وعلى الفور!".

سأل المساعد بعد أن تحيّر في ما يمكنه قوله وفعله: "أيهما يا مولاي؟".

"أيهما؟ أيها الغبي... ماذا يُفترض بي أن أفعل مع تلك الفتاة الصغيرة؟ أريد أن تحضر إليّ الملكة، وعلى الفور!".

"يا مولاي، غادرت أوليمبيا مع الإسكندر".

وصل صراخ الملك بعيداً حتى منزل الحرس الموجود في الجهة المقابلة من الباحة، وشوهد مساعد الملك بعد وقتٍ قصير وهو ينزل الدرج بسرعة، ويوزع الأوامر ذات اليسار وذات اليمين، وفي الوسط. تراكض كل الأشخاص الموجودين وسعى كل واحد منهم للقفز فوق صهوة جواده، وتسابقوا في كل الاتجاهات.

غادر الضيوف الأجانب في ذلك اليوم برفقة مرافقيهم الرسميين، واضطر فيليب إلى استقبالهم واحداً تلو الآخر وشكرهم على الهدايا الجميلة التي أحضروها معهم. استغرقت هذه المهمة الصباح بأكمله، وامتدت حتى فترة ما بعد الظهر.

وحين حلّ المساء، شعر الملك أنه مريض، ومنهك ومجهد، ليس فقط بسبب أسبوع الاحتفالات والمآدب المتواصلة، بل لأنه شعر، وللمرة الأولى في حياته أنه وحيد مثل كلب تخلى عنه صاحبه.

طلب الملك من يوريديس أن تنام، أما هو فصعد إلى سطح القصر، وبقي لفترةٍ طويلة يذرع الشرفة الكبيرة جيئةً وذهاباً تحت ضوء القمر، وسمع في هذه الأثناء صوت نباحٍ متواصل يتناهى إلى سمعه من الجناح الغربي للقصر، وسرعان ما تحوّل هذا النباح إلى عويلٍ يلوي القلوب، بدا أنّ هذا النباح سيستمر إلى الأبد، لكنه سرعان ما تحوّل إلى أنينٍ حزين.

وكان بيريتاس قد أدرك أيضاً أن الإسكندر قد ذهب، لذلك توجّه بنباحه اليائس إلى القمر.

30

استغرقت عملية وصول الفارّين الثلاثة إلى حدود إيبيروس أسبوعاً كاملاً، وأسرعوا في إرسال خبر وصولهم إلى الملك الإسكندر.

كـــان قد سبق للملك أن علم بالأحداث التي وقعت في مقدونيا من مخبريه الذين استخدموا أكثر من نظامٍ سريع للاتصالات، و لم يقلقوا من إمكانية رؤيتهم في الطريق ما بين بيلا وإيبيروس.

توجّه الملك إليهم كي يستقبلهم شخصياً، فعانق شقيقته الكبرى وابن أخته بكل شوق، وذلك قبل معانقة هيفاستيون الذي تعرّف عليه خلال الفترة التي أمضاها في بلاط قصر بيلا.

في تلـــك الليلة، نام الجميع في مسكنٍ يُستخدم للصيد، ثم انطلقوا مجـــدداً في اليوم التالي مع مرافقيهم نحو المقرّ الملكي في بوثروتوم، والتي تـــبعد مـــسيرة بضعة أيام وكانت تلك المدينة تقع على شاطئ البحر، وتـــشكّل نقطة محورية لكل الأساطير المتعلقة بمملكة إيبيروس الصغيرة. تروي الأسطورة أن بيروس، ابن آخيل، قد نـــزل هناك، وأحضر معه أرملـــة هيكتور، وهيلينوس ضالع طروادة، وذلك بصفتهما عبدين من عبـــيد أندروماك. اتخذ بيروس من أندروماك محظية له، لكنه أعطاها في وقـــتٍ لاحق إلى هيلينوس. ونتج عن هذين الزّواجين أولاد أسّسوا في النهاية السلالة الملكية التي لا تزال تحكم هذه البلاد.

يُعتـــبر الإسكندر المقدوني، من جهة أمه، سليل أحد أعظم أبطال الإغـــريق الذي تحدّر من أولاد بريام حاكم آسيا. وتغنى الشعراء بهذه الأســـاطير التي كانت تسلي الملك وضيوفه الجدد في أمسياتٍ متتالية،

وتمـــتّع الإسكندر وأمه طوال أيام عدة، بتسلية خفّفت عنهما محنتهما، لكنّ ملك إيبيروس أدرك أن هدوءاً كهذا لن يستمر طويلاً، وأدرك أن الأمر لن يتأخر حتى يأتي مَن يسأل عنهما.

قـــدم أول الزائرين في فجر أحد الأيام بينما كان الجميع نياماً، كـــان فارساً تابعاً لفرقة الحرس الشخصي لفيليب. حين وصل كان الـــوحل قد غطّاه من رأسه وحتى أخمص قدميه لأن المطر كان يهطل فوق الجبال.

رفـــض الـــرجل عرض الاستحمام بمياه دافئة، لكنه قال: "الملك غاضـــب جـــداً. توقّع الملك أن يمثل الإسكندر أمامه بعد يوم الزفاف مباشرة كي يعتذر عن سلوكه، وعن الكلمات القاسية التي استخدمها للسخرية منه أمام ضيوفه وعروسه".

"أخبرني ابن أختي أن الملك هدّده بسيفه الذي شهره، وأن آتالوس نعته بالابن غير الشرعي، يتعيّن على فيليب أن يفهم أن دماءه تجري في عروق ابنه، ولذلك فإنه يتميز بالاعتزاز ذاته، ويمتلك قدراً من الكرامة يساوي ما يمتلكه هو، كما أن شخصيتيهما متشابهتان جداً".

"لا يقـــبل الملك أيّ أعذار، وهو يريد أن يمثل الإسكندر أمامه في بيلا كي يطلب السماح منه".

"تدلني معرفتي بالإسكندر على أنه لن يفعل ذلك".

"في هذه الحالة، سيتعيّن عليه أن يتحمل العواقب".

كـــان نوم الإسكندر خفيفاً فسمع وقع عدو حوافر الجواد على الطريق المرصوف بالحجارة. لذا، نهض من سريره، ووضع عباءته على كتفـــيه، وراح يصغي إلى ما يقوله مبعوث أبيه، ولكن من دون أن يراه أحد.

سأل الملك الشاب: "وما هي هذه العواقب بالضبط؟".

"سيتم إبعاد جميع أصدقائه إلى المنفى بصفتهم خونة أو متآمرين باستثناء إيومينيس، مساعد فيليب، وفيلوتاس ابن القائد بارمينيون".

"سأُعلم ابن شقيقتي وأنقل إليك جوابه".

"سأنتظر عودتك ثم أنطلق مجدداً على الفور".

"لكن، ألا تريد أن تأكل وتغتسل؟ إننا نفتخر كثيراً بالترحيب بضيوفنا".

قال المبعوث المقدوني شارحاً وضعه: "ليس لديّ متسعٌ من الوقت، أعاقني الطقس السيئ بما يكفي".

غادر الملك قاعة الاستقبال، فالتقى في الممر ابن شقيقته وسميّه وجهاً لوجه.

"أسمعتَ كل الكلام؟".

أومأ الإسكندر.

"لن أذهب إليه زاحفاً، لأن آتالوس أهانني علناً، وكان يجدر بوالدي أن يتدخل كي يحفظ كرامتي، لكنه تقدّم نحوي شاهراً سيفه".

*

"لكنّ الثمن الذي سيدفعه أصدقاؤك سيكون غالياً جداً".

"أعرف ذلك ويؤلمني جداً. لكن، لا خيار لدي".

"هل هذه هي كلمتك الأخيرة؟".

"أجل".

عانقه الملك، وقال له: "كنت سأفعل ذلك بالضبط لو كنت مكانك، سأُبلغ المبعوث بذلك".

"كلا... انتظر سأخبره بنفسي".

ثمّ وضع عباءته عليه بشكلٍ محكم، ودخل قاعة الاستقبال حافي القدمين. صُدم المبعوث قليلاً للوهلة الأولى، ثم ما لبث أن انحنى احتراماً.

"لتحرسك الأسياد أيها الإسكندر".

"وأنت أيضاً يا صديقي الطيب، سأعطيك ردّي على الملك والدي، أخبره أن الإسكندر لا يستطيع استجداء السماح منه قبل أن يتلقى اعتذاراً من آتالوس، وتأكيداً قوياً منه أن الملكة أوليمبيا لن تتعرض لمثل هذا الإذلال، وأنها ستكون موضع احترامٍ كبير يتناسب مع مقامها بوصفها ملكة مقدونيا".

"هل هذا كل شيء؟".

"هذا كل شيء".

انحنى المبعوث، وما لبث أن توجّه نحو الباب.

"أخبِره... أخبِره أن...".

"أُخبره ماذا يا مولاي؟".

"أخبِره أن الإسكندر يطلب منه أن يعتني بنفسه جيداً".

"سأفعل ذلك".

تناهى إلى أسماع الحاضرين بعد وقت قصير صوت صهيل جواد، وأصوات عدوٍ ما لبثت أن تلاشت في البعيد".

سمع الإسكندر صوت الملك من خلفه، وهو يقول: "لم يأخذ قسطاً من الراحة، كما لم يتناول شيئاً من الطعام، لا بد وأن فيليب مستعجل جداً للحصول على ردّك. تعالَ، سآمر الخدم بإحضار طعام الفطور لنا".

وتوجّها إلى غرفةٍ في الجناح الملكي، حيث حُضّرت طاولتان مع مقعدين مزودين بأذرع. رأى الإسكندر خبزاً طازجاً، وقطعاً من سمك الأسقمري وسمك أبو سيف مشوية على أسياخ.

قال الإسكندر: "عرّضتك لموقفٍ صعب، لأن أبي هو الذي ثبّتك على العرش".

"هذا صحيح، لكنني كبرت منذ ذلك الوقت، و لم أعد ولداً، لأنني أصبحت الرجل الذي يسعى إلى تثبيت مصالحه في هذه المنطقة. وإنني أؤكد لك أن هذه ليس بالمسألة السهلة، و لم يعد من السهل السيطرة على سكان إيليريا، أما الشواطئ فهي تعجّ بالقراصنة، كما استلمت تقارير عن قدوم جماعات من جهة الشمال على طول نهر إستر، إن والدك يحتاج إليّ أيضاً. لكن، يتحتّم عليّ أن أحافظ على كرامة شقيقتي أوليمبيا".

تناول الإسكندر بعض السمك، وشرب القليل من الشراب الذي كان خفيفاً ومن صنع الجزر الأيونية. اقترب من النافذة، وتطلع نحو البحر بينما تابع مضغ قطعة خبز.

سأل الإسكندر: "أين تقع إيثاكا؟".

أشار الملك نحو الجنوب وقال: "تقع جزيرة يوليسيس هناك، وهي على مسافة يوم واحد من الإبحار في الاتجاه الجنوبي. أما الجزيرة الموجودة قبالتنا فتدعى كورسيرا، وهي جزيرة الفاشيين، حيث نزل يوليسيس ضيفاً على قصر ألكينوس".

"وهل رأيتها؟".

"أتعني إيثاكا؟ كلا. لكن، لا شيء فيها يستحق الرؤية سوى الماعز والحيوانات المقززة".

ربّما كان ذلك صحيحاً، لكنني مع ذلك أودّ رؤيتها، سأرسو فيها عند المساء، أي عندما يغيّر البحر لونه وتصبح طرقات البر والبحر داكنة، أريد أن أحسّ بالمشاعر ذاتها التي أحسّ بها يوليسيس عندما رآها للمرة الثانية بعد ابتعاده عنها لفترة طويلة. أستطيع... إنني متأكد من قدرتي على أن أعيش المشاعر ذاتها".

"يمكنني إذا أردتَ أن آمر أشخاصاً كي ينقلوك إلى هناك، فالمكان ليس بعيداً كما قلت لك".

لم يُظهر الإسكندر أنه سمع هذا الكلام فحوّل نظره ناحية الغرب، حيث بدأت قمم كورسيرا بالتحول إلى اللون الزهري بفعل أشعة الشمس الصاعدة فوق جبال إيبيروس الواقعة شرق الجزيرة.

"تقع إيطاليا وراء تلك الجبال وخلف ذلك البحر، أليس كذلك؟".

بدا أن وجه الملك قد تهلّل فجأة. "أجل أيها الإسكندر. تلك هي إيطاليا وهناك هيلاس العظيمة. إن المدن التي أسّسها الإغريق مدن غنية وقوية جداً، ومنها تارانت، لوكري، كروتون، ثوري، ريجيوم، ومدن كثيرة أخرى، وتوجد كذلك غابات شاسعة وقطعان ماشية فيها الآلاف والآلاف من الرؤوس، كما توجد هناك حقول قمح على مدّ النظر، بالإضافة إلى الجبال المغطاة بالثلج على مدار السنة، والتي تنفجر فجأةً بألسنة اللهب والنيران وتجعل الأرض تهتز من شدتها.

وتقع صقلية خلف إيطاليا، وهي أخصب الأراضي المعروفة وأكثرها جمالاً، وهناك تقع سيراكيوزا وأغريجنتوم، وجيلا، وسيلينوس، وتقع خلفها سردينيا ثم إسبانيا التي تُعد أغنى بلدٍ في العالم بموجوداتها التي لا تنضب من مناجم الفضة، والحديد، والقصدير".

قال الإسكندر: "راودني حلمٌ الليلة الماضية".

سأله الملك: "وبماذا حلمت؟".

"حلمت أننا معاً، أنا وأنت في قمة جبل إيماروس، وهو أعلى جبل في مملكتك، على صهوتي حصانينا، كنت أنا على صهوة بوسيفالاس، وأنت على صهوة كيراونوس، حصانك الذي تستخدمه في أوقات القتال، كنا وسط حقلٍ تغمره الأضواء الساطعة. لأنه في ذلك الوقت، كانت إحدى الشمسين تغيب فوق البحر من جهة الغرب، بينما شمسٌ أخرى ترتفع من جهة الشرق. رأيت شمسين... أيمكنك أن تتخيّل ذلك؟ كان ذلك مشهداً مؤثراً للغاية.

بعد ذلك، ودّعنا بعضنا لأنك قرّرتَ أن تذهب إلى مكان الشمس الغاربـــة، بينما اخترتُ الذهاب إلى موقع الشمس الساطعة، أليس ذلك شيئاً مدهشاً؟ هناك إسكندر للشمس الساطعة، وإسكندر آخر للشمس الغاربة! نخس كل منا حصانه قبل أن يفترق متجهاً نحو كرته النارية التي اخـــتارها. وكـــنّا قد قطعنا قبل ذلك عهداً جدياً بألاّ نلتقي مجدداً قبل إكمال رحلتينا، أما المكان الذي اخترناه للقائنا فكان...".

قـــال الملك متلهفاً: "أين كان ذلك المكان؟ أين هو المكان الذي اخترناه للقائنا؟".

"آه! لا أتذكر المكان".

31

لم يتأخر الإسكندر في إدراك أن مكوثه في بوثروتوم من شأنه أن يتسبب بعواقب لا تُحتمل، سواءً أكان ذلك بالنسبة إليه أم بالنسبة إلى خاله، إسكندر إيبيروس. فلقد استمرّ فيليب في إرسال طلبات يلحّ فيها على عودة الإسكندر إلى بيلا كي يُصلح أخطاءه، ويطلب السماح أمام أهل البلاط جميعاً.

قرّر الأمير الشاب أن يغادر المكان.

سأل الملك: "لكن، إلى أين ستذهب؟".

"شمالاً، إلى حيث لا يستطيع أن يجدني".

"لا يمكنك أن تذهب إلى هناك، تكتظ المنطقة بقبائل متوحشة وشبه بدوية، وهي تنشغل بحروب دائمة مع بعضها، يُضاف إلى ذلك أن الطقس السيئ على وشك أن يبدأ. يتساقط الثلج فوق تلك الجبال بصورة دائمة كما تعلم، هل سبق أن عشت وسط الأجواء المثلجة؟ إنها عدو مخيف".

"لست خائفاً".

"إننا نعرف ذلك جميعاً".

"إذاً، سأذهب، لا تقلق بشأني".

"لن أدعك تذهب إلا إذا أعطيتني تفاصيل الطرقات التي ستسلكها، أريد أن أعرف أين أجدك في حال احتجت إليك".

"درستُ خرائطك جيداً، سأتوجه أولاً إلى لايكنيدوس التي تقع إلى شرق البحيرة، ومن هناك سأتوجه إلى داخل البلاد، وسأسير بمحاذاة وادي دريلون".

"متى تنوي الانطلاق؟".

"غداً، كما أن هيفاستيون سيرافقني".

"كـــلا، يتعـــيّن عليك أن تبقى هنا ليومين إضافيين على الأقل، ويجـــب أن أحـــضّر كل الأشياء التي تحتاج إليها لرحلتك، سأعطيك حـــصاناً كي يحمل أغراضك، يمكنك أن تبيعه عندما ينفد طعامك، ثم تتابع جولتك".

قال الإسكندر: "شكراً لك".

"سأعطيك رسالتين إلى زعماء قبائل إيليريا في خليدونيا وداردانيا، يُحـــتمل أن يفـــيدوك في شيء ما، لدي الكثير من الأصدقاء في تلك المناطق".

"آمل أن أكافئك ذات يوم على ما تفعله لأجلي".

"لا حاجة بك إلى أن تقول ذلك، أريدك أن تُبقي معنوياتك عالية".

أســـرع الملك في ذلك اليوم إلى كتابة رسالة، وأعطاها إلى أسرع مبعوثيه، وضمّنها تعليمات، وأمر بتسليمها إلى كاليستين في بيلا.

*

توجّه الإسكندر كي يودّع والدته في صباح اليوم الذي غادر فيه، ضـــمته إليها بشدة، وراحت تبكي وتذرف دموعاً سخية، كما صبّت اللعنات على فيليب من أعماق قلبها.

توسّل الإسكندر إليها بصوتٍ مكتومٍ يملأه الحزن: "لا تقولي هذه الأشياء يا أمي".

صاحت أوليمبيا بصوتٍ طافحٍ بالألم والحزن: "لماذا؟ لقد أهانني، وجـــرحني، كما أجبرني على الانتقال إلى المنفى، إنه يضطرك الآن إلى الفرار، وإلى القفز إلى المجهول في أوج فصل الشتاء، أتمنى أن يموت أبشع ميتة، وأتمنى لو يتعذب، كما أتعذّب أنا الآن!".

نظر الإسكندر نحوها، فشعر بقشعريرةٍ باردة تسري في شرايينه. فإذا كان يخاف من شيء فهو يخاف من حقد كهذا، وهو حقد قوي يذكّـره بـبطلة إحدى مسرحيات المأساة التي رآها مراتٍ عديدة في المـسرح وهي كليتيمنيسترا، التي لوّحت بالفأس التي استخدمتها في قـتل زوجهـا آغاممنون، أو ميديا التي قتلت أولادها نكايةً بزوجها جاسـون، وذلـك من أجل إيذائه من خلال قتل الأشخاص الذين يحبهم.

في تلـك اللحظة، خطرت في ذهنه قصة أخرى من تلك القصص التي شاعت حول الملكة في بيلا. فقد قيل وقتها إنها تناولت لحماً بشرياً خـلال أحد الاحتفالات الأولية التي أقامتها طائفة أورفيوس. تطلع في عينـيها الواسعتين اللتين ملأهما الظلمة، والرغبة القاتلة في الانتقام، إلى درجة أنه تأكد من قدرتهما على كل شيء.

كـرّر الإسكندر قوله: "لا تلعنيه يا أمي، يُحتمل أنه من المفيد لي أن أعاني قليلاً من الوحدة والعيش في المنفى، والبرد والجوع، إنه الدرس الـذي لم أتعلّمـه من قبل، والدرس الذي لم يسبق له أن علّمني إياه، يُحـتمل أنه يريدني أن أتعلّم ذلك أيضاً، ولعلّه الدرس الأخير الذي لا يستطيع أحد غيره أن يعطيني إياه".

تخلّص من عناقها بصعوبة، ثم قفز على صهوة بوسيفالاس، ونخس قدميه بقوة على جانبَيه.

وقـف بوسيفالاس على قائمتيه الخلفيتين وصهل، ثم دفع حافريه الأمامـيين في الهـواء، وقفـز نافـثاً البخار الحار من منخريه، ورفع هيفاسـتيون ذراعـه تحيةً له، وما لبث أن نخس جواده بدوره بعد أن امتطـى صـهوته، وأمـسك بلجـام جواد ثالثٍ خلال لحاقه بجواد الإسكندر.

وقفت أوليمبيا هناك تراقبهما وهما يغيبان عن نظرها، بينما اغرورقت عيناها بالدموع، ولم يطل بها الأمر حتى غاب كل شيء عن نظرها فيما عدا الطريق الشمالي الخالي.

*

وصلت رسالة ملك إيبيروس إلى كاليستين في بيلا بعد مرور أيامٍ قليلة. فتح ابن أخت أرسطو الرسالة بتلهفٍ، وبدأ بقراءتها.

من الإسكندر، ملك المولوشيين، تحية إلى كاليستين!
آمل أن تصلك رسالتي هذه وأنت بصحةٍ وعافية، إن ابن أختي الإسكندر يعيش هنا في إيبيروس بهدوء بعيداً عن متاعب الحياة العسكرية، والضغوطات اليومية لإدارة الحكومة، إنه يمضي أيامه في القراءة، وهو يقرأ أعمال يوريبيديس على وجه الخصوص، وهوميروس بالطبع، وذلك من النسخة الموضوعة في صندوق، والتي تسلّمها من أرسطو خالك ومعلّمه، إنه يسلي نفسه في بعض الأحيان بعزف القيثارة.
شارك الإسكندر في بعض الأحيان في رحلات الصيد...

فوجئ كاليستين فور فراغه من قراءة الرسالة، وأكثر ما فاجأه هو أنها عادية وغير ذات قيمة. إذ لم تتضمن الرسالة أي شيء ذي قيمة، أو أي أمرٍ يحمل أهمية، بالإضافة إلى خلوّها من أي شيء شخصي، بدت الرسالة وكأنها تمرين لا طائل منه. لكن، لماذا؟

شعر كاليستين بخيبة أملٍ شديدة، فوضع ورقة البردى على طاولته، وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يحاول فهم ماذا يجول في خلد ملك إيبيروس. وقع نظره فجأةً على طرف الورقة، فلاحظ أن الورقة مقطعة على طول أطرافها، تطلع بتركيز أكثر فرأى أن مقصاً قد استُخدم لتقطيع أطراف الورقة عمداً.

ضرب جبهته بباطن كفه الأيسر وقال: "لماذا لم أفكر بالأمر من قبل! إنها شيفرة المضلّع المتقاطع".

كانـــت هـــذه هـــي الشيفرة التي علّمها أرسطو إلى الإسكندر إيـــبيروس، ظناً منه أنها قد تفيده يوماً ما إذا قاد هذا الملك الشاب حملة عسكرية بنفسه في يوم من الأيام.

أحـــضر مسطرةً ومثلثاً وبدأ بتوصيل أماكن القطع بالتوالي، وبعد ذلك عمل على توصيل نقاط التقاطع، تتّبع بعد ذلك الخطوط المتعامدة علـــى كـــل جهةٍ من جهات المضلّع الداخلي، فحصل بعد ذلك على تقاطعات إضافية.

ركّـــزت كـــل نقطـــة تقاطع على كلمة واحدة في النص، قام كاليـــستين بإعادة كتابة هذه الكلمات متتبعاً تتالي أرقامٍ سبق لأرسطو أن علّمه إياها، كانت هذه طريقة مبتكرة لإرسال رسائل سرية.

وأحـــرق الرسالة بعد أن انتهى من كتابة الكلمات ثم أسرع إلى إيومينـــيس. وجد المساعد غارقاً حتى أذنيه في الأعمال المكتبية، واحتساب الضرائب وتوقع النفقات العائدة لتجهيز أربع كتائب من الفالانج.

همس في أذن إيومينيس شيئاً قبل أن يضيف: "أريد أن أسألك شيئاً".

رفع إيومينيس رأسه عن الأوراق: "غادرا منذ عشرة أيام".

"أجل، لكن إلى أين ذهبا؟".

"لا أعرف".

"أنت تعرف جيداً أين هما".

"ومن يسأل؟".

"أنا".

"في هذه الحال أنا لا أعرف".

اقترب كاليستين أكثر، وهمس مجدداً بشيء ما في أذن إيومينيس، ثم أضاف: "أتستطيع أن توصل رسالة إليهما؟".

"كم تعطيني من الوقت؟".

"أمنحك يومين كأقصى حدّ".

"مستحيل".

"إذاً، سأفعل ذلك بنفسي".

هزّ إيومينيس رأسه، وقال: "هيا إذاً، أعطِني إياها، أتعتقد أنه يُمكن للمرء أن يقوم بمهمةٍ كهذه؟".

*

شقّ الإسكندر وهيفاستيون طريقهما إلى أعالي جبال أرغرينيان، وكانت طبقة رقيقة من الثلج تغطي قممها، ثم ما لبثا أن هبطا نحو وادي نهر أووس الذي كان ملتمعاً مثل شريطٍ مذهّب نحو أعماق السفوح الخضراء. بدأت هذه السفوح التي تغطيها الغابات بتغيير ألوانها مع اقتراب فصل الخريف، بينما طارت أسراب طيور الكركي عبر السماء صارخةً بأصواتها بعد أن تركت أعشاشها، واستعدّت للانطلاق في رحلتها الطويلة نحو بلاد الأقزام.

سارا في وادي أووس لمدة يومين، وتبعا النهر في مجراه شمالاً حتى التقائه نهر أبسوس. تبعا أعلى النهر، وهكذا تركا وراءهما مملكة الإسكندر إيبيروس ودخلا منطقة إيليريا.

كان سكان تلك البلاد يعيشون موزّعين على قرى صغيرة محصنة بجدران حجرية صلبة، ويعتاشون من تربية الماشية، ويعتمدون أحياناً على السلب. وصل الإسكندر وهيفاستيون متحضّرين جيداً، لأنهما ارتديا سروالين بربريين، وعباءتين صوفيتين خشنتين، لم تشكّل ملابسهما إغراءً كبيراً للأعين المترقبة، لكنها كانت مناسبة للطقس البارد، كما أنها مألوفة للناس الذين يعيشون هناك، أي أنها لم تثر انتباههم.

بدأ الثلج بالتساقط، كما انخفضت درجة الحرارة كثيراً عندما بدأا في المسير صعوداً نحو سلاسل الجبال الداخلية، فأطلقت الجياد سحباً من

البخار من مناخيرها، كما جهدت كي لا تتعثر في أثناء صعودها الطريق الوعر والمنحدر. واضطر الإسكندر وهيفاستيون إلى الترجّل والمتابعة سيراً على الأقدام، وراحا يحثّان الجياد صعوداً.

كانا يصلان أحياناً إلى نقاط عالية في الطرقات الجبلية، وكانا يلتفتان خلفهما فيشاهدان المساحاتً الشاسعة المغطاة بالثلج الأبيض الذي لا يحمل أيّ علامات غير آثار أقدامهما، فيشعران بقشعريرة في جسديهما، وهي القشعريرة التي لم يسببها البرد وحده.

لم يجدا في أثناء الليل ملاذاً لهما يسمح بإشعال النيران كي يجففا ثيابهما الرطبة، فنشرا عباءتيهما وارتاحا لفترة، كانا يجلسان في بعض الأحيان أمام الأنوار المنعكسة على رقائق الثلج البيضاء المتراقصة قبل وصولها إلى الأرض كي يتأملا قبل استسلامهما للنوم. وكانا يصغيان بشرود إلى أصوات الذئاب التي تتردد عبر الأودية الخالية.

كانا مجرد شابين خارجين لتوهما من فترة المراهقة، ولذا، فإن لحظات كهذه كانت تشعرهما بحزن عميق ومخيف، عمدا في بعض الأحيان إلى تغطية أكتافهما بعباءةٍ واحدة، وإلى التعانق في الظلام، تذكّرا طفولتيهما وسط هذه السهول الشاسعة المغطاة بالثلوج، والليالي التي كان يقصد فيها أحدهما سرير صديقه بعد أن يكون قد ارتعب نتيجة كابوس، أو نتيجة سماعه نواحاً صادراً عن أحد السجناء لدى تعذيبه.

خيّم عليهما الظلام الذي ترافق مع البرد القارس، بالإضافة إلى تفكيرهما في المستقبل اليائس الذي ينتظرهما.

أعادهما ضوء الفجر الأزرق والبارد إلى واقعهما، كما أن أنياب الجوع دفعتهما إلى الانطلاق للبحث عن طعام.

عثرا على آثار بعض الحيوانات فوق الثلج فمضيا كي يتفقدا المصائد التي سبق لهما أن نصباها، ولاحظا أنهما تمكّنا من الإمساك

بطريدتين: أرنب، وقنبرة جبلية، فالتهماهما وهما ساخنتان بعد أن شربا دماءهما أولاً. واضطرا في أحيانٍ أخرى للرضوخ إلى واقع عدم صيدهما أي شـــيء، والقبول بالجوع الذي ينهشهما، بالإضافة إلى البرد القارس الذي يخيّم على هذه البلاد غير المضيافة. وعانت الجياد كذلك من هذه المحـــنة، واكـــتفت بتناول العشب القديم الذي تمكّنت من إيجاده نتيجة قشطها الثلج بحوافرها.

وبعـــد أيـــامٍ وأيـــامٍ من التقدم الصعب، ومن التعب نتيجة البرد والجـــوع، شاهدا أخيراً السطح المتجمد لبحيرة لايكنيدوس وقد التمع أمامهما مثل المرآة نتيجة الضوء الشاحب المنبعث من الشمس الشتائية. فـــتقدّما سيراً على الأقدام بمحاذاة الشاطئ الشمالي للبحيرة، وأملا أن يـــصلا إلى القـــرية الـــتي تحمل الاسم ذاته قبل حلول الظلام، فلعلّهما سيتمكّنان من تمضية الليل داخل أحد المنازل بحيث يستمتعان بالجلوس قبالة نارٍ ملتهبة.

ســـأل الإســـكندر صديقه: "أترى ذلك الدخان الذي يلوح في الأفـــق؟ كنت محقاً... لا بد من جود قرية هناك، سنجد هناك حشيشاً للجياد، وطعاماً وفراشاً من القش لنا".

أجـــاب هيفاســـتيون: "يصعب عليّ تصديق ذلك، لا بد أنني في حلم، أتصدّق فعلاً أننا سنحصل على هذه الأشياء؟".

"آه نعـــم، حتى إننا قد نجد نساء كذلك. سمعت والدي يقول ذات مرة إن برابرة الداخل يقدمون نساءً إلى الغرباء علامةً على حسن الضيافة".

بدأ الثلج يتساقط من جديد، وما لبث أن تراكم بحيث إن الجياد بـــدأت تـــشق طريقها بصعوبة من خلاله، فاخترق الهواء البارد ثيابهما ووصل إلى عظمهما. وبشكل مفاجئ سحب هيفاستيون لجام جواده، وقال: "أوه، بحق الأسياد... انظر!".

رفـــع الإســـكندر قبعـــته، وتطلع وسط العاصفة القوية، فشاهد مجموعة من الرجال يقطعون الطريق أمامهما، وقد قبعوا على صهوات جـــيادهم مـــن دون حراك، وكانت أكتافهم وأغطية رؤوسهم مغطاةً بالثلج، وكانوا مسلحين بالرماح.

ســـأل الأمـــير وهـــو يضع يده على مقبض سيفه: "أتعتقد أنهم ينتظروننا؟".

أجـــاب هيفاستيون بعد أن شهر سيفه، ونخس جواده كي يتقدم من جديد: "أعتقد ذلك، وعلى كل حال سنعرف عما قريب".

قال الإسكندر: "أخشى أننا سنضطر إلى شقّ طريقنا بأنفسنا".

أجاب هيفاستيون بكل هدوء: "هذا ما أخشاه أنا أيضاً".

"كنت أنتظر طبقاً من الحساء الساخن، وسريراً ونيراناً، وربما فتاة حسناء، وأنت؟".

"وأنا أيضاً".

"أتنتظر إشارتي؟".

"حسناً".

كانـــا على وشك البدء بهجومهما عندما اخترقت صرخة عظيمة السكون المخيّم على الوادي.

"فرقة جنود الإسكندر تحيي قائدها!".

"بطليموس!".

"مولاي!".

"بيرديكاس!".

"مولاي!".

"ليوناتوس!".

"مولاي!".

"كراتيروس!".

"مولاي!".

"لايسيماخوس!".

"مولاي!".

"سلوقس!".

"مولاي!".

تلاشى آخر صدى فوق البحيرة المتجمدة، ونظر الإسكندر إلى الرجال الستة على صهوات جيادهم، ووقف من دون حراك وسط الثلج، وامتلأت عيناه بالدموع، ثمّ التفت بعد ذلك نحو هيفاستيون وهزّ رأسه من الدهشة وقال: "بحق زيوس! إنهم رجالي!".

32

بعـــد ثلاثة أشهر من حفل الزفاف، أنجبت يوريديس بنتاً أُعطيت اسم أوروبا. وشعرت يوريديس بعد فترة قصيرة بعوارض الحمل مجدداً. إلاّ أنّ فيليب لم يتمكّن من التمتع طويلاً بشعور الأبوة المتجددة بسبب الأحوال السياسية والأمور المستجدة، وشكّلت صحته مشكلةً بالنسبة إلـــيه، لأن عينه اليسرى التي سبق له أن جرحها خلال إحدى المعارك، والـــتي لم تُعـــالج بطـــريقة صحيحة، أصبحت عديمة الفائدة في ذلك الوقت.

وفي ذلك الشتاء، تلقى فيليب زيارةً من مخبره إيومولبس. إذ أبحر الرجل وسط طقسٍ سيئ لأن الأخبار التي يحملها كانت مهمّة بحيث لا تحتمل التأجيل، لكنه تعوّد على الطقس المستقر والمعتدل الذي يسود في المدينة، ولهذا السبب شعر أنه كاد يتجمّد من البرد. أمره الملك بالجلوس قرب المدفأة، وأمر بإحضار كوبٍ من الشراب الحلو والقوي له، وذلك من أجل إعادة الحيوية إليه، ولكي يُطلق لسانه بالحديث.

"حـــسناً إذاً... يا صديقي المخلص، ما هي الأخبار التي أتيتَ بها إليّ؟".

"إن الحظ إلى جانبك يا مولاي. لكن، دعني أخبرك ما حدث في البلاط الفارسي، إن آرسيس، الملك الجديد، وكما كان متوقعاً، تمكّن مـــن معرفة حاكم القصر الحقيقي وبسرعة. ولكن، صعُب عليه تقبّل هذه الحقيقة لذلك رتّب عملية تسميم باغاوس".

"أتعني ذلك المخصي؟".

"بالضبط، لكنّ باغاوس كان يتوقع خطوة كهذه، فأحبط الخطة عندما أخذ احتياطات مضادة، وأفلحَ في تسميم الملك، وتمكّن بعد ذلك من قتل جميع أولاد آرسيس".

"إن ذلــك المخــصي أشد خطراً من العقرب عندما يصمّم على تنفيذ أموره".

"هذا صحيح، لكنّ ذلك يعني أن تلك السلالة قد انتهت، لم يبقَ أحد من الذين قتلهم أرتحششتا الثالث، والذين قتلهم باغاوس".

قال فيليب: "إذاً؟".

"عمــد باغاوس إلى انتقاء أحد أبناء سلالةٍ قديمة، واسمه داريوس الثالث، ونصّبه على العرش".

"ومن يكون داريوس الثالث هذا؟".

"يدعى جدّه أوستانيس، شقيق أرتحششتا الثاني، يبلغ الرجل خمسة وأربعين عاماً، كما أنه يحب النساء وما إلى ذلك".

علّق فيليب بالقول: "لست متأكداً من أهمية هذه الأخبار، أليست لديك أخبار أكثر أهمية كي تخبرني إياها".

"كان الرجل عند تسميته ملكاً مرزباناً على أرمينيا".

"إنها منطقة صعبة، لذلك لا بد من كونه من النوع العنيد".

"دعنا نقول إنه رجل قوي، يبدو أنه قتل أحد المتمردين من قبيلة القادوشيين، وذلك خلال مواجهة مباشرة بينهما".

مــرّر فيلــيب يده فوق رأسه: "أعتقد أن ذلك المخصي قد بدأ يتــساءل مــا إذا كان قد أخذ على عاتقه هذه المرّة أموراً لا يستطيع السيطرة عليها".

أومــأ إيومولبس الذي بدأ في هذا الوقت يشعر بالدفء، وقال: "بالضبط، يبدو أن داريوس ينوي فرض سيطرته الكاملة على المضائق،

وإعـــادة تأكـــيد حقه بالسيطرة على المدن الإغريقية في آسيا، وسرت شـــائعة أنه يريد الحصول على إعلان إذعان من التاج المقدوني، إنني لا أمـــيل إلى القلـــق كثيراً بشأن داريوس، لأنه بالتأكيد لا يشكّل خصماً مساوياً لك، أعتقد أنه ما إن يسمع صراخك حتى يفرّ مرتعباً".

قال فيليب: "سنرى".

"أتحتاج إلى شيء آخر يا مولاي؟".

"لقـــد أبليتَ بلاءً حسناً. لكنّ دورك الصعب سيبدأ الآن، أريدك أن تقـــصد إيومينـــيس كي تقبض ما تستحقه، وأريدك أن تأخذ مبالغ إضافية إذا كان ذلك ضرورياً من أجل الدفع لبعض المخبرين. أريد أن أعرف كل ما يجري في بلاط داريوس".

شكر إيومولبس الملك، وغادر المكان مستعجلاً الوصول إلى دفء مدينته الجميلة الواقعة على شاطئ البحر.

استدعى الملك بعد مرور أيامٍ قليلة أعضاء مجلسه الحربـــي الذي عُقد في قاعة مستودع الأسلحة الملكي. حضر المجلس القادة بارمينيون، وأنتيباتر، وكليتوس الأسود، بالإضافة إلى آتالوس والد زوجة الملك.

قال فيليب خلال افتتاح المجلس: "لا أريد أن تخرج كلمة واحدة ممـــا سأقوله خارج جدران هذه القاعة. إن آرسيس، ملك بلاد فارس، قد اغتيل. استُدعي أحد الأمراء من سلالة فرعية، ونُصّب على العرش، يُدعى الملك الجديد داريوس الثالث، وعلى حدّ علمنا فإنه لا يفتقد إلى الكرامة، لكنه سينشغل لفترةٍ لا بأس بها في تعزيز سلطته.

إن هذه هي اللحظة المناسبة - لكل تلك الأسباب - كي نتحرك. ســـيغادر آتالوس وبارمينيون في أسرع وقت ممكن، وسيرافقهما جيش مؤلف من خمسة عشر ألف رجل، سيتحرك الجيش نحو آسيا كي يحتل الـــساحل الـــشرقي لبحرنا، وسيعلن حرية المدن الإغريقية التي تخضع

للحكم الفارسي. أما أنا فسأقوم في هذا الوقت بإتمام عملية تعبئة الجيش قبل الانضمام إليكما، وقبل بداية الغزو".

خُصّص الجزء الباقي من الاجتماع لمناقشة تفاصيل المشاكل اللوجستية، والسياسية، والعسكرية المتعلقة بالهجوم الأول، لكنّ الأمر الذي صدم الموجودين أكثر من أي شيء آخر كان لهجة الملك الخفيفة، وغياب الحماسة والاندفاع اللذين كانا من الأمور المعتادة بالنسبة إليه.

لم تكن لهجة الملك مرضية، إلى حدّ أن بارمينيون اقترب منه قبل أن يغادر، وقال له: "هل من خطبٍ ما يا مولاي؟ هل يقلقك وضعك الصحي؟".

وضع فيليب يده على كتف القائد عندما رافقه نحو الباب، وأجابه: "كلا، يا صديقي المخلص. كلا، كل شيء على ما يرام".

*

كان فيليب يكذب بهذا الخصوص، لأن غياب الإسكندر كان شيئاً لم يفكر فيه في البداية، لكنه تحوّل إلى عذاب متزايد مع مرور كل يوم. كان تفكير فيليب، مع استمرار بقاء ولده وزوجته في إيبيروس، منصباً على كيفية إرجاعه، وجعله يُذعن علناً لإرادته. لكنّ رفض الإسكندر الإقدام على هذه الخطوة، بالإضافة إلى مسألة فراره شمالاً، أشعراه بالغضب، والتوجّس، والقلق.

كان فيليب يغضب من أي شخص يحاول التوسط للإسكندر، وذلك لأنه يفكر في كل الغضب الذي عانى منه. ولكن، عندما لا يتحدث أحد عن هذه المسألة كان يشعر بالقلق نظراً لغياب الأخبار عن ابنه، أرسل الملك جواسيسه في كل مكان، كما أرسل مبعوثين من قِبله إلى ملوك وزعماء قبائل الشمال، الذين كانوا وكلاءه، وطلب منهم تزويده، وبشكل دائم، بالأخبار عن تحركات الإسكندر

وهيفاستيون. اكتشف الملك بهذه الطريقة أن عدد الهاربين قد ازداد مع انضمام ستة محاربين شبان إضافيين إلى تلك المجموعة، وذلك بعد وصولهم من تساليا، ومن أكارنانيا، ومن أثامانيا، ولم يصعب عليه تحديد هوياتهم.

عادت فرقة الإسكندر لتكتمل تقريباً، لكن الملك استمر بتحذير بارمينيون من انضمام ابنه فيلوتاس إلى تلك المجموعة التعيسة التي تهيم من دون غاية فوق ثلوج إيليريا. وشكّ الملك كذلك في إيومينيس، فلقد توقع منه أن يترك منصبه وأوراقه بين لحظة وأخرى كي ينضم إلى مغامرةٍ ما.

كان الملك يسافر وحده إلى القصر القديم في إيجية، وكان يجلس ساعات وهو يراقب رقائق الثلج البيضاء عند تساقطها فوق أرض الريف الصامتة، وفوق غابات أشجار التنوب الزرقاء، وفوق الوادي الصغير الذي تحدرت منه أسرته. وراح يفكر في الإسكندر وأصدقائه، وهم يتجولون في الغابات المتجمدة في المناطق الشمالية.

بدا الأمر وكأنه يستطيع فعلاً مشاهدتهم خلال صراعهم مع العواصف الثلجية، بينما تغوص الجياد حتى بطونها في الثلج، وبينما تتسلّل الرياح إلى ملابسهم الرثة المغطاة بطبقةٍ من الجليد. حوّل نظره إلى المدفأة الحجرية الضخمة، وإلى قطع حطب السنديان التي تتبرع بدفئها عندما تحترق، وإلى جدران غرفة العرش القديمة، وتخيّل كذلك المجموعة وهي تجمع قطع الحطب الرطبة من أجل صنع ملاجئ مؤقتة لها، وتخيّل صراعهم لفترات طويلة، وهم متعبون، من أجل إشعال نار مهما كانت بسيطة، تخيّلهم في أثناء الليل وقد عجزوا عن النوم، وهم يحرسون حاملين رماحهم بأيديهم عندما يسمعون عواء الذئاب المقتربة كي تنال نصيبها من الراحة والدفء.

اقتـــرب فصل الربيع، وبدأت الأخبار تصبح مقلقة أكثر، ولكن لـــيس بالطـــريقة التي قد يتوقعها الجميع. فلم يقتصر الأمر على تمكّن الإســـكندر وفـــرقته من الصمود أمام الصعوبات التي تترافق مع فصل الـــشتاء، ولكـــنهم قدّموا أنفسهم على أنهم حلفاء زعماء القبائل التي تعيش بمحاذاة الحدود المقدونية، أي أنهم أعلنوا انحيازهم في الصراعات المميـــتة التي يخوضها هؤلاء الناس، وساعدوهم على تأمين أحلاف، أو حتى على الاستسلام في ميدان المعركة، وكان يمكن لهذه التطورات أن تهدد سيطرة فيليب عاجلاً أم آجلاً.

تمـــتع الفتى بتأثير لا يقاوم في كل الذين التقاهم: الرجال والنساء، وحتى الحيوانات. وكان بوسيفالاس أكبر مثالٍ في هذا المجال. إذ كيف يُمكن للمرء أن يفسّر قدرته على امتطاء ذلك الحيوان الأسود من أول محاولـــة وكأنـــه حمـــلٌ وديع؟ وكيف يُمكن للمرء أن يفسّر واقع أن بيريـــتاس، وهو الحيوان القادر على تكسير عظمة حيوان مقزز بقضمة واحدة من فكّيه، يقبع في مكانه وقد انـــزوى، لا يأكل إلا القليل من الطعام، ويحرس الطريق حيث اختفى سيده؟

وهـــل ننسى ليبتين، الفتاة التي أنقذها من جحيم جبل بانجايوس؟ إنها تواظب كل يوم على ترتيب سرير الإسكندر وحمّامه وكأنه سيعود في أي لحظة، ولكنها لا تكلم أحداً عن الموضوع.

بدأ فيليب يشعر بالقلق بشأن استقرار علاقته مع مملكة إيبيروس، وهي العلاقة التي باتت مهددة بسبب وجود أوليمبيا إلى جانب شقيقها الملـــك الشاب. إن الحقد الأعمى الذي تحمله له في أعماقها قد يدفعها إلى الإقـــدام على أي حماقة من أجل إيذائه، ومن أجل إحباط خططه السياسية والعائلية. كان الملك الإسكندر صديقاً بالتأكيد، لكنه يشعر، ومـــن دون أي شـــك بقربه الشديد من ابن شقيقته المنفي عن وطنه،

والـــذي يتـــنقل بـــين مناطق يسكنها برابرة. ففي هذه الحالة سيشعر إسكندر إيبيروس بروابط قوية مع بيلا، بينما ينبغي عزل الملكة أوليمبيا بسبب تأثيرها المليء بالحقد. وأيقن فيليب من وجود حلٍ واحدٍ، لكن من دون توفّر ما يكفي من الوقت.

اســتدعى فيليب في أحد الأيام ابنته كليوباترا، وهي آخر فردٍ من أفراد أسرته الأولى بقي في بلاط بيلا.

كانـــت الأمـــيرة في عزّ نضوجها بعد أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها، كانت عيناها واسعتين وخضراوين، أما شعرها فكان طويلاً مع بعـــض الخـــصل النحاسية اللون، وكان لديها جسد جدير بأن يكون لسيدة أسياد أوليمبيا، ولهذا لم يتبقَ أحد من أفراد طبقة النبلاء إلا وحلم بأن يتخذها زوجة له.

قال لها فيليب: "حان الوقت كي تتزوجي يا ابنتي".

خفـــضت كليوباتـــرا رأسها وأجابت: "أتصوّر أنك قد اخترت زوجاً لي".

قـــال فيلـــيب مـــؤكداً كلامها: "فعلت ذلك بالفعل، إنه الملك الإسكندر حاكم إيبيروس، وشقيق والدتك".

وقفت الفتاة جامدةً وصامتة. لكن، كان من الواضح أنها لم تشعر بإحباطٍ كامل نتيجة قرار والدها، كان خالها وسيماً وشاباً جريئاً، كما أن أتباعه يقدّرونه، أما شخصيته فتشبه شخصية الإسكندر شقيقها.

ســـألها الملـــك: "ألـــيس لديكِ ما تقولينه؟ أم ربما كنتِ تتوقعين شخصاً غيره؟".

"كـــلا يا والدي، أعرف أن هذا الخيار حقٌ لك. لذلك لم أفكر أبداً في أي شخصٍ بالتحديد، لأنني لا أرغب في مخالفة إرادتك. ولكن، أريد أن أطلب منك شيئاً".

"أخبريني يا ابنتي".

"هل سيُدعى أخي الإسكندر إلى الزفاف؟".

أدار فيلـــيب ظهره على الفور، وكأنه تلقى صدمةً مفاجئة: "إن شقيقكِ لم يعد موجوداً بالنسبة إليّ".

انفجرت كليوباترا باكية: "لكن، لماذا يا والدي؟ لماذا؟".

"أنتِ تعرفين السبب لأنك كنتِ هناك. رأيتِ كيف أهانني أمام جمـــيع ممثلـــي المـــدن الإغريقية، وأمام قادة جيشي، وكل الأشخاص البارزين في مقدونيا".

"لكنه يا أبـــي...".

صـــرخ الملـــك: "إيـــاكِ أن تجرؤي على الدفاع عنه، استدعيت أرســـطو إلى هذا المكان كي يعلمه، كما وظّفت ليسيبوس كي ينحت صـــورته، وســـككتُ النقود التي تحمل رسمه، أتفهمين ماذا يعني ذلك كلـــه؟ كلا يا ابنتي، كانت إهانته والجرح الذي أحدثه، كبيرين جيداً، وفوق الاحتمال...".

تابعت الفتاة إصرارها: "أبـــي...".

"قلت لك لا تدافعي عنه".

"لكـــنني أرغب رغبةً مؤكدة في فعل ذلك. أجل... كنت هناك في ذلـــك اليوم ورأيت أمي شاحبة وكأنها جثة، بينما كانت تشاهدك وأنت ثمـــل، وتضع يديك على عروسك الصغيرة، وكيف مسدتَ بطنها بفخر. ورأى الإسكندر والدته أيضاً. إنّه يحبّها بالفعل، وهل هناك من سببٍ كي لا يفعل ذلك؟ هل يتعيّن عليه أن يمحوها من حياته كما فعلتَ أنت؟".

أحـــسّ فيليب أنه يغلي غضباً، فراح يصرخ وقد احمرّ وجهه من الغـــضب: "إنها هي، أوليمبيا التي حوّلتكِ ضدي! أليس هذا صحيحاً؟ أصبحتِ ضدّي الآن!".

جـثت كليوباترا عند قدميه، واحتضنت ركبتيه: "غير صحيح، لـيس ذلـك صحيحاً أبداً يا أبـي. إن كل ما نريده هو أن تستعيد رشـدك، ارتكب الإسكندر بعض الأخطاء بالتأكيد..." بدا أن فيليب قد هدأ قليلاً بعد أن سمع هذه الكلمات التي أكملتها بالقول: "لكن، ألا تفهـم ذلك؟ ألا تسطيع أن تبذل ولو محاولة واحدة كي تفهم ابنك؟ ماذا كنتَ ستفعل لو كنت مكانه؟ لو أن أحداً عاملك علناً وكأنك ابن غـير شرعي... وابن زنى؟ أما كنت لتدافع عن شرفك وشرف ابنك؟ ألـيس ذلك ما كنتَ تعلّم ابنك أن يفعله؟ إنه يشبهك في هذا المجال، لأنه يتصرّف بالطريقة التي توقعت منه أن يتصرّف بموجبها دائماً. ومع ذلـك أنكـرته، إنك تريد منه أن يتصرّف مثل آخيل!". ثمّ أدارت وجهها نحـو والدها وقد انهمرت الدموع على خدّيها. "أنت أردتَ آخـيل وحصلتَ عليه، إن غضب الإسكندر هو غضب آخيل ذاته يا أبـي!".

"هكـذا إذاً! لكن، إذا كان غضب الإسكندر هو غضب آخيل، فإن غضبـي هو غضب زيوس ذاته!".

"لكـنه يحبك، إنه يحبك وهو يعاني لهذا السبب، إنني أعرف..." بدأت تتنهد وتُجهش بالبكاء بعد أن ارتمت على الأرض.

تطلّع فيليب نحوها بصمتٍ للحظة، وزمّ شفتيه، ثم استدار واستعد لمغادرة المكان.

وحـين وصـل إلى الباب، قال قبل أن ينصرف: "تحضّري، لأن الزفاف سيجري في غضون ستة أشهر".

رأى إيومينـيس فيليب وهو يعود إلى غرفته، ولاحظ أن المشاكل قد ارتسمت على وجهه، لكنه يتصرّف وكأن كل شيء على ما يرام. فتابع مسيره إلى آخر الرواق وهو يحمل رزمة من أوراق البردى.

وحين سمع صوت إغلاق الباب، استدار عائداً، ووضع أذنه عليه، كان الملك يبكي.

33

ابــتعد إيومينــيس بــصمت وتوجّه إلى غرفته الخاصة في قاعة المحفــوظات الملكــية، ثمّ جلس واستغرق بالتفكير لفترة طويلة مسنداً مــرفقيه إلى طاولــته، ووجهه إلى كفّيه. واتخذ قراره في تلك اللحظة بالذات.

تناول رزمة صغيرة من رفّ المحفوظات، وثبّت عباءته على كتفيه، ومــرّر يــده عبر شعره، ثم خرج مجدداً إلى الرواق، وسار مباشرة إلى غرفة الملك.

أخذ نفساً عميقاً ودقّ الباب.

"من الطارق؟".

"إيومينيس".

"ادخل".

دخــل إيومينيس، وأغلق الباب وراءه، ورأى فيليب منكباً فوق وثيقة كانت أمامه.

"مولاي! وصلك عرضُ زواجٍ".

رفع الملك رأسه فجأة، وبدا التعب على وجهه، بينما كانت عينه الوحيدة الباقية حمراء من فرط الإنهاك، والغضب، والبكاء.

سأل الملك: "ومن الذي أرسل العرض؟".

"المــرزبان ساتراب ملك كاريا، وبيزودورس في الوقت ذاته، إنه يعرض يد ابنته للزواج من أمير من بلاط ملكي".

"قل له أن ينسى الأمر، أنا لا أتعاملُ مع الفرس".

"مـــولاي، أعتقد أنه يجب عليك أن تفعل ذلك، إن بيزودورس ليست فارسية بالتحديد. إنه يحكم مقاطعة آسيا الصغرى الساحلية نيابةً عـــن الملك العظيم، كما يسيطر على قلعة هاليكارناسوس، وإذا كنتَ تحضّر لعبور المضائق فإن هذا الزواج قد يشكّل خطوةً استراتيجية مهمة بالنـــسبة إلـــيك، وعلـــى الأخص في هذه الفترة التي يوجد فيها التاج الفارسي في أيد غير أمينة".

"يُحتمل أنك على حق، سينطلق جيشي في غضون أيامٍ قليلة".

"يعطيك هذا سبباً إضافياً للقبول".

"ومن تختار؟".

"حسناً... كنت أفكّر في...".

"آرهيدايوس، هذا ما يجدر بنا أن نعطيهم إيّاه. إن ابني آرهيدايوس نـــصف مغفـــل، ولا يتسبب بأي متاعب، أما إذا لم يتمكن من إتمام واجـــباته الزوجية فإنني مستعد للاهتمام بالعروس شخصياً، لكن كيف تبدو؟".

تـــناول إيومينيس صورةً صغيرة محفورة على لوحةٍ صغيرة داخل الحقيـــبة، كانـــت من رسم أحد الرسامين الإغريق من دون شك، ثم عرضها على الملك.

"تـــبدو جمـــيلة جداً، لكننا لا نستطيع الوثوق بهذه الرسوم لأنك عندما ترى أصحابها على أرض الواقع ستتلقى صدمة حياتك...".

"ماذا تريدني أن أفعل؟".

"اكـــتب إلـــيه، وأخبره أنني تأثرت وتشرفت بهذا العرض. وأنّني اختـــرت الأمـــير آرهيدايوس لهذه الفتاة، وهو شاب جريء في أوقات الحرب، ويتمتع بحساسية كبيرة، وإلى ما هناك من الهراء الذي تبرع في كتابته. ثمّ بعد ذلك، أحضِر إليّ الرسالة كي أوقّعها".

قـــال إيومينيس وهو يسير نحو الباب: "إنه قرار حكيم يا سيدي، سأهتم بالأمر على الفور". وتوقف بعد ذلك، وكأنه تذكّر شيئاً شديد الأهمية بشكلٍ مفاجئ. "أيمكنني أن أطرح سؤالاً يا مولاي؟".

تطلـــع فيلـــيب نحوه بتشككٍ ارتسم على وجهه: "سؤال بشأن ماذا؟".

"من سيكون قائد الجيش الذي سترسله إلى آسيا؟".

"آتالوس وبارمينيون...".

"ممتاز، بارمينيون جندي عظيم. لكن آتالوس...".

حدق فيليب إليه مؤشراً:

"أريد أن أقول إن إرسال آتالوس قد يكون في صالح...".

"إذا أضفتَ كلمةً واحدة فسأقطع لسانك".

تابـــع إيومينـــيس من دون أن يخشى شيئاً: "حان وقت استدعاء ابنك يا مولاي. هناك أسباب كثيرة ووجيهة لذلك".

صاح فيليب وهو يضرب بقبضته على الطاولة بقوة: "اصمت!".

أحـــسّ إيومينـــيس وكأن قلبه قد وقع من مكانه، وتأكد من أن ساعته قد دنت، لكنه فكّر في أن المتابعة في مثل هذا الوضع اليائس أمر حكـــيم، حـــتى ولو تسبّب الأمر بموته. "وثانياً، أقول من وجهة نظرٍ شخصية بحتة، إننا قد اشتقنا إلى الفتى كثيراً. وأنتَ كذلك أكثر من أي شخصٍ آخر يا مولاي".

"إذا قلت كلمةً واحدةً بعد فسآمر الحرس بسجنك".

"كما أن الإسكندر ذاته يعاني كثيراً من هذا الوضع".

صاح فيليب: "أيها الحراس! أيها الحراس!".

"أؤكد لك أن ما أقوله صحيح. كما أن الأميرة كليوباترا تذرف الدموع على الدوام".

دخل الحراس وسط قرقعة أسلحتهم.

"لدي رسالة هنا من الإسكندر، وفيها...".

وقف الحراس على أهبة الاستعداد كي يمسكوه.

من الإسكندر إلى إيومينيس، مرحباً!

أشار فيليب إلى الحراس كي يتوقفوا.

سررت عندما قرأت الأمور التي كتبتها حول والدي؛ أي أنه بخير، ويستعد للبدء بمهمته الكبرى ضد البرابرة في آسيا.

أصدر الملك إشارةً أخرى، فغادر الحرّاس الغرفة.

لكن أخبارك هذه جلبت لي حزناً كبيراً.

توقــف إيومينيس وتطلّع نحو الملك الذي بدا وكأنه تلقى صدمة وغرق وسط مشاعر قوية، كما أن عينه الوحيدة السليمة التمعت تحت جبهته العابسة والتي بدت مثل جمرةٍ متقدة.

قال الملك: "تابِع".

كــنت أحلم على الدوام أن أتبع والدي في هذه المهمة العظيمة، وأن أسير بجــوادي معــه جانــباً إلــى جانب، وذلك لكي أحاول أن أثبت له كم أنني أحــاول، عبــر مــسيرة حياتي، أن أكون على مستوى شجاعته وعظمته بوصفه ملك مقدونيا.

لكــنّ الظــروف قادتني - لأسفي العظيم - إلى الإقدام على حركةٍ لا يمكن إصلاحها، كما دفعني الغضب إلى تخطي الحدود التي يجب على كل ابن أن يحترمها دائماً مع والده.

لكــن، لا بد أن القدر هو الذي شاء أن تحدث هذه الأمور. لأنه عندما يفقد الــرجال السيطرة على أفعالهم، فإنهم يقدمون على الأمور التي شاءت لهم الأقدار أن يقوموا بها.

إن أصــدقائي بخير جميعاً، لكنهم مكتئبون مثلي تماماً، بسبب بعد المسافة التــي تفــصلنا عــن وطنــنا وأحبائــنا الأعزاء، وأنت بينهم أيها العزيز إيومينيس من دون شك. ساعِد الملك بقدر ما تستطيع، لأنني ومع الأسف لا أستطيع أن أساعده أبداً، وحافِظ دوماً على معنوياتك العالية.

وضع إيومينيس الرسالة على الطاولة ونظر نحو فيليب الذي غطّى وجهه بيديه الاثنتين.

قال بعد فترة صمت: "لقد سمحت لنفسي...".

رفع الملك رأسه فجأة وقال: "بماذا بالضبط سمحتَ لنفسك؟".

"بتحضير رسالة...".

"بحق زيوس! سأقتل هذا الإغريقي، سأقتله بيديّ الاثنتين!".

شـــعر إيومينيس في تلك اللحظة وكأنه قبطان سفينة كافح لفترةٍ طويلة الأمواج العاتية التي قويت نتيجة العاصفة بعد أن تمزقت أشرعته وتـــضرر هـــيكل السفينة، وبدأ يقترب من الميناء، لكن يتوجّب على بحّارته المتعَبين القيام بمجهودٍ جبار. لذا، أخذ نفساً عميقاً، وتناول ورقة أخرى من الرزمة التي يحملها، وبدأ بالقراءة تحت نظرات فيليب المرتابة:

من فيليب، ملك مقدونيا، إلى الإسكندر. تحيةً وبعد!
إن مـــا حـــدث في يوم زفافي تسبب لي بمرارة غير منقطعة. لذلك قررت، بالـــرغم من الرابطة التي تربطني بك، أن أستبعدك من مجلسي إلى الأبد. لكنّ الوقت أمهر المعالجين، وهو كفيل بتخفيف أشدّ الآلام.
تأملـــت لـــوقتٍ طويل بما حدث، واقتنعت أنه يتعيّن على من هم أكبر سناً، ولـــديهم خبـــرات أكثـــر، أن يكونوا قدوةً للذين تعميهم حماستهم. ولذلك، قررت أن أضع حداً للمنفى الذي فرضتُه عليك.
كما أعلن لك أنني أُبطل حكم النفي على أصدقائك الذين أهانوني كثيراً حين قرروا اللحاق بك.
وأعلـــن لـــك أن الـــرحمة الأبـــوية هي التي تغلبت على صرامة القاضي والملـــك. إنني لا أطلب منك في المقابل إلا أن تعبّر عن أسفك على غضبك الـــذي اضطررت إلى تحمّله، وأن تؤكّد لي أنّ محبتك البنوية ستمنع وقوع حادثة مشابهة في المستقبل.
انتبه جيداً لنفسك.

وقـــف إيومينيس من دون حراك وسط الغرفة، وفغر فاه لأنه لم يعرف في تلك المرحلة ما يجدر به توقعه. لم يقل فيليب أي شيء. كان

من الواضح أنه يسعى إلى السيطرة على توتّره العاطفي الذي يعتمل في نفسه. وفي الواقع، وقف الملك بحيث لم يرَ إيومينيس سوى عينه العمياء والخالية من الدموع.

وفي نهاية الأمر، تجرأ إيومينيس ليطرح سؤالاً:

"ما رأيك يا مولاي؟".

"ما كنت لأكتب رسالةً أفضل منها".

"هل تتلطف في هذه الحالة بتوقيع هذه الرسالة؟".

مدّ فيليب يده، وتناول ريشة القصب، وغطّسها في الحبر، لكنه توقّف بينما اكتفى مساعده بالمراقبة.

"هل هناك من خطأ يا مولاي؟".

قال الملك خلال توقيعه الرسالة: "كلا، كلا". ثمّ قلب الورقة على الفور وراح يخربش بالريشة على الزاوية السفلى منها، تناول إيومينيس الرسالة مجدداً، ونثر عليها الرماد، ثم نفخ الرماد الزائد، وانحنى متوجّهاً نحو الباب بخطوات واسعة وخفيفة خوفاً من أن يغيّر الملك رأيه.

ومن خلفه ناداه فيليب: "لحظة واحدةً".

هل غيّر الملك رأيه؟

توقّف إيومينيس: "نعم يا مولاي؟".

"إلى أين سترسل هذه الرسالة؟".

"حسناً... تمكنت من الحفاظ على بعض المعارف، ومن تجميع بعض المعلومات بطريقة سرية...".

هزّ فيليب رأسه وقال: "أتعني أنك كنت تتجسس... هذا هو من أدفع إليه كي يهتم بالشؤون الإدارية في قصري. سأقتل هذا الإغريقي عاجلاً أم آجلاً، أقسم بزيوس إنني سأخنق نسمات الحياة فيه بيديّ هاتين!".

تمكـــن إيومينيس من الانحناء مرة أخرى، وغادر الغرفة. وما إن أسرع نحو مكتبه حتى نظر إلى الكلمات التي أضافها الملك تحت توقيعه.

إذا حاولتَ ذلك مرةً أخرى فسأقتلك فعلاً.

اشتقت إليك.

والدك

34

تحرّك آتالوس وبارمينيون نحو آسيا من دون أن يلقيا أي مقاومة، واستقبلتهما المدن اليونانية الواقعة على الساحل الشرقي بوصفهما محرّرَين، كما أقامت هذه المدن التماثيل لملك مقدونيا، وأقامت لهما احتفالات كبيرة.

أثارت الأخبار التي تلقاها فيليب من مخبريه السرور في قلبه، وأدرك أنه لم يكن في إمكانه أن يشن الحملة في وقتٍ أفضل. إذ كانت الإمبراطورية الفارسية لا تزال تعاني من صعوبات بسبب الأزمة التي ألمت بالأسرة المالكة، بينما امتلك فيليب تحت تصرفه جيشاً وطنياً قوياً وموحداً بشجاعته، وولائه، وتماسكه، وتصميمه، بالإضافة إلى مجموعة من القادة الذين يتمتعون بأعلى المستويات التكتيكية والاستراتيجية، والذين تخرجوا من كلّيته الحربية. كما كان لفيليب وريث للعرش تلقى تثقيفاً بحسب مبادئ هوميروس، وهو الذي يكن احتراماً كبيراً لعقلانية الفكر الفلسفي، أي أنه أمير فخور لا يُقهر.

والآن، حانت اللحظة المناسبة للانطلاق في آخر مغامراته وأعظمها، كان القرار قد اتُّخذ وكل شيء جاهزاً. صمّم الملك على إعادة استقبال الإسكندر، وتقوية علاقاته مع مملكة إيبيروس من خلال العرس الباذخ الذي لن يُنسى والذي يعتزم إقامته لابنته كليوباترا وشقيق زوجته، كما اعتزم اللحاق بأسطوله البحري إلى ما يتعدى المضائق استعداداً للقفزة الكبرى.

أحس فيليب بنوعٍ غريبٍ من القلق الذي أبقاه مستيقظاً طوال الليل، وذلك بالرغم من أن كل شيء بدا وكأنه يسير بحسب ما خطّط

لـــه، وعلى الأخص بعد أن بعث الإسكندر برسالةٍ قال فيها إنه سيصل إلى بيلا كي يحضر زفاف شقيقته الضخم.

استـــدعى فيليب في أحد أوائل أيام الربيع إيومينيس، وطلب منه التوجّه إلى الإسطبلات ليكون جاهزاً لنـــزهة على صهوة أحد الجياد، وذلـــك لأنه يود أن يناقش معه بعض الأمور. كان ذلك طلباً استثنائياً، لكـــنّ مـــساعده وافق على الفكرة، فارتدى سروالاً من صنع تراقيا، وســـترة طويلة من صنع سكاثيا، وانتعل حذاءً ثقيلاً، واعتمر قبعة ذات حـــواف واســـعة. وأمر المساعد المرافقين بتجهيز بغل مسن، وهادئ يسهل امتطاؤه، واستعدّ قابعاً في انتظار وصول فيليب.

تطلع الملك نحوه بسخرية وقال: "إلى أين تظن نفسك ذاهباً؟ هل ستقهر سكاثيا؟".

"أعطاني خادمي بعض النصائح يا مولاي".

"أجـــل، لاحظتُ ذلك. هيا بنا، دعنا ننطلق". دفع الملك جواده فانطلق بقفزةٍ كبيرة، واختفى في الطريق المؤدي إلى المدينة.

كـــان الفلاحون في حقولهم يحصدون القمح والدّخن، ويهتمون بكروم العنب.

صاح الملك عندما هدّأ من سرعة جواده إلى درجة السير العادي: "انظـــر حولك! انظر حولك! تمكنت في جيلٍ واحد من تحويل هؤلاء السكان الجبليين الذين كانوا شبه برابرة، والذين كانوا رعاة بالأساس، إلى أمـــة مـــن المـــزارعين الذين يعيشون في المدن والقرى، ويتمتعون بـــإدارات مـــنظمة وكفوءة. منحتهم فخر الانتماء إلى بلدهم، وقمت بـــصياغتهم مـــثلما يـــصوغ الحداد معادنه، وجعلت منهم محاربين لا يُقهـــرون. أنكرني الإسكندر لأنني ثملت، واتهمني أنني عاجز عن القفز بين سرير وآخر...".

"كــفّ عن القلق من هذا الأمر يا مولاي، لأنكما عانيتما أنتما الاثـــنان. صحيح أن الإسكندر قال بعض الأمور التي كان يجدر به ألا يقــولها، لكنه عوقب بسببها. أنت ملك عظيم، بل أعظم الملوك، وهو يعرف ذلك كما يفخر بهذا الواقع، أؤكد لك ذلك".

صمت فيليب ومضى بالسير، لكنه ترجّل عن جواده عندما وصل إلى جدولٍ كانت مياهه العذبة والباردة تسيل من أعالي الجبل، وجلس على صخرةٍ منتظراً وصول إيومينيس.

أعلن الملك أمام مساعده: "سأسافر لبعض الوقت".

"أتسافر؟ لكن إلى أين؟".

"لـــن يعود الإسكندر قبل عشرين يوماً أو نحوها، لذلك أريد أن أذهب إلى دلفي".

"كـــلا... ابتعد عن ذلك المكان يا مولاي، لأنهم سيجرّونك إلى حرب مبجلة أخرى".

"لـــن تنـــشب بعد اليوم حروب في اليونان طالما أنا حي. سواء أكانـــت مبجلة أم غير مبجلة. ولا أنوي التوجه إلى مجلس المعبد، لأنني سأقصد المعبد ذاته".

كرّر إيومينيس بدهشة: "إلى المعبد؟ لكن المعبد تحت سيطرتك يا مولاي، يقول الضالع ما تريده أن يقوله".

"أتعتقد هذا؟".

بدأت الحرارة تتزايد في ذلك الحين، فما كان من إيومينيس إلا أن خلع سترته، وغطّس منديلاً في المياه ومسح جبهته.

"أنا لا أفهمك، لأنك من بين كل الناس تطرح عليّ هذا السؤال بعد أن لمستَ مناورة المجلس والتي تتلخص في إملائه رغباته على الضالع، بحيث يقول السيد الأشياء التي تعزز سياسة معينة، أو تحالفاً عسكرياً معيناً".

"هذا صحيح، ومع ذلك فإن السيد يتمكّن في بعض الأحيان من قــول الحقيقة، بالرغم من زيف الرجال الذين يخدمونه وعدم حيائهم، إنــني متأكد من ذلك". وضع ذراعيه فوق ركبتيه، وأخفض رأسه، ثم أصغى إلى خرير مياه النبع.

بقي إيومينيس صامتاً، ماذا يعني الملك بكلامه هذا؟ ماذا يأمل الــرجل الــذي عاش حياته في بحبوحةٍ، والذي عاين كل نوعٍ من أنــواع الفساد والازدواجية، والذي لمس الحقد الإنساني الذي ظهر في كل أنواع الأعمال الوحشية، ماذا يأمل هذا الإنسان الذي عانى مــن الجــروح والــندوب المرئية منها وغير المرئية أن يجد في وادي دلفي؟

سأل الملك: "هل تعرف ما نُقش على واجهة المعبد؟".

"أعرف ذلك، نُقش: *اعرف نفسك*".

"وهل تعرف من الذي كتب تلك الجملة؟".

"هل هو السيد المبجل؟".

أومأ فيليب.

قال إيومينيس حتى من دون أن يفهم: "فهمت".

"سأنطلق غداً. تركت تعليماتي والختم الملكي مع أنتيباتر، أريدك أن تــشرف علــى تــرتيب جناح الإسكندر، وأن تأمر بتنظيف كلبه وإسطبل بوسيفالاس، وأن تلمّع درعه، وتتأكد من قيام ليبتين بواجبها المعتاد في ترتيب سرير ابني وحمّامه. يتعيّن أن يكون كل شيء كما كان عندما غادر القصر. لكن، لا أريد احتفالات ولا مآدب، إذ ليس لدينا سبب يدعونا إلى الاحتفال، لأننا حزينان".

أومأ إيومينيس: "لا تقلق يا مولاي، سأهتم بكل شيء طلبته مني، وبأفضل طريقة ممكنة".

راح فيليب يتمتم: "أعرف ذلك". ربّت على كتف مساعده قبل قفزه إلى صهوة جواده، واختفائه عن الأنظار بوثبةٍ واحدة.

*

غـــادر الملك في اليوم التالي عند الفجر برفقة موكب صغير، وتبع الطـــريق المتجه جنوباً، ثم عبر سهل مقدونيا قبل دخوله أراضي تساليا. ووصـــل إلى دلفـــي من جهة فوكيس بعد رحلة استغرقت سبعة أيام، فوجد المدينة مكتظة بالزوار المريدين، أي كما هي على الدوام.

كـــان الـــزوار المريدون يأتون من مختلف أنحاء العالم، وحتى من صـــقلية، وخليج الأدرياتيك حيث تقع مدينة سبينا على جزيرة وسط البحـــر. توزعت على طول الطريق المؤدي إلى المعبد معابد صغيرة عدة بنـــتها مخـــتلف المـــدن اليونانية وكانت مخصّصة لأبولو، وكلها مزينة بالتماثـــيل والمنحوتات التي كانت توضع في الباحة الأمامية للمعبد، أو إلى جانـــب الـــباحة حيث كانت توضع مجموعات فريدة من التماثيل البرونـــزية، أو لوحاتٍ من الرسوم الرخامية.

كمـــا تواجدت في ذلك المكان أكشاك عديدة مليئة بسلعٍ كثيرة، مـــثل الحيوانات التي تقدّم كأضحية، وتماثيل من كل القياسات مكرسة للمعـــبد، ونـــسخ من البرونـــز أو من الطين تمثل السيد المبجل داخل المعبد، أو التماثيل الأصلية الأخرى الموجودة في الجوار.

وإلى جانب المعبد كانت هناك قاعدة ثلاثية ضخمة لتمثال السيد المـــبجل مزودٍ بوعاء من البرونـــز يستند إلى ثلاثة ثعابين ملتفة، وكلها مصنوعة من البرونـــز كذلك، وهو المعدن الذي صُهر من الأسلحة التي غنمها الأثينيون من الفرس في معركة بلاتيا.

انضمّ فيليب إلى صف المرشحين للدخول في سلك الكهنة الذين يغطـــون رؤوسهم بقبعات معاطفهم. ولكن، كان من المستحيل إخفاء

أي شـــيء عن كهنة أبولو. إذ، لم يتأخر الخبر عن الانتقال من فمٍ إلى فـــمٍ، أي مـــن الخدم إلى كهنة الطائفة الذين كانوا متوارين في الظلمة المخيّمة داخل المعبد، وهو المكان السري فيه.

أعلـــن أحـــد تابعي الطائفة من الشبان بصوتٍ مخنوق: "إن ملك مقدونيا، رئيس مجلس المعبد، موجود هنا".

ســـأله أحد الكهنة الذي كان مولجاً في ذلك اليوم القيام بمهمات المراسم الدينية، وبمهمة الضالع: "هل أنت متأكد من ذلك؟".

"ليس من السهل الخلط بين فيليب المقدوني وأي رجلٍ آخر".

"وماذا يريد؟".

"إنـــه يقـــف في صـــف التلامذة الجدد، ويريد أن يسأل السيد المبجل".

تـــنهد الكاهن وقال آمراً: "غير معقول، لماذا لم نعرف مسبقاً؟ لا يمكنـــنا أن نُفاجأ بطلبٍ من هذا الرجل القوي... تحرّك بسرعة! ضع شـــارات مجلس المعبد، وأحضِره إليّ على الفور، إن المنتصر في الحرب المبجلة، والرئيس الأعلى للمجلس، يتمتع بأسبقية قصوى هنا".

اختفى الشاب من خلال بابٍ جانبـــي صغير، فيما وضع الكاهن رداءه، وربـــط الأربطة المبجلة حول رأسه، وترك الأربطة تتدلى فوق كتفيه، ثم ما لبث أن دخل المعبد.

كـــان أبولـــو هناك قبله جالساً على عرشه، وظهر وجهه ويداه المصنوعة من العاج، والتاج الفضي الذي يمثل أوراق الغار فوق رأسه، بيـــنما كانـــت عيناه من اللؤلؤ. وبانت ملامح الدهشة في وجه ذلك التمـــثال الـــضخم، بالإضافة إلى ثبات النظرة الشاردة، بينما انفرجت شفتاه قليلاً عن ابتسامة غامضة، والتي تكون ساحرة في بعض الأحيان. اشـــتعلت مبخرة موضوعة عند قاعدة التمثال، وتصاعد دخان البخور

الذي شكّل سحابة زرقاء وصلت إلى فتحة متواجدة بين العوارض الخشبية في السقف، والتي يُمكن أن يرى المرء من خلالها جزءاً صغيراً من السماء.

دخلت حزمة من الضوء من خلال المدخل، وهكذا شكّلت فاصلاً بين الظلمة المخيمة داخل المعبد، كما انعكست على الرسوم المزخرفة التي تزيّن الأعمدة الدورية، وأضاءت عدداً لا يحصى من ذرات الغبار المعلقة في الهواء الكثيف والثقيل.

وقف شخص ضخم على نحو مفاجئ عند الباب، وامتد ظلّه الطويل، وكاد يصل إلى قدمَي الكاهن. ثمّ تقدّم ذلك الشخص نحو تمثال السيد المبجل، وترددت أصداء خطواته العرجاء التي أحدثها حذاؤه ذو الكعبين السميكين وسط جدران المعبد، وهي الأصداء التي خرقت أجواء الصمت المخيّم على المعبد.

توجّه الكاهن نحوه، وعرف أنه ملك مقدونيا، فسأل بصوت يفيض بالتبجيل: "ما رغباتك يا مولاي؟".

رفع فيليب بصره نحو النظرة المهيبة للتمثال الذي امتد أمامه، وقال: "أريد أن أسال السيد المبجل".

"وما سؤالك؟".

تطلع فيليب نحو الكاهن بعينه المبصرة، وبنظرةٍ لا بد وأنها اخترقت روحه.

"أريد أن أطرح سؤالي على بيثيا مباشرة، خذني إليها".

أخفض الكاهن رأسه نتيجة الحيرة، وفوجئ بهذا الطلب الذي يستحيل رفضه.

"هل أنت متأكد من أنك ترغب في تعريض نفسك مباشرة لصوت أبولو؟ إن عدد الأشخاص الذين لم يتمكنوا من تحمل هذه

التجـــربة كـــبير جداً، يمكن لهذا الصوت أن يكون أشد حدةً من بوقٍ حربـــي، وأقوى من الرعد...".

أجاب فيليب بشكلٍ صارم: "يمكنني أن أتحمله، خذني إلى بيثيا".

أجاب الكاهن: "كما تريد". تحرّك نحو المثلث البرونـــزي المتدلي من عمود وضربه بعصاه، ترددت أصداء الصوت الرنّان عبر الجدران، وتمازجت هذه الأصداء حتى وصلت إلى المكان الأكثر تبجيلاً في المعبد كلـــه، أي *adyton*. ثمّ قـــال عـــندما تلاشى الصوت وبدأ بالمشي: "اتبعني".

سارا وراء قاعدة التمثال وتوقفا أمام صفيحة معدنية تغطي الجدار الخلفي للحجرة. ضرب الكاهن بعصاه فتسبب بحدوث ترددات عميقة. لكن بدا أن مساحات سفلية غير مرئية قد امتصتها. وعادت الصفيحة البرونـــــزية إلى الصمت، وما لبث أن ظهر درج ضيق يهبط بانحدارٍ شديد إلى الطبقة السفلية.

قال الكاهن من دون أن يلتفت: "لم يسبق لأحد، من الجيل الحالي بالطـــبع، أن دخل هنا". نـــزل فيليب ذلك الدرج الضيق وغير المنتظم إلى أن أصبح في مركز الغرفة السرية التي يضيئها عدد قليل من المشاعل الخافتة.

في تلك اللحظة، دخلت امرأة غامضة تغطي نفسها بعباءة طويلة حمراء اللون تصل إلى قدميها. كان وجهها شاحباً جداً، وكانت عيناها المتثاقلـــتان تتحركان بسرعة ومليئتين بالشكوك، أي مثل طريدة وقعت في شراك الصيد. كانت المرأة تمشي بمساعدة كاهنين. حتى إنّهما كادا يحملانها نحو نوع من وعاء مستند على قاعدة ثلاثية، فوضعاها داخله.

جهـــدا بعـــد ذلـــك كيٍ يفتحا كوةً حجرية في أرض الحجرة، فانكشفت فوهة هاوية تصاعدت منها أبخرة كثيفة.

قال الكاهن بصوتٍ مرتعش، ولكن من دون تظاهر هذه المرة، بل برعبٍ حقيقي: "هذه هي الهوة، إنها ينبوع الليل، أو آخر فوهة من الفوضى البدائية، لا أحد يعرف أين تنتهي، كما أن كل الذين نزلوا لم يعودوا أبداً". تناول حصاةً من أرض الكهف ورماها في الفتحة، فلم يُسمع أي صوتٍ على الإطلاق.

"إن السيد المبجل على وشك اختراق جسد بيثيا، إنه على وشك أن يملأها بوجوده، راقِب".

تنفست الضالعة الأبخرة التي فاحت من الهوة، وراحت أنفاسها تأتي على شكل نوبات وتشنجات عذّبت جسدها. وفي اللحظة التي تلوّت فيها داخل الوعاء وسمحت لذراعيها وساقيها بالتدلي بكل حرية ظهر بياض عينيها، وبدأت ترتعش متألمة على نحوٍ مفاجئ، وما لبثت أن أصدرت صوتاً يشبه الخشخشة التي أصبحت أشد حدة أكثر فأكثر حتى أصبحت أشبه بفحيح أفعى. فوضع أحد الكهنة يده على صدرها، وأومأ إلى الكاهن الذي يجاوره.

قال الكاهن بصوتٍ هادئ: "يمكنك أن تسأل السيد المبجل الآن أيها الملك فيليب".

تحرك فيليب إلى الأمام حتى كاد أن يلامس يد بيثيا.

"أيها السيد المبجل، إننا نحضّر لطقوس مهيبة في قصري، كما أنني على وشك أن أنتقم بسبب كلّ الأضرار التي أحدثها البرابرة ذات مرة في معابد الأسياد المبجلة الموجودة في بلادنا. لكن قلبي مثقل، ونومي مضطرب بالكوابيس، ما هو علاج قلقي الذي أشعر به؟".

أصدرت بيثيا أنةً طويلة، ثم رفعت جسدها ببطء، إلى أن لامس رأسها حافة الوعاء، وبدأت بالكلام، لكن بصوتٍ غريبٍ ومرتعشٍ ورنّان:

"الثور مكلل،
وكل شيء معدٌّ سلفاً،
وجاهزٌ هو الرجل الذي سيضربه"(*).

وســـقطت بعـــد أن تلفظت بهذه الكلمات متراجعة إلى الخلف، وبدت ساكنة وهامدة مثل جسد ميت.

تطلع فيليب نحوها بصمتٍ للحظة، ثم استدار نحو الدرج، واختفى وسط النور الشاحب المتسلل من الأعلى.

(*) ديودوروس سيكولوس XV 91.2.

35

وصل المبعوث عند منتصف الليل وترجّل عن صهوة جواده الذي كان يعدو أمام منـــزل الحارس، وما لبث أن سلّم جواده الذي يتصبّب عرقاً، حتى من جانبيه، إلى أحد المساعدين.

نهـــض إيومينيس على الفور، وهو الذي تعوّد على النوم الخفيف، وألقى رداءً فوق كتفيه، ثم حمل مشعلاً وهبط الدرج كي يلتقيه.

مـــا إن رآه يـــدخل تحت الرواق المعمّد، حتى قاده نحو مستودع الأســـلحة، وأمره بالقول: "تعالَ، أين الملك الآن؟" تبعه الرجل الذي كان لا يزال يلهث.

"إنه على بُعد مسيرة يومٍ من هنا لا أكثر، تعرف أنني لا أضيّع أي وقتٍ في رحلتي هذه".

قاطعـــه إيومينـــيس بيـــنما كان يفتح باباً صغيراً مغلقاً بالحديد: "حـــسناً، حـــسناً، تعـــال إلى هنا. لا يستطيع أحد أن يزعجنا في هذا المكان".

كانـــا في قاعـــة كبيرة وخالية من الأثاث؛ تُستخدم كمستودع للأســـلحة الـــتي تحتاج إلى إصلاح. ظهر مقعدان، حول قرمة خشبية تُستخدم كسندان، ناول إيومينيس أحد المقعدين إلى رفيقه وجلس على الآخر.

"وماذا اكتشفت؟".

"لم يكـــن الأمر سهلاً. كما أنني دفعت الكثير لأنني اضطررت إلى رشوة اثنين من الكهنة الذين يستطيعون دخول المكان المبجل adyton".

"إذاً؟".

"فوجـــئوا بوصول الملك فيليب، وكاد ينجح في التخفي، حتى إنه وقـــف في الصف مع التلامذة الجدد إلى أن تعرّف عليه أحدهم، فنُقل بعـــد ذلك إلى المكان المبجل على الفور. حاول الكهنة معرفة السؤال الـــذي ينوي طرحه عندما علموا برغبته، وذلك كي يهيئوا له الجواب المناسب".

"إنه إجراء طبيعي".

"بالفعـــل، لكن الملك رفض. أراد الملك أن يستشير بيثيا مباشرة، لذلك رغب في أن يتوجهوا به إلى المكان المبجل adyton".

غطّى إيومينيس وجهه بيديه: "أوه! يا زيوس العظيم!".

"لم يمـــتلك الكاهن المكلّف بإقامة الطقوس في ذلك اليوم الوقت الكـــافي كي يُعلم المجلس، لذلك لم يكن لديه خيار آخر غير الرضوخ لطلـــبه. رافق الكهنة فيليب إلى المكان المبجل وسرعان ما طرح سؤاله على بيثيا ما إن دخلت في حالتها المنتشية".

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"أنا متأكد جداً".

"وماذا كان ردّها؟".

"الـــثور مكلـــل، وكل شيء معدٌّ سلفاً، وجاهز هو الرجل الذي سيضربه".

تلبدت ملامح وجه إيومينيس، وسأل: "ألم تقل شيئاً آخر؟".

تـــناول إيومينيس من عباءته محفظة مليئة بالمال وناولها إلى مخبره.

"هذا ما وعدتك به، لكنني متأكد من أنك احتفظت بما تبقى من المال بعد أن دفعتَ إلى الكاهنين".

"لكنني...".

"انسَ الأمر، لا أعرف كيف تسير الأمور. لكن، تذكّر أنك إذا ما تلفظت حتى بكلمة واحدة عن هذا الموضوع، وحتى لو اضطررت اضطراراً إلى التحدث عن هذا الموضوع مع أي شخص، فكن متأكداً من أنك ستندم لأن أمك ولدتك".

تناول الرجل المال، وراح يقسم ويعد بأنّه لن يتحدث أبداً مع أحد حول هذا الموضوع، ثم غادر المكان.

بقي إيومينيس وحيداً في تلك القاعة الكبيرة والباردة التي ينيرها مشعل واحد، وراح يفكر طويلاً في تفسير ما لجواب بيثيا، والذي يمكن أن يكون بشيراً مناسباً لملكه. ثمّ غادر القاعة بعد ذلك وعاد إلى غرفة نومه، لكنه لم يتمكن من الاستسلام للنوم مجدداً.

*

وفي اليوم التالي، وصل فيليب إلى القصر وفي وقتٍ متأخرٍ من المساء. تظاهر إيومينيس أنه يحمل بعض الوثائق التي تحتاج إلى توقيع، وذلك من أجل أن يضمن لقاء الملك.

فسأله بينما كان يناوله بعض الأوراق واحدة تلو الأخرى: "أيمكنني أن أسألك عن نتائج زيارتك يا مولاي؟".

رفع فيليب رأسه والتفت نحوه: "أراهن بعشر تالنتات (قطع نقدية) فضية مقابل لا شيء على أنك تعرف الجواب مسبقاً".

"أنا يا مولاي؟ أوه، كلا، لست ذكياً إلى هذا الحد. كلا، إن هذه أمور حساسة، ولا مجال للمزاح فيها".

مدّ فيليب يده اليسرى ليتناول ورقة أخرى ثم ختمها.

"الثور مكلل، وكل شيء معدٌّ سلفاً، وجاهزٌ هو الرجل الذي سيضربه".

"هـــل كان ذلك هو الجواب يا مولاي؟ لكنه جواب استثنائي، ورائـــع! وفي هـــذا الوقت الذي تخطّط فيه للتحرك نحو آسيا! لم يمضِ وقت طويل على تتويج ملك فارس الجديد، وما هو شعار برسيبوليس العاصــــمة؟ الثور، الثور المجنّح، لا شك في ذلك، إنه ذلك الثور. إذاً، اقتـــربت نهايـــته لأن الـــرجل الذي سيضربه أصبح جاهزاً، رأت بيثيا انتصارك الوشيك على الإمبراطورية الفارسية.

أتريدني يا مولاي أن أخبرك بما أفكّر فيه بالفعل؟ يصعب عليّ أن أصدّق هذه الأخبار، إنني أخشى هؤلاء الكهنة لأنهم محتالون في الواقع، ولا بـــد من أنهم قد أعطوك جواباً مفصلاً، أي كما تريده أنت. ومع هذا، يبقى ذلك فألاً حسناً، ألا تظن ذلك؟".

"لم يلفقـــوا شـــيئاً، لأنني وصلت فجأة، وأمسكت بياقة كاهن الطائفة، وأرغمته على فتح المكان المبجل adyton ورأيت بيثيا. كانت في حالـــة اللاوعي، ورأيت بياض عينيها، والزبد الذي يطفو على فمها وهي تتنفس الأبخرة المتصاعدة من الهوة chasma".

أومـــأ إيومينـــيس مـــرات عدة: "بالتأكيد... إنها خدعة سريعة وخاطفـــة لكـــنها جديرة بك، أفضّل على كل حال أن يكون الجواب حقيقياً".

"بالضبط".

"سيحضر الإسكندر في غضون أيامٍ قليلة".

"جيد".

"هل ستتوجه لاستقباله عند الحدود القديمة؟".

"كلا، سأنتظره هنا".

"أيمكنني أن أذهب مع كاليستين لاستقباله؟".

"أجل، بالطبع".

"لعلي أستطيع أن أصطحب معي فيلوتاس مع عددٍ من الحراس، أعني لنكون نوعاً من حرس الشرف...".

وافق فيليب.

قال إيومينيس وهو يجمع وثائقه ويتجهز للمغادرة: "جيّد يا مولاي. حسناً، سأنصرف إذا لم يكن هناك أي شيء آخر".

"أتعلم الاسم الذي كان جنودي ينادونني به عندما كنت شاباً، وعندما كنت أصطحب امرأتين في ليلة واحدة؟".

التفت إيومينيس ليستطلع نظرة فيليب المنكسرة.

"تعودوا على مناداتي *الثور*".

تحيّر إيومينيس ممّا عساه يقوله، ثمّ توجّه نحو الباب، وخرج بعد أن انحنى على عجل.

*

وصلت فرقة الاستقبال المرحِّبة إلى بيرويا حيث عبروا الحدود القديمة لمملكة إمينتاس الأول. أشار إيومينيس إلى الآخرين أن يتوقفوا عند وصولهم قرب معبر هالياكمون، لأن الإسكندر وفرقته كانوا مضطرين إلى عبور النهر عند هذه النقطة.

ترجّل الجميع، وتركوا جيادهم لترعى العشب. تناول بعض المرافقين قِرَب مياههم كي يرووا ظمأهم، بينما فضّل آخرون تناول الخبز والجبن والزيتون والتين المجفف من حقائبهم، ثم جلسوا على الأرض ليأكلوا، فيما أُرسل أحد الرجال كي يصعد إلى أعلى تلةٍ مجاورة وينتظر ظهور الإسكندر.

أمضوا هناك ساعات عدة بينما بدأت الشمس رحلة انحدارها نحو الأفق، واقتربت من جبال بندوس، لكن لم تظهر أي دلائل تشير إلى حدوث أي شيء.

قال كاليستين: "إنه طريق رهيب صدّقوني، وهي تكتظ بقطّاع الطرقات، ولن أفاجأ إذا...".

صاح فيلوتاس: "أوه، قطّاع الطرقات. لكنّ تلك الجماعة تأكل قطاع الطرقات على الفطور، صمدت الجماعة خلال الشتاء في جبال إيليريا، أتعرفون ماذا يعني ذلك؟".

لكن إيومينيس كان يتطلع نحو التلة ونحو الحارس الذي بدأ بالتلويح بقطعة قماش حمراء.

أعلن بصوتٍ أقرب إلى الهمس: "إنهم في طريقهم نحونا".

أطلق الحارس بعد فترةٍ قصيرة سهماً وقع على مسافة قريبة منهم.

أعلن المساعد: "يعني ذلك أنهم موجودون جميعاً، أي أنهم لم يفقدوا أحداً". لكنه قال ذلك وكأنه لا يصدّق ما يقوله بالفعل، نزل الحارس في هذه الأثناء من موقعه في أعلى التلة.

قال فيلوتاس آمراً: "يا رجال! إلى صهوات جيادكم". قفز الرجال البالغ عددهم اثني عشر رجلاً إلى صهوات جيادهم، ونظّموا أنفسهم بمحاذاة الطريق ممسكين رماحهم بأيديهم. بدأ إيومينيس وكاليستين يسيران من دون جواديهما، فيما كان الإسكندر وفرقته يظهرون على منحدر التلة.

تقدم الثمانية جنباً إلى جنب بينما كانت أشعة الشمس تغيب من ورائهم فأحاطتهم بهالة من الأنوار الأرجوانية، وظهرت مثل سحابة مزخرفة. وتسبّب بعدُ المسافة، وقرقعة خطواتهم، وسط الغبار الذي يتوهج بالضوء في تكوين تأثيرٍ بصري غريب. إذ ظهرت المجموعة وكأنها تطير فوق سحابة معلقة في الهواء، وكأنها أتت من زمنٍ آخر، ومن مكانٍ عجيب وبعيدٍ جداً، أي من أقاصي الأرض.

وصلت المجموعة التي كانت تسير بأقصى سرعتها إلى ضفة النهر، وأسرع أفرادها إلى الارتماء فوق المعبر، وكأنهم لم يعودوا يطيقون الانفصال عن أرض موطنهم ولو للحظة إضافية واحدة. وكوّنت حوافر الجياد رذاذاً ملوناً بألوان قوس قزح بسبب الجريان السريع لمياه النهر، وأشعة تلك الكرة الغاربة والهابطة نحو الأفق.

مرر إيومينيس ذراع سترته فوق عينيه، ونفخ الهواء خارج أنفه بصوت مسموع، كان صوته مرتعشاً عندما قال: "بحق الأسياد في الأعالي... إنهم هم... إنهم هم".

ظهر شخص ذو شعر ذهبي طويل، يلتمع على درعه النحاسي، ثم قفز من الماء وسط الرذاذ والزبد المتطايرين، تاركاً المجموعة وراءه، وما لبث أن قفز قفزةً خطرة كي يصل إلى صهوة جواد قوي الحوافر بحيث جعل الأرض تهتز من تحته.

صاح فيلوتاس: "أيها الحراس... انتباه!" فاصطف اثنا عشر محارباً في الجانب الآخر رافعين رؤوسهم، وظهورهم مستقيمة بينما توجهت أسنة رماحهم نحو السماء.

لم يستطع إيومينيس السيطرة على عواطفه. فقال وهو يتلعثم بفعل دموعه: "الإسكندر... لقد عاد الإسكندر".

36

رافـــق إيومينيس وكاليستين الإسكندر طوال الطريق حتى وصلوا إلى عتـــبة غـــرفة الملك الخاصة، فطرق إيومينيس الباب، وعندما سمع صـــوت فيلـــيب يدعو ابنه إلى الدخول وضع يده على كتف صاحبه، وقال بلهجة فيها شيء من الخجل: "لا تتفاجأ إذا ذكر لك والدك شيئاً عـــن رسالةٍ كتبتَها أنت وأرسلتها إليّ، سمحت لنفسي أن أقوم بالخطوة الأولى نـــيابةً عنك، وإلا لكنتَ لا تزال على منحدرات الجبال المغطاة بالثلوج".

تطلـــع الإســـكندر نحوه بذهول، لكنه استوعب أخيراً حقيقة ما حدث. لكنّ كل ما أراده في تلك اللحظة هو دخول غرفة والده، وهذا ما فعله بالضبط.

وجد والده أمامه، ولاحظ أنه تقدّم بالسنّ كثيراً. وبالرغم من أن فتـــرة نفيه كانت أقل من سنة بقليل إلا أن التجاعيد التي ظهرت على جبهة فيليب بدت له أعمق بكثيرٍ، كما لاحظ أن شعره قد شاب قبل الأوان.

تكلّـــم الإســـكندر أولاً: "إنـــي مسرور لأنك بصحة جيدة يا والدي".

أجـــاب فيليب: "وأنت أيضاً تبدو أكثر شباباً، كما أنني مسرور بعودتك، هل أصدقاؤك بخير؟".

"أجل، إنهم بخير جميعاً".

"اجلس".

أطاع الإسكندر أمر والده الذي تناول إناءً وكوبين: "أتريد بعض الشراب؟".

"أجل، شكراً لك".

اقتــرب فيلــيب من ابنه حتى أصبح الإسكندر وجهاً لوجه أمام والــده، ورأى عين والده الجامدة، وأدرك أنّه لم يعد هناك من شك في علامات التعب الظاهرة على جبهته.

"بصحتك يا والدي، ونخب المهمّة العسكرية التي بدأها في آسيا. سمعت عن التوقع العظيم لبيثيا في دلفي".

أومأ فيليب وجرع بعض الشراب.

"كيف هي والدتك؟".

"كانت بخير في آخر مرة رأيتها فيها".

"هل ستحضر زفاف كليوباترا".

"آمل ذلك".

"وأنا أيضاً".

لبثا فترةً يحدقان إلى بعضهما بعضاً بصمت، وشعر كلاهما برغبة قــوية في إطــلاق العــنان لمــشاعرهما، لكنهما كانا رجلين ازدادت صلابتهما بفعل الألم والاستياء، وبفعل لحظة الغضب التي انتهت الآن، لكنها بقيت حية بمرارة. أدرك الوالد وابنه في تلك اللحظة بالذات أنهما كادا يصلان بالصدام إلى حد إهراق أحدهما دم الآخر.

كسر فيليب الصمت المخيّم عندما قال فجأة: "اذهب وسلّم على كليوباترا، لأنها اشتاقت إليك كثيراً".

أومأ الإسكندر وغادر الغرفة.

تمركز إيومينيس وكاليستين في نهاية الرواق منتظرَين تفجر العنف أو السرور، لكنّ الصمت المصطنع تركهما في حيرة.

سأل كاليستين: "ما رأيك؟".

"قال لي الملك *لا أريد احتفالات ولا مآدب، لأنه لا وجود لشيء نحتفل به ونحن مكبلان بالحزن*. هذا ما قاله لي".

سـار الإسكندر عبر القصر، وكأنه يسير في حلم. ابتسم الجميع وأومأوا إليه. ولكن، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه والتحدّث معه.

تناهى إلى الأسماع، على نحوٍ مفاجئ، صوت نباحٍ عالٍ من الباحة الكبرى، وما لبث بيريتاس أن اندفع إلى الرواق الداخلي وكأنه غضبٌ انطلـق مـن عقاله، وثب على الإسكندر وكاد يرميه على الأرض، ثم تابع النباح وإحداث الضجيج.

تأثـر الأمير الشاب بعرض العاطفة الذي بدر من الحيوان، وكان تعاطفـاً علنياً وحماسياً أمام الجميع. ربّت الإسكندر على ظهره لفترةٍ طويلة، وراح يحكّ له أذنيه ويحاول تهدئته، وخطر في ذهنه أن آرغوس، وهـو كلب يوليسيس (عوليس)، كان الوحيد الذي تعرّف على البطل عـند عودته بعد سنين عديدة من غيابه، وشعر الإسكندر أن عينيه قد اغرورقتا بالدمع.

فـتحت شـقيقته ذراعيها كي تعانقه، وراحت تبكي وتذرف الدموع بغزارة، وذلك ما إن رأته عند باب غرفتها.

تمتم الإسكندر وهو يضمّها إلى صدره: "صغيرتي...".

راحت الفتاة تتنهد وتقول: "بكيتُ كثيراً... بكيت كثيراً...".

"يكفي الآن، لقد عدت. وحتى إنني أشعر بالجوع، كما آمل أن تستبقيني لتناول العشاء معك".

صاحت كليوباترا وهي تكفكف دموعها: "بكل تأكيد! تعالَ".

أجلـسته، ثم أعطـت أوامرها بمدّ المائدة على الفور، كما أمرت بإحضار حوض كي يغسل شقيقها يديه، وذراعيه، وقدميه.

وسألته عندما شرعا في الأكل: "هل ستحضر والدتي زفافي؟".

"آمـل ذلك، ستتزوج ابنتها من شقيقها، لذلك لا بد أن تحضر، يُحتمل أن يسرّ والدي لقدومها".

تشجعت كليوباترا، فتحدثا عن كل ما جرى معهما طوال مدة فراقهما عن بعضهما. كانت الأميرة ترتعش كلما ذكر لها شقيقها مغامرة مثيرة، أو مطاردة خطرة عبر الوديان الضيقة، أو في جبل إيليريا.

كان الإسكندر يقطع روايته لهذه المغامرات بين الحين والآخر كي يسألها عن أحوالها، وعن الملابس التي سترتديها يوم الزفاف، وعما ستكون عليه حياتها في قصر بوثروتوم. كان يجلس بهدوء في أحيان أخرى راسماً ابتسامةً لطيفة، أو حسب طريقته الفريدة في إسناد رأسه إلى كتفه اليمنى.

قال عند مرحلة معينة بعد أن استغرق بأفكارٍ جدية: "يا لبيرديكاس المسكين، كان يحبك بشكلٍ يائسٍ، وعندما علم بشأن زواجك استسلم لليأس".

"آسفة، إنه شاب رائع ووسيم".

"إنه أكثر من وسيم، لأنه سيكون يوماً ما أحد أفضل قادة مقدونيا، هذا إذا كنت أعرف رجالي جيداً. لكن، لا يمكننا فعل أي شيء بهذا الخصوص، لأن لكل شخص قدراً مكتوباً".

أومأت كليوباترا وقالت: "هكذا بالضبط".

خيّم صمتٌ مفاجئ على الشابين اللذين كانا يضحكان معاً بعد غيابٍ طويلٍ عن بعضهما، وجلس كل واحدٍ منهما يصغي إلى صوت مشاعره.

استأنف الإسكندر الحديث من جديد: "إنني متأكد من أنك ستكونين سعيدة مع زوجك، إنه ذكي وشاب وشجاع. يستطيع أن

يحلم، وستكونين بالنسبة إليه مثل وردة قبّلها الندى، وكابتسامة الربيع. إنك مثل لؤلؤة مثبتة في إناءٍ من الذهب".

تطلعت إليه كليوباترا بعينين مليئتين بالدموع: "أهذا ما تعتقده بشأني يا شقيقي؟".

"أجل، وأنا متأكد من أن ذلك يجب أن يكون موقفك". طبع قبلة على خدّها، ثم غادر الغرفة. كان الوقت متأخراً عندما عاد إلى غرفته للمرة الأولى منذ سنة، وشمّ رائحة الزهور التي زيّنت الغرفة، ورائحة حمّامه المعطر.

نشرت المشاعل أضواءً دافئة ومركزة. رأى حفّافته، ومشطه، مرتبين ومصفوفين إلى جانب حافة حوض الاستحمام، بينما كانت ليبتين جالسةً على مقعدٍ مرتدية سترة قصيرة.

ركضت نحوه ما إن دخل، وجثت أمام قدميه، واحتضنت ركبتيه، ثم أمطرتهما بالقبلات والدموع.

سألها الإسكندر: "ألا تريدين مساعدتي على الاستحمام؟".

"أجل... أجل بالطبع يا مولاي، وعلى الفور".

ساعدته على خلع ثيابه، وانتظرت إلى أن وقف في الحوض الكبير، ثم بدأت تفركه بالإسفنجة بلطف، ثمّ غسلت شعره المنسدل والناعم، وجففته، وبعد ذلك سكبت فوق رأسه زيتاً ثميناً أحضروه من بلاد العرب البعيدة.

وما إن خرج من تحت الماء حتى غطّته بمنشفة وساعدته على الاستلقاء في سريره، ثم مسّدته لفترةٍ طويلة كي تريح أطرافه، لكنها لم تستخدم العطور، لأنه ما من عطرٍ يفوق رائحة جلده الطبيعية جمالاً ولطفاً. وعندما شعرت أنه بدأ يستسلم للنوم استلقت إلى جانبه، وراحت تنثر قبلاتها في أنحاء جسمه كافة.

37

أنجبت يوريديس في نهاية فصل الربيع صبياً، أي قبل وقت قصير من الوقت المحدد لزفاف كليوباترا والإسكندر حاكم إيبيروس. وزاد قدوم هذا المولود الجديد صعوبة العلاقة، المتوترة أساساً، بين الأمير وابنه.

كما زاد قرار فيليب إبقاء أصدقاء ابنه على مسافة محددة بعيداً عن البلاط، وعلى الأخص هيفاستيون، وبيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس، من سوء التفاهم والخلافات بينهما.

في ذلك الوقت، كان فيلوتاس في آسيا وكان بارداً تجاه الإسكندر لدى عودته، وحتى إنه بات يمضي الوقت مع ابن عمه إمينتاس الذي كان وريثاً للعرش قبل ولادة الإسكندر.

شكّلت كل تلك الحقائق، إضافة إلى فقدان الإحساس بالتآلف مع حياة البلاط، والشعور الحاد بالعزلة، لدى الإسكندر إحساساً خطيراً بعدم الأمان، مما دفعه إلى القيام بمبادرات خرقاء، وسلوك غير مبرر أبداً.

وعندما علم أن فيليب قد رشّح أخاه غير الشقيق آرهيدايوس المتخلف عقلياً ليكون زوجاً لابنة مرزبان كاريا، فقد تحيّر في الموقف الذي يجدر به أن يتخذه. فكّر في الموضوع ملياً، ثم قرر أن مناورة الملك كانت مرتبطة بطريقة ما بحملته في آسيا، فقرر أن يرسل مبعوثاً من قبَله إلى بيزودورس ليعرض عليه أن يتزوج ابنته. علم الملك بمبادرة الإسكندر بواسطة مخبريه، فشعر بغضب شديد، لأن عرض الزواج - التحالف المقترح، وهو المشروع الذي بدأ بالتهاوي في الأساس، قد وصل إلى نهاية فاشلة.

كان إيومينيس من نقل إلى الإسكندر الأخبار السيئة.

سأله: "لكن لماذا، بحق السماء، أقدمتَ على هذا الشيء. لماذا لم تكلّمــني... لمــاذا لم تخبرني عن الأفكار التي جالت في رأسك؟ كنت سأقول لك إن...".

ردّ الإســكندر بحــدة، وقلــق، واستياء: "كنت ستقول لي ماذا بالضبط. إن كل ما تفعله هو إطاعة أوامر والدي! إنك لا تتحدث معي أبداً، وتبقيني جاهلاً بشأن كل شيء!".

أجــاب إيومينيس: "لا بد وأنك فقدت صوابك، كيف تصوّرت أن فيلــيب يمكــن أن يضيّع وريث عرشه بتزويجه من ابنة أحد تابعي عدوه اللدود، أي ملك الفرس؟".

"لم أعــد أعــرف من هو وريث فيليب، لم يخبرني أبداً، وهو لا يقــول لي أي شيء. إنه يمضي كل وقته مع زوجته الجديدة وابنه الذي ولــد للــتو. وأنت... أنت تخليتَ عني بدورك، إنك تخشى من تمضية الوقت معي لأنك تعتقد أنني لن أصبح وريث التاج عندما يحين الوقت! انظر حولك: كم من الأولاد أنجب والدي؟ وقد يقرّر أحدهم أن يدعم إمينتاس الذي كان الوريث قبل ولادتي. وها هو فيلوتاس يمضي أوقاتاً معه أكثر مما يمضي معي، يُضاف إلى ذلك ما تمناه آتالوس من أن تُنجب ابنته وريثاً شرعياً للتاج، ولا بد من أنك سمعته وهو يقول ذلك، حسناً، الصبــي وُلد كما تمنى".

لم يقــل إيومينيس شيئاً، بل اكتفى بمراقبة الإسكندر وهو يذرع الغــرفة جيئة وذهاباً بخطوات واسعة، ثم انتظره كي يهدأ. وحين رأى إيومينيس الإسكندر واقفاً أمامَ النافذة يراقب، قال له: "يتعيّن عليك أن تواجه والدك، حتى وإن أحب أن يخنقك، وعلى الفور".

"أترى؟ إنك تقف إلى جانبه".

"توقف عن قول هذه الترهات! وتوقّف عن معاملتي بهذه الطريقة! لطالما كنت مخلصاً لعائلتك، كما أنني سعيت دوماً للحفاظ على الهدوء بينكما لأنني أعتقد أن والدك رجل عظيم، حتى إنه أعظم رجلٍ عرفته أوروبا خلال القرن الأخير، وكذلك لأنني أحبك، مع أنك من النوع العنيد! تعالَ الآن، أخبرني عن مرةٍ واحدة آذيتك فيها، أو خذلتك خلال كل تلك السنوات التي عرفنا فيها بعضنا! هيا، تكلّم الآن... هيا، إنني أنتظر".

لم يتمكن الإسكندر من الردّ بشيء فلقد شبك يديه بشدة، لكنه لم يواجه إيومينيس، وذلك لأنه لم يرغب في إظهار الدموع التي سالت غزيرة من عينيه. شعر أن غضبه يتصاعد مع انسياب دموعه، كما تذكّر أن غضب والده ما زال يرعبه، أي كما كان الأمر عندما كان صبياً.

"يتعيّن عليك أن تواجهه الآن، وهو لا يزال غاضباً بسبب إقدامك على هذا الأمر، دعه يعرف أنك لست خائفاً منه، وأنك رجل، وتستحق الجلوس على العرش في يومٍ من الأيام، اعترِف بخطئك، وقدّم اعتذارك. فهنا تكمن الشجاعة الحقيقية".

قبِل الإسكندر وقال: "حسناً، لكن تذكّر أن فيليب حاول أن يهاجمني شاهراً سيفه بيده".

"كان ثملاً".

"وكيف حالته الآن؟".

"إنك لا تُظهر الإنصاف في هذا المجال، لأنه حقّق المستحيل من أجلك، ألديك فكرة كم استثمر فيك؟ أتعلم؟ إنني أعرف لأنني أدوّن السجلات وأشرف على أرشيفاته".

"لا أريد أن أعرف".

"أنفق مئة تالنت على الأقل، وهو مبلغ كبير يساوي ربع ميزانية أثينا عندما كانت في أوج قوتها".

"قلت لك لا أريد أن أعرف!".

"خسر إحدى عينيه في المعركة، وسيظل يعرج لبقية حياته. بنى والدك أعظم إمبراطورية شهدها العالم غرب المضائق. فعل كل ذلك لأجلك، وها هو الآن يقدّم إليك آسيا، لكنك فضّلت أن تعيق خططه، واعترضت على المسرات القليلة التي يتوق رجل في سنّه إلى التمتع بها. اذهب إليه أيها الإسكندر وتكلّم معه قبل أن يأتي هو إليك".

"حسناً، حسناً! سأذهب إليه!". غادر الإسكندر، وأغلق الباب وراءه بشدة.

ركض إيومينيس خلفه على طول الرواق: "انتظر! قلت لك انتظر!".

"ما الأمر الآن؟".

"دعني أتكلم معه أولاً".

سمح له الإسكندر أن يمرّ أمامه، ثمّ هزّ رأسه ومضى مسرعاً نحو الجناح الشرقي للقصر.

طرق إيومينيس الباب، ودخل من دون أن ينتظر سماع الرد.

سأله فيليب ووجهه يتوقد غضباً: "ما الخطب الآن؟".

"يريد الإسكندر أن يتحدّث معك".

"ماذا؟".

"مولاي، أسِفَ ابنك لما اقترفه من أفعال. لكن، حاوِل أن تفهمه، إنه يشعر بالوحدة والعزلة، ولم يعد يشعر أنه قريب منك. بل إنّه يشعر أنه فقدَ حنانك، ألا يمكنك أن تسامحه؟ إنه أكبر قليلاً من صبي في النهاية، يعتقد أنك تخليتَ عنه، لذلك سيطر الخوف عليه".

كان إيومينيس يتوقع أن ينفجر غضب الملك بحيث يخرج عن السيطرة، لكنه ذُهل عندما رأى مليكه في حالةٍ من الهدوء التام، وكاد يُصعق.

"هل أنت بخير يا مولاي؟".

"إنني على ما يرام... على ما يرام. دعه يدخل".

خرج إيومينيس إلى حيث كان الإسكندر، الذي بدا شاحباً، ينتظر.

قال له: "إن والدك واقع تحت ضغطٍ كبير، يُحتمل أن يشعر بالوحدة أكثر منك، تذكّر ذلك".

عبرَ الأمير عتبة الباب.

سأله فيليب: "لماذا فعلت ذلك؟".

"أنا...".

صرخ به: "لماذا؟".

"لأنني شعرت أنك استثنيتني من عملية اتخاذك للقرارات، وأبعدتني عن خططك، ولأنني كنت وحيداً، ومن دون أن يتواجد أحد معي كي يساعدني، ويرشدني، ويعطيني النصائح. شعرت أنه يتعيّن عليّ إثبات ذاتي والدفاع عن كرامتي".

"فعلت ذلك من خلال تقديمك عرض زواج من ابنة خادم ملك الفرس؟".

راح الإسكندر يفكّر في أن هذه الكلمات هي تلك التي قالها إيومينيس بالضبط.

تابع فيليب كلامه، وإن بنبرةٍ أكثر هدوءاً: "لكن لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تُخبر والدك؟".

"لكن، سبق لك أن فضّلت آرهيدايوس عليّ، وهو المعاق عقلياً".

ضرب فيليب بقبضته على الطاولة، وصرخ: "بالضبط! ألا تعتقد أن هذا يعني شيئاً ما؟ هل هذا هو المنطق الذي علّمك إياه أرسطو؟".

وقــف الإســكندر صامتاً في مكانه بينما هبّ الملك واقفاً، وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطواته العرجاء.

ســأل الأمير بعد فترةٍ من الصمت: "هل الضرر الذي تسببت به كبير جداً؟".

أجــاب فيليب: "كلا، حتى ولو كان التحالف، عبر الزواج، مع مــرزبان فارسي مفيداً جداً لي في الوقت الحاضر، أي في أثناء تحضّري للتحرك نحو آسيا. ولكن، لكل مشكلةٍ حلّ مناسب".

"أنــا آســف، لن يحدث ذلك مرةً أخرى، سأنتظر حتى تحدّد لي مكاني في حفل زفاف كليوباترا".

"أحــدّد مكانك؟ مكانك هو ذلك الذي يليق بوريث العرش يا بــني. اذهب إلى إيومينيس، إنه يُشرف على كل شيء شخصياً، وهو الذي نظّم الحفل بكل تفاصيله الدقيقة".

احمــرّ وجــه الإسكندر خجلاً عند سماعه هذه الكلمات، وشعر بــرغبة في معانقــة والده، كما كان يفعل عند قدوم فيليب لزيارته في ميــزا، لكنه عجز عن التغلب على خجله وحرجه الذي بات يشعر به الآن عــندما يكــون في حــضرة والده بعد ذلك اليوم المشهود الذي شــهدت فــيه علاقتهما تحولاً نحو الأسوأ. ومع ذلك، تطلّع نحو والده بملامح متعبة، وحتى متوسلة، ففهم فيليب موقف ابنه وقال له: "اذهب الآن، دعني وشأني".

*

قال إيومينيس يدعوه: "تعال، يجب أن ترى ما يمكن لصديقك أن يفعلــه، سيكون هذا الزفاف تحفتي التي أفتخر بها، استبعدَ الملك سادة

الاحـــتفالات وأمـــناء الخزانة، وأوكل إليّ عملية التنظيم". فتح الباب، وأشار إلى الإسكندر بالدخول، ثم قال: "والآن، انظر إلى هذه!".

دخل الإسكندر إلى إحدى غرفتَي الأسلحة الملكية، والتي أُفرغت بـــشكلٍ شبه تام من أجل إفساح المجال لوضع طاولة كبيرة تستند إلى دعـــائم ضخمة، ورأى على سطحها نموذجاً مصغراً للقصر الملكي في إيجية بكل ما يحتويه من أماكن للعبادة وللمسرح.

ظهـــرت الغـــرف مـــن دون سقوف، وهكذا ظهرت الأماكن الداخلية للغرف بما تحتويه من تماثيلٍ طينية تمثل مختلف الشخصيات التي ستشارك في هذه الاحتفالات المهيبة.

تقدّم إيومينيس وتناول عصا عن الطاولة، وقال شارحاً ومشيراً إلى غـــرفة مفتوحة كبيرة المساحة فوق رواق معمّد: "هنا ستجري مراسم الـــزفاف، وبعـــد ذلك يتقدم الموكب العظيم، وهو الحدث الاستثنائي الذي لم يرَ العالم مثيلاً له.

تسير العروس بعد الاحتفال، وتتقدمها وصيفاتها إلى غرفة الزفاف لإتمام الحمّام الطقسي، ولتصفيف شعرها. وحين يتقدم الموكب الكبير، تـــأتي في المقدمـــة تماثيل الأولمب البالغ عددها اثني عشر تمثالاً، وهي التماثـــيل الـــتي تراها هنا والتي يحملها الكهنة على أكتافهم. وسيكون تمـــثال والـــدك بينها، وهو رمز لولائه لها، وتكريماً لدوره بصفته القائد الوحيد والوصي على كل الإغريق.

بعـــد ذلـــك، سيقف الملك في الوسط، وسيرتدي عباءةً بيضاء، وسيـــضع تاجـــاً من أوراق السنديان الذهبية فوق رأسه. أما مكانك، بوصـــفك وريـــثاً للعـــرش، فهو إلى يمينه مع تقدّمك عليه قليلاً، فيما ســـيجلس الإسكندر حاكم إيبيروس إلى يساره، وجميعكم ستتقدمون نحو المسرح الذي يظهر هنا.

أما الضيوف والوفود الأجانب فسيحتلون مقاعدهم عند الفجر، وستقدّم إليهم وسائل التسلية من عروض وتمثيليات يقدّمها ممثلون مشهورون تمّ استقدامهم خصيصاً من أثينا، ومن سيكيون، وكورينث، بمن فيهم تيسالوس الممثل الذي تحبّه كثيراً، وسيستمرّ ذلك إلى حين وصول الموكب".

*

أعاد الإسكندر ترتيب عباءته البيضاء على كتفيه، وتبادل نظرة سريعة مع خاله. كانا يسيران متقدّمَين قليلاً فيليب الذي كان يمشي برفقة حرّاسه. ارتدى ملك مقدونيا سترة قصيرة حمراء ذات أطراف مزخرفة بخطوطٍ إهليليجية، وأشكال أوراق نخيلٍ مذهبة، وارتدى فوقها عباءة بيضاء، وحمل عصا مصنوعة من العاج بيده اليمنى، بينما وضع على رأسه تاجاً من أوراق السنديان الذهبية .بدا مثل التمثال الصغير الذي رآه الإسكندر عند إيومينيس، والذي كان موضوعاً داخل نموذج القصر المصغّر داخل قاعة الأسلحة.

أعد صانعو أحذية الملك حذاءً له يشبه ذاك الذي ينتعله ممثلو التراجيديا، وكان ذا كعبين سميكين وثقيلين لكنّ حاشية عباءته كانت تخفيهما، حتى إن هذين الكعبين كانا يصحّحان بعض عرجه ويضيفان القليل إلى طوله.

جلس إيومينيس في مكانه على منصة خشبية شيّدت فوق أعلى قسم من صحن المسرح، ثم أعطى إشاراتٍ إلى المسؤول عن المراسم مستخدماً أعلاماً ملونةً، وذلك من أجل تنسيق ذلك الموكب المهيب.

نظر إلى يمينه من فوق حلقة المسرح نصف الدائرية، والتي كانت مكتظة بالناس الذين فاقت أعدادهم ما توقعه بكثير، وتطلع بعد ذلك إلى نهاية الطريق المؤدي إلى المسرح حيث تمكّن من رؤية مقدمة الموكب

التي اشتملت على تماثيل الأسياد التي صُنعت على أيدي أمهر الحرفيين، وأُلبست ثياباً حقيقية، ووُضعت على رؤوسها تيجان ذهبية حقيقية، وأحاطت بها حيواناتها المبجلة، مثل نسر زيوس، وبومة أثينا، وطاووس هيرا، وكلها مصنوعة بواقعية مدهشة، بحيث بدت وكأنها تستعد للطيران في أي لحظة.

مشى الكهنة وراء مقدمة الموكب وقد تزيّنوا بأربطتهم المبجلة، وحملوا مباخرهم بأيديهم، ثم ظهر كورسٌ مؤلف من فتيانٍ وسيمين ساروا عراة، وكأنهم مجموعة من مجنحي الحب، وأنشدوا أغانيَ خاصة بالزفاف على أنغام النايات وقرع الطبول.

وبعد ذلك، ظهر الملك يتقدمه ابنه، وشقيق زوجته وزوج ابنته في الوقت نفسه، أما في الجزء الخلفي فظهر سبعة من الحراس الملكيين بأزيائهم الاستعراضية.

أعطى إيومينيس الإشارة، فأومأ مدير المراسم إلى المنادين من أجل تشغيل أبواقهم وطبولهم، وهكذا بدأ الموكب بالتحرك.

كان منظراً رائعاً زادت من روعته الشمس، وصفاء ذلك اليوم. في تلك الأثناء، بدأت مقدمة الموكب بدخول المسرح، وبدأت تماثيل الأسياد بالدخول واحداً تلو الآخر على وقع أنغام الأوركسترا التي وقفت بشكل نصف دائرة، وذلك قبل أخذ مركزها في مقدمة المسرح.

كان كل جزء من الموكب يغيب عن نظر إيومينيس عند دخوله القناطر التي تحيط بالمسرح، لكنّه كان يظهر من جديد داخل المسرح بفعل ضوء الشمس.

مرّ الكهنة من خلال سحابة من البخور، ثم مرّ الفتيان الذين كانوا يرقصون ويغنون أناشيد الحب للعروس. رآهم إيومينيس تحت

القنطرة، وما لبثوا أن ظهروا من جديد في الجهة المقابلة وسط الهتافات التي تصاعدت من الحاضرين.

ظهر في هذا الوقت بالذات الإسكندر المقدوني والإسكندر حاكم إيبيروس، وما لبث الملك أن اقترب أكثر فأكثر. أعطى فيليب، وبحسب خطة مسبقة، الأوامر لحراسه بعدم اللحاق به تحت القنطرة لأنه لا يريد أن يظهر أمام الإغريق وكأنه طاغية يحيط به حراسه.

رأى إيومينيس الشابين يظهران مجدداً داخل المسرح وسط هتافات متحمسة. وفي تلك اللحظة بالذات اختفى الملك في ظلال القناطر الممتدة على الجهة الأخرى، ورأى من طرف عينه الحراس ينسحبون فتطلع نحوهم بسرعة، لكنه عندما دقق النظر أكثر اكتشف أنهم نقصوا واحداً!

في تلك اللحظة بالذات، ظهر فيليب داخل المسرح تحت ضوء الشمس وأدرك إيومينيس ماذا سيحدث، فبدأ بالصراخ بأعلى صوته، لكنّ ضجيج هتافات الجمهور كان قوياً جداً. حدث كل شيء في لحظة خاطفة. فجأة ظهر ذلك الحارس المفقود من الظلمة، وكان يحمل خنجراً قصيراً في يده، هاجم الحارس الملك وغرز سلاحه في جانبه حتى المقبض، وما لبث أن بدأ بالركض مبتعداً عن المكان.

أدرك الإسكندر أن أمراً فظيعاً قد حدث عندما لاحظ ملامح الصدمة بادية على وجوه الحاضرين. والتفت بعد لحظة واحدة من تعرض والده للطعن، فرأى وجهه الذي شحُب فجأة ليصبح مثل أقنعة الأسياد العاجية، ثمّ رأى فيليب وهو يسقط مترنحاً بعد أن وضع يده على خاصرته، فيما سال الدم بسرعة ملوّثاً عباءته البيضاء.

ركض رجلٌ خلف فيليب نحو الطريق المؤدي إلى المروج، فيما أسرع الإسكندر نحو والده الذي كان يسقط على ركبتيه. أما

الإســـكندر حـــاكم إيبيروس فقد ركض أمامهم وهو يصيح: "أوقفوا الرجل!".

وصل الإسكندر إلى فيليب قبل وصوله إلى التراب، وأمسكه بينما كانت الدماء لا تزال تسيل بغزارة ملوثة ثيابه وذراعيه ويديه.

"أبـــي!" صرخ من بين أصوات النشيج المتصاعدة، لكنه أمسكه بقوة. "أبـــي، لا!" أحسّ فيليب بدموع ابنه الحارقة عند سقوطها فوق خديه الخاليين من الدماء.

تحـــوّلت الـــسماء فوقه إلى نقاط مضيئة لا حصر لها، ولم تلبث الظلمـــة أن خـــيّمت علـــى كل شيء. رأى نفسه مجدداً وسط الغرفة الغارقة في الظلمة الحالكة وهو يحمل طفلاً ولد منذ ساعات قليلة. شعر ببشرة الطفل الوليد الناعمة قرب خدّه المليء بالشعيرات النابتة، وأحسّ بشفتي الطفل فوق كتفه المليئة بالجروح، كما شعر بالعطر القوي لورود بيريا يفوح في الهواء، وغرق بعد ذلك في الظلمة والصمت.

38

ركض القاتل بأنفاسٍ متقطعة نحو أجمة من الشجيرات حيث كان رجالٌ آخرون ينتظرونه مع جياد. كان من الواضح أن هؤلاء كانوا من المتواطئين معه، ولذلك أسرعوا بالابتعاد على صهوات جيادهم ما إن أدركوا أنهم ملاحقون.

في هذه الأثناء، استدار الرجل الذي أصبح وحيداً فأدرك أنهم يُطبقون عليه. رمى الإسكندر حاكم إيبيروس عباءته، وركض شاهراً سيفه عالياً في الهواء، وراح يصرخ: "أمسكوه حياً! أمسكوه حياً!".

بدأ القاتل بالركض مجدداً، ولكن بأسرع ما يمكنه هذه المرة، وقبل خطواتٍ قليلة من وصوله إلى جواده حاول أن يقفز إلى صهوته، لكنه تعثر بجذعٍ كرمة، فسقط على الأرض، ثمّ نهض بسرعة. لكن الحرّاس كانوا قد أطبقوا عليه، فطعنوه مراتٍ عديدة، وقتلوه على الفور.

ما إن رأى ملك إيبيروس ما فعلوه حتى صرخ بهم بأعلى صوته: "أيها الحمقى! قلت لكم أمسكوه حياً!".

"لكنه كان مسلحاً يا مولاي، كما حاول أن يهاجمنا".

صاح الملك آمراً: "الحقوا بالآخرين! الحقوا بالآخرين، وأمسكوا بهم!".

وصل الإسكندر في هذا الوقت، وكانت ملابسه لا تزال ملوثة بدماء فيليب، تطلع إلى القاتل، ثم تطلع إلى ملك إيبيروس وقال: "أعرف هذا الرجل، واسمه بوزانياس، وكان واحداً من حراس والدي،

جرّدوه من ثيابه، وعلقوه على عمود عند مدخل المسرح، واتركوه كي يتعفن هناك حتى لا يتبقى منه شيء غير العظام".

في هـــذا الوقت، تجمّع الناس الذين يريدون المشاهدة حول الجثة وكذلك رجال الحرس الملكي، وقادة الجيش، والضيوف الأجانب.

عاد الإسكندر فوراً إلى المسرح الذي بدأ يفرغ بسرعة من الناس، وشاهد كليوباترا في ثوب زفافها، وهي تبكي يائسة فوق جثة والدها. وقف إيومينيس على مسافة ليست بالبعيدة عنها، وكانت عيناه مليئتين بالدموع، بينما وضع يده على فمه، وكان يهزّ رأسه باستمرار، وكأنه عاجز عن فهم ما جرى. لم يكن هناك من أثرٍ للملكة أوليمبيا التي كان من المتوقع وصولها منذ الصباح.

وعلـــى الفـــور، أعطى الإسكندر إشارة التجمع لكل الوحدات القتالـــية الموجودة في المنطقة المجاورة، كما أمر جنوده بنقل جثة والده، وبتحـــضير مراســـم الجـــنازة، وبمرافقة كليوباترا إلى جناحها، وطلب إحضار درعين له ولصهره.

صاح بصديقه كي يوقظه من حالة الذهول: "إيومينيس! فتّش عن الخـــتم الملكي، وأحضِره إليّ، أريدك أن تبعث برُسُلٍ وراء هيفاستيون، وبطلـــيموس، وبيرديكـــاس، وسلوقس، والآخرين. أريدهم أن يكونوا جميعاً هنا غداً مساءً".

وصـــل حاملـــو الدروع بعد وقتٍ قصير، وما لبث الشابان أن وضـــعا الدروع على صدريهما، كما وضعا الدروع الواقية للساقين، وثبـــتا سيفيهما في غمديهما، ثم انطلقا من خلال الحاضرين، تبعتهما مجمـــوعة مـــن الجنود المختارين من أجل احتلال القصر. وُضع جميع أفراد العائلة المالكة في أجنحتهم تحت المراقبة المشددة، ما عدا إمينتاس الـــذي ظهر مرتدياً دروعه وجاهزاً لتنفيذ أوامر الإسكندر، وقال له:

"يمكنك الاعتماد عليّ، وعلى ولائي لك، لا أريد أن تُسفك المزيد من الدماء".

أجاب الإسكندر: "شكراً لك، لن أنسى لك هذه البادرة".

تمركـزت مجموعات من حاملي الدروع ووحدات الفرسان عند مـداخل المدينـة، وأسـرع فيلوتاس بالمثول طوعاً في القصر، وطلب الحصول على أوامره على الفور.

* في وقـت لاحقٍ من ذلك المساء، ظهر الإسكندر، يحيط به ملك إيـبيروس، وابـن عمـه إمينتاس أمام الجيش المتجمع. كان مسلحاً، ويرتدي العباءة والتاج الملكيين، كان المغزى قوياً وواضحاً.

نفخ القادة أبواقهم، وبدأ الرجل يصرخ بتحية ولائهم:

"يحيا الإسكندر، ملك مقدونيا!".

بـدأ الجـنود عـند سماعهم إشارةً أخرى بدقّ رماحهم على دروعهـم، وسـرعان مـا رددت أروقة القصر وأعمدته الضجيج المدوي.

تلقـى الإسـكندر سلامَ وحدات جيشه المجتمعة، ثم أمر بتجهيز بوسيفالاس تحضيراً للمغادرة، واستدعى بعد ذلك إيومينيس وكاليستين اللذين كانا حاضرَين في هذه المناسبة.

"سـتعتني يـا إيومينيس بوالدي، تأكد من غسله وتحنيطه بحيث تُحفظ الجثة إلى وقت الجنازة التي ستقوم بتنظيمها بنفسك. أريدك أيضاً أن تكون في استقبال والدتي لدى وصولها، وأريدك كذلك أن تستدعي المهندس كي يبدأ بالعمل في المقبرة الملكية في أسرع وقتٍ ممكن.

"أمـا أنت يا كاليستين فستبقى هنا. أريدك أن تعرف كل شيء ممكـن عـن القاتل. ابحث عن أصدقائه، وشركائه، حاوِل كذلك أن تعرف إلى أين ذهب، وماذا فعل في الساعات التي سبقت عملية القتل.

استجوِب الحراس الذين قتلوا القاتل بالرغم من الأوامر التي أصدرها صهري، ويمكنك أن تستخدم التعذيب إذا لزم الأمر".

تقدم إيومينيس، وسلّم صندوقاً صغيراً إلى الإسكندر: "الختم الملكي يا مولاي".

تناول الإسكندر الصندوق وفتحه، ثم أدخل الخاتم في إصبعه: "أتحبني يا إيومينيس؟ هل أنت موالٍ لي؟".

"بالتأكيد يا مولاي".

"عليك في هذه الحالة أن تستمر في مناداتي الإسكندر".

توجّه بعد ذلك إلى باحة الاستعراض، وقفز على صهوة بوسيفالاس، وغادر إلى بيلا كي يتسلم العرش ويُظهر لنبلاء البلاط أنه الملك الجديد، وذلك بعد أن ترك حامية في إيجية تحت إمرة فيلوتاس.

في هذه الفترة، فرغ المسرح كلياً ولم يبقَ فيه إلا تماثيل الأسياد، وقد تُركت على قواعدها. أما تمثال فيليب فقد بقي وسط الضوء الآخذ بالتلاشي نتيجة غياب الشمس، وقد حافظ على النظرة الثابتة المنسية.

بدأت الظلمة تزحف على نحوٍ مفاجئ، لكنّ ظلاً ما بدا وكأنه يظهر من الفراغ، كان رجلاً يضع قناعاً على رأسه، دخل الميدان المهجور وأمضى وقتاً طويلاً في فحص آثار الدماء التي كانت لا تزال على الأرض، ثمّ التفت بعد ذلك ومرّ تحت القنطرة المحاذية للمسرح. كانت عيناه تحدّقان إلى شيء معدني ملطخ بالدماء، لكنه نصف مخبوءٍ في الرمال. انحنى كي يتفحصه بعينين رماديتين وصغيرتين، ثم انتزعه وخبّأه بين ثنايا عباءته.

تقدّم الرجل إلى وسط الباحة، وتوقف أمام العمود الذي صُلبت عليه جثة القاتل، كان كل شيء محاطاً بالظلام. ولكن، سرعان ما تناهى إلى مسمعه صوتٌ صادرٌ من ورائه:

"خالي أرسطو، لم أتصوّر أنني سأجدك هنا".

"كاليستين، إنه اليوم الذي كان من المفترض أن يكون يوماً للبهجة وها قد انتهى به الأمر إلى حزنٍ كهذا".

"كان الإسكندر يأمل أن يراك مجدداً. لكن، حدثت أشياء كثيرة وبسرعة كبيرة...".

"أعرف، أنا آسف كذلك، أين هو الآن؟".

"إنه على صهوة جواده، ويقود جنوده نحو بيلا. يريد أن يتأكد من عدم إمكانية قيام انقلاب من جانب إحدى فئات النبلاء. ولكن، ماذا تفعل أنت هنا؟ إنه ليس بالمشهد الذي يُدخل البهجة إلى النفوس".

"إن اغتيال الملوك نقطة حاسمة في تاريخ الأحداث الإنسانية. وكما سمعت فقد أعربت ضالعة دلفي عن هذا التوقع: "الثور مكلل، وكل شيء معدٌّ سلفاً، وجاهزٌ هو الرجل الذي سيضربه". والتفتَ بعد ذلك إلى جسد بوزانياس المشوّه، وقال: "هذا هو الشخص الذي ضرب الثور، لكن من كان سيخمّن معنى التوقع!".

قال كاليستين: "طلب مني الإسكندر أن أحقّق في هذه الجريمة، وأن أحاول اكتشاف الأشخاص الذين يقفون وراء اغتيال والده". تناهت إلى الأسماع أصوات عويل الاشخاص الذين يندبون موت الملك من أماكن العبادة الموجودة في القصر، سأل كاليستين: "أتود أن تساعدني؟ يبدو كل شيء غير منطقي".

قال أرسطو مؤكداً: "هذا هو مفتاح حل الجريمة، لماذا اختار القاتل هذا النوع من القتل العلني، أي القتل في مسرحٍ عام، وكأنه مشهد من مأساة يتحقق في الحياة الواقعية، وبدمٍ حقيقي و..." تناول عند هذه اللحظة شيئاً من عباءته "خنجر حقيقي، خنجر من صنع بلاد السيلتك على وجه الدقة".

"إنـــه ســـلاح غـــير اعتـــيادي... لكـــني ألاحظ أنك بدأت بتحقيقاتك".

سأله مشيراً إلى الجثة مجدداً: "إن الفضول هو مفتاح المعرفة. ماذا تعرف عنه؟".

"أعـــرف القليل، اسمه بوزانياس، وكان من لينكستس، توظّف في عداد حراس الملك بسبب مهاراته الجسدية".

"إنـــه لا يستطيع، مع الأسف أن يخبرنا أي شيء، وبالتأكيد فإن ذلك هو جزء من الخطة، هل حققت مع الجنود الذين قتلوه؟".

"حققت مع واحد أو اثنين، لكنني لم أحصل منهم على أي شيء هـــام، زعموا جميعاً أنهم لم يسمعوا أمر الملك الإسكندر القاضي بعدم قـــتله. إن صدمتهم بسبب قتل الملك فيليب جعلتهم غاضبين جداً. لقد أحـــسّوا بالغـــضب الشديد، لذلك ما إن أبدى القاتل أدنى درجة من المقاومة كي يدافع عن نفسه حتى قاموا بقتله".

"إنهـــا قصة قابلة للتصديق، لكنها قد تكون غير صادقة. أين هو ملك إيبيروس؟".

"غادر برفقة الإسكندر، وها هما الآن في طريقهما إلى بيلا".

"إذاً، هل تخلى عن ليلته الأولى مع عروسه؟".

*

"فعل ذلك لسببين، وكلاهما مفهومان: أولاً، من أجل دعم شقيق زوجـــته في هـــذا المنعطف الحاسم من انتقال السلطة. وثانياً، لإظهار احترامه حداد كليوباترا على والدها".

وضـــع أرسطو إصبعه على فمه إشارةً إلى ابن شقيقته كي يلتزم الـــصمت. إذ تناهـــى إلى سمعـــه وقع حوافر جواد يقفز بعيداً، وكان الصوت يقوى كلما اقترب الجواد.

قـــال الفيلـــسوف: "هـــيا نتحرك، ونبتعد عن هذا المكان، لأن الشخص الذي يظن أنه بعيد عن المراقبة يتصرف بطريقة طبيعية أكثر".

تحـــوّل صـــوت القفـــز إلى إيقاعٍ لطيفٍ لمسير جواد حتى توقف الصوت كلياً. قفز شخصٌ يلف نفسه بثياب سوداء إلى الأرض، وتقدّم قليلاً إلى أن وقف أمام الجثة المصلوبة على العمود، ثم ما لبث أن أرجع غطاء رأسه إلى الوراء، فكشف عن رأسٍ يكلّله شعر متموج جميل.

همس كاليستين في أذن خاله: "بحق الأسياد! إنها أوليمبيا!".

اقتـــربت الملكة أكثر، وتناولت شيئاً ما من ثنايا عباءتها ثم وقفت علـــى أطـــراف أصابع قدميها أمام الجثة، رأى الفيلسوف إكليلاً من الورود حول رقبة بوزانياس، وذلك قبل أن تبتعد كي تنضم إلى مرافقها مجدداً.

قال كاليستين: "بحق زيوس! لكنّ ذلك يعني أن...".

هزّ أرسطو رأسه، وقال: "أتظن أنك تعرف ماذا يعني ذلك؟ الأمر لـــيس واضـــحاً، لأنه إذا كانت قد استأجرت قاتلاً، فهل تظن أنها قد تقـــدم علـــى هذه المبادرة أمام مرافقها وهي تعلم جيداً أن شخصاً ما يراقب جثة بوزانياس؟".

"لكـــنها إذا كانت تعلم ذلك كله فإنها قد تتصرف بطريقة غريبة مـــن أجل دفع أي رجل يحقق في القضية إلى استبعادها لهذه الأسباب بالذات".

قـــال أرسطو ملاحظاً: "هذا صحيح، لكنه من الحكمة أن يحاول الإنـــسان اكتـــشاف الدوافـــع التي يُحتمل أنها دفعت بالمشتبه به إلى ارتكاب الجريمة، بدلاً من أن يخمّن أفكار الآخرين. أريدك أن تُحضِر لي مشعلاً قبل أن نذهب إلى المكان الذي لقي فيه بوزانياس مصرعه".

"لكن، أليس من الأفضل لنا أن ننتظر حتى فجر الغد؟".

"يُحتمل حدوث أشياء كثيرة قبل الفجر، سأنتظرك هناك".

وانطلق الفيلسوف نحو غابة السنديان والدردار القريبة من المكان الذي لقي فيه القاتل مصرعه.

39

مـــع حلـــول الظـــلام، وصل هيفاستيون وبطليموس وسلوقس وبيرديكاس مرتدين دروعهم، وهم في حالة من التعب الشديد، وكان الأربعة يتصببون عرقاً. سلّموا جيادهم للساسة، وأسرعوا بصعود درج القـــصر، ثم توجهـــوا إلى قاعة الاجتماعات حيث كان الإسكندر في انتظارهم.

أمـــا ليوناتوس ولايسيماخوس فقد كان من المنتظر وصولهما في اليوم التالي لأنهما سيأتيان من لاريسا وتساليا البعيدتين.

رافقهـــم أحـــد الحـــرس إلى القاعة المضاءة بالمشاعل، فوجدوا الإسكندر في انتظارهم مع فيلوتاس، والقائد أنتيباتر، والإسكندر حاكم إيـــبيروس، وإمينتاس، وبعض قادة فرقة الفالانج، وفرسان فرقة الرفاق. كـــان جميع الحاضرين قد حملوا دروعهم بمن فيهم الملك، كما وضعوا خـــوذهم علـــى رؤوسهم، ووضعوا سيوفهم أمامهم على الطاولة في متناول أيديهم، وهي إشارة أكيدة على أن الوضع لا يزال خطراً.

تقـــدم الإســـكندر نحـــوهم والتأثـــر الشديد بادٍ على وجهه: "أصدقائي... أخيراً اجتمعنا مجدداً".

تكلـــم هيفاســـتيون بالنيابة عنهم جميعاً: "إننا آسفون جداً لموت الملـــك فيليب، وحزننا لا يوصف. لم نعد حانقين عليه لأنه فرض علينا المنفى، إننا نتذكره على أنه ملكٌ عظيم، وأكثر المقاتلين شجاعة، وأكثر الحكـــام حكمـــة. كان بمثابة والد بالنسبة إلينا جميعاً. كان صارماً لا يتراجع، لكنه كان كذلك كريماً وقادراً على القيام بأنبل المبادرات. إن

حزننا عليه صادقٌ وعميق جداً. كان ذلك حادثاً فظيعاً، لكن يتعيّن عليك تحمّل المسؤوليات التي كان يتحمّلها، كما أننا نعترف بك كوريث له، وكملكٍ علينا".

تقدم هيفاستيون من الإسكندر بعد أن أنهى خطابه القصير وقبّله على وجنتيه، وحذا الآخرون حذوه. حيّا هيفاستيون الإسكندر حاكم إيبيروس، وكذلك فعل جميع القادة الحاضرين، ثم جلسوا على مقاعدهم حول الطاولة.

تابع الإسكندر حديثه من حيث قطعه: "لن تتأخر أخبار موت فيليب عن الانتشار في كل مكان، لأن الاغتيال حدث في حضور آلاف الناس. ويصعب علينا توقع عواقب هذا الحادث. ولكن، يتعيّن علينا أن نتحضّر للتحرك سريعاً لمنع أي شيء، وكل شيء، قد يُضعف مملكة والدي، أو يهدّد الإنجازات التي حققها، وبأي طريقة من الطرائق، سأشرح لكم خطتي.

يجب علينا أن نجمع معلومات عن أوضاع الحدود الشمالية، وكذلك عن رد فعل حلفائنا الجدد، أي أثينا وسكان طيبة وكذلك..." والتفت نحو فيلوتاس عند هذه النقطة، وحدجه بنظرة ذات معنى. "حول نوايا القادة الذين يقودون حملتنا في آسيا، أعني آتالوس وبارمينيون، أعتقد أنه من الضروري أن نعرف نواياهما على الفور، لأنهما يقودان جيشاً مؤلفاً من خمسة عشر ألف جنديّ".

سأل فيلوتاس بصوتٍ ينم عن قدرٍ معيّن من التفهم: "وماذا تنوي أن تفعل؟".

"لا أرغب في أن أضع أياً منكم في موقفٍ محرج، لأنني سأرسل تعليماتي إلى قائد يوناني يدعى هيكاتيوس، يقود كتيبة صغيرة في منطقة المضائق. وقررت كذلك أن أعفي آتالوس من مهام القيادة،

وأنـــا متأكد من أنكم ستتفهمون جميعاً الأسباب التي دفعتني إلى اتخاذ هذا القرار".

لم يعتـــرض أحـــد من الحاضرين، لأن ما جرى قبل سنة في أثناء حفل زفاف فيليب لا يزال ماثلاً بقوة في ذاكرتهم.

قال الإسكندر: "أعتقد أن العواقب الناتجة عن موت الملك ستظهر في وقت قريب، سيرى بعض الناس في موته فرصة للرجوع بالزمن إلى الـــوراء، أي استعادة الطرائق التي كانت سائدة قديماً. وعندها، سيتعيّن عليـــنا إقناع هؤلاء بأنهم مخطئون، وما إن نعالج هذا الخطر الداهم حتى نكون قادرين على البدء في تنفيذ خطط والدي مجدداً".

ســـكت الإسكندر، وأدرك الجميع في تلك اللحظة أن الزمن قد تجمّد، وأن مستقبلاً يتعدى قدرة أي شخص على التصور يجري تحضيره في هذه القاعة. إن ذلك الشاب الذي علّمه فيليب وهذّبه، طيلة سنوات طـــويلة مـــن العمـــل الـــشاق والتضحيات، يجلس الآن على عرش الأركـــاديين، كما أنه يُمسك، وللمرة الأولى في حياته بزمام قوة هائلة لم يسبق له أن رأى مثيلاً لها إلا في أشعار الملاحم.

*

توجّه الإسكندر برفقة سميّه وصهره إلى إيجية، تاركاً قيادة مختلف وحـــدات فرقة الفالانج، وHetairoi بأيدي أصدقائه، بينما أوكل إلى هيفاســـتيون إدارة القـــصر الملكي. كان ينبغي دفن فيليب إلى جانب معالجة عدة قضايا خطيرة في العاصمة القديمة.

التقوا عند منتصف الطريق مع مبعوث أرسله إيومينيس بمهمة عاجلة.

صـــاح المـــبعوث وهـــو يناوله رزمة من أوراق البردى الملفوفة بإحكام: "من حسن حظي أنني التقيت بك يا مولاي، يريدك إيومينيس أن تقرأ هذه الأوراق على الفور".

فتح الإسكندر الرزمة وقرأ الرسالة المختصرة:

من إيومينيس إلى الإسكندر، ملك مقدونيا، سلامٌ عليك!
وُجِد طفل يوريديس الصبي مقتولاً في مهده، وأنا أخشى على حياة يوريديس ذاتها.
وصلت الملكة أوليمبيا إلى هنا في الليلة التي غادرتَ فيها إلى بيلا.
يجب أن تحضر على الفور.
انتبه إلى نفسك.

سأل الإسكندر صهره: "لقد وصلت والدتي إلى هناك فور مغادرتنا؟ هل تعرف شيئاً عن هذا الموضوع؟".

هزّ ملك إيبيروس رأسه: "لم تقل لي شيئاً عندما غادرت بوثروتوم، لكنني لم أظن أبداً أنها ستحضر الزفاف. كانت تعتبر الزفاف مجرد إهانة أخرى بالنسبة إليها، واعتبرت أن تلك هي طريقة فيليب في عزلها تماماً، وذلك لأنني سأضطر بعد الزفاف إلى تأمين سلامة حدوده الغربية بشكلٍ رسمي. لم أظن أبداً أنها قد تلحق بي إلى إيجية".

قال الإسكندر وهو ينخس جواده كي يثب وثباً: "على كل حال، إنها هناك الآن. ويبدو أنها قامت ببعض المبادرات الحاسمة، دعنا نتحرك قبل أن تُقدم على شيء لا يُمكن إصلاحه".

وصلا إلى إيجية في مساء اليوم التالي بينما كانت الشمس تتهيأ للمغيب، وتمكنا من سماع أصوات النحيب والبكاء آتية من القصر البعيد. وما إن وصلا إلى مدخل القصر حتى وجدا إيومينيس في استقبالهما.

"بقيت تبكي هكذا لمدة يومين، وقالت إن والدتك هي التي قتلت الصبي، رفضت تسليم جثته، لكن الوقت يمضي... وأنت تعرف...".

"أين هي؟".

أجاب إيومينيس: "إنها في الجناح الجنوبي، تعالَ معي".

أومأ الإسكندر إلى حارسه كي يتبعه في أثناء تجواله في أنحاء القصر. كان الجنود المسلحون يحرسون كل قسم من أقسام القصر، وكان عدد كبير من هؤلاء الحراس من إيبيروس، أي من أفراد حرس صهره.

"من أمر بوضعهم هنا".

أجاب إيومينيس وهو يسير بأنفاسٍ متقطعة وراء الإسكندر: "والدتك الملكة".

تصاعدت أصوات العويل كلما اقتربوا أكثر، وكان يتحوّل بين الحين والآخر إلى صراخٍ حاد قبل أن يصبح نشيجاً طويلاً وضعيفاً.

وصلوا إلى الباب، وأسرع الإسكندر إلى فتحه من دون تردد، لكنّ ما رآه في الغرفة جعله يجمد في مكانه على الفور. فلقد استلقت يوريديس في الزاوية، وقد بدا شعرها مشعّثاً وعيناها منتفختين وحمراوين، فيما بدت نظراتها مجنونة. كانت تحمل جثة ولدها وتضمها إلى صدرها، وكان رأس الصبي وذراعيه تتدلى إلى الخلف في حين كان اللون الأزرق لأطرافه علامة أكيدة على أن عملية التحلّل قد بدأت.

كانت ملابسها ممزقة وشعرها كتلة واحدة بفعل الدم المتجمد، أما الخدوش والجروح فقد غطت وجهها وذراعيها. كما فاحت الرائحة الكريهة والمثيرة للقرف كالعرق، والبول، والتعفن في جميع أنحاء الغرفة.

أغمض الإسكندر عينيه للحظة فتذكّر رؤية يوريديس في أوج روعتها، أي عندما جلست إلى جانب والده الملك. كانت الفتاة التي أحبها الملك ودلّلها كثيراً، والتي حسدها الجميع. شعر بالهلع في أعماقه، وأحسّ بالغضب يملأ صدره وشرايينه.

التفت إلى إيومينيس، وسأله بصوتٍ مليء بالغضب: "من فعل ذلك؟".

خفض إيومينيس رأسه، والتزم بالصمت.

صاح الإسكندر: "من فعل هذا؟".

"لا أعرف".

"أريدك أن تستدعي شخصاً ما كي يعتني بها على الفور. أحضِر طبيبي فيليب، واطلب منه أن يهتم بها، وأن يعطيها شيئاً يجعلها ترتاح... وتنام".

بدأ بالابتعاد، لكنّ إيومينيس استوقفه: "لن تترك الطفل، ماذا يمكننا أن نفعل؟".

توقف الإسكندر، والتفت نحو يوريديس التي هبطت أكثر نحو الزاوية مثل حيوانٍ خائف.

تحرّك نحوها ببطء، وركع أمامها، ثمّ حدّق إلى عينيها، حرّك رأسه قليلاً كي يخفّف من قوة نظرته، وكأنه يريد أن يحيطها بهالةٍ من التعاطف، ثمّ مدّ يده وراح يلامس خدها.

أغمضت يوريديس عينيها، وأرجعت رأسها إلى الخلف حتى استندت إلى الجدار، ثم أطلقت تنهيدة طويلة محزنة.

مدّ الإسكندر ذراعيه وقال لها بهدوء: "أعطيني إياه يوريديس، أعطيني الصغير، ألا تظنين أنه متعب؟ يجب أن نضعه في سريره".

سالت دمعتان كبيرتان ببطء فوق خدَّي يوريديس ووصلتا إلى شفتيها، ثمّ قالت هامسة: "نم"، وما لبثت أن أرخت قبضتها عن جسد الصبي، فأخذه الإسكندر برفقٍ، وكأن الطفل نائم فعلاً، ثم خرج إلى الرواق.

في هـــذا الوقت، أرسل إيومينيس في طلب امرأة. وحين وصلت قالـــت للإسكندر: "أعطني إياه يا مولاي". وضع الإسكندر الطفل بين ذراعَيها، ثم أمرها: "ضعيه إلى جانب والدي".

*

صرخ ما إن دخل الغرفة: "لماذا؟ لماذا؟".

وقفـــت الملكـــة أوليمبيا أمامه وعيناها تغليان غضباً: "أتجرؤ على دخول غرفتي بسلاحك؟".

صاح الإسكندر: "أنا ملك مقدونيا! أستطيع أن أفعل ما يحلو لي! لمـــاذا قتلتِ الطفل، ولماذا فعلتِ هذه الأفعال البربرية بأمه؟ من أعطاكِ هذا الحق؟".

أجابـــت أوليمبيا من دون اكتراث: "أنت ملك مقدونيا بسبب مـــوت هذا الطفل، أليس ذلك ما أردته؟ أنسيتَ كم شعرتَ بالخوف لأنك لم تعد الولد المفضّل لدى فيليب؟ أم أنك نسيتَ ما قلتَه لآتالوس في يوم زفاف والدك؟".

"لم أنـــسَ، لكـــنني لا أقتل أطفالاً، ولا أهاجم نساءً لا يتمتعن بالحماية".

"لا توجد طرائق أخرى أمام الملك، وهو يبقى وحده على الدوام. لا وجود لقانون يحدّد الشخص الذي يجب أن يعتلي العرش، كان يمكن لأي جماعـــة من النبلاء أن تقرر وضع الطفل تحت حمايتها، وأن تحكم باسمه إلى أن يبلغ سن الرشد. إنني أسألك: ماذا كنت ستفعل لو حدث ذلك؟".

"كنت سأحارب حتى أستولي على العرش!".

"وكـــم من الدماء كانت ستُراق؟ أجبني عن هذا السؤال! وكم كـــان عـــدد الأرامـــل اللـــواتي سيلبسن الثياب السوداء حداداً على

أزواجهـــن، وكـــم عدد الأمهات اللواتي سيلبسن الأسود حداداً على أولادهـــن الذين ماتوا قبل أوانهم؟ ما عدد الحقول التي كانت ستُحرق وتتحول إلى رماد؟ وما عدد المدن والقرى التي كانت ستُهدم وتسوّى بـــالأرض؟ ففـــي كـــل الحالات كانت الإمبراطورية التي بناها فيليب بالدماء، وبعد إحداث دمارٍ كبير، معرضةً للتفكك".

اســـتعاد الإسكندر رباطة جأشه، وكانت ملامح وجهه تعكس التأثر، وكأن مشاهد المذابح والحداد التي تحدثت عنها والدته قد أثّرت فيه بشكلٍ مفاجئ دفعة واحدة، مثقلةً روحه بالحزن.

أجـــاب الإســـكندر: "إنه القدر الذي يحتّم على الإنسان تحمّل الجروح والأمراض والآلام والموت قبل أن يتهاوى في ثنايا العدم. لكنّ الإنـــسان يستطيع أن يتصرّف بشرف، وأن يكون رحوماً كلما كان ذلـــك ممكناً، لأن ذلك يقع في نطاق قدرته، كما أنها خيارات حقيقية، هـــذا هو الشرف الحقيقي الذي يُمنح للإنسان في أثناء حياته على هذه الأرض، وهو النور الوحيد الذي يضيء قبل مجيء الليل اللامتناهي...".

40

في اليوم التالي، أبلغ إيومينيس الإسكندر أن مدفن فيليب أصبح جاهزاً، وأنه أصبح في الإمكان الآن إتمام مراسم الدفن. لكنه، وفي واقع الأمر لم يتم إنهاء إلا الجزء الأول من التمثال الكبير، وتم ذلك بسرعة كبيرة، وكان من المقرر أن يتم إنشاء غرفة ثانية تحتوي على كل الأشياء الثمينة التي سترافق الملك في رحلته الأبدية.

أُلبِس فيليب أبهى ثيابه، كما وُضع إكليل من أوراق السنديان الذهبية فوق رأسه. وضع جنود الملك جثته في المحرقة التي تُستخدم في المآتم، ووقفت كتيبتان من قوات الفالانج، وكتيبة من فرقة الرفاق لتأدية التحية.

استُخدم الشراب من أجل إطفاء ألسنة اللهب، ثم وُضع الرماد والعظام في قماشٍ أرجواني مذهّب على شكل عباءة عسكرية مقدونية، ووُضعت حزمة القماش هذه في صندوقٍ من الذهب الخالص، وكان طرفا الصندوق على شكل قائمتي ومخالب أسد، كما وضعت نجمة أركادية ذات ستّ عشرة زاوية على غطاء الصندوق.

كما وُضع في الصندوق الذهبي درع صدر الملك المصنوع من الحديد والجلد والذهب، ودروع وقاية الساقين البرونزية، وسهمه الذهبي، ودرعه المخصّص للاستعراضات والمخطط بطبقة من الذهب والمزخرف بمشهد ديونيزي، وكلها محفورة بالعاج. أما سلاحاه، أي سيفه ورمحه، فقد ألقيا في نيران المذبح، ثم قوّسا بعد ذلك جرياً على العادة كي لا يُعاد استخدامهما مجدداً.

ووضع الإسكندر أغراض والده الشخصية إلى جانبه: وعاء كبير من الفضة الخالصة ذو مسكتين مزخرفتين ورأس ذو لحية، وكوبان فضيّان جميلان، لكنهما خفيفان إلى درجة أنهما يبدوان من دون وزن.

أما مدخل المدفن فكان مغلقاً بباب مزدوجٍ من الرخام، يحيط به عمودان دوريان، وكلها مزينة برسوم تحاكي الزخرفات الموجودة في مدخل القصر الملكي في إيجية. كما قَدِم فنان من بيزنطة وعمل على صنع إفريزٍ يحاكي مشاهد الصيد الرائعة الموجودة على قواعد الأعمدة.

لم تحضر الملكة أوليمبيا مراسم الجنازة لأنها لم ترغب في تقديم نذورٍ فوق محرقة زوجها، وكذلك لأنها لم ترغب في الالتقاء بيوريديس.

بكى الإسكندر عندما أغلق الجنود الباب الرخامي الكبير. كان يحب والده كثيراً، ولذلك شعر أن شبابه هو الذي يُدفن في المقبرة.

أمّا يوريديس فقد استسلمت لليأس، و لم تتناول شيئاً من الطعام حتى ماتت جوعاً مع ابنتها أوروبا الصغيرة. حاول الطبيب فيليب أن يفعل كل ما في وسعه، لكنه لم يُفلح في إنقاذ حياتيهما.

أمر الإسكندر ببناء مقبرة رائعة لها، كما أمر بأن يوضع العرش الذي اعتلاه والده عندما كان يجلس بصفته قاضياً تحت شجرة السنديان في إيجية، داخل المقبرة. كان عرشاً فخماً مزيناً برسوم ذهبية تمثّل طائر العنقاء، وأبا الهول، بالإضافة إلى عربة تجرها أربعة أحصنة مرسومة على مسنده. وبعد ذلك، عاد الإسكندر إلى بيلا بعد أن فرغ من القيام بواجباته، وبعد أن امتلأت روحه حزناً.

*

كان القائد أنتيباتر أحد ضباط الحرس القديم لفيليب، وموالياً لعرشه، لذا كان بإمكان الإسكندر الوثوق به بالكامل. فأسند إليه

مهمـــة تتبع أنشطة هيكاتيوس وهي المهمة التي كان يتولاها بارمينيون وآتالوس، لكنه كان قلقاً من عواقب هذه الخطوة.

أدرك الإسكندر أن برابرة الشمال، أي التريباليين وسكان إيليريا الـــذين هـــزمهم والده منذ وقتٍ قريب قد يثورون في أي لحظة، وأن الإغـــريق قد قبلوا تحالف سلام كورينث بسبب المجزرة التي حدثت في تـــشايرونيا. وعلـــم كـــذلك أن جميع أعدائه، وديموستين على وجه الخصوص، كانوا أحياء ويتحركون بنشاط، يُضاف إلى ذلك أن آتالوس وبارمينـــيون يـــسيطران علـــى مـــنطقة المضائق، وكانا يقودان حملةً استكشافية قوامها خمسة عشر ألف رجل.

بـــدا الأمر وكأن كل هذه التهديدات لا تكفي، إذ وصلته أخبار تفـــيد أن عمـــلاء للفـــرس يقيمون اتصالات مع مجموعاتٍ معارضة للمقدونيين في أثينا، ويعرضون مبالغ ضخمة من المال على شخصٍ قادر ومستعد للقيام بحركات تمرد.

شـــاعت الاضـــطرابات في البلاد بحيث إذا قدّر لهذه المشاكل أن تـــتحوّل إلى مـــشاكل حقيقـــية، فإن الملك الجديد سيجد نفسه أمام صعوباتٍ جدية.

وصـــلت أولى الإجابـــات عن أسئلته مع بداية فصل الخريف، إذ طلـــب أنتيباتر الاجتماع بالملك. وهكذا، استقبله الإسكندر في الغرفة التي كانت مقراً لوالده. كان أنتيباتر رجلاً عسكرياً قلباً وقالباً، لكنه لم يتفاخر بمركزه، حتى إنه كان يرتدي عادة لباس مواطن عادي، وكانت هذه الميزة دليلاً واضحاً على توازنه، وثقته الشديدة بنفسه.

قـــال ما إن دخل الغرفة: "مولاي، هذه هي الأخبار التي وردتني من آسيا: رفض آتالوس الانصياع للأمر والرجوع إلى بيلا، كما أظهر مقاومة مسلحةً قُتل خلالها، أما بارمينيون فيؤكد لك ولاءه التام".

"أريد يا أنتيباتر أن أعرف رأيك الحقيقي ببارمينيون. أنت تعرف أن ابنه فيلوتاس موجود هنا في البلاط، ويُحتمل أن يعتبره رهينتي بطريقة أو بأخرى. هل هذا، برأيك، السبب الذي يجعله يعلن الولاء لي؟".

أجاب القائد المسن من دون أي تردد: "كلا، إنني أعرف بارمينيون جيداً. إنه يحبك كثيراً منذ أن كنتَ طفلاً تجلس على ركبتَي والدك في أثناء انعقاد مجالس الحرب في مستودع الأسلحة الملكية".

تذكّر الإسكندر فجأة الأغنية التي كان ينشدها عند رؤيته شعر بارمينيون الأبيض:

ينطلق الجندي القديم إلى الحرب
ويقع على الأرض، يقع على الأرض!

شعر الإسكندر بحزنٍ عميق يخيّم عليه وهو يفكّر كيف يُمكن للسلطة أن تغيّر العلاقات بين الناس.

تابع أنتيباتر حديثه: "لكن، إذا كانت الشكوك تساورك حول هذه المسألة فهناك طريقة واحدة لحسمها".

"أن أرسل إليه فيلوتاس".

"بالضبط، لأن ولديه الآخرين نيكانور وهيكتور يتواجدان معه بالفعل".

"وهذا ما سأفعله، سأرسل إليه فيلوتاس مع رسالة تدعوه إلى الرجوع إلى بيلا، إنني أحتاج إليه هنا لأن عاصفةً ما توشك على الوقوع".

"يبدو لي أن هذا قرار حكيم يا مولاي، إن بارمينيون يضع شيئاً واحداً فوق كل الأمور الأخرى، وهو الثقة".

"هل من أخبار عن الشمال؟".

"هناك أخبار سيئة، ثار التريباليون، وأحرقوا بعض المواقع الحدودية".

"ماذا يجب أن أفعل برأيك؟".

"أرسلت إليهم إنذارات. إذا تجاهلوها يمكنك أن تضربهم بكل قسوة".

"بالتأكيد. لكن، ماذا عن الجنوب؟".

"ما من أخبارٍ سارة هناك أيضاً، إن الجناح المعادي للمقدونيين يتصاعد، وحتى في تساليا. إنك شاب، ويوجد بعض الناس الذين يظنون...".

"قل ما عندك أنتيباتر".

"يظنون أنك مجرد فتى ليست لديه تجربة، وأنك لن تنجح في الاحتفاظ بالسيطرة التي تمتع بها والدك".

"سيضطرون إلى التراجع عن ظنونهم".

"بقي أمرٌ آخر".

"ما هو؟".

"ابن عمك آرخيلاوس...".

ازدادت ملامح الإسكندر جدية، لكنه حثّ محدّثه على متابعة الحديث: "تابِع".

"تعرض لحادث عندما كان في رحلة صيد".

"هل مات؟".

أومأ أنتيباتر.

"عندما تولى والدي العرش لم يقتل آرخيلاوس أو إمينتاس، مع أنهما كانا مؤهلَين لولاية العرش".

كرّر أنتيباتر بهدوء: "كان حادث صيد يا مولاي".

"أين إمينتاس؟".

"إنه في الأسفل، في مقر الحرس".

"لا أريد أن يلحق به أي أذى. بقي إلى جانبي بعد اغتيال والدي مباشرة".

أومأ أنتيباتر كي يُظهر أنه فهِم، ثم توجّه نحو الباب.

نهض الإسكندر، ووقف أمام الخريطة الكبيرة التي خططها أرسطو، والتي وضعها في غرفته الخاصة. أدرك أن الجهتين الغربية والشرقية كانتا آمنتين، لأن الحدود الغربية يحرسها الإسكندر حاكم إيبيروس، أما الحدود الشرقية فكانت بعهدة بارمينيون، على افتراض أنه يستطيع الوثوق بذلك القائد العجوز. لكنّ الجهتين الشمالية والجنوبية تشكلان تهديدين خطيرين، لذا تعيّن على الإسكندر أن يضرب بأقصى سرعة ممكنة، وبطريقة حاسمة لكي لا يترك أي شكوك في حقيقة كون ملك مقدونيا الجديد يتمتع بالقوة ذاتها التي كان يتمتع بها فيليب.

توجّه إلى الشرفة المواجهة للشمال، وتطلع نحو الجبال التي أمضى فيها فترة نفيه. كانت الغابات على وشك أن تغيّر ألوانها مع قدوم فصل الخريف، كما أن الثلج لن يتأخر في الوصول، وسيخيّم الهدوء على تلك المنطقة حتى قدوم الربيع. أما المهمة الملحة في الوقت الحاضر فهي إخافة أهالي تساليا وطيبة. وبدأ الإسكندر يفكّر في خطة التحرك خلال انتظاره رجوع فيلوتاس وبارمينيون من آسيا.

وبعد مرور أيامٍ على عودتهما، دعا الإسكندر إلى عقد مجلس حربي.

أعلن الإسكندر بثقة: "سأدخل تساليا بجيشٍ مستعد للحرب، وسأتأكد من تثبيت لقب تاجوس ليكون لقبي بعد أن كان لقب والدي، كما سأصل بقواتي إلى حدود طيبة. أريد أن يفهم سكان

تـــساليا أنه أصبح لديهم قائد جديد، أما بالنسبة إلى سكان طيبة فإنني أريـــد أن أخيفهم حتى الموت، سيتعيّن عليهم أن يدركوا، حقيقة، أنني أســـتطيع أن أضـــرب في أي وقتٍ كان، وبأي طريقة كانت، وحيث شئت".

تـــدخل هيفاستيون عند هذه النقطة: "لكن، تبقى هناك مشكلة. أقـــدم سكان تساليا على إغلاق وادي العواصف بتحصينات عن يمين النهر ويساره، إننا معزولون".

تقدّم الإسكندر قليلاً نحو خريطة أرسطو، وأشار إلى جبل أوسا، وإلى المنحدر الذي يطل على البحر.

أجاب: "أعرف ذلك، لكننا سنمرّ من هنا".

ســـأل بطليموس: "وكيف؟ ليست لدينا أجنحة، وعلى الأقل لم تكن لدينا في آخر مرة تطلعت فيها".

أجـــاب الإســـكندر: "لديـــنا المطارق والأزاميل، سنشق ممراً في الـــصخور، أحـــضِر إليّ خمسمئة عامل منجم من جبل بانجايوس. أريد الأفـــضل من بين العمال. أطعِمهم جيداً، وزوّدهم بالملابس والأحذية، وعِـــدهم بمنحهم الحرية إذا أكملوا المهمة في عشرة أيام. سيعمل هؤلاء علـــى شـــكل فرقٍ متناوبة، وسيبدأون العمل بدءاً من البحر وصعوداً، وهكذا لن يتمكّن التساليون من رؤيتهم".

سأل سلوقس: "هل أنت جاد؟".

"أنا لا أمزح في أثناء انعقاد مجالس الحرب. والآن، دعونا نتحرك".

نظر كل الحاضرين إلى بعضهم بذهول. كان من الواضح بالنسبة إلـــيهم عـــدم وجود عقبة، أو مانع بشري أو غير ذلك، يمكنه إيقاف الإسكندر.

41

كـــان ممر الإسكندر جاهزاً في غضون سبعة أيام. فأسرع جنود الهجـــوم مـــن حاملي الدروع إلى التسلّل إلى سهل تساليا من دون أن يضطروا إلى رفع أسلحتهم ولو لمرة واحدة.

وتمكـــن مبعوث يمتطي جواداً، وبعد مرور ساعات عدة، من نقل هـــذه الأخبار إلى قائد التساليين. ولكن، من دون أن يقدّم أي تفسير، وذلك لسبب بسيط وهو أن أحداً لا يمتلك أي تفسير لما حدث.

"أتـــريد أن تقـــول لي إن الجـــيش المقدوني أصبح خلفنا بقيادة الملك؟".

"أجل سيدي".

"وكيف تمكنوا من ذلك برأيك؟".

"لا أحد يعرف يا سيدي. لكنّ الجنود موجودون هناك بالتأكيد. وهناك عدد كبير منهم".

"كم يبلغ عددهم؟".

"ما بين ثلاثة وخمسة آلاف، وهم مجهزون بأسلحة كافية، حتى إن هناك بعض الجياد، ليست أعدادها كبيرة، ولكن يوجد عدد منها على كل حال".

"هـــذا مـــستحيل، لا يستطيعون المرور من جهة البحر، وما من طـــريقٍ لهم عبر الجبال كذلك". كان القائد الذي يُدعى شاريديموس لا يـــزال يـــتكلم عندما أبلغه أحد جنوده أن كتيبتين من قوات الفالانج، وفـــرقة واحدة من الخيالة تتقدم من جهة النهر نحو التحصينات. ويعني

ذلــك أن التــساليين سيقعون بين فكّي كماشةٍ ويُسحقون على أيدي جيــشين. وحضر أحد الجنود بعد مرور وقتٍ قليل ليخبره أن ضابطاً مقدونياً يدعى كراتيروس يطلب التفاوض.

قــال شاريديموس آمراً: "قل له إنني سأقابله على الفور". وأسرع من خلال باب خلفي كي يلتقي ذلك الضابط المقدوني.

عــرّف الضابط عن نفسه: "اسمي كراتيروس. أتيت كي أطلب مــنك أن تسمح لنا بالمرور الآن عبر منطقتك، إننا لا ننوي أذيتكم، لأننا، وببساطة، ننوي الالتحاق بملكنا ورجاله المتواجدين في منطقتك والــذين هــم في طــريقهم إلى لاريسا، حيث نريد دعوة التحالف التسالي".

قال شاريديموس: "ليست لدي خيارات كثيرة".

أجاب كراتيروس: "ليست لديكم خيارات كثيرة بالفعل".

"حسناً، دعنا نتفاوض، لكنني أريد أن أعرف شيئاً".

أعلــن كــراتيروس بلهجةٍ رصينة: "سأجيبك إذا كان ذلك في استطاعتي".

"كيف تمكن جنودكم المشاة من الوصول إلى هنا؟".

"شققنا ممرّاً في الجهة البحرية لجبل أوسا".

"أتقول ممراً؟".

"أجــل، شققنا ممراً، وهو الممر الذي كنا بحاجةٍ إليه للتّواصل مع حلفائنا من التساليين".

شــعر شاريديموس بالصدمة التامة، لكنه اعترف أنه ليس لديه أي خيار غير السماح لهم بالعبور من منطقته.

بعــد يــومين، وصــل الإسكندر إلى لاريسا، ودعا إلى اجتماع لأعضاء التحالف التسالي، وأعلن عن تثبيت لقبه تاجوس لمدى الحياة.

وبعد ذلك، انتظر الإسكندر وصول فرق جيشه الأخرى، وذلك قبل التقدم عبر بواتيا، والاصطفاف بمحاذاة أسوار طيبة في عرضٍ مهيبٍ للقوة.

قـــال الإسكندر: "لا أريد سفك الدماء. لكن، يجب أن نصيبهم بالهلع، نفّذ هذا الأمر يا بطليموس".

أمـــر بطليموس الجيش بالاصطفاف بالترتيب ذاته الذي اتخذه في معـــركة تـــشايرونيا، وطلـــب من الإسكندر وضع الدرع ذاته الذي استخدمه والده، كما قام بتحضير طبل الحرب الضخم والمدولب الذي تجره أربعة جياد.

كـــان في الإمكـــان سماع صوت ذلك الطبل الرهيب من خلال أســـوار المدينة وبوضوح. وكان سكان طيبة قد حاولوا منذ أيام قليلة مهاجمـــة الحامـــية المقدونية التي تتمركز في قلعة كادميان، وساعدهم الـــصوت علـــى تذكّر الإصابات التي لحقت بهم، بالإضافة إلى وجود جـــيشٍ يطلق تهديداته، مما أدّى إلى تهدئة النفوس الثائرة. لكنّ ذلك لم يكن كافياً لإطفاء نار الحقد التام، والرغبة في الثأر.

سأل الإسكندر هيفاستيون وهو يسير بجيشه بمحاذاة أسوار طيبة: "هل هذا كاف؟".

"أعتقد أنه كافٍ الآن، لكن لا تخدع نفسك. ماذا ستفعل بالمدن الأخرى التي طُردت منها حامياتنا؟".

"لن أفعل شيئاً، أريد أن أكون قائد الإغريق، وليس طاغيتهم، يتعيّن علـــيهم أن يفهموا أنني لست عدواً، وأن العدو يقبع هناك وراء البحر، العدو هو بلاد فارس التي تصرّ على حرمان المدن اليونانية من حريتها".

"هل صحيح أنك أمرت بإجراء تحقيق بقضية مقتل والدك؟".

"أجل، طلبت من كاليستين أن يهتم بالأمر".

"وهل تعتقد أنه سيتوصل إلى حقيقة ما حصل؟".

"أعتقد أنه سيفعل ما في وسعه".

"وماذا سيحصل إذا اكتشف أن الإغريق هم المسؤولون؟ أو الأثينيين، على سبيل المثال؟".

"سأقرّر ما ينبغي عمله عندما يحين الوقت".

"شوهد كاليستين مع أرسطو، هل علمتَ بذلك؟".

"بالطبع".

"وكيف تفسّر حقيقة أن أرسطو لم يأتِ كي يتحدث معك شخصياً؟".

"لم يعد التحدث معي سهلاً بالنسبة إلى أي شخص، أو لعله يريد الحفاظ على استقلالية كاملة في تقييم الوضع".

تفرقت آخر فرقة من الرفاق مع تلاشي قرع الطبل الضخم، كما عقد سكان طيبة المجلس المخصّص من أجل اتخاذ القرارات الهامة. ووصلت إلى المجلس رسالة من ديموستين الموجود في كالوريا يحثّهم فيها على عدم فقدان الأمل، والتحضير والاستعداد لثورتهم القادمة.

جاء في الرسالة: "إن فتى صغيراً يتربع على عرش مقدونيا، من الواضح أن الوضع يسير لصالحنا".

سرّ جميع الحاضرين تقريباً بكلمات ذلك الخطيب. لكنّ بعض أعضاء مجلس طيبة فضّلوا أن يكونوا أكثر تعقلاً. وطلب أحد المسنّين الذي فقد ولدين في معركة تشايرونيا الكلام، فقال: "تمكّن ذلك الفتى الصغير كما يسميه ديموستين من قهر تساليا في غضون ثلاثة أيام ومن دون خوض أي معركة، كما أنه بعث إلينا رسالة واضحة تمثلت في هذا الاستعراض الذي أجراه تحت أسوار مدينتنا".

أمـــا الأصـــوات الغاضبة التي تمكنت من إسماع آرائها إلى مختلف الأحـــياء، فقـــد تمكنت من إضعاف الأصوات التي تدعو إلى التعقّل، وهكذا تحضّر سكان طيبة لتوجيه ضربتهم عند ظهور أول فرصة.

وصل الإسكندر إلى كورينث من دون أي عوائق على الإطلاق، وأســـرع على الفور إلى دعوة مجلس التحالف الهليني، كما طلب تثبيته بصفته قائداً للجيوش الاتحادية.

أصـــدر الإســـكندر إعلانـــاً في أثـــناء اعتلائه المقعد الذي كان يستخدمه والده: "ستكون كل دولة من الدول الأعضاء حرةً في حكم نفـــسها كمـــا تريد، ولن يكون هناك أي تدخل في أنظمتها الداخلية ودســـاتيرها. إن غاية الاتحاد الوحيدة هي تحرير الإغريق الآسيويين من النير الفارسي، والحفاظ على السلام الدائم بين الإغريق الذين يعيشون في شبه الجزيرة".

وقّعت الوفود على هذا الإعلان باستثناء أفراد وفد إسبارطة الذين لم يدعموا مبادرة فيليب كذلك.

أبلغ موفد إسبارطة الإسكندر: "تعودنا على قيادة الإغريق، وليس على الخضوع لقيادتهم".

أجاب الملك: "أنا آسف لأن الإسبارطيين جنود متمرسون. وفي الـــوقت الراهن، إن المقدونيين هم أقوى الشعوب الإغريقية. وهكذا فـــإن توليـــهم القيادة أمر صائب. لذا، يجب أن يكونوا القادة، وأن يتمـــتعوا بحـــق السيطرة". أظهرت هذه الكلمات بعض الأسف لأنه كـــان يعـــرف الـــشجاعة التي أبداها جنود إسبارطة في ثيرموبايلاي وبلاتـــيا. وكـــان يدرك تماماً أنه ما من قوة يمكنها أن تقاوم عوامل الـــزمن، لأن الـــشيء الوحيد الذي يبقى ويستمر مع الزمن هو مجد الذين عاشوا بشرف.

زار الإسكندر دلفي في رحلة عودته، فأُعجب بها، وتأثر كثيراً بعجائب تلك المدينة المبجلة. توقف أمام واجهة معبد أبولو، وراح يتفحص الكلمات المزخرفة المحفورة فيها:

اعرف نفسك

سأل كراتيروس الذي لم يسبق له أن فكّر كثيراً بالمسائل الفلسفية: "ماذا تعني هذه الجملة؟".

أجاب الإسكندر: "إنها واضحة، إن معرفتنا أنفسنا أصعب مهمة نقوم بها لأنها لا تشتمل على المنطق وحده، بل تتضمن كذلك معرفة مخاوفنا وطموحاتنا كذلك. وإذا كنا قادرين فعلاً على معرفة أنفسنا فسنكون قادرين على فهم الآخرين، والحقيقة التي تحيط بنا".

ثمّ وقف الإسكندر ومرافقوه يراقبون الموكب الطويل من الناس الذين قدموا من مختلف الأنحاء حاملين نذورهم وطلباتهم، ويشتمل الموكب على قادمين من كل أنحاء العالم اليوناني.

سأله بطليموس: "هل تعتقد أن ما تقوله الضالعة هو الحقيقة؟".

"لا تزال أصداء الإجابة التي تلقاها والدي ترن في أذنَيّ".

قال هيفاستيون: "كان ذلك جواباً غامضاً".

أجاب الإسكندر: "لكنه صحيح في النهاية. ولو كان أرسطو هنا لقال إن التوقعات هي التي تجعل الأحداث المستقبلية تتحقق، بدلاً من الاكتفاء بتوقعها...".

أومأ هيفاستيون وقال: "هذا محتمل تماماً. سمعت مرة أحد دروسه في ميزا عندما قال إنه لا يثق بأحد، ولا حتى بالأسياد، لأن كل شيء يستند إلى عقله".

*

استرخى أرسطو على مقعده، وشبك أصابع يديه واضعاً إياهما فوق بطنه: "وماذا بشأن ضالعة دلفي؟ هل فكّرت في جواب بيثيا؟ إنه مثير للشك أليس كذلك؟ تذكّر أن التوقع يستمرّ استناداً إلى مصداقيتها. لكنّ تكوين هذه المصداقية يتطلب مقداراً لا حدّ له من المعرفة، وليست لدى أي شخصٍ من الأحياء معرفة تفوق معرفة كهنة معبد أبولو، ولهذا يتمكنون من توقع المستقبل، أو من تحديده، إنه الشيء ذاته في نهاية الأمر".

حمل كاليستين لوحاً كتب عليه أسماء كل المشتبه بهم حتى اللحظة في إصدار الأمر باغتيال فيليب.

عاود أرسطو الكلام مجدداً: "ماذا تعرف عن القاتل؟ مع مَن أمضى الوقت قبل لحظة اغتياله الملك مباشرة؟".

قال كاليستين: "هناك تطوّر مثير للأحداث من هذه الناحية يا خالي. إن آتالوس والد يوريديس متورّط في الجريمة، أو دعنا نقول – على الأصح – إنه غارق فيها حتى أذنيه".

"لكنّ آتالوس قُتل".

"بالضبط".

"وماتت يوريديس كذلك".

"بالفعل، ولا تنسَ أن الإسكندر قد أمر ببناء قبرٍ جميل لها".

قال أرسطو: "يُضاف إلى ذلك أنه تشاجرٍ مع والدته أوليمبيا بشدة لأنها هاجمت يوريديس، ولأنه يُحتمل أن تكون هي المسؤولة عن مقتل ابنها".

"إن هذا يبرّئ الإسكندر".

"يتعيّن علينا ألا ننسى في الوقت ذاته أن هذه الوفيات قد ساعدته كثيراً على اعتلاء العرش".

سأل كاليستين: "هل تشك فيه؟".

"كلا، لا أشك فيه بحسب معرفتي به. لكنّ معرفة حدث جنائي، أو الشك في إمكانية حدوثه من دون القيام بأي شيء لمنعه، يمكن أن يكوّنا نوعاً من الشعور بالذنب".

"إن المشكلة الحقيقية هنا هي أن عدداً كبيراً من الناس قد امتلكوا دوافع لقتل فيليب. يتعيّن علينا الاستمرار في تجميع المعلومات حتى نصل إلى الحقيقة من خلال قوة الدلائل التي نجمعها ضد أحد المشتبه بهم، أو ضدهم جميعاً. تابع تحرياتك عن تورط آتالوس، ودعني أعرف ما تتوصّل إليه. لكن، دع الإسكندر يعرف كذلك، لأنه هو الذي كلّفك بهذه المهمة".

"هل يجدر بي أن أقول له كل شيء؟".

"أجل، قل له كل شيء، وتأكد من ملاحظة رد فعله".

"أيمكنني أن أقول له إنك تساعدني؟".

أجاب الفيلسوف: "بالطبع. أولاً، لأنه سيسرّ عند سماعه هذا الخبر. وثانياً، لأنه يعرف ذلك مسبقاً".

42

عـــند نهايـــة فصل الخريف، عاد القائد بارمينيون إلى بيلا مع ابنه فـــيلوتاس وذلـــك بعد أن ضمِن أن حملة آسيا الاستكشافية ستمضي الشتاء من دون أي مشاكل كبيرة.

اســـتقبله أنتيباتـــر لأنه كان يحمل الختم الملكي في ذلك الوقت، وكان يعمل بصفته الوصي الرسمي على العرش.

قـــال بارمينيون: "أسفت كثيراً لأنني لم أتمكن من حضور جنازة الملـــك، ويتعيّن عليّ أن أقول إن موت آتالوس قد أحزنني كثيراً. لكن، لا يمكنني القول إنني لم أتوقعه".

"علـــى كـــل حال، أظهر الإسكندر ثقته التامة بك عندما أرسل فيلوتاس إليك. أرادك أن تكون حراً في اتخاذ أي قرارٍ تشعر أنه يُلزمك أكثر من غيره".

"هـــذا هـــو السبب الذي دفعني إلى المجيء. لكنني أعترف بأنّني فوجئت عندما رأيت الختم الملكي في إصبعك، لأن الملكة الأم لم تحبك أبداً، وسمعت أنها لا تزال تمارس تأثيراً قوياً على الإسكندر".

"هـــذا صحيح. لكنّ الملك يتخذ قراراته بنفسه، وهو يتمتع بثقةٍ كبيرة بها. أما الآن، فإن كل ما يريده هو أن تبتعد والدته عن السياسة نهائياً".

"وماذا بشأن السياسة؟".

"ماذا تظن؟ تمكّن الرجل في غضون ثلاثة أشهر من إعادة تأسيس التحالف التسالي، ومن إخافة سكان طيبة، ومن تعزيز التحالف الهليني،

ومـــن استعادة القائد بارمينيون، وهو مفتاح حملته إلى الشرق. إنّ ذلك ليس بالقليل بالنسبة إلى فتى، كما يحب أن يسميه ديموستين".

"أنـــت على حق. لكن الشمال لا يزال مشكلةً بالنسبة إلينا، إن التـــريباليين مـــتحالفون الآن مع الجيتايين الذين يعيشون على الضفاف الـــسفلى لنهر إستر، وقد شنّ الطرفان معاً غارات على مناطقنا بصورة مستمرة تقريباً، حتى إننا خسرنا بعض المدن التي أسّسها الملك فيليب".

"أعـــتقد أن هذا هو السبب الذي دفع بالإسكندر إلى استدعائك إلى بيلا. إنه ينوي الزحف شمالاً عند منتصف فصل الشتاء كي يفاجئ العـــدو، وســـيطلب منك قيادة الصف الأول من جنود المشاة، وينوي وضـــع أصـــدقائه، بصفتهم قادة كتائب، تحت تصرفك. يريدهم أن يتعلموا من قائد ماهر".

"وأين هو الآن؟".

"إنه يجتاز تساليا بحسب آخر الأنباء، لكنه توجه إلى دلفي".

امتقع وجه بارمينيون، وقال: "هل استشار الضالعة؟".

"أجل، بطريقة ما".

"ماذا تعني بذلك؟".

"يُحتمل أن الكهنة أرادوا تجنب حدث يماثل زيارة فيليب، ولذلك أبلغـــوا الإســـكندر أن بيثيا ليست بخير، وأنها لا تستطيع الإجابة عن أســـئلته. لكـــنّ الإســـكندر جرّها بالقوة إلى المذبح بنية إجبارها على إعطائه توقعاً". كان وجه بارمينيون وعيناه تعبّر عن شكّه في ما يسمعه مـــن أنتيباتـــر. "جنّ جنون بيثيا من الغضب عند هذه المرحلة، وبدأت بالـــصراخ بـــشراسة: *لكن، لا يُمكن لشيء أن يوقفك يا بنيّ!* توقف الإسكندر عند هذا الحد بعد أن صدمته هذه الكلمات، وقال ببساطة: *إنه ردٌ كافٍ*، ثم غادر المكان بعد ذلك".

هــز بارمينــيون رأسه: "لقد أعطته توقعاً جيداً... وسطراً يجدر بممثلٍ عظيم أن يتلوه".

"وهذا ما هو عليه الإسكندر بالضبط، أو بالأحرى إنه ممثلٌ عظيم بالإضافة إلى صفاته الأخرى، سترى".

"أتظن أنه يصدّق التوقعات؟".

مــرّر أنتيباتــر يده من خلال لحيته الكثيفة وقال: "نعم ولا. إن المــنطق الــذي يتميّز به كل من فيليب وأرسطو يسري في الإسكندر، بالإضــافة إلى الطبــيعة الغامضة والفطرية والبربرية لوالدته. لكنه رأى والــده يسقط مثل ثور يُضحى به أمام المذبح. وفي تلك اللحظة، لا بد أن كلمات التوقع قد تفجرت مدوية في ذهنه مثل قصف الرعد، وهو لن ينسى ذلك المشهد طوال حياته".

أرخى المساء سدوله فخيّمت أجواء الكآبة على المحاربين القدماء، وأحسّا أن زمنهما قد شارف على المغيب مع موت الملك فيليب، وأن الأيــام قد شارفت على النفاد مع ألسنة اللهب المتراقصة التي اشتعلت حول محرقة الملك القتيل.

تمتم بارمينيون على نحوٍ مفاجئ: "ربما لو كنا إلى جانبه...".

"لا تقل كلمة أخرى يا صديقي. لا يقدر أحد على تغيير ما يرسمه القــدر، إننا نأمل أن يكون ملكنا قد حضّر الإسكندر ليكون خليفته، كما أننا نهبه ما تبقى من أيامنا".

*

عــاد الملك إلى بيلا على رأس قواته، وسار مستعرضاً الجنود في أنحاء المدينة وسط خطّين من المتفرجين المبتهجين. كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها الجيش منتصراً من حملة عسكرية من دون خوض أي معــركة، ومن دون تكبّد الخسائر. أما هذا الشاب الوسيم بوجهه،

وملابـــسه، ودروعه، فقد كان متألقاً إلى حدّ أن الجميع اعتبروه تجسداً لسيد مبجل شاب، أو لبطل ملحمي. ورأى الناس في أعين رفاقه النور ذاته الذي ينعكس من عينيه العميقتين والمتقدتين بالحماسة.

تقـــدّم أنتيباتر كي يلتقيه ويُرجع الختم الملكي إليه، ويُبلغه بعودة بارمينيون.

قال له الإسكندر آمراً: "خذني إليه على الفور".

تـــرجّل القائد عن جواده، وتقدم الطريق إلى منـــزل منعزل يقع خارج المدينة مباشرة.

نـــــزل بارمينيون على الدرج وقلبه يقفز بين أضلعه فور الإعلان عـــن وصول الملك، ومعرفته أن الملك لم يصل إلى القصر حتى الآن بعد عـــودته من رحلته، وجد بارمينيون الإسكندر واقفاً أمامه عندما خرج من الباب.

بادره الإسكندر بالتحية وعانقه قائلاً: "أيها الجندي! يا محاربـــي القديم! شكراً لك لأنك عدت".

أجاب بارمينيون بصوت تملأه الغصة: "مولاي! كان موت والدك صدمةً كبيرة لي، كنت أود أنً أفتديه بحياتي لو كان ذلك ممكناً، وودت لـــو أن جسدي كان درعاً له... كنت أود..." لم يتمكن الرجل من إكمال كلماته لأن صوته بدأ بالتقطع.

أومـــأ الإســـكندر وقال: "أعرف ذلك". وضع الملك يديه على كتفَي بارمينيون، وحدّق إلى عينيه مباشرة. "كنت لأفعل الشيء ذاته لو أمكنني ذلك".

نظر بارمينيون إلى الأسفل.

"حدث الأمر كالصاعقة أيها القائد، ولا شك في أن رجلاً عبقرياً عـــديم الـــرحمة قد خطط للأمر. في تلك اللحظة، حدث هياج وجلبةٌ

كبيران. كنت أتقدمه في ذلك الوقت مع الإسكندر ملك إيبيروس. صاح إيومينيس بشيء لم أتمكن من سماعه أو فهمه، فالتفتّ. وعندما أدركت أن أمراً ما يحدث كان قد بدأ بالسقوط على ركبتيه مضرجاً بدمائه".

"أعرف يا مولاي. لكن دعنا نتوقف عن الحديث عن هذه الأمور المحزنة. سأتوجه غداً إلى إيجية، وسأضع نذراً عند قبره، آمل أن يسمعني. لكن، لماذا أتيت لزيارتي الآن؟".

"أردت أن أرحّب بك، وأن أدعوك إلى تناول طعام العشاء معي، وسيكون الجميع هناك. كما أريد أن أشرح خططي لهذا الشتاء، ستكون هذه آخر مهامنا في أوروبا، وسنزحف بعد ذلك إلى الشرق، نحو البلاد التي تطلع منها الشمس".

امتطى الإسكندر صهوة جواده، فيما عاد بارمينيون إلى المنزل ونادى خادمه وقال آمراً: "حضّر لي حمّامي وأفضل ثيابي، سأتناول طعامي مع الملك هذا المساء".

43

وفي الأيام التي تلت هذه الأحداث، اشترك الإسكندر في تدريبات عسكرية، كما شارك في رحلات صيد عديدة، لكنه أدرك أن سلطته معترفٌ بها حتى في البلاد البعيدة، واستقبل وفوداً، ليس فقط من المدن الإغريقية في آسيا. ولكن، من صقلية وإيطاليا كذلك.

أهدته وفود بعض مدن شواطئ البحر التيراني إناءً ذهبياً، كما طلبوا منه مساعدتهم.

سرّ الإسكندر كثيراً، وسأل عن مصدر الهدية.

فشرحت له الوفود بلهجة لم يسبق له أن سمعها، لكنها ذكّرته بالطريقة التي يتكلم فيها سكان جزيرة إيوبويا: "من نيوبوليس، ومديدما، وبوسايدونيا".

"وماذا أستطيع أن أفعل من أجلكم؟".

أجاب أكبر عضو في الوفد: "أيها الملك الإسكندر، هناك مدينة تقع إلى شمال مدننا، وتدعى روما".

أجاب الإسكندر: "سبق لي أن سمعت بها. قيل لي إن آينياس، بطل حرب طروادة، هو الذي أسّسها".

"هذا صحيح، لكنها مدينة تقع على ساحل أراضي الرومان، وتسكنها مجموعة من القراصنة الذين يسببون المتاعب والاضطراب في خطوطنا البحرية. إننا نريد أن نضع حداً لهذا الوضع، ونريدك أن تتدخل لمساعدتنا على ذلك. فلقد انتشرت شهرتك في كل مكان، لذلك نثق بأنّ لرأيك تأثيراً مهماً في هذه القضية".

"سأفعل ذلك بكل سرور، كما آمل أن يسمعوا نصيحتي. ولكن، أريدكم أن تبقوني على علمٍ بنتيجة هذه المبادرة".

وأومأ بعد ذلك إلى كاتبه وبدأ بإملاء الرسالة.

مـن الإسـكندر، ملـك مقدونيا، وقائد التحالف الهليني، إلى سكان مدينة روما، تحياتي إليكم!

أبلغني إخواننا في المدن الواقعة على خليج تيرانة أنهم يعانون من أضرارٍ كبيرة على يد بعض مواطنيكم الذين يعملون في مجال القرصنة.

ولهذا السبب، إنني أطلب منكم أن تحلّوا هذه المشكلة بأسرع وقت ممكن.

أمـا إذا كنـتم عاجـزين عـن حلها بأنفسكم فيمكنكم أن تسمحواً لغيركم بمعالجتها.

ثمّ خـتم الإسـكندر الرسالة وأعطاها إلى ضيوفه الذين شكروه بشدة، وغادروا بعد أن شعروا بالارتياح لنتائج مهمتهم.

سـأل الإسكندر إيومينيس الذي كان جالساً قربه: "إنني أتساءل عن مفعول تلك الرسالة، وما الذي سيفكر فيه الرومان عن ذلك الملك البعيد الذي يتدخل في شؤونهم الداخلية".

قـال إيومينيس: "لكنه ليس بعيداً جداً، أعتقد أنهم سيردون على رسالتك".

وصل موفدون آخرون حاملين أخباراً أخرى، لكنها أسوأ بكثير، وهذه المرة عن الحدود الشمالية. أفادت هذه الأخبار أن التحالف القائم بـين التريباليين والجيتايين، قد تعزّز أكثر، وصار يقف حجر عثرة أمام فـتوحات فيلـيب في تراقيا. كان الجيتايون مخيفين لأنهم يعتقدون أنهم مخلـدون، ولـذلك كانـوا يحاربـون بوحشية وشراسة، كما كانوا يـتجاهلون الأخطار الشخصية، فقد هوجمت مدن كثيرة أسّسها والد الإسـكندر، كمـا تعرضـت للنهب، وتعرض سكانها للمجازر أو الاسـتعباد. بالرغم من ذلك، بدا الوضع هادئاً، في ذلك الوقت، لأن

محاربـــي الشمال قد عادوا جميعاً إلى قراهم كي يستعدوا لفصل الشتاء القاسي.

قرّر الإسكندر أن يدفعهم إلى الانسحاب حتى مسافات أبعد، وأن يضع خطته موضع التنفيذ، فأرسل أمراً إلى الأسطول المرابطً في بيزنطة كـــي يبحر نحو إستر. وكان ذلك الأمر يستغرق مدة خمسة أيام حتى يصل الأسطول إلى حيث يلتقي ذلك النهر مع نهر بيوكيس. وفي الوقت ذاته، استنفر الإسكندر وحدات جيشه في بيلا، وأناط ببارمينيون قيادة قـــوات المشاة، كما أنه تسلم شخصياً قيادة وحدات الفرسان قبل أن تنطلق الحملة.

عـــبرت الحملة جبل رودوب، ثم هبطت إلى وادي يوروبوس، ثم بدأ الزحف الصعب نحو معابر هايموت التي كانت لا تزال مغطاة بطبقةٍ مـــن الـــثلج. رأى الإســـكندر في أثناء تقدمه المدن المنكوبة والحقول، المـــنهوبة، والجثث المعلقة على أعمدة، بينما كانت جثث أخرى مقيدة ومحترقة، فتصاعد غضب الملك المقدوني، وتنامى، حتى أصبح كالعاصفة التي تحرّك نهراً في أوج فيضانه.

نفّـــذ الإسكندر مناورة غير متوقعة عندما نـــزل بخيّالته إلى سهل جيتاي، وحرق القرى والمعسكرات، وأفسد المحاصيل، وقتل الماشية.

تـــراجع الـــسكان مذعورين ومرتعبين نحو نهر إستر، ولجأوا إلى جزيرة تقع عند منتصف النهر، حيث ظنوا أن الإسكندر لن يقدر على الوصـــول إليهم. لكنّ الأسطول البيزنطي وصل في تلك الأثناء، ونقل الجنود المهاجمين، وحاملي الدروع، وفرسان فرقة الطليعة.

كانـــت المعـــركة التي جرت فوق الجزيرة شرسةً جداً. حارب الجيتايون والتريباليون بشراسة وبطاقة تكاد تكون فوق احتمال البشر، لأنهـــم كانـــوا يدافعون ليس فقط عن آخر أراضيهم، بل لأنهم كانوا

يدافعون عن زوجاتهم وأطفالهم. قاد الإسكندر بنفسه الهجوم على مواقعهم، وذلك وسط الرياح الهوجاء والأمواج القوية لنهر إستر الذي زاد منسوبه مع الأمطار الغزيرة. واختلط دخان الحرائق مع مياه الأمطار المختلطة بالثلوج، بينما تصاعدت صرخات الجنود، وأنين الجرحى، وصهيل الجياد، وامتزج كل ذلك مع دوي الرعد وصفير الرياح الشمالية.

شكّل الرجال الذين كانوا عرضة للهجوم دائرة محكمة، وقرّبوا دروعهم من بعضها، كما ثبّتوا رؤوس رماحهم في الأرض من أجل تكوين حاجزٍ من هذه الرماح ضد هجمات الفرسان. وقف الرماة خلف هذا الحاجز، وأطلقوا سيلاً من السهام المميتة التي كانت بحوزتهم. لكنّ الإسكندر ذاته امتلك قوةً هائلة.

ذُهل بارمينيون الذي سبق له أن شاهد طريقة قتاله في تشايرونيا قبل ثلاث سنوات، وعلى الأخص عندما رآه يقاتل وجهاً لوجه ومن دون أن يكترث لأي شيء. فلقد بدا الإسكندر وكأنه مدفوع بغضبٍ لا يستطيع السيطرة عليه، وامتلك طاقةً لا تنضب، وراح يصرخ، ويحصد رؤوس الأعداء بسيفه وفأسه، ودفع بوسيفالاس بدرعه البرونزي مقتحماً صفوف خصومه كي يفتح ثغرةً يستطيع من خلالها قيادة فرقة الفرسان المسلحة تسليحاً ثقيلاً، بالإضافة إلى قوات المشاة الهجومية.

استسلم التريباليون بعد أن حوصروا وطوردوا واحداً تلو الآخر، بينما تابع الجيتايون القتال حتى النهاية المريرة، وحتى خمدت آخر شرارة من طاقتهم.

بعد انتهاء المعركة، تحركت العاصفة قادمة من الشمال، ووصلت إلى الجزيرة، ثمّ ما لبثت أن اختلطت مع الرطوبة المتصاعدة من نهر إستر

فهـــدأت قليلاً، فيما بدأ الثلج بالتساقط فجأة. تساقط في البداية على شكل رقائق ممزوجة بالمطر، ثم بدأت بلورات دقيقة من الجليد تتساقط مع المطر، وسرعان ما بدأت تكبر وتزداد سماكة، إلى أن أصبحت على شـــكل رقائـــق كبيرة، غطّت الجثث المدماة الملقاة على الأرض بغطاء أبـــيض، فانطفأت النيران، وسرعان ما خيّم صمتٌ كئيب على المكان، ولم تكسره هنا وهناك غير صرخاتٍ مكتومة، أو صهيل الجياد في أثناء تنقلها وسط العاصفة.

رجـــع الإسكندر إلى ضفة النهر، فرآه الجنود الذين تركهم كي يحرســـوا الميـــناء وهـــو يظهر على حين غرة من وراء ستارةٍ من الثلج والضباب. كان قد فقد درعه، لكنه كان ممسكاً بسيفه وفأسه المزدوج، كمـــا كان مغطى بطبقة من الدماء من رأسه وحتى أخمص قدميه. فيما كانـــت الـــدروع البرونـــــزية التي تحمي صدر بوسيفالاس وجبهته، ملطخـــة بالـــدماء وبالعرق المتصبب من جسم الجواد. بدا الجواد مثل حيوانٍ آتٍ من مخيلة منحرفة، ومثل مخلوق آت من أحد الكوابيس.

وبعدَ وقتٍ قصير، التحق بارمينيون بالإسكندر وكان الذعر بادياً على كل أنحاء وجهه، ثم قال: "كان يجب عليك ألا...".

نـــزع الملك خوذته، وكشف عن شعره أمام الرياح الباردة، لكنّ القائـــد القـــديم لم يميّـــز صـــوته عندما قال: "لقد انتهى كل شيء يا بارمينيون، دعنا نعود".

*

أرســـل الإســـكندر قسماً من الجيش إلى الوطن عبر الطريق ذاته الـــذي ســـلكه في طـــريقه شمالاً، فيما قاد بقية الجنود والفرسان غرباً بمحاذاة نهر إستر حتى وصل إلى بلاد السلتيين، وهم الشعب الذي تمتد جذوره إلى ما وراء المحيط الشمالي، وهناك عقد تحالفاً معهم.

جلـــس مـــع زعيمهم تحت خيمة مصنوعة من جلود الحيوانات المدبـــوغة، وهو رجلٌ ضخم الجثة ذو شعرٍ أشقر، ويعتمر خوذة فوقها طائر يرفرف بجناحيه مصدراً صوتاً يشبه الصرير عندما يحرّك رأسه.

قـــال البربـــري: "أقسم إنني سأكون مخلصاً لهذا الحلف طالما أن الأرض لا تغرق في البحر، ولا يصعد البحر كي يغطي الأرض، وطالما أن السماء لا تنطبق على رؤوسنا".

فوجئ الإسكندر بهذا القَسَم الذي لم يسمع مثله من قبل، وسأله: "أي من هذه الأمور تخشاها أكثر من غيرها؟".

رفـــع الزعيم السلتي رأسه، فتحرّك جناحا الطائر صعوداً وهبوطاً، وراح يفكّر للحظة قبل أن يجيب برزانة: "أخاف أن تنطبق السماء على رؤوسنا".

لم يكتشف الإسكندر أسباب ودوافع هذا الجواب.

عبر الإسكندر بعد ذلك بلاد الدردانيين والأغريانيين، وهم سكان متوحـــشون من أصول إيليرية، وسبق لهم أن نكثوا بعهودهم مع فيليب مـــن أجـــل الانـــضمام إلى الجيتايين والتريباليين، فقمعهم الإسكندر وأجـــبرهم على تقديم الجنود لأن الأغريانيين كانوا مشهورين بقدرتهم علـــى تسلق سفوح أكثر الجبال انحداراً بكامل أسلحتهم. ولقد اعتقد الملك الشاب أن الاستفادة من هذه المهارات قد تكون أنسب من شقّ ممر وسط الصخور لمشاته، أي كما فعل في جبل أوسا.

اســـتغرق الجيش وقتاً طويلاً في الزحف، وشقّ طريقه عبر الأودية والغابات الكثيرة التي تزخر بها هذه المناطق غير المأهولة، وذلك إلى حد أن الشائعات سرت حول سقوط الملك في فخٍ قُتل على إثره.

سرت هذه الشائعة مثل النار في الهشيم، وما لبثت أن وصلت إلى أثينا عن طريق البحر أولاً، ثم عن طريق طيبة.

عـــاد ديموســـتين على الفور من كالوريا التي لجأ إليها إلى أثينا. وسارع إلى إلقاء خطاب حماسي أمام الجمهور. أُرسلت رسائل داعمة إلى طيـــبة مـــرفقةً مع عتادٍ من السلاح الثقيل لجنود المشاة، وهو الأمر الـــذي كانـــت تفتقده تلك المدينة. أسرع أهل طيبة إلى الثورة وحمل الـــسلاح، وحاصروا الحامية ثم احتلوا قلعة كادميان، وحفروا الخنادق وشيدوا الحواجز من كل الجوانب، وهكذا فقد المقدونيون كل أمل في تلقي الإمدادات من الخارج.

علـــم الإســـكندر بأمر هذه الانتفاضة ضد قواته، وغضب كثيراً عندما علم بأمر خطابات ديموستين ضد مقدونيا وملكها الجديد.

اســـتغرقه الأمر ثلاثة عشر يوماً للانتقال من ضفاف نهر إستر إلى أســـوار طيـــبة، وتزامن ذلك مع قرب استسلام حامية حصن كادميان بسبب الضعف الذي أصابها من جراء الحصار. لم يصدّق الجنود أعينهم عـــندما رأوا الملك على صهوة بوسيفالاس، وعندما سمعوه يأمر سكان طيبة بتسليمه قادة الانتفاضة المسلحة.

صرخ الإسكندر: "سلّموني إيّاهم كي أحفظ مدينتكم!".

اجتمع سكان طيبة لاتخاذ القرار. كان ممثلو المجموعات الديمقراطية الـــذين نفـــاهم فيلـــيب قد عادوا، وصمّموا على تنفيذ انتقامهم من مقدونيا.

قال أحدهم، ويدعى ديودوروس: "إنه مجرد فتى، ماذا تخشون؟ إن الأثينـــيين معـــنا، وكذلك التحالف الأيطولي، وحتى إسبارطة ذاتها قد تنـــضم إلينا بعد وقت قصير. حانت اللحظة التي سنتخلّص فيها، وإلى الأبـــد، مـــن الطغيانٍ المقدوني! كما أن ملك الفرس العظيم قد وعد بمـــساعدتنا بمـــدّنا بالأسلحة والأموال من أجل تعزيز ثورتنا، وهي في طريقها إلى أثينا في أثناء حديثي معكم".

سأل مواطن آخر: "لماذا لا ننتظر في هذه الحالة وصول الإمدادات؟ يُحتمل أن تستسلم الحامية المتحصنة في قلعة كادميان، وسنتمكّن عندها من استخدام الرجال في المفاوضات. أي سندعهم يذهبون بسلام مقابل انسحاب الجنود المقدونيين بالكامل من أراضينا. ويمكننا كذلك أن ننتظر وصول جيشٍ حليفٍ لنا يستطيع التمركز خلف الإسكندر، ثم نحاول شنّ الهجوم".

أصرّ ديودوروس على موقفه: "كلا! إن كل يوم يمر يصعّب الأحوال علينا، إن كل الذين يعتقدون أنهم عانوا من الظلم أو القهر على يد مدينتنا سيتّحدون مع المقدونيين. إن هناك جنوداً يتقدمون في أثناء حديثي معكم الآن من فوكيس، وبلاتيا، وثيسبياي، وأوروبوس، وكلهم يكرهوننا إلى درجة أنهم يسعون إلى دمارنا بالكامل. لا تخافوا يا سكان طيبة! سننتقم للذين قتلوا في تشايرونيا مرةً وإلى الأبد!".

تحمس المواطنون عند سماعهم هذه الكلمات الحماسية، فوقفوا متحدين وبدأوا بترداد كلمة "الحرب!" حدث ذلك من دون أن ينتظروا انتهاء الجلسة بصورةٍ رسمية، وهرع الجميع إلى منازلهم من أجل تجهيز أسلحتهم.

أما الإسكندر فقد دعا من جهته إلى عقد مجلسٍ حربي في خيمته.

بدأ الإسكندر حديثه على هذا النحو: "إن كل ما أريده هو إرغامهم على المفاوضة بالرغم من رفضهم".

اعترض هيفاستيون بالقول: "لكنهم أعلنوا عن تحديهم لنا. دعنا نهاجمهم الآن حتى نثبت لهم أننا الأقوى!".

قال بارمينيون: "إنهم يعرفون مسبقاً من هو الأقوى، إننا موجودون هنا بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل، وثلاثة آلاف فارس،

وكلهم من المتطوعين الذين لم يخسروا أي معركة، سيضطرون إلى المفاوضة".

قال الإسكندر: "القائد بارمينيون على حق. لا أريد سفك الدماء، إنني على وشك أن أغزو آسيا، وكل ما أريده هو أن أترك خلفي سلاماً بين كل الإغريق، وأن أعرف أنني ربّما أتمتع بتأييدهم في المشروع الذي أزمع على القيام به، سأعطيهم الوقت كي يفكروا في هذه الأمور".

سأل هيفاستيون: "إذاً لماذا، بحق السماء، سرنا ثلاثة عشر يوماً ونحن نزحف بمشقة كبيرة؟ ولماذا نجلس هنا بين الخيام كي ننتظر قرارهم حول ما يريدون أن يفعلوه؟".

"إن هدفي هو إظهار تمكني من الضرب في أي وقتٍ أريده، وضمن مهلةٍ قصيرة، وأن أظهر لهم عدم بُعدي عنهم بما يكفيهم لتنظيم قواهم. ولكن، إذا طلبوا السلم فسأمنحهم إياه بكل سرور".

مرّت الأيام ولم يحدث أي شيء، إلى أن قرّر الإسكندر إخافة سكان طيبة بشكلٍ أكثر حزماً، والضغط عليهم كي يشرعوا بالتفاوض، فأمر أن يصطفّ الجيش بتشكيلاتٍ قتالية، ثم سار به نحو الأسوار. وبعد ذلك، أرسل منادياً كي يعلن:

"يا سكان طيبة! يعرض عليكم الملك الإسكندر السلم الذي قَبِله كل الإغريق، كما يعرض عليكم استقلالكم وحريتكم في اختيار أي نظام سياسي تريدونه. لكن، إذا رفضتم هذا العرض، فإنه سيستمر في عرضه استقبال الذين يريدون المغادرة من بينكم. إنه يريد أن تعيش طيبة الآن بسلامٍ أو من دون أي أحقاد وسفك دماء!".

لم يتأخر ردّ سكان طيبة، إذ صاح أحد المنادين من فوق أحد الأبراج:

"أيهـــا المقدونيون! إن أي شخص يريد الانضمام إلينا، وإلى ملك فارس العظيم، في مهمة تحرير الإغريق من كل طغيان سيكون مرحباً به هنا في طيبة، وسنفتح أبوابنا له".

أساءت هذه الكلمات كثيراً إلى الإسكندر، لأنها جعلته يشعر أنه طاغـــية بربري، وهو الأمر الذي يخالف الحقيقة، فهو لا يريد أن يصبح كـــذلك في يومٍ من الأيام. وتمكّن هذا الإعلان الذي صدر عن سكان طيـــبة مـــن تحطـــيم أحلام الإسكندر، وأحلام والده فيليب في لحظةٍ واحـــدة. فلقد شعر أنه تعرّض للرفض والإهانة. لذا، لم يعرف غضبُ الإسكندر أي حدود، كما أن عينيه أظلمتا مثل سماءٍ تلبدت فيها الغيوم التي تُنذر بهبوب عاصفة.

صـــاح الإســـكندر: "آن الأوان، لم يتركوا لي أي خيار، لكنني سأجعل هذه المدينة أمثولة بحيث لن يتجرأ أحد على خرق السلم الذي أنشأته لكل الإغريق".

أمـــا من جهة طيبة، فلم تسكت كل الأصوات التي دعت المدينة إلى التفاوض، كما ظهرت عدة أمور تُنذر بالشؤم، والتي نشرت أجواء القلـــق بين السكان. فلقد شوهد بيت عنكبوت كبير في معبد ديميتر، وذلـــك قبل ثلاثة أشهر من وصول الإسكندر إلى الأسوار التي يتمركز فيها جنوده. كان بيت العنكبوت هذا على شكل عباءة والتمع بألوان مميزة، مثل قوس قزح.

وعـــندما طُلب من ضالعة دلفي تفسير هذه الظاهرة قدّمت هذا الجواب:

أرسلت الأسياد هذه العلامة إلى كل البشر الفانين
إلى البواتيين أولاً، ثم إلى جيرانهم

استُشيرت ضالعة طيبة القديمة كذلك، فكان جوابها التالي:

شبكة العنكبوت مهلكة لأحد الناس
بينما هي نعمة بالنسبة إلى إنسان آخر(*)

لم يُفلح أحد في تفسير هذه الكلمات. لكنّ الإسكندر وصل ذات صباح مع جيشه، فبدأت التماثيل الموضوعة في باحة السوق في طيبة بالتعرق، وسرعان ما تغطت بطبقة من نقاطٍ سائلة كبيرة تدحرجت ببطء إلى الأرض.

تلقى مندوبو المدينة تقارير تفيد أن نوعاً من أنواع أصوات الأنين سُمع من جهة بحيرة كوبياس، كما شوهدت تموجات في المياه القريبة من ديرك، تشبه التموجات التي تحدث عندما يُرمى حجر في مياه النهر، لكنّ هذه التموجات تلونت بألوان الدم وامتدت فوق سطح مياه البحيرة بكامله. وأخيراً وليس آخراً، روى بعض المسافرين الذين وصلوا من دلفي أن سقف المعبد الموجود في ذلك المكان المبجل، والذي شيّد تخليداً لذكرى الغنائم التي غنمتها المدينة من الفينيقيين خلال الحرب المبجلة، قد ظهرت عليه بعض بقع الدماء.

قال الضالعون الذين شغلوا أنفسهم بهذه الإشارات إن بيت العنكبوت داخل المعبد يعني أن الأسياد تخطّط للتخلي عن المدينة، بينما ينذر تعدد الألوان بوقوع كوارث عديدة، وقالوا كذلك إن التماثيل المتعرقة تشير إلى قرب وقوع كارثة، بينما تشير بقع الدماء إلى قرب وقوع مجزرة.

شعر كثير من سكان المدينة أنه بوجود كل هذه الدلائل المنذرة بالسوء لا يمكن عمل أي شيء لتغيير وجهة الأقدار في ميدان المعركة، أي أنه من الأفضل السعي من أجل التوصل إلى تسوية من خلال التفاوض.

(*) ديودوروس سلوقس XVII.10.3.

لم يشعر سكان طيبة في أعماقهم، وبالرغم من كل ذلك، بالقلق بشكلٍ خاص، لكنهم كانوا أشد حرصاً على الحفاظ على سمعتهم بصفتهم أفضل المحاربين في بلاد اليونان، كما أن ذكريات انتصاراتهم التاريخية العظيمة كانت حيةً في الأذهان. ولأنهم كانوا عالقين جميعاً في قبضة جنون جماعي، فلقد تصرفوا انطلاقاً من شجاعة عمياء أكثر مما تصرفوا بحنكةٍ وبتفكير ملي، فاندفعوا لكل هذه الأسبابٍ، نحو الدمار والخراب، وتسببوا بخراب مدينتهم وأراضيهم.

جهّز الإسكندر كل خططه للحصار، وحضّر كل الآلات الخارقة للأسوار، فيما برز سكان طيبة واصطفوا استعداداً للمعركة، ووقف الخيّالة في الجناح الأيسر وقد احتموا بحاجز دفاعي، أما في الوسط والجناح الأيمن فقد اصطف مشاة الصف الأمامي المزوّدون بأسلحة ثقيلة، ولجأت النسوة والأطفال المتواجدون داخل المدينة إلى المعابد حيث تضرعوا إلى الأسياد من أجل خلاصهم.

قسّم الإسكندر قواته إلى ثلاث فرق، وكانت مهمة الفرقة الأولى مهاجمة الحاجز الدفاعي، أما مهمة الفرقة الثانية فكانت التغلب على مشاة مدينة طيبة، فيما استبقى الفرقة الثالثة كي تعمل كفرقة احتياط بقيادة بارمينيون.

صدحت الأبواق، فبدأت المعركة بعنف، وكانت أسوأ من ذلك اليوم الحاسم في تشايرونيا. ففي واقع الأمر، أدرك جنود طيبة أنهم تخطوا حدودهم، وأدركوا أنه إذا حقق المقدونيون النصر فلن يُظهروا الرحمة، وكان من الواضح بالنسبة إليهم أنه في حالة تلقيهم الهزيمة فإن منازلهم ستتعرض للنهب والحرق، وأن نساءهم سيتعرّضن للاغتصاب، وأولادهم للبيع. لذا، حارب جنود طيبة بتهوّر، ومن دون أي اهتمام بسلامتهم الشخصية، وواجهوا الموت بشجاعة لا توصف.

ارتفع ضجيج المعركة، وامتزج مع صيحات القادة، ومع أصوات الأبـــواق الحادة، والصليل المصاحب لها، بينما تردد من أعماق الوادي قرع طبل تشايرونيا الضخم والإيقاعي الذي يتميز بالكآبة.

اضـــطر جـــنود طيـــبة إلى التراجع قليلاً في بداية المعركة لأنهم، وببساطة، لم يتمكنوا من تحمّل شدة الهجوم الذي شنّه جنود مشاة فرقة الفـــالانج. ولكن، عندما انتهوا إلى القتال وجهاً لوجه فوق أرض أشد صلابة أثبتوا قدراتهم المتفوقة. استمر القتال على هذا المنوال بحيث بدت قوة الفريقين متوازنة، وكأن الأسياد قصدت أن تضع الفريقين في توازن تام.

عند هذه المرحلة، دفع الإسكندر بقواته الاحتياطية، وقسم قوات الفالانج التي كانت تحارب إلى قسمين، وأمر القوات الجديدة بالتقدم، لكـــنّ جـــنود طيبة، وبدلاً من أن يشعروا بالخوف بسبب القتال مع تعزيزات جديدة، شعروا بقوة جديدة تحركهم.

فلقـــد صرخ ضباطهم بأعلى أصواتهم: "انتبهوا أيها الرجال! إن هـــزيمة أحد جنود طيبة تستلزم جنديين مقدونيين! دعونا ندفع الجنود الجدد إلى الخلف من حيث جاءوا، أي كما فعلنا مع الفوج الأول".

بـــذل جنود طيبة أقصى طاقاتهم في هجوم من شأنه أن يقرّر ليس فقط أقدارهم وحدهم، بل مصير مدينتهم بكاملها.

في تلـــك اللحظة بالذات، رأى بيرديكاس الذي كان عند الجناح الأيسر باباً جانبياً وهو يُفتح من أجل إيصال الإمدادات إلى جنود طيبة، فأرســـل فرقةً كي تحتل هذا المدخل، ثم ما لبث أن أرسل ما أمكنه من الجنود المقدونيين إلى داخل الأسوار.

تـــراجع جـــنود طيبة بسرعة كي يسدّوا هذه الثغرة، وكانوا من الكثـــرة بحـــيث وجدوا أنفسهم يتكومون واحداً فوق الآخر، الجياد

والرجال على حد سواء، وتسببوا بجرح بعضهم بعضاً، ولكنّهم عجزوا عن إيقاف جنود العدو عن الانتشار داخل المدينة.

تمكّن الجنود المقدونيون الذين كانوا محاصرين داخل قلعة كادميان من فـــكّ حصارهم. وشنّوا غارة على خصومهم من الخلف، واشتبكوا معهم وجهاً لوجه داخل الأزقة الضيقة التي تربط بين منازل هؤلاء الخصوم.

لم يستـــسلم أي جندي من جنود طيبة، و لم يركع أي منهم طالباً العفو عن حياته، لكن هذه الشجاعة اليائسة لم تُفلح في زرع أي نوعٍ مـــن أنـــواع الرحمة في القلوب. وفي الحقيقة، كان إيقاف عملية الثأر القاسية من المستحيلات. فلقد دخل المقدونيون الغاضبون، وقد سكروا بمـــذاق الدماء والعنف، إلى المعابد، وانتزعوا النساء والأطفال من فوق مذابحها وارتكبوا بحقهم شتى أنواع الفظائع.

تـــردد في شـــوارع المدينة صراخ الأولاد والفتيات الذين طلبوا مـــساعدة أهالـــيهم من الرجال والنساء الذين عجزوا عن مساعدهم، حتى ولو تمكّنوا من سماعهم.

إذ لم يعـــد المقدونيون وحدهم في هذه المعركة، لأن كل الإغريق انـــضموا إلـــيهم، بما فيهم البواتيون والفوكيون الذين لطالما عانوا في الـــسابق من طغيان مدينة طيبة. وأظهر هؤلاء الجنود قسوةً لا مثيل لها، واستمروا في ممارسة العنف حتى مع وجود أكوام من الجثث التي كانت تنتشر في كل زاوية وكل باحة، وذلك بالرغم من أهم يتكلمون اللغة، واللهجة ذاهّا مثل سكان طيبة.

انـــتهت المجـــزرة مـــع حلول الظلام، وساعدت حالات التعب والسُكْر التي سيطرت على الجنود على انتهائها.

وفي الـــيوم التالي، جمع الإسكندر أعضاء التحالف لتقرير ما يجدر به فعله بالنسبة إلى طيبة.

في البداية تكلم ممثلو بلاتيا: "لطالما خان سكان طيبة قضية الإغريق المشتركة، كانوا الشعب الوحيد من بين شعوبنا خلال الغزو الفارسي الذي أقدم على التحالف مع الملك العظيم ضد إخواننا الذين كانوا يحاربون في سبيل حريتهم. ولم يُظهروا أي رحمة عندما دمّر البرابرة مدينتنا وسوّوها بالأرض، وعندما كانت نساؤنا يتعرضن للاعتداء، أما أطفالنا فقد أُخذوا كعبيد إلى بلادٍ بعيدة كي لا يقدر أحد على إيجادهم".

قال مندوب ثيسبياي: "أما الأثينيون فقد ساعدوا سكان طيبة، ولكن، سرعان ما تخلوا عنهم في ساعة شدّهم عندما حلّت عليهم ساعة العقاب العادل... وهل يُحتمل أن الأثينيين قد محوا من ذاكرتهم حادثة إحراق الفرس لمدينتهم، وهدم معابد الأسياد وتسويتها بالأرض؟".

أما مندوبو الفوكيين والتساليين فقد اقترحوا ما يلي: "إنّ جعل مدينة واحدة أمثولة تأديبية لغيرها من المدن من شأنه منع حدوث حروب في المستقبل، كما أنه سيردع الآخرين عن خرق السلام بسبب الحقد والتحيّز الأعمى".

اتخذ القرار بأغلبية كبيرة. وبالرغم من أن الإسكندر كان ضد هذا القرار، إلاّ أنّه لم يتمكن من معارضته لأنه سبق له أن أعلن أنه سيحترم قرار المجلس. لذا، بيع نحو ثمانية آلاف شخص من سكان طيبة كعبيد، وسوّيت مدينتهم الموغلة في القدم، والتي مجّدها هوميروس وبندار بالأرض، وأُزيلت طيبة عن وجه الأرض، وكأنها لم تتواجد يوماً.

44

ترجل الإسكندر عن صهوة جواده، وكأنه سقط عنه، ثم ما لبث أن جــرّ نفــسه جــراً إلى خيمته، كان رأسه يضج بصراخ الرعب، والتوسلات المحزنة، أما يداه فكانتا مليئتين بالدماء.

رفــض تناول الطعام وشرب المياه، وفكّ أسلحته، ثم تهالك فوق ســريره، وأحسّ بتشنجات مرعبة تجتاح جسده. بدا الأمر وكأنه فقد السيطرة على عضلاته وحواسّه، ورأى كوابيس وهلوسات أمام عينيه، والــتي اخترقت روحه مثل عاصفة تدمّر كل شيء في طريقها، أو مثل إعصار يهب في عقله، وهو الأمر الذي محا كل فكرة خطرت له.

كانت هذه هي الساعات التي تلت اجتياح طيبة مباشرة، كما أن الألم واليأس الناتجين عن تدمير مدينة إغريقية بالكامل قد سحقا روحه مــثل حجــر الرحى. وكان الإحساس بالقمع قوياً جداً إلى درجة أنه صــرخ صــرخة قوية كادت أن تكون وحشية بسبب المعاناة، لم يميز الذين سمعوا هذه الصرخة بينها وبين الصرخات الأخرى التي تصاعدت في تلك الليلة المشؤومة، والتي أرخت بظلالها على الأشخاص الثملين، والأرواح المشربة بالدماء.

اختــرق صــوت بطلــيموس الصمت على نحو مفاجئ، فأثقل ضميره.

"لم تــشبه تلــك المعــركة أي معركة تجري في ميادين المعارك المفتوحة، ولم تشبه كذلك المعركة التي نشبت على ضفاف نهر إستر. لم يكــن ســقوط طــروادة الذي تغنى به هوميروس يقارَن بسقوط هذه

المدينة، وكذلك بالنسبة إلى تدمير عدة مدن زاهرة أخرى محتها ذاكرة الزمن".

لم يقل الإسكندر شيئاً، بل جلس في سريره بينما كان بطليموس يتحدث معه، وكانت تعابير وجهه تظهر رجلاً ممسوساً يكاد يصل إلى حـــدّ الجـــنون، لم يستطع إلا أن يتمتم: "أنا... أنا لم أشأ حدوث هذا الأمر".

قال بطليموس وهو يخفض رأسه: "أعرف أنك لم تدخل المدينة". مرّت فترة صمت قبل أن يتابع: "لكنني أؤكد لك أن الذين قاموا بأبشع الأعمال، وأقساها، والأشخاص الذين شوهوا أولئك الأوغاد كانوا من جيرانهـــم. أي أنهم من الفوكيين والبلاتيين والتساليين، وجميعهم يمتّون بصلة القرابة إلى سكان طيبة، هذا إذا لم يكونوا الشعب ذاته من ناحية اللغة والأصول والتقاليد والمعتقدات.

هُـــزم الأثينـــيون مـــنذ سبعين عاماً، وأُجبروا على الاستسلام لأخـــصامهم الإسبارطيين وجنود مدينة طيبة، ومن دون شروط. هل تعرف ما الذي أرادت مدينة طيبة فعله؟ أنت تعرف، أليس كذلك؟ أرادت أن تحرق أثينا، وأن تزيل أسوار المدينة، وأن تذبح السكان أو تبـــيعهم كعبـــيد. ولـــو لم يكن ليساندر الإسبارطي حازماً جداً في معارضـــته خطـــط قادة تلك المدينة، لكنتَ وجدتَ مجد هذا العالم، وأجمـــل مديـــنة شيّدت فيه، كومةً من الرماد، وحتى إن اسمها كان سيختفي.

إن المصير القاسي الذي أنـــزله أجداد الطيبين بعدوهم الضعيف، والبريء قد غطى على أحقادهم، إنه المصير المحتوم بالنسبة إليهم. ومع ذلـــك، أقول إن الظروف مختلفة، لأنك عرضت عليهم السلام مقابل قدرٍ قليل من تقييد حريتهم.

أمـــا الآن فإن جيرانهم، وأعضاء الاتحاد البواقي، يتجادلون حول كيفـــية تقاســـم أراضي مدينتهم الأم، كما أنهم يدعونك إلى التوسط بينهم في هذه العملية".

اقتـــرب الإســـكندر من وعاءٍ مليء بالماء، وغطس رأسه فيه، ثمّ جفّف وجهه بعد ذلك وقال: "أهذاً هو السبب الذي أتيتَ من أجله؟ لا أريد أن أراهم".

"كـــلا، أتـــيت كي أخبرك أن منـــزل الشاعر بندار لم يتعرض للهـــدم، وذلـــك بحسب أوامرك، كما نجحتُ في إنقاذ عددٍ كبيرٍ من أعماله من ألسنة النيران".

أومأ الإسكندر.

"وأردت كذلك أن أخبرك... أن بيرديكاس يُشرف على الموت، جُـــرح الرجل جرحاً بليغاً في هجوم يوم أمس، لكنه فضّل ألا يُعلمك بالأمر".

"ولماذا؟".

"لأنه لا يريد أن يحوّل تفكيرك عن مسؤولياتك في القيادة في مثل هذه الفترة الحاسمة. ولكن، الآن...".

صـــاح الإسكندر: "إذاً هذا هو السبب الذي منعه من المثول بين يدي! أوه، بحق الأسياد! خذني إليه على الفور".

خـــرج بطليموس، وتبعه الملك على الفور إلى خيمةٍ منصوبة في الطرف الغربـــي من المخيّم حيث كانت المشاعل مضاءة.

اســـتلقى بيرديكـــاس على سريره فاقداً وعيه، وغارقاً في عرقه، ويكاد يغلي من الحمى، فيما كان فيليب الطبيب جالساً قربه، منهمكاً في عصر سائلٍ صافٍ من إسفنجة وضعها في فم بيرديكاس.

سأل الإسكندر: "كيف حاله؟".

هــزّ فيليب رأسه: "حرارته عالية جداً، كما أنه فقد كمية كبيرة من الدماء. إنه جرح خطير تسبب به رمحٌ دخل عظمة ترقوته، لم يصل الــرمح إلى رئـــته، لكـــنه اخترق عضلات عدة، ولهذا فإن النـــزيف رهـــيب، لكنني لجأت إلى كيه، ثم قمت بخياطته وتضميده. إنني أحاول الآن إعطـــاءه القليل من السائل الممزوج بدواءٍ من شأنه تخفيف الألم، وتخفـــيض حرارته، لكنني لا أعرف مقدار ما يدخل جسمه من الدواء بالفعل، وكم يلفظ منه...".

اقترب الإسكندر أكثر ووضع إحدى يديه على جبهة بيرديكاس.

"يا صديقي، لا أريدك أن تموت، لا تتركني".

ســـهر الإســـكندر مع فيليب طوال الليل كي يراقبا بيرديكاس، بالـــرغم من أنه كان متعباً و لم يذق طعم النوم مدّة يومين كاملين. فتح بيرديكـــاس عينيه وتطلع حوله، فوكز الإسكندر فيليب الذي كان قد استسلم للنوم في هذا الوقت.

اســـتيقظ الطبـــيب، وألقى نظرةً على الجرح، ثم وضع يده على جـــبهة مريـــضه فلاحظ أن الحرارة لم تبارحه بالرغم من أنها انخفضت كثيراً.

قال فيليب قبل أن يعود إلى النوم مجدداً: "يُحتمل أنه سينجو".

وبعـــد قلـــيل، دخل بطليموس إلى الغرفة. وسأل بهدوء: "كيف حاله؟".

"يعتقد فيليب أنه سينجو".

"هذا جيّد. لكن، عليك أن ترتاح الآن، إنك تبدو في حالة فظيعة".

"كان كل شيء فظيعاً هنا، كانت تلك أسوأ أيام حياتي".

اقتـــرب منه بطليموس أكثر، وكأنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يتمكن من ذلك.

سأل الإسكندر: "ما الخطب؟".

"أنـــا... أنـــا لا أعـــرف... لو مات بيرديكاس ما كنت لأتفوّه بكلمة. ولكن، بما أنه قد ينجو فإنني أعتقد أنه يجب أن تعرف...".

"أعرف ماذا بحق الأسياد... لا تؤخّر كلماتك أكثر من ذلك".

"أعطاني بيرديكاس رسالةً قبل أن يفقد وعيه".

"رسالة إليّ أنا؟".

"كلا، بل إلى شقيقتك ملكة إيبيروس، كانا متحابين، لذلك طلب مـــنها في الرســـالة ألا تنساه أبداً. أنا... أو بالأحرى نحن، سخرنا من هـــيامه هـــذا. لكن، لم يعتقد أحد أنهما كانا بالفعل..." وهنا أعطى بطليموس الرسالة إلى الإسكندر.

قـــال الإســـكندر: "كـــلا، لا أريد رؤيتها. إنه أمر طبيعي، لأن شقيقتي كانت فتاة صغيرة مليئة بالحياة، ولهذا فأنا لا أرى أي خطأ في اشتياقها إلى رجلٍ تحبه، لم تعد مراهقة بعد الآن، كما أنها تتهيأ للزواج برجلٍ تحبه، أما بالنسبة إلى بيرديكاس فإنني لا ألومه لأنه أراد تخصيص آخر أفكاره للفتاة التي أحبها".

"إذاً، ماذا تريدني أن أفعل بهذه الرسالة؟".

"احـــرقها. ولكـــن، إذا سألك عنها قل له إن كليوباترا تسلّمتها شخصياً".

تـــوجه بطليموس نحو مشعل، وأمسك بورقة البردى فوق ألسنة اللهب، وسرعان ما التهمت النيران إعلان الحب الذي كتبه بيرديكاس، فاختفى في الدخان الذي تبدّد في الهواء.

*

تـــردّدت أصداء عقاب مدينة طيبة القاسي، وتسببت بردات فعلٍ مـــرعبة في بلاد اليونان، لأنه لم يسبق لمدينة شهيرة أن سويت بالأرض

بهـــذا الشكل. إذ كانت جذور مدينة طيبة تمتد بعمقٍ في التاريخ بحيث إنها تخـــتلط مع الجذور العميقة للأساطير ذات الجذور الإغريقية. لذا، امتد اليأس الذي أصاب عدداً قليلاً من سكان طيبة الناجين إلى كل الإغريق الـــذين وحّـــدوا بـــين مواطنيهم وبين تلك المدينة التي ولدوا فيها. أما المعابد، والينابيع، والباحات التي تذكرهم بأصولهم فقد حموها بمحبة.

كانـــت المدينة تعني كل شيء للإغريق. لذا، انتشرت التماثيل في زاويـــة كـــل شارع، وكذلك الصور واللوحات القديمة التي بليت مع مرور الزمن، والتي كانت تحمل بطريقة أو بأخرى روابط مع الأساطير، ومع الأحداث التي كانت كلها جزءاً من تراثهم المشترك. ولقد امتلك كـــل ينبوعٍ صوته الخاص به، وكل شجرة صوتها، وكل حجرٍ تاريخه. كانـــت آثار الأسياد، والأبطال، والأجداد منتشرة في كل مكانٍ حيث نشر الناس معابدهم.

كانت خسارة المرء مدينته تماثل روحه، كما تشبه موت المرء قبل أوانه، أو أن يُصاب بالعمى بعد تمتعه بضوء الشمس وألوان الأرض لمدة طـــويلة. إنه أمرٌ أسوأ من كونه عبداً، لأن العبيد لا يتذكرون ماضيهم عادةً.

تمكّن لاجئون من طيبة من الوصول إلى أثينا حيث كانوا أول من نقـــل الأخـــبار التي سرعان ما تسببت بنشر أجواء الكرب العميق في المديـــنة. وبعـــث ممـــثلو المدينة منادين في جميع أنحائها داعين إلى عقد اجـــتماع، وذلـــك لأنهم أرادوا أن يسمَع الجميع أخبار ما حصل من شهودٍ عيان، وليس عبر أخبار منقولة عن آخرين.

ظهـــرت حقـــيقة الأحداث أمام الجميع بكل جوانبها المأساوية، فوقف قائد بحري قديم في الجيش يدعى فوكيون، وهو الرجل الذي قاد البعثة الأثينية في المضائق ضد أسطول فيليب، ليتكلم.

"يـــبدو واضحاً بالنسبة إليّ أن ما حدث في طيبة يُمكن أن يحدث هـــنا في أثينا كذلك. فنحن قد نكثنا بعهدنا مع فيليب تماماً مثلما فعل ســكان طيبة، يُضاف إلى ذلك أننا قمنا بإرسال السلاح إليهم. إذاً ما الذي سيدفع بالإسكندر إلى إظهار تساهله تجاهنا؟

من الصحيح كذلك وجود مسؤولين بيننا عن هذه القرارات، أي الذين يقنعون الناس كي يصوتوا على إجراءاتٍ كهذه، والذين حرّضوا مديـــنة طيـــبة على تحدي ملك مقدونيا، ثم تركوها لتواجهه وحيدة، والـــذين يعرّضون الآن مدينتهم لمخاطر فظيعة. أريد أن يتذكر هؤلاء الأشـــخاص أن التضحية بعددٍ قليل هي أفضل من فناء عددٍ كبيرٍ من الناس، أو فناء المدينة بكاملها. وأنّه يتعيّن عليهم أن يكونوا شجعاناً بما يكفـــي كـــي يسلموا أنفسهم ويواجهوا المصير الذي تجاهلوه بشكلٍ متهور.

أيها المواطنون، عندما أدنت هذه القرارات اتهمت بأنّني متعاطف مـــع المقدونيين. وعندما كان الإسكندر في تراقيا قال عنه ديموستين إنه فتى صغير تسلق عرش مقدونيا، ثم ما لبث أن اعتبره مراهقاً عند وصوله إلى تـــساليا، ثم اعتبره شاباً عندما ظهر بين أسوار طيبة. وها أنا اليوم أســـأله، أيّ وصـــف سيطلق عليه الآن بعد أن أظهر قوته الساحقة؟ وكيف سيتوجه بالكلامٍ إليه؟ هل سيعترف أخيراً أنه الرجل الذي لديه قوته الهائلة، وقدراته، التي لا حصر لها؟

لدي شيء آخر أود قوله، أعتقد بقوة أنه من الضروري أن نمتلك الجرأة سواء أكان ذلك في أفعالنا، أم في قناعاتنا".

وقف ديموستين ليدافع عن أفعاله وأفعال مناصريه، وتوجّه كعادته إلى عاملـــي الإحساس بالحرية والديمقراطية اللذين أبصرا النور في أثينا، وختم كلامه قائلاً إنه سمح للمجلس بتقرير مصيره الشخصي:

"لست خائفاً من الموت، لأنني قابلته وجهاً لوجه في ميادين تشايرونيا، حيث بالكاد نجوت منه عندما اختبأت بين أكوام الجثث قبل هروبي عبر الجبال. وسأستمر في خدمة هذه المدينة في هذه الأوقات الصعبة مثلما خدمتها في الماضي، وإذا طلب مني هذا المجلس أن أسلّم نفسي فإنني سأفعل ذلك".

تمتع ديموستين بالدهاء على الدوام ولا سيّما عندما قدّم نفسه فداءً عن الآخرين. لكنه، في حقيقة الأمر تكلم بمهارة شديدة، بحيث إن كل الذين استمعوا إلى كلامه اعتبروا أن خياراً كهذا يشبه تدنيس الأشياء المبجلة.

ناقش المجلس الوضع لفترةٍ من الوقت، وأُعطي قادة الأجنحة السياسية الوقت الكافي لإقناع مناصريهم.

وكان بين الحضور فيلسوفان معروفان تماماً: سبيوسيبوس الذي أصبح مدير الأكاديمية بعد موت أفلاطون، وديموفان.

قال سبيوسيبوس لصديقه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: "أتعلم بماذا أفكّر؟ أعتقد أنه عندما حرم أفلاطون والأثينيون أرسطو من إدارة الأكاديمية، توجه بدافع الانتقام كي يصنع الإسكندر".

صوّت المجلس ضد اقتراح تسليم ديموستين ومناصريه إلى المقدونيين، وقرّر المجلس كذلك إرسال وفدٍ إلى الإسكندر يتكوّن من أولئك الذين يتمتعون بأكبر فرصٍ للاستماع إليهم، بالإضافة إلى ديماديس الذي تقرر أن يرأس الوفد.

التقى الإسكندر ديماديس في الطريق المؤدي إلى كورينث، حيث قرّر دعوة ممثلي التحالف الهليني مجدداً كي يثبّت قيادته لهذا التحالف بعد الأحداث التي جرت في طيبة وليكون القائد الأعلى في الحرب ضد الفرس.

جلس الإسكندر في خيمته وإيومينيس إلى جانبه.

ودهش الحاضرون عندما كان أول سؤال طرحه: "كيف حال جرحك يا ديماديس؟".

رفع الخطيب ديماديس عباءته ليُظهر جرحه: "لقد شُفي تماماً أيها الإسكندر، إن جرّاحاً حقيقياً ما كان ليقوم بالعمل أفضل منك".

"يعود الفضل في ذلك إلى معلمي أرسطو، الرجل الذي كان أحد مواطنيكم ذات مرة. وبالمناسبة، ألا تعتقدون أنه حان الوقت لإقامة تمثال له في سوق مدينتكم؟ إن أثينا تفتقد إلى هذا التمثال، أليس كذلك؟ إنها تحتاج إلى تمثالٍ لأرسطو في مكان عام".

تطلع المندوبون إلى بعضهم بعضاً، وبدا أن حيرتهم قد زادت.

قال ديماديس معترفاً: "كلا، لم نهتم بهذا الأمر بعد".

"فكّروا في هذا الأمر، كما أريد أن أقول أمراً آخر، أريد أن تسلموني ديموستين، ولايكورغوس، وكل الذين قادوا التمرد ضدي".

خفض ديماديس رأسه، وقال: "توقعنا يا مولاي هذا الطلب، ونحن نعرف ما تفكّر فيه. تعرف جيداً أنني سعيت شخصياً إلى تحقيق السلام، وذلك بالرغم من أنني قمت بواجبي على الدوام، وحاربت مثل كل مواطنٍ آخر كلما دعتنا مدينتنا إلى ذلك. ولكنّني مقتنع، بالرغم من هذا كله أن ديموستين والآخرين قد تصرفوا بنوايا طيّبة، أي مثل وطنيين حقيقيين".

صاح الإسكندر: "أتقول وطنيين؟".

كرّر ديماديس بكل اقتناع: "أجل أيها الملك الإسكندر، إنهم وطنيون".

"لماذا لا يسلمون أنفسهم إذاً في هذه الحالة؟ لماذا لا يتحملون مسؤولية أعمالهم؟".

"لأن المدينة صوتت ضد هذا القرار، كما أن المدينة مستعدة لمواجهة أي خطر، وأي تحدٍّ. اسمعني أيها الإسكندر، أثينا مستعدة لقبول مطالب معقولة. ولكن، لا تدفعنا إلى إجراءات يائسة، لأنك حتى لو ربحت فإن النصر الذي ستحرزه سيكون أمرّ من الهزيمة.

هُزمت مدينة طيبة، أما إسبارطة فلن تتحالف معك أبداً. وإذا دمرتَ أثينا، أو جعلتها عدوتك إلى الأبد، فماذا سيبقى من اليونان إذاً. تنجح الرحمة أكثر بكثير من القوة، أو الغطرسة في غالب الأحيان".

لم يردّ الإسكندر، لكنه وقف وراح يذرع الخيمة جيئةً وذهاباً، وجلس بعد ذلك مجدداً، وسأل: "ماذا تريدون؟".

"لن يسلّم أي مواطنٍ أثيني، ولا نريد حدوث أعمالٍ انتقامية ضد المدينة، ونطلب كذلك أن تمنح حق اللجوء إلى لاجئي مدينة طيبة وأن تساعدهم. وفي المقابل، سنجدّد عضويتنا في التحالف الهليني، وفي معاهدة السلام. فإذا تحركت بقواتك نحو آسيا، فستحتاج إلى أسطولنا لتغطية خلفية جيشك. إن أسطولك صغير جداً، ولا يتمتع بخبرة عظيمة تمكّنه من التحرك من دون مساعدة".

اقترب إيومينيس أكثر من الإسكندر وهمس شيئاً في أذنه: "تبدو لي هذه الاقتراحات معقولة".

فأمره الإسكندر وهو يهبّ واقفاً: "إذاً، حضّر وثيقة ووقعها". ونزع الختم الملكي من إصبعه ووضعه في يد إيومينيس قبل مغادرته الخيمة.

45

أغلق أرسطو حقيبته، وتناول عباءته من حيث كانت معلقةً على الجدار، ثم تناول مفتاح الباب عن أحد المسامير، وألقى نظرةً أخيرة في أنحاء الغرفة وقال في نفسه: "لا أعتقد أنني نسيت أي شيء".

سأله كاليستين: "إذاً، ستغادر بالفعل؟".

"أجـــل، قررت أن أعود إلى أثينا لأنه يبدو لي أن الوضع قد هدأ قليلاً".

"هل عرفت أين ستسكن؟".

"اهتمّ ديماديس بكل هذه الأمور، ووجد لي مبنى سكنياً كبيراً مع رواق معمّد يقع قرب لايكابيتوس، وهو يشبه المبنى الذي كنت أسكن فيه في ميزا، وأستطيع أن أفتح فيه مدرسة. ويتسع المبنى لإقامة مكتبة، وقاعـــة للعلـــوم الطبيعـــية، كما سيكون هناك قسم مخصّص للبحث الموسيقي. أنهيت نقل كل المواد إلى المرفأ، ولم يبقَ أمامي إلا أن أنطلق بحراً".

"وهكذا تتركني كي أتابع التحقيق بمفردي".

"بالعكس تماماً، لأنني أستطيع أن أجمع معلومات في أثينا أكثر من مقدونيا، يُضاف إلى ذلك أنني قد عرفت كل شيء ممكن هنا".

"وما هو؟".

تناول أرسطو بعض الأوراق المليئة بالملاحظات من أحد الأدراج، وقـــال: "اجلس، إن الأمر الوحيد المؤكد حتى الآن هو أن موت فيليب قـــد ســـبب توتراً أثار موجة من الهمسات، والشائعات، والافتراءات،

والتلميحات. يشبه الأمر إلقاء حجرٍ كبير في طبقة من الوحل الذي يتواجد في مستنقع مياه صافية. يضطر المرء إلى الانتظار كي يترسب الوحل ليتمكن مجدداً من الرؤية بوضوح من خلال المياه.

نشأت أفعال بوزانياس - وهي أمور متوقعة - من جراء علاقة شاذّة، وهي أخطر علاقات الحب. وأقول إذا أردت اختصار قصة طويلة إن بوزانياس، وهو شاب وسيم، وماهر في استعمال أسلحته، قد تمكّن من الانضمام إلى حرّاس فيليب، ولاحظ الملك وجوده وأعجب به، لكنّ آتالوس وضع ابنته المسكينة يوريديس في سرير الملك، فوجدها فيليب لا تقاوم.

جنّ جنون بوزانياس من الغيرة، فأصابته نوبة من الصراخ خلال اجتماعٍ له مع آتالوس، لكنّ القائد أطلق أتباعه، وبدا بالفعل أنه يخطط لأمرٍ ما. وبعد مدّة، دعا القائد بوزانياس كي يتناول الطعام معه كعلامةٍ على النوايا الطيبة، وذلك بعد جولة صيد في الجبال.

كان المكان منعزلاً جداً. وبعد أن تناول الجميع الشراب بكثرة، وشعروا بالسرور والحماسة، اختفى آتالوس في لحظة محددة، وترك بوزانياس بين أيدي صياديه الذين أقدموا على القيامٍ بأفعال منافية للحشمة معه بشكل متكرّر طوال الليل، وبكل الطرائق التي يُمكن تصوّرها، وتركوه بعد ذلك أقرب إلى الموت مما هو إلى الحياة.

أفقد هذا العمل بوزانياس صوابه، فطلب من فيليب أن يسمح له بالانتقام. ولكن، من الطبيعي ألا يسمح الملك أن يلحق الأذى بوالد زوجته المستقبلية. أراد بوزانياس أن يقتل آتالوس، لكنّ ذلك لم يكن بالأمر الممكن لأن فيليب عيّنه، بالاشتراك مع بارمينيون، ليكون قائد الحملة الاستكشافية في آسيا، فتحوّل غضب بوزانياس، لهذا السبب، إلى الهدف الوحيد الذي تبقى لديه، أي إلى فيليب، وتمكّن في النهاية من قتله".

تـــرك أرسطو يده اليسرى تسقط على رزمة ورق البردى محدثة دوياً، وذلك كي يوضح ما يقوله.

حـــدّق كاليـــستين إلى عينَي الفيلسوف الصغيرتين والرماديتين، والملتمعتين بتعبيرٍ غامض يقع ما بين إدراك الأمور والسخرية.

"لا أستطيعٍ أن أقرّر ما إذا كنتَ تصدّق كل هذا، أو أنك تتظاهر بتصديقه".

"ينبغـــي علـــى المرء ألا يقلّل من تأثير العواطف التي تكون دائماً عامـــل تحفيزٍ قوياً في السلوك الإنساني. وعلى الأخص سلوك شخصٍ يفـــتقد إلى التوازن العقلي، وهو الأمر المحتّم الذي ينتهي إليه كل قاتل. يُضاف إلى ذلك أن تعقيدات القصة تدل على أنها قد تكون صحيحة".

"قد يكون الأمر...".

"حقـــاً! لكنّ هناك أموراً غير مقنعة فيها. أولاً، انتشرت أحاديث كثيرة عن علاقات فيليب غير السوية. لكن، لم يسبق لأي شخص أن روى أخباراً عن فيليب تتجاوز المغامرات العابرة... وحتى في هذه المرة. أيمكنك أن تتصور أن رجلاً في وضع فيليب يمكنه أن يتورط مع رجلٍ مجنون يعمل حارساً لديه؟

ثانـــياً، إذا حدثت الأمور بهذه الطريقة، فلماذا لم ينتظر بوزانياس طـــويلاً قبل تنفيذ انتقامه؟ ولماذا فعل ذلك بهذه الطريقة المتهورة؟ ثالثاً، مـــن هـــو الشاهد الرئيس على كل ذلك؟ إنه آتالوس بالطبع. ولكنّ آتالوس قد مات؛ لقد اغتيل".

"وماذا يعني ذلك؟".

"يعـــني أن أكثر الأمور احتمالاً هو أن الشخص الذي استأجر القاتل قـــد لفّـــق، بالفعل، هذه العقدة؛ وهي قصة مقنعة بالأساس، وتلقي باللوم على الشخص الذي لا يستطيع تأكيد، أو نفي، براءته نتيجة لكونه ميتاً".

"يبدو الأمر مثل النظر من خلال الوحل".

"يُحتمل ذلك، لكنني ألاحظ أمراً بدأ بالظهور".

"وما هو؟".

"هوية الرجل - أو المرأة - الذي يقف وراء كل ذلك، ونوع الحلقة التي ظهرت منها كل هذه الأحداث. لدي نسخة في حقيبتي عن الملاحظات التي دوّنتها، يمكنك الاحتفاظ بهذه الأوراق يا كاليستين لأنني أريدك أن تستفيد منها، أما أنا فسأتابع تحقيقاتي من زاوية أخرى".

أجاب ابن شقيقته: "في الحقيقة، ليس لدي الوقت لمتابعة تحرياتي، إن الإسكندر مشغول الآن تماماً بحملته الآسيوية، وقد طلب مني أن ألتحق به، لأنني سأكتب تاريخ هذه الحملة".

أومأ أرسطو، وأغمض عينيه نصف إغماضة: "يعني ذلك أن الإسكندر قد وضع خلفه الماضي وأوزاره. إنه يندفع الآن نحو المستقبل، يندفع نحو المجهول".

ثمّ تناول حقيبته، وألقى عباءته فوق كتفيه، وتوجّه إلى الطريق. كانت الشمس في بداية طلوعها من وراء الأفق، وقد بدأت بإظهار أشكال القمم العارية لجبل كيسوس التي يقع خلفها سهل مقدونيا الذي يحتضن عاصمتها ومنتجعها المنعزل في مييزا.

قال أرسطو ملاحظاً وهو يسير نحو عربة صغيرة كانت تنتظره كي تقله نحو المرفأ: "إنه لأمر غريب ألا تتسنى لي، أو للإسكندر، فرصة الالتقاء مجدداً".

"لكنه يفكّر فيك دائماً، وربّما سيأتي لزيارتك في أحد الأيام قبل أن يغادر".

قال الفيلسوف وكأنه يحدّث نفسه: "أشك في ذلك. لأنه منجذب إلى بدء مغامرته مثلما تنجذب الفراشة إلى لهيب مشعل. أما

عندما يظن بالفعل أنه يريد أن يراني، فسيكون الوقت قد تأخر بالنسبة إليـــه للعـــودة. وعلـــى كلّ حال، سأرسل إليك عنواني في أثينا بحيث يمكنك أن تكتب إليّ في أي وقت تشاء. إنني متأكد من أن الإسكندر ســـيفعل كل ما في وسعه كي يبقي خط التواصل مفتوحاً مع المدينة. وداعاً كاليستين، اعتنِ بنفسك جيداً".

عانـــق كاليـــستين خاله، لكنه أيقن أنه رأى، وللمرة الأولى على الإطلاق، شعلةً من العاطفة في العينين الرماديتين الصغيرتين.

46

كان المعبد القديم الذي يقع في طرف الغابة بالكاد يبدو مرئياً في عتمة الليل، أما المشاعل التي انتشرت أسفل جدرانه فقد أضاءت أخشاب قواعد الأعمدة، فظهرت عليها عوامل الزمن، وعناصر الطبيعة، وتعاقب القرون.

فيما عكست الزخرفات الطينية الملوّنة للأعمدة، والمساحات فوق الأعمدة، أعمال ديونيسيوس. كما أن انعكاسات اللهيب المتراقص أعطت الرسوم نوعاً من الحركة، وكأنها تبعث فيها الحياة.

كان الباب مفتوحاً، بحيث بدا داخل المعبد. فكان في الإمكان رؤية تمثال ديونيسيوس وسط الضوء الشاحب. بدا التمثال رزيناً في سكونه الأبدي، ووُضع مقعدان قرب قاعدة التمثال بينما نُشرت ثمانية مقاعد على مسافةٍ قريبة منه، وبموازاة صفوف الأعمدة التي تدعم عوارض السقف.

وصل بطليموس أولاً، ثم تبعه كراتيروس وليوناتوس معاً، أما لايسيماخوس، وسلوقس، وبيرديكاس، الذين لم يتعافوا تماماً من جروحهم فلم يتأخروا عن الوصول، وما لبث أن وقف وراءهم إيومينيس وفيلوتاس اللذان دعيا إلى الاجتماع، أما الإسكندر فقد وصل على صهوة بوسيفالاس مع هيفاستيون، وكانا آخر الواصلين.

عندها، دخل الجميع وأخذوا أماكنهم على طول صف أعمدة المعبد المهجور والساكن.

جلس الإسكندر، وسرعان ما جلس هيفاستيون إلى يمينه ثم أشار إلى الآخرين كي يحذوا حذوه. شعر الجميع بالتوق، وبفراغ الصبر، كي يعرفوا غاية هذا الاجتماع الليلي.

بدأ الملك حديثه بالقول: "حانت اللحظة للانطلاق في تنفيذ المهمة التي لطالما حلُم بها والدي، لكنّ الموت المفاجئ والعنيف قد حرمه منها. وأعني بذلك اجتياح آسيا!".

هبّت نفحة ريحٍ من خلال الباب الرئيس، فتمايلت ألسنة لهب المشاعل بشدة، وأضفت حركةً على ابتسامة ديونيسيوس الغامضة.

"إن اختيار مكان اجتماعنا هنا الليلة لم يأتِ صدفة أبداً. إن ديونيسيوس قد سافر برفقة موكبٍ من أسياد الغابات المبجلة والمولعة بالقصف المعربد وبالانغماس في الملذات. فبرؤوس مكلّلة بأوراق العرائش، سيُرينا الطريق إلى الهند البعيدة التي لم يطأها أي جيش إغريقي من قبل.

إن الصراع بين آسيا واليونان صراعٌ قديم لم يُسفر عن رابحين أو خاسرين. أما حرب طروادة فقد استمرت عشر سنوات، وانتهت بنهب مدينة واحدة فقط وتدميرها. كما أن أحدث الغزوات، وهي المحاولات التي أقدم عليها الأثينيون أولاً، ومن بعدهم الإسبارطيون، والتي هدفت إلى تحرير الإغريق القاطنين في آسيا من الهيمنة الفارسية، قد فشلت. وحدث الأمر ذاته بالنسبة إلى محاولات الفرس غزو اليونان. فلقد حفلت كل هذه الأحداث بالمجازر، والحرائق، والغارات التي لم توفر حتى معابد الأسياد.

ولكن، تغيرت الأزمان الآن. إننا أقوى جيش وُجد على سطح هذه الأرض، ولدينا أفضل الجنود. وفوق ذلك كله..." وهنا تطلع إلى وجه كل واحد من الحاضرين، "إن الذين يجلسون هنا هذه الليلة

متحدون برابطة مشتركة من الصداقة العميقة والمخلصة. لقد كبرنا معاً في قـــصر بـــيلا، ولعبنا معاً عندما كنا أولاداً، والتحقنا بالمدرسة ذاتها، وتعلمنا معاً كيفية مواجهة أولى صعوباتنا، وأول الأخطار التي أحدقت بنا".

أضـــاف بطليموس متسبباً بانطلاق الضحكات في المكان: "كما أننا ذقنا جميعاً ضربات العصا ذاتها".

قال الإسكندر: "أنت محقٌ تماماً!".

ســـأل سلوقس: "هل هذا هو السبب في عدم دعوتك بارمينيون؟ وإذا لم تخنّـــي ذاكرتي فقد سرقنا أنا وأنت العصا ذات مرة من القائد المسن، وذلك بناءً على أوامر محددة من والدك".

ضـــحك الإسكندر وقال: "بحق زيوس! أرى أنك تتمتع بذاكرةٍ جيدة".

سأل لايسيماخوس: "ومن هو الذي يستطيع نسيان العصا؟ أعتقد أن آثارها لا تزال ماثلةً على ظهري".

قـــال الإسكندر بعد أن استحوذ على انتباه رفاقه مجدداً: "كلا، لـــيس ذلـــك هو السبب الذي دفعني إلى عدم دعوة بارمينيون. إنني لا أخفي أي أسرارٍ عنه، وها هو ابنه فيلوتاس موجود معنا هذه الليلة.

سيكون بارمينيون محور مهمتنا، ومستشارنا، ومستودع مهاراتنا وخـــبراتنا الـــتي تمكّن والدي من تجميعها. لكنّ بارمينيون كان صديق والـــدي وأنتيباتر كذلك، بينما أنتم أصدقائي أنا، أريد أن أطلب منكم هنا، والآن، وأمام ديونيسيوس وكل الأسياد، أن تتبعوني وتحاربوا معي في أي جهةٍ نقصدها، وحتى لو وصلنا إلى أقاصي الأرض!".

فـــصرخوا جميعاً بعد أن هبوا واقفين، وتحلقوا حول الملك: "نحن معك حتى ولو وصلنا إلى أقاصي الأرض!".

وخـــيّمت عليهم حماسة شديدة، وهياج يصعب السيطرة عليه، ورغـــبة قـــوية في المغامرة، والتي أصبحت أكثر إلحاحاً بسبب رؤيتهم الإســـكندر واحـــتكاكهم معـــه، لأنه يجسد حلم فيليب أكثر من أي شخصٍ آخر.

تابع الملك حديثه بعد أن هدأوا قليلاً: "أريد أن يتسلم كل واحد مـــنكم قيادة فرقة من الجيش، وسيحمل كل واحدٍ منكم لقب *حارس الملك الشخصي*. لم يحمل شبان مثلكم من قبل هذه المسؤولية الجسيمة، لكـــنني أعـــرف أنكم على قدر هذه المسؤولية لأنني أعرفكم، ولأنني كبرت معكم، ولأنني رأيتكم تحاربون في ميدان المعركة".

سأل لايسيماخوس: "ومتى سننطلق؟".

"سننطلق قريباً، أي في هذا الربيع، ولذلك أريدكم أن تستعدوا... جسدياً وروحياً. أما إذا طرأت على بال أحدكم أفكار أخرى، أو إذا غيّر رأيه تماماً، فلا أريد منه أن يتردد في إبلاغي، يمكنني أن أستفيد من أصدقاء أثق بهم في البلاد".

سأل بطليموس: "كم من الرجال ستقود إلى آسيا؟".

"سأقود ثلاثين ألف جندي من المشاة، وخمسة آلاف فارس، وكل ما نستطيع أخذه معنا من دون أن نترك الأرض المقدونية مكشوفة جداً. إنـــني لـــست مـــتأكداً مـــن المدى الذي نستطيع الوثوق فيه بحلفائنا اليونانيين. وعلى كلّ حال، طلبت منهم أن يقدموا إلينا فرقة عسكرية، لكـــنني لا أعـــتقد أنهم سيتمكنون من تقديم ما يزيد عن خمسة آلاف رجل".

صاح هيفاستيون: "إننا لا نحتاج إليهم".

أجاب الإسكندر: "لكننا نحتاج إليهم بالفعل، إنهم جنود ممتازون، ونحن جميعاً نعرف ذلك. يُضاف إلى ذلك أن هذه الحرب هي ردنا على

الغزوات الفارسية للأراضي اليونانية، وعلى التهديد المستمر الذي تمثله آسيا ضد البلاد الهلينية".

هبّ إيومينيس واقفاً: "أيمكنني أن أتكلم؟".

قال كراتيروس ضاحكاً: "دعوا سيادة الأمين العام يتكلم!".

ردّ الإسكندر: "نعم، دعوه يتكلم، أريد أن أعرف بماذا يفكّر".

"لن يستغرق التعبير عن أفكاري وقتاً طويلاً أيها الإسكندر. يتلخص واقع الأمر في أنني إذا عملت بجد من الآن وحتى بداية الحملة فإنني سأتمكن من جمع موارد للحملة تكفي الجيش لمدة شهر واحد".

صاح بيرديكاس: "يفكر إيومينيس بالمال على الدوام!".

أجاب الإسكندر: "يُفترض بأحدهم التفكير بهذه الأمور، ولهذا ندفع إليه مرتبه. إن المسألة التي أثارها ليست مزحة، لكنها مسألة أعرها تفكيراً كثيراً، ستقدم إلينا المدن الإغريقية في آسيا مساعدات، لكنها تشترط أن نقوم بهذه المهمة كي نساعدها بدورنا، سنرى ما سيحدث بعد ذلك".

سأل إيومينيس وكأنه لا يستطيع تصديق أذنيه: "سنرى ما سيحدث؟".

تدخل هيفاستيون قائلاً: "ألم تسمع ما قاله لك، قال الإسكندر سنرى، أليس ذلك واضحاً بما يكفي؟".

تمتم إيومينيس: "ليس الأمر واضحاً بتاتاً، لأنه إذا كان عليّ تدبر التموين الذي يكفي أربعين ألف رجل، بمن فيهم حلفاؤنا الإغريق، بالإضافة إلى خمسة آلاف فارس، فإنني أريد أن أعرف من أين ستأتي كل هذه الأموال بحق هرقل!".

ربّت الإسكندر على ظهره وقال: "سنتدبر المال بطريقة ما، لا تقلق يا إيومينيس. أنا متأكد من أنك ستجد المال، أريدك فقط أن

تشغل نفسك بتجهيز كل ما يلزم لبدء الحملة، لأننا لن نتأخر في الانطلاق.

أيها الأصدقاء، مرّت ألف سنة منذ أن دخل سلفي آخيل إلى آسيا كي يحارب مدينة طروادة بالتحالف مع الإغريق الآخرين، إننا لن نكتفي اليوم بتحقيق إنجاز مماثل، بل نحن متأكدون من أننا سنحقق إنجازاً أكبر. يُحتمل ألا نحصل على رجلٍ مثل هوميروس كي يكتب قصتنا، لكنّ شجاعتنا لن تقل عن شجاعة جنود آخيل.

إنني متأكد من أننا نستطيع تحقيق أعمال تماثل أعمال الأبطال الذين تحدثت عنهم الإلياذة. لقد حلمنا بهم معاً أكثر من مرة، أليس كذلك؟ هل نسيتم كيف كنا ننهض في مسكننا بعد أن ينتهي ليونيداس من جولاته، ثم نشرع في رواية أخبار مغامرات آخيل، وديوميديس، ويوليسيس؟ كنا نتأخر في السهر حتى نستسلم للنوم ونحن متعبون؟".

خيم الصمت في أرجاء المعبد، لأنهم استعادوا جميعاً كل ذكريات شبابهم التي مضت الآن لكنها لا تزال ترافقهم. وترافقت هذه الذكريات مع قدرٍ من الهلع من المستقبل القادم والغامض بسبب معرفتهم أن الحرب والموت يترافقان معاً على الدوام.

تطلعوا نحو الإسكندر، ولاحظوا تغيّر لون عينيه تحت أضواء المشاعل الباهتة، وقرأوا فيهما قلقاً غامضاً، ورغبةً شديدة في المغامرات التي لا تنتهي، وأيقنوا أنهم سينطلقون جميعاً في مغامرة كبرى، لكنهم لا يعرفون أبداً متى يعودون، هذا إذا عادوا.

اقترب الملك من فيلوتاس وقال: "سأتحدث مع والدك، أفضّل ألا تخبره أبداً عما حدث هذا المساء".

أومأ فيلوتاس: "أنت على حق، يجب أن تتحدث معه. إنني مسرور لأنك طلبت مني أن أشارك في هذه الحملة".

شعر الجميع أن جو الاجتماع مثقل بالقلق، لكنّ بطليموس كسر الصمت المخيّم بجملة بسيطة: "إنني جائع الآن، ما رأيكم بفكرة تناولنا لحوم الحجل المشوي في مطعم إيوفيثوس؟".

أبدى الجميع موافقتهم: "نعم! إنها فكرة جيدة!".

صاح هيفاستيون: "سيدفع إيومينيس ثمن الطعام!".

ردّد الجميع بمن فيهم الملك: "نعم! نعم!".

وبعد وقت قصير، تحول المعبد إلى مكان مهجور، وكان كل ما يُسمع فيه أصواتٌ قفز الجياد وهي تختفي وسطَ ظلمة الليل.

*

استعدت كليوباترا، التي كانت في قصر بوثروتوم الذي شُيّد فوق مرتفعٍ صخري، في تلك اللحظة بالذات لفتح باب غرفة نومها وذراعيها لزوجها، فلقد انتهت فترة الحداد المفروضة على زوجة شابة مثلها.

فرحّبت به مجموعة من الوصيفات اللواتي ارتدين ثياباً بيضاء، وحملن مشاعل ترمز إلى الحب المشتعل في قلب ملك المولوشويين، وتقدمته الوصيفات صعوداً على الدرج المؤدي إلى بابٍ نصف مغلق، ثمّ نزعت إحداهن عباءته البيضاء عن كتفيه، وأغلقتٍ الباب بهدوء. وسرعان ما اختفت جميع الوصيفات معاً في أسفل الممر، وهن يمشين بخفة الفراشات الليلية.

رأى الإسكندر ضوءاً ذهبياً مرتعشاً يلامس رأساً ذا شعرٍ يماثل زبد أمواج البحار نعومة. كان رأس كليوباترا. تذكّر تلكَ الفتاة الصغيرة والخجولة التي كان يلمحها في أحيان كثيرة وهي تراقبه سراً في قصر بيلا، لكنها كانت تركض بساقيها النحيلتين إذا ما التفت كي يتطلع نحوها. وشاهد الإسكندر وصيفتين تهتمان بها، واحدة تمشط لها

شـــعرها، بينما انشغلت الأخرى بفك حزام عباءة زفافها، كما فكّت المشابك الذهبية والكهرمانية التي تثبت العباءة على كتفيها اللتين تماثلان العـــاج نعومة. في هذه الأثناء، التفتت الملكة الشابة نحو الباب من دون أن يلامس شيء جسمها غير ضوء المشعل.

دخـــل زوجهـــا واقترب منها كي يتفحص جسدها الذي يكاد يكون مثالاً للجمال، ولكي يُشبع نظره من ملامحها. حدّقت إلى عينيه المتلهفـــتين مـــن دون أن تخفـــض رموشها الطويلة والمشبعة بالرطوبة، والتهـــبت نظـــرتها في تلك اللحظة بقوة تماثل شراسة أوليمبيا، والتوقد الحـــالم لعيني الإسكندر، وسرعان ما تاه الملك في عينيها قبل أن يشدّها إلى ذراعيه.

راح يداعب وجهها بيده بلطف وقال: "يا عروستي، يا سيدتي... كم من الليالي المؤرقة أمضيتها في هذا المنـــزل وأنا أحلم بك...".

وانتقلت يده نـــزولاً إلى بطنها الناعم الملمس، ثم قادها بقوة إلى السرير.

قبّل فمها قبلة ملتهبة، فاستجابت بحماسة مماثلة، وبقوة أكثر عمقاً وجرأة، فأدرك أنها ليست عذراء، وأن شخصاً آخر قد امتلكها قبله... فأخفى وجهه وسط سحابة شعرها الناعم، وراح يبحث عن عنقها قبل أن يبدأ بتقبيل كتفيها.

شعر أنه برفقة سيدة مبجلة، لأنه ما من إنسان فانٍ يستطيع أن يطلـــب أي شـــيء من سيدة مبجلة، وهو يكون ممتناً لما يتلقّاه منها فقط.

وعندما انتهى، استلقى إلى جانبها منهكاً بينما أخذت ألسنة لهب المـــشاعل تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. فلم يبقَ إلا ضوء القمر اللامع الذي كان نصف بدر، والذي اخترق الغرفة.

استـــسلمت كليوباتـــرا للنوم فوق صدر زوجها الرحب بعد أن أُنهكت، وكذلك نتيجة النعاس الذي استولى فجأة على عينيها البريئتين.

فكـــر ملـــك مولوشيا بها ملياً لأيامٍ وليالٍ، وكرّس لها كل وقته، وأعطاهـــا كل انتباه ممكن، وكل التفاتة، وذلك بالرغم من أنه شعر في أعمـــاق قلبه بوخزاتٍ من الألم الناتج عن الغيرة. ولكن، حدث شيء غير متوقع أنعش اهتمامه بالعالم الخارجي مجدداً.

فبينما كان يتنـــزّه مع كليوباترا في ممرات القصر ويستمتع بنسيم المـــساء، رأى وعلى نحو مفاجئ، أسطولاً صغيراً يبحر في عُرض البحر مـــتجهاً نحو الميناء، ورأى كذلك سفينةً كبيرة لها مقدمة بشكل تمثال دولفـــين، كمـــا شـــاهد أربع سفنٍ حربية مرافقة مليئة برماة الأسهم بالإضافة إلى جنودٍ مشاة يحملون جميعاً دروعاً برونـــزية.

بعـــد ذلك بقليل، اقترب منه أحد الحراس وقال له: "يا مولاي، وصـــلنا الآن ضـــيوف أجانـــب من إيطاليا، ومن مدينة مهمة تدعى تارانت، وطلبوا عقد اجتماع معك يوم غد".

تطلـــع الملـــك نحو الشمس الغاربة بألوانها الحمراء، والتي كانت تختفي ببطء تحت خط الأفق، وأجاب: "قل لهم إنني سألتقيهم بسرور".

وسكب بعد ذلك كوباً من الشراب الخفيف والملتمع لكليوباترا، وهو من نوع الشراب ذاته الذي يستمتع به شقيقها، ثم سألها: "أتعرفين هذه المدينة؟".

أجابت وهي تقرّب الكوب من شفتيها: "أعرفها بالاسم فقط".

"إنها مدينة قوية جداً وغنية جداً، لكنها كانت ضعيفة على الدوام في أوقات الحروب، أتحبين أن تعرفي قصتها؟".

كانت الشمس في هذه الأثناء قد نـــزلت إلى ما دون خط الأفق، وكان كل ما تبقى فوق الأمواج انعكاسات لنورٍ أرجواني.

"بالتأكيد، شرط أن تكون أنت من يقصها عليّ".

"حسناً، إن ما يجب أن تعرفيه في البداية هو أنه في قديم الزمان حاصر الإسبارطيون مدينة آيثوم في ميسينيا. استمر الحصار سنوات عدة، وعجز السكان عن فك الحصار بأنفسهم. فقلق القادة الإسبارطيون بسبب قلة عدد المواليد الجدد في مدينتهم، وذلك نتيجة الغياب المطول لآلاف وآلاف الجنود الذين كانوا منشغلين بحصار آيثوم. وشعر هؤلاء أن اليوم الذي يفقدون فيه الشبان المهيئين للانخراط بجيشهم سيكون قريباً جداً، وهكذا ستبقى مدينتهم من دون حماية.

وسرعان ما وجد القادة حلاً لهذه المشكلة، فتوجّهوا إلى آيثوم، واختاروا مجموعة من الجنود الأكثر شباباً وقوة، وزودوهم بأوامر تقضي بأن يعودوا إلى موطنهم بمهمة تبعث على السرور أكثر من مهمة فرض الحصار لمدة طويلة. كانت المهمة تبعث على سرور أكبر، لكنها لا تقل عن مهمتهم الأولى صعوبةً وتطلباً.

ابتسمت كليوباترا بخبث، وقالت: "أعتقد أنني أستطيع تخمين طبيعة تلك المهمة".

تابع الملك كلامه: "بالضبط، كانت مهمتهم هي جعل كل عذارى المدينة حاملات. أدى الشبان هذه المهمة بكل إحساسٍ بالمسؤولية وبالشجاعة التي أبدوها في ميدان المعركة. ونجحوا فيها إلى حدّ أن إسبارطة قد شهدت ولادة عدد كبير من الأطفال في السنة التالية.

لكنّ الحرب انتهت بعد وقتٍ قليل من عودهم إلى منازلهم. لذلك سعى الجنود الآخرون إلى تعويضٍ ما خسروه من أوقات مع زوجاهم، وهو الأمر الذي أدى إلى ولادة المزيد من الأطفال. كبُر كل الأطفال، لكنّ الأطفال الشرعيين ادّعوا أن كل الأطفال المولودين من عذارى لا

يجـــوز اعتبارهم مواطنين حقيقيين في إسبارطة، بل يجب معاملتهم على أنهم أولاد غير شرعيين.

شـــعر أولاد العـــذارى بالسخط، وبدأوا بالتمرد. وكان على رأس المتمـــردين شابٌ يحمل اسم تاراس. ولسوء حظهم، اكتشفت الخطط التي كانوا يعدّونها، فتلقّوا أمراً بمغادرة مدينتهم. استشار تاراس ضالعة دلفي التي نصحتهم بالذهاب إلى مكانٍ في إيطاليا حيث سيتمكنون من تأسيس مدينة لا تزال قائمةً حتى الآن، وهي تارانت التي أخذت اسمها من تاراس".

قالـــت كليوباترا وسط مسحةٍ من الحزن الذي خيّم على عينيها: "إنها قصة ممتعة، لكنني أتساءل عما يريده هذا الوفد".

ردّ الملـــك وهـــو يقـــف مستأذناً إياها بقبلة: "سأُعلمك ما إن ألتقيهم. لكن، عليّ أن أذهب الآن كي أعطي تعليماتي ليتلقى الضيوف التكريم الذي يستحقونه".

بعـــد مـــرور يومين، غادر الأسطول التارانتي الصغير، ولم يرجع الإســـكندر حاكم إيبيروس إلى مخدع عروسه إلا بعد أن غابت أشرعة الأسطول وراء الأفق.

أعـــدت كليوباتـــرا طعـــام العشاء في غرفتها التي كانت معطرةً بالزنابق، كما تمدّدت على سريرها مرتديةً غلالة شفافة.

ومـــا إن دخل زوجها إلى الغرفة واستلقى إلى جانبها حتى سألته: "ماذا يريدون؟".

"أتوا كي يطلبوا مساعدتي، و... ليعرضوا عليّ إيطاليا".

لم تقل كليوباترا شيئاً، لكنّ ملامحها أظهرت بعض القلق.

فسألته بعد فترة صمت طويلة: "هل ستغادر المدينة؟".

أجـــاب الملك: "نعم". لكنه شعر أن حملته التي يُزمع على القيام بها، وكذلك الحرب، وحتى مخاطر الموت في أثناء المعركة، لن تؤثر فيه

أكثـــر مـــن تلك الفكرة التي تتنامى في رأسه يوماً بعد يوم. وهي أن كليوباترا قد امتلكها رجل آخر ذات يوم، ولعلها لا تزال تتذكره، أو حتى تحبه.

"هل صحيح أن شقيقي سينطلق في مهمة هو الآخر؟".

"نعم، لأنه سينطلق إلى الشرق، وسيجتاح آسيا".

"وأنت ستنطلق غرباً، أما أنا فسأُترك وحيدة".

أمـــسك الملـــك يدها وداعبها بصمت قليلاً، وقال لها بعد ذلك: "اسمعي، عندما كان الإسكندر ضيفاً هنا ذات يوم في هذا القصر رأى حُلماً أريد أن أحدثك عنه الآن...".

*

حدّق بارمينيون إلى عينَي الإسكندر، وارتسم الشك على ملامح وجهه: "لا يمكن أن تكون جاداً".

وضع الإسكندر يداً على كتفه، وقال: "لم أكن أكثر جدية في أيّ يـــومٍ من أيام حياتي. كان هذا حلم والدي فيليب كما كان حلمي أنا على الدوام، سننطلق مع نسائم الربيع الأولى".

قـــال أنتيباتـــر: "لكن، يا مولاي، لا يمكنك أن تبدأ الحملة بهذه الطريقة".

"ولِمَ لا؟".

"لأن أي شيء يُمكن أن يحدث في أوقات الحرب. وأنت ليست لديك عروس ولا وريث، يتعيّن عليك أولاً أن تختار عروساً، وأن تترك وراءك وريثاً لعرش مقدونيا".

ابتسم الإسكندر وهزّ رأسه: "لم أفكر في الأمر على الإطلاق، إن اتخاذ زوجة هو عملية طويلة جداً، سيتعيّن علينا أن نقيّم كل المرشحات المحتملات للعب دور الملكة، كما يجب أن أمضي وقتاً كي أقرّر أيّ فتاة

هـــي الخيار الأفضل، كما يجب أن أعالج رد الفعل السلبـــي للعائلات التي استُبعدت عن فرصة إقامة روابط مع العرش.

ســـيتعيّن عليَّ كذلك تحضير زفاف، ولائحة المدعوين، والاحتفال، وغـــير ذلـــك مـــن أمور... كما يتوجّب عليّ بعد ذلك أن أجعل الفتاة حـــاملاً، وهو الأمر الذي لا يحدث فوراً بالضرورة. يُضاف إلى ذلك أنه حـــتى إذا حملـــت الفتاة فلن يكون في وسعي أن أضمن أن يكون المولود صـــبياً، وفي هذه الحالة يجب أن أنتظر سنة أخرى، أما عندما يولد ابني في نهاية الأمر فسيتوجب عليّ القيام بما فعله يوليسيس مع تيليماخوس، أي أن أتركه وهو طفل صغير، وألا أراه مجدداً إلا بعد مدة لا يعرف أحد مداها. كلا، أريد أن أنطلق على الفور، ولقد اتخذت قراري في هذا الخصوص.

لقـــد استدعيتك إلى هنا ليس لمناقشة أمر زواجي، بل كي نناقش حملـــتي إلى آسيا. إنني أعتبركما أنتما الاثنين ركيزتَي مملكتي، أي مثلما كنـــتما في عهـــد والدي، كما أرغب في تحميلكما مهمات تحمل في طياتها مسؤوليات كبيرة جداً، وآمل أن تقبلاها".

قـــال بارمينـــيون الذي لم يستطع أن ينادي الملك الشاب باسمه الأول: "تعلـــم يا مولاي أننا ندين لك بالولاء، كما ننوي أن نخدمك طالما تسمح لنا قوانا بذلك".

قـــال الإسكندر: "أعرف ذلك، وأعرف أن هذه الحقيقة تجعلني رجـــلاً محظوظاً. ستأتي يا بارمينيون معي، وستكون لك القيادة العامة علـــى الجـــيش بأكمله، أي أن قيادتك تأتي بعد الملك مباشرة. بينما سيبقى أنتيباتر في مقدونيا مزوداً بكل صلاحيات وسلطات الوصي على العـــرش، هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بواسطتها أن أترك بيلا وأنـــا مرتاح البال، لأنني متيقن من أنني سأترك عرشي بيد أفضل رجل يمكنني الاعتماد عليه".

أجــاب أنتيباتــر: "أغــدقتَ عليّ شرفاً كبيراً يا مولاي، وعلى الأخص لأن والدتك الملكة ستبقى في بيلا و...".

"أعــرف تمامــاً ما تلمّح إليه يا أنتيباتر، لكنني أرجوك ألا تنسى الكلمــات التي سأتلفظ بها الآن. لا أريد أن تتدخل والدتي في شؤون الحكــم في المملكــة، وبأي طريقة كانت، لا أريدها أن تتصل رسمياً بالوفود الأجنبية، كما أن دورها في الدولة سيكون رمزياً بالكامل.

ولا أريــدها أن تلعب أي دور في العلاقات الدبلوماسية إلا بناءً على طلبك، وحتى في هذه الحال أريد أن تكون تحت إشرافك الصارم. لا أريد أي تدخل من قبل الملكة في أي شأن ذي طبيعة سياسية، لأنك ستتولى شخصياً كل هذه الأمور.

أرغــب في أن تكــون محترمة ومكرّمة، وأن تلبّى كل رغبةٍ من رغباتها إذا كان ذلك ممكناً. لكن، يجب أن يمر كل شيء من خلالك، وأنت ستحمل الختم الملكي، لا الملكة".

أومــأ أنتيباتر وقال: "كما تشاء يا مولاي، إنني أتمنى ألا يولّد هذا الأمر أي مشاكل، لأن لوالدتك شخصية قوية و...".

"سأصــدر بلاغــاً عاماً عن حقيقة كونك الشخص الذي يتولى المــسؤولية في غيابــي، ولذلك ستكون مسؤولاً أمامي، وأمامي فقط، عــن قراراتك. سنكون على تواصل بشكل مستمر، وسأعلمك بكل خطــواتي وتحــركاتي. وأنت ستحذو حذوي، وستبقيني على علم بما يحــدث في مــدن حلفائنا الإغريق، وبالأمور التي تحدث بين أصدقائنا وأعدائــنا على السواء. لهذا السبب، يتعيّن علينا أن نتأكد من الحفاظ على خطوط اتصالات آمنة تكون مفتوحة في كل الأوقات.

سنخصّص وقتاً من أجل وضع تفاصيل واجباتك يا أنتيباتر. لكنّ الواقــع يبقى في كونك رجلاً أثق به، ولذلك ستمتلك حرية كاملة في

اتخاذ القرارات التي تريدها. كانت الغاية من هذا الاجتماع، وببساطة، أن أعرف ما إذا كنتما أنتما الاثنان توافقان على عرضي، وأنا مسرورٌ جداً لأنكما قبلتما".

نهض الإسكندر عن مقعده، ونهض القائدان المسنّان معه احتراماً. لكــنّ أنتيباتر تكلّم قبل مغادرة الملك الغرفة: "أريد أن أستفهم عن أمرٍ واحد فقط يا مولاي. برأيك كم ستطول مدة الحملة، وإلى أين ترغب في الوصول؟".

"لــيس لــدي جــواب عــن هــذا السؤال، لأنني لا أعرف الجواب".

غادر الملك وهو يومئ، فيما وقف القائدان وحدهما في مستودع الأســلحة الملكية المهجور، قال أنتيباتر: "أنت تعرف أنك تمتلك مؤناً ومالاً كافيين لسنة واحدة فقط، أليس كذلك؟".

أومــأ بارمينيون: "أعرف ذلك. لكن، ماذا يمكنني أن أقول؟ كان والده أسوأ بكثير في أيامه".

*

عــاد الإسكندر إلى جناحه في تلك الليلة متأخراً جداً بحيث كان كل الخدم نائمين، لكن الحرّاس كانوا يراقبون غرفته التي يستخدمها مع ليبــتين التي كانت تنتظره مع مشعل مضاء كي يأخذ حمّامه، وكانت المياه ساخنة ومعطرة.

ســاعدته علــى خلــع ثــيابه، وانتظرته كي يصعد إلى حوض الاستحمام الحجري، ثم سكبت الماء على كتفيه من وعاء فضي. كان ذلك أمراً علّمها إياه الطبيب فيليب. إذ إن تأثير المياه كان أنعم حتى من يــديها، لأنهــا تريحه وتريح عضلات كتفيه ورقبته، وهي النقاط التي يتركّز فيها الشعور بالتعب والتوتر.

سمح الإسكندر لنفسه بالاسترخاء تدريجياً حتى تمدّد كلياً، بينما تابعت ليبتين صبّ الماء فوق بطنه وفخذيه حتى أشار إليها بالتوقف، فوضعت الوعاء على حافة حوض الاستحمام. ومع أن الملك لم يكن قد تفوّه بكلمة بعد، إلا أنها تجرأت على أن تبدأ الحديث.

"يقولون إنك على وشك أن تنطلق على رأس حملة عسكرية يا مولاي".

لم يجب الإسكندر. لكنّ ليبتين أخذت نفساً عميقاً قبل أن تتابع: "يقولون إنك ذاهب إلى آسيا، وأنا...".

"أنتِ ماذا؟".

"أحبَ أن أرافقك، أتوسل إليك، فأنا الوحيدة التي تعرف كيف تعتني بك، أنا الوحيدة التي تعرف كيف ترحب بك عند عودتك إلى المنزل في المساء قبل تجهيزك استعداداً لتمضية الليل".

أجاب الإسكندر وهو يخرج من حوض الاستحمام: "ستأتين معي". امتلأت عينا ليبتين بالدموع، لكنها لم تقل شيئاً، وبدأت بتجفيفه بمنشفة من الكتان.

استلقى الإسكندر عارياً في سريره، ومدّ أطرافه بينما وقفت هي للحظة تحدّق إليه على عادتها، وكأنها فتنت به. ثمّ نزعت عنها ثيابها واستلقت إلى جانبه، وراحت تداعبه بلطفٍ بالغ.

*

سألت ليبتين الإسكندر عندما تمدّد على ظهره إلى جانبها: "هل سأتمكن فعلاً من المجيء معك؟".

"أجل، وذلك إلى أن نلتقي بأناسٍ تفهمين لغتهم، أي اللغة الغامضة التي تتكلمين بها أحياناً في أثناء نومك".

"ماذا تعني يا مولاي؟".

أمر الإسكندر ليبتين: "استديري". أدارت ليبتين ظهرها، أما هو فقد تناول مشعلاً وحمله فوقها.

"أتعـــرفين أن لـــديك وشماً على كتفك؟ لم أرَ مثيلاً له من قبل. أجل، ستأتين معي، وربّما سنجد ذات يوم شخصاً يتمكن من جعلك تتذكـــرين المكـــان الذي أتيتِ منه. لكن، يتعيّن عليك أن تعرفي شيئاً واحداً الآن: ستكون الأمور مختلفة في آسيا عما هي عليه الآن. ستكون آســـيا عالمـــاً مخـــتلفاً: هناك أناس آخرون، ونساء أخريات، وحتى أنا ســـأكون مختلفاً. وصلنا الآن إلى نهاية مرحلة من حياتي، وستبدأ مرحلة أخرى، هل تفهمين ما أعنيه؟".

"إنـــي أفهم يا مولاي. لكن، بالنسبة إليّ يكفيني أن أكون قريبة مـــنك، وأن أعـــرف أنك بخير، إنني لا أطلب أي شيء آخر في هذه الحياة، لأنني حصلت بالفعل على أكثر مما كنت أتمناه منها".

47

التقـــى الإسكندر بملك إيبيروس قبل شهر واحد من انطلاقه نحو آســـيا، وذلـــك بعـــد أن رتّبا موعداً سرياً في إيورديا. رتّب ساعون سريعون هذا اللقاء، فلم ير الملكان بعضهما بعضاً لمدة تزيد عن السنة، أي مـــنذ مقتل فيليب. وحدثت أمورٌ كثيرة خلال هذه الفترة، ليس في مقدونيا واليونان فقط، بل في إيبيروس كذلك.

نجـــح الملـــك الإسكندر في توحيد كل القبائل التي تعيش في بلاده الجبلـــية، وجعلـــها ضمن اتحاد، واعترفت به قائداً أعلى، وأعطته قيادة الجيش ومسؤولية تدريبه. فتدرّب جيش إيبيروس على الطريقة المقدونية، وهكذا جرى تقسيمه إلى كتائب من مشاة مسلحين تسليحاً ثقيلاً، وإلى فِـــرقٍ مـــن الفرسان، بينما تبنّت الأسرة المالكة النماذج الإغريقية في ما يـــتعلق بالاحتفالات الرسمية، وبسكّ العملات الذهبية والفضية، وبطريقة ارتـــداء الملابـــس والـــسلوك، فتحوّل ملك إيبيروس وملك مقدونيا إلى صورتين متماثلتين، وكأن أحدهما انعكاس لصورة الآخر في المرآة.

اقتربت اللحظة المحددة للاجتماع، وكان ذلك قبل طلوع الفجر بقليل، تعرّف الشابان على بعضهما من مسافة بعيدة، فدفعا حصانيهما نحـــو شـــجرة دلب عالية، انتصبت وحيدة قُرب نبع مياه وسط سهلٍ فـــسيح. شـــعّ الجبل بلون أخضر داكن، ولكنه ملتمع بطريقة غريبة، وذلك بسبب المطر الذي تساقط منذ وقت قريب، وبسبب قرب وقت تغيّـــر الفصول، بينما كانت رياح خفيفة تدفع سحباً بيضاء كبيرة عبر السماء التي كانت لا تزال داكنة، نحو البحر.

نـــزلا عن حصانيهما وتركاهما حرّين ليرعيا، ثم تعانقا بحماسة الشبان.

سأل الإسكندر: "كيف حالك؟".

أجاب صهره: "أنا بخير، علمت أنك على وشك أن تنطلق بحملة عسكرية".

"سمعت بدوري أنك سوف تفعل الأمر ذاته".

"هل أخبرتك كليوباترا؟".

"هكذا تفيد الشائعات".

"أردت أن أخبرك شخصياً".

"فهمت... شكراً لك".

"تُعتبر مدينة تارانت إحدى أغنى المدن في إيطاليا. ولقد طلب مني ســكان المديــنة مساعدتهم على القتال ضد البرابرة الذين يعيشون في الغــرب، والذين اعتادوا على شنّ الغارات على المناطق التي يعيش فيها البروسيون واللوكانيون".

"إنني أستجيب بدوري إلى نداء للمساعدة قدّمته المدن اليونانية في مقاومــتها ضـــد الفرس، أليس ذلك مدهشاً؟ لدينا الاسم ذاته، والدم ذاتــه، وكلانــا ملكــان وقائدا جيشين، ونحن منطلقان في مغامرتين متشابهتين، أتذكر حلمي الذي حدّثتك عنه والمتعلق برؤيتي شمسَين؟".

"إنه أول شيء خطر في ذهني عندما أتت وفود تارانت وشرحت لي مشكلتها، يُحتمل أن الأسياد تريد أن تبعث لنا برسالةٍ ما".

أجاب الإسكندر: "إنني متأكد من ذلك".

"إذاً، أنت لا تقف ضد توجّهي نحو الغرب؟".

"إن الشخص الوحيد الذي قد يعارض هذه الخطوة هو كليوباترا، شـــقيقتي المـــسكينة. فلقد شاهدت مقتل والدها يوم زفافها، وها هو زوجها ينطلق الآن في مغامرة، ويتركها وحيدة".

"ســأحاول طلب الصفح منها، هل أنت فعلاً لا تعارض خطوتي هذه؟".

"أعارضـــها؟ إنني أشجعك عليها. اسمعني: لو لم تطلب مني عقد هـــذا الاجتماع لكنت بادرتُ إلى طلب عقده، أتذكر خريطة أرسطو الكبيرة؟".

"لدي نسخة منها في قصري في بوثروتوم".

"إن الـــيونان هي مركز العالم في هذه الخريطة، كما أن دلفي هي نقطـــة ارتكاز اليونان. وتقع بيلا وبوثروتوم على بعدَين متساويين من الغـــرب البعـــيد؛ أي من أعمدة هرقل، ومن الشرق البعيد؛ أي حيث تتواجد مياه محيط ساكنٍ من دون أمواج.

يتعيّن علينا أن نلتزم بعهد جدّيّ هنا، وأن نُشهد السماء والأرض علـــيه: إننا نعد بالمضي قُدُماً، أنا نحو الشرق، وأنت نحو الغرب، ويجب عليـــنا ألا نتوقف حتى نصل إلى شواطئ المحيط الذي يُحيط بالأرض، ويجب أن نُقسم إنه في حال سقط أحدنا في أثناء تأدية هذه المهمة، فإن علـــى الآخر أن يأخذ مكانه ويستمر في تنفيذ ما التزمنا به، إننا نمضي من دون أن نترك وريثين لعرشينا يا صديقي. وهكذا سوف يكون كل واحد منا وريث عرش الآخر، هل أنت مستعد لفعل كل ذلك؟".

قال ملك المولوشويين: "من كل قلبـــي أيها *الإسكندر*".

ردّ الملك المقدوني بالقول: "من كل قلبـــي أيها *الإسكندر*".

تـــناولا ســـيفيهما مـــن غمديهما، وأحدثا جرحين صغيرين في معصميهما، ومزجا دمهما في إناء فضي صغير.

ســـكب الإســـكندر حاكم المولوشويين بعضاً من هذا الدم على التراب، ثم أعطى الإناء إلى الإسكندر المقدوني الذي رمى بقية محتوياته في الهـــواء، أي نحـــو السماء، قال ملك مقدونيا بعد ذلك: "شهدت

السماء والأرض على عهدنا، ولا يوجد رباطٌ أقوى، وأكثر إلزاماً. إن كل ما يتبقى الآن هو أن نغادر، وأن نتمنى حظاً طيباً لبعضنا، فنحن لا نعرف متى سنرى بعضنا مجدداً. ولكن، عندما يحدث هذا فإنه سيكون يوماً عظيماً بالفعل، وأعظم يومٍ يشهده العالم".

في تلــك اللحظــة بالذات، ظهرت شمس ذلك اليوم الربيعي من وراء جــبال إيــورديا، وغمرت بأنوارها الشفافة قمم الجبال العالية، والــوديان، ومجــاري المياه فتلألأت كل نقطة من نقاط الندى، وكأن أمطــاراً من اللآلئ قد سقطت خلال الليل على المروج، وعلى أغصان الأشجار، أو كأن العناكب قد نسجت شباكها الفضية في الظلام.

وتجاوبت الرياح الغربية مع ظهور ذلك الوجه المشع لسيد النور، وأظهرت تجاوبها على شكل تموجاتٍ في ذلك البحر العظيم من العشب الــذي امــتدّ حــولهما، فــيما داعبت الرياح رزم القصب الذهبية، ومجمــوعات الزعفران الأرجوانية، والتويجات الحمراء للزنابق الجبلية، وطــارت أســراب الطــيور في الهواء قاصدةً كبد السماء، ومواجهةً السحب البيضاء العالية المتناثرة في الأجواء، وكأنها أسراب حمام بريّ، أو قطعــان غــزلان تخرج من الغابة راكضة نحو مجاري المياه الملتمعة والمراعي الخضراء.

في تلــك اللحظة، ظهرت على إحدى قمم التلال، صورة حورية رشــيقة هــي تــرتدي ســترة قصيرة تكشف عن ساقيها النحيلتين والعاريتين. كانت شابةً ذات شعرٍ ذهبــي طويل تمتطي حصاناً أبيض يتهادى ذيله خلفه فيما يتمايل عرفه فوق رقبته.

قال ملك إيبيروس: "أرادت كليوباترا أن تراك، لم أستطع منعها".

"لــيس هــناك من حاجةٍ لمنعها، أردت بشدة أن أراها بدوري، انتظرني هنا".

ثمّ قفــز على صهوة حصانه الذي راح يثب نحو تلك الشابة التي جلست في انتظاره، وراحت ترتعش من فرط التأثر، وبدت متألقة مثل تمثال آرتميس.

تـــرجّل كلاهما وركضا نحو بعضهما وتعانقا، ثم تبادلا القبلات علـــى الخدود، وفوق الجفون، وعلى شعر رأسيهما. احتضن واحدهما الآخر بعذوبة متبادلة، وبقلق مؤثر.

قال الإسكندر عندما نظر نحوها بشوقٍ لا ينتهي: "شقيقتي الحبيبة والحلوة واللطيفة...".

"أيهـــا الإسكندر، يا مليكي، وسيدي، وشقيقي الحبيب. يا نور عـــينيّ..." لم تـــستطع إكمـــال جملتها، وسألت أخيراً بعينين مليئتين بالدموع: "هل سأراك مجدداً؟".

"لا يعـــرف أحد الإجابة عن هذا السؤال يا شقيقتي، لأن الأسياد تمـــسك بأقـــدارنا. لكنني أقسم إنك ستظلين في قلبـــي على الدوام، وسأتذكرك عند سكون الليل مثلما سأتذكرك في أثناء صخب المعارك. وســـأتذكّرك فوق رمال الصحراء الحارقة، كما في برد الجبال القارس. سأنادي اسمك كل مساء قبل أن أستسلم للنوم، وأتمنى أن تحمل الرياح صوتي إليك. وداعاً، وداعاً يا كليوباترا".

"وداعـــاً يا شقيقي، سأصعد كل مساء إلى أعلى برجٍ في القصر وســـأظل أصغي حتى تحمل الرياح صوتك إليّ، وعطر شعرك، وداعاً، وداعاً يا شقيقي *الإسكندر*...".

ذرفت كليوباترا الدموع حتى انسابت على حصانها، لم تقدر على احـــتمال مشهد مغادرة شقيقها. فيما رجع الإسكندر ببطء إلى صهره الذي كان في انتظاره، وكان يتكئ على جذع الشجرة الكبيرة. ترجل الإسكندر ومدّ كلتا يديه نحو سميّه، وتكلّم بصوت مخنوقٍ بالعبرات:

"هكـــذا يتعـــيّن علينا أن نفترق، وداعاً يا ملك الغرب، وملك الـــشمس الحمراء وجبل آتلانتيس، وملك أعمدة هرقل. فعندما نرى بعـــضنا مجـــدداً، سيكون ذلك من أجل الاحتفال بمناسبة بداية حقبة جديـــدة للإنـــسانية جمعاء. ولكن، إذا أراد القدر، أو أحد الأسياد أن يحـــرمنا من هذا اللقاء فإنني أريد لعناقنا هذا أن يكون أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، وأريد أن يظل حلمنا متوقداً إلى الأبد، وذلك بغضّ النظر عن القدر الذي ينتظرنا نحن الاثنين".

تعانقـــا وغمرهما العاطفة، بينما شبك النسيم خصلات شعرهما التي تشبه خصلات شعر الأسد، وتمازج دمعهما مثل دمهما، كان ذلك مشهداً محزناً ومؤثراً بحضور السماء والأرض، ووسط قوة الرياح.

ثمّ قفـــز كـــل واحد منهما على صهوة حصانه، ودفعاهما قدماً. تـــوجّه ملك المولوشويين إلى حيث الليل ومغيب الشمس، فيما توجّه الملـــك المقدوني إلى حيث الصباح والفجر. لم يكن في وسع أحد، حتى الأســـياد، في تلـــك اللحظـــة معرفة المصير الذي ينتظرهما، لأن القدر الغامض وحده، هو الذي يعرف مصير رجلين عظيمين مثلهما.

48

بدأ الجيش بالتجمّع مع وصول نسائم الربيع الأولى، بدءاً بكتائب المــشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً والمسماة pezhetairoi، والمجهزة تجهيزاً تاماً، والتي يحمل جنودها sarissae ضخمة على أكتافهم. وقف الشبان في الــصفوف الأمامــية، فظهــرت النجمة الأركادية على دروعهم النحاسية الملتمعة، ثم ظهر بعد ذلك الجنود الأكثر خبرة الذين يحمل كل منهم النجمة البرونــزية، وأخيراً ظهر قدامى المحاربين الذين يحمل كل منهم النجمة الفضية.

وضــع كــل الجنود على رؤوسهم خوذ على شكل قبعات فريجية، وهـــي خـــوذ مزوّدة بأغطية شفافة للوجوه. كما ارتدوا سترات وعباءات حمـــراء. أمـــا عندما كانوا يشاركون في تمرينات عسكرية، ويتبادلون أداء الأدوار الهجومـــية في ميدان المعركة، فإن sarissae كانت تصطدم واحدة بالأخـــرى، وهـــو الأمر الذي يُحدث ضجيجاً كبيراً يشبه ذلك الصوت الذي تحدثه الريح عند مرورها بين أغصان أشجار غابة برونـــزية. وحين كـــان الـــضباط يصدرون أمراً للجنود بخفض حرابهم، فإن جنود الفالانج كانوا يأخذون شكلاً مرعباً يشبه حيوان النيص المليء بأشواك من الفولاذ.

أما مشاة هيتايروي فقد تمّ اختيارهم من بين أبناء النبلاء، وجاءوا مـــن كـــل المقاطعات، كما أنهم مزودون بدروع ثقيلة تغطيهم حتى مـــستوى بطونهم، ويضعون على رؤوسهم خوذ ذات حواف عريضة صُـــنعت في بواتيا، ويمتطي هؤلاء جياداً من تساليا، وهي التي تربّت في مراعي سهول خصبة، وعلى ضفاف أنهار كبيرة.

تجمعت سفن الأسطول في الموانئ الشمالية، وانضمت إليها بعض قطـــع الأسطولين الأثيني والكورينثي بسبب مخاوف من حدوث هجومٍ تشنه البحرية الملكية الفارسية، والتي يقود أسطولها أميرال يوناني يدعى ممنون، وهو رجلٌ مرعب يتميّز بالدهاء والخبرة، ولكنه فوق كل شيء رجل يحترم كلمته والتزاماته مهما تكن النتيجة.

الـــتقاه إيومينـــيس ذات مـــرة في آسيا، ولكنّه عندما عاد حذّر الإسكندر عندما أتى ليتفحص الأسطول على متن سفينة القيادة، فقال له: "كن حذراً أيها الإسكندر. إن ممنون من المرتزقة ومن ذوي المبادئ، وهـــو يبيع سيفه مرة واحدة، وإلى شخصٍ واحدٍ فقط. إن سعره عالٍ. ولكـــن، ما إن يُقسم يمين الولاء لبلادٍ جديدة حتى يعجز أي شيء عن تغيير ولائه وعلمه.

يقود أسطوله بحارة من الإغريق والفينيقيين، كما يستطيع الاعتماد سراً على دعم من أعداد كبيرة من خصومك الذين ما زالوا متواجدين في الـــيونان. تـــصوّر ماذا يمكن أن يحدث إذا ما قرّر ممنون شنّ هجومٍ مفاجئ في أثناء قيامنا بنقل الجيش في المضائق من جهةٍ إلى أخرى.

قـــام المخـــبرون الذين يعملون لدي بإنشاء نظام من الإشارات الضوئية ما بين السواحل الآسيوية والأوروبية، وذلك من أجل الإنذار المبكـــر عـــن قـــدوم أسطول ممنون المفاجئ. فنحن نعرف كذلك أن مـــرزبانات حكـــام الولايات الفارسية الغربية قد ثبّتوا قيادته على كل قواهم في آسيا. إن مهمته تكمن في إلهاء قوات غزونا وشلّها، لكننا لا نمتلك حتى اللحظة أي أخبارٍ عن خططه الحربية. إنّ معلوماتنا قليلة بهذا الخصوص".

ســـأل الإســـكندر: "كـــم ســـيستغرق الأمر لتجميع المزيد من المعلومات".

"ربما سيستغرق شهراً كاملاً".

"إنها فترة طويلة جداً، سننطلق في غضون أربعة أيام".

تطلـــع إيومينيس نحوه بدهشة: "أربعة أيامٍ؟ لكنّ هذا جنون، لم نجمـــع ما يكفي من المؤن بعد، سبق أن أبلغتك أن ما لدينا الآن يكفينا مـــا يقـــارب الشهر الواحد. ويتعيّن علينا على الأقل أن ننتظر وصول الشحنات الجديدة عبر جبل بانجايوس".

"كـــلا يـــا إيومينيس. لن أنتظر مدةً أطول، إن كل يوم يمر يعني إعطـــاء فرصـــة للعدو لتنظيم دفاعاته، وتوظيف مرتزقة... وحتى من اليونانـــيين. يتعـــيّن علينـــا أن نـــضرب في أسرع وقتٍ ممكن، كيف سيتصرف ممنون برأيك؟".

"سبق لممنون أن حارب بنجاح ضد قادة والدك. يمكنك أن تسأل بارمينيون عن مدى سهولة توقع تحركاته".

"لكن، ماذا سيفعل برأيك؟".

قـــال صوت من خلف إيومينيس: "سيدفعك براً إلى أبعد مسافة ممكنة، نحو الداخل، ويدمر الحقول في هذه الأثناء، وسيقوم أسطوله بعد ذلك بقطع خطوط اتصالاتك وتموينك البحريّة".

سأل إيومينيس: "أتعرف الأميرال نيرماخوس؟".

صافح الإسكندر الرجل: "تحيةً أيها الأميرال!".

قـــال نيرماخوس وهو رجلٌ قوي البنية، عريض الكتفين، وأسود الـــشعر والعيـــنين، وهو من سكان كريت: "أعذرني يا مولاي، كنت مشغولاً بالتحضيرات، لهذا لم أتمكن من الاجتماع بك قبل الآن".

"هل ما قلته لتوك هو رأيك الحقيقي بالوضع؟".

"بـــصراحة... نعم. يعرف ممنون أنه إذا تحدّاك في ميدانٍ مفتوح فهـــذا الأمر يشكل خطراً عليه، إذ ليس لديه عدد كافٍ من الجنود

كـــي يـــواجه مـــشاتك، لكنه يعرف بالتأكيد أنك تفتقد إلى جنود الاحتياط".

"وكيف له أن يعرف ذلك؟".

"إن نظـــام تجميع المعلومات الاستخبارية الفارسي لا يمتلكه أحد. إذ إنّ لـــديهم جواســـيس في كل مكان. وهؤلاء يتلقون أجوراً عالية، يُضاف إلى ذلك أنه يمكنهم الاعتماد على متعاطفين في أثينا وإسبارطة، وكورينث، وحتى هنا في مقدونيا. إن كل ما يحتاجه هو كسب بعض الـــوقت ثم تنفيذ بعض المناوشات خلفك في البر والبحر. وسنقع حينها في مشاكل كثيرة، وربّما سنقع في مصيدة".

"أتعتقد ذلك حقاً؟".

"أريدك أن تكون على حذر يا مولاي. إنّ ما تزمع القيام به ليس مشروعاً عادياً".

كانـــت السفينة تمخر عباب البحر المفتوح وأمواجه، بينما كان الرذاذ يتطاير، وكان كبير المجذفين يدقّ الإيقاع على الطبل، بينما أحنى المجذفـــون ظهـــورهم الملـــتمعة تحت أشعة الشمس الساطعة، وراحوا يغطّسون مجاذيفهم الطويلة ثم يرفعونها من جديد.

بـــدا الإســـكندر مشدوداً بالإصغاء إلى إيقاع الطبل، ونداءات المجذفين في أثناء محاولتهم الحفاظ على التوقيت المناسب.

وقال فجأة: "يبدو أن ممنون يزرع الخوف في نفوس الجميع".

قـــال نيرماخـــوس مؤكداً: "إنه لا يزرع الخوف يا مولاي. إننا نـــستعرض الأوضاع المحتملة فقط، ولهذا أرى هذا الأمر مشهداً محتملاً جداً".

"أنت على حق أيّها الأميرال، إننا الأضعف والأشد تعرضاً للهزيمة في البحر، لكننا لا نُقهر في البر، ولا يستطيع أحد التغلب علينا".

قال إيومينيس: "يصدق هذا في الوقت الحاضر".

قال الإسكندر معترفاً: "في الوقت الحاضر".

سأل إيومينيس مجدداً: "وماذا سنفعل إذاً؟".

"إنّ أقــوى الأساطيل تحتاج إلى موانئ، أليس ذلك صحيحاً أيّها الأميرال؟".

"ليس في ذلك من شك يا مولاي. لكن...".

قال إيومينيس: "إذا أردتَ أن تقطع عليه طريقه سيتعين عليك أن تحتل كل الموانئ المتواجدة على طول الساحل الممتد من المضائق وحتى دلتا نهر النيل".

أجاب الإسكندر من دون أن يرفّ له جفن: "بالضبط".

*

وعــشية انطلاقهم، عاد الإسكندر عند بهيم الليل من إيجية كي يضع الــنُذُر على قبر فيليب، ثمّ توجّه على الفور إلى جناح والدته، كانت الملكة لا تــزال مــستيقظة، ومنــشغلة في تطريز عباءة على ضوء مشعل. طرق الإسكندر الباب، فأسرعت الملكة إليه وضمّته بين ذراعيها.

قالــت، وهـــي تحاول إخفاء مشاعرها: "لم أتصوّر أن تأتي لحظة كهذه".

"شاهدتِني، يا أمي، وأنا أنطلق بحملات عسكرية أخرى".

"لكــنّ الأمر مختلف هذه المرة، أشعرُ به، كما أنني أحلم أحلاماً غريبة يصعب تفسيرها".

"أتخــيّل ذلــك، يقول أرسطو إن الأحلام هي من بنات عقولنا، ولهذا يجدر بنا أن نبحث عن تفسيرها في أعماق أنفسنا".

"بحثت عن تفسير لها، لكنني اكتشفت أن النظر في أعماق نفسي يعطيني إحساساً بالدوار، وحتى بالخوف".

"أنا متأكد من أنك تعرفين السبب".

"ماذا تعني بذلك؟".

"لا أعني شيئاً. أنت أمّي، ومع ذلك فأنتِ أكثر الناس غموضاً من بين الذين عرفتهم".

"لست إلا امرأةً غير سعيدة. وها أنت تنطلق الآن في حربٍ طويلة وتتركني هنا، إن ما يحدث الآن هو أمر مكتوب ومقدّر وقدرك أن تحرز إنجازات استثنائية فوق مقدرة البشر".

"ماذا تعنين بذلك؟".

استدارت أوليمبيا نحو النافذة، وكأنها تبحث عن صور وذكريات بين النجوم، أو عن وجه القمر. "حدث ذات مرة، وقبل أن تولد، أن حلمت أن سيداً قد لمسني عندما كنت نائمة إلى جانب والدك في غرفة نومنا. فتوجّهت ذات يوم إلى دودونا عندما كنت حاملاً بك. وعندها، هبّت الريح من خلال أغصان أشجار السنديان المقدسة، وما لبثت أن همست باسمك:

الإسكندر

هناك رجال يولدون من أرحام نساءٍ فانيات، لكنّ أقدارهم تختلف عن البشر الفانين العاديين، وأنا متأكدة من أنك واحدٌ منهم يا بنيّ. شعرت دوماً بالفخر لكوني والدتك، لكنّ وداعك الآن يُشعرني بمرارة أكثر لهذا السبب".

"أشعر بالأمر ذاته أمي، وأنا الذي فقدت والدي منذ فترةٍ قصيرة، أتذكرين؟ أخبرني أحدهم أنك وضعت إكليلاً حول رقبة القاتل".

"ثأر لي ذلك الرجل من فيليب بسبب الإهانات القاسية التي أنزلها بي، كما أن ما فعله قد جعلك ملكاً".

"قام ذلك الرجل بتنفيذ أوامر شخصٍ آخر، لماذا لا تضعين إكليلاً حول عنق ذلك الرجل أيضاً؟".

"إنني لا أعرف ذلك الرجل".

"لكنني سأعرفه عاجلاً أم آجلاً، وسوف أعلّقه على عمود".

"وماذا لو كان والدك الحقيقي سيداً؟".

أغمض الإسكندر عينيه فرأى فيليب مجدداً وهو يسقط على بركة من الدماء، رآه يسقط ببطء، وكأن ذلك يحدث في حلم، وتمكّن من تمييز كل خطوط الألم التي ارتسمت بقسوةٍ على وجه والده قبل مقتله، فشعر بالدموع الحارقة التي سالت من عينيه بغزارة.

"إذا كان والدي سيداً فإنني سوف ألتقيه ذات يوم. لكنني متأكد من أنه لن يستطيع أن يفعل ما أنجزه فيليب لأجلي، قدّمت نذوراً طلباً للأخذ بثأره أمي".

تطلعت أوليمبيا نحو السماء وقالت: "أعطتني ضالعة دودونا توقعاً لمولدك. وستعطيك ضالعة أخرى وسط لهيب رمال الصحراء الحارقة توقع ولادة جديدة". ثمّ استدارت فجأة، وارتمت بين ذراعيه. "فكّر فيَّ يا ولدي، لأنني سوف أفكر فيك كل يوم وكل ليلة، ستحميك روحي في ميدان المعركة، وستشفي جروحك، وسترشدك في الظلمات، وستحميك من كل التأثيرات السابقة وتهزمها، وستشفيك من الحمى. إنني أحبك أيها الإسكندر أكثر من أي شيء في العالم".

"إنني أحبك أيضاً يا أمي، وسأفكر فيك كل يوم. والآن، دعيني أغادر لأننا سوف ننطلق قبل الفجر...".

قبّلته أوليمبيا على خدّيه، وعلى أجفانه، وعلى جبهته، واستمرت في احتضانه وكأنها عاجزة عن تركه.

انسحب الإسكندر بلطفٍ من هذا العناق بقبلةٍ أخيرةٍ منه، وقال: "وداعاً يا أمي. أريدك أن تعتني بنفسك".

أومـأت أوليمبـيا بيـنما سالت الدموع الغزيرة على خدّيها، وتلاشت أصداء خطوات الملك في ممرات القصر، وعندها فقط أمكنها أن تتمتم:

"وداعاً أيها *الإسكندر*".

بقيت مستيقظة طوال الليل كي تراه مرة أخيرة من شرفتها. وضع درعـه على ضوء مشعل، كما ثبّت خوذته بعرفها العالي، وثبّت سيفه إلى جانـبه، وأدخل ذراعيه من خلال أربطة درعه الذي يحمل علامة الـنجمة الذهبية الأركادية، حدث كل ذلك بينما كان الحصان يصهل ويـدق الأرض بحوافره وهو نافد الصبر، فيما راح بيريتاس ينبح بشدة محاولاً الإفلات من قيده.

وقفـت أوليمبـيا بسكون وراحت تراقب ابنها وهو يبتعد على صـهوة جواده، وانتظرت حتى تلاشى آخر صدى لوقع جواده قبل أن تبتلعه الظلمة.

49

أعطـــى الأمـــيرال نيرماخـــوس أوامره لرفع العلم الملكي ولنفخ الأبـــواق، فـــتهادت السفينة العظيمة بيسرٍ وسط الأمواج. ويقبع عند أســـفل الـــسارية الرئيسة، ووسط متن السفينة، كان طبل تشايرونيا الـــضخم يقـــبع هناك. واظب أربعة رجال على قرع إيقاع التجذيف بمـــضارب كـــبيرة ذات رؤوس ملفوفة بالجلد، وحملت الرياح أصوات القرع إلى السفن كافة التي تبحر في الخلف.

وقف الإسكندر في المقدمة مرتدياً درعه المطلي بطبقة من الفضة، بيـــنما ارتفعـــت فوق رأسه الخوذة الملتمعة والمصنوعة من المعدن ذاته، لكـــنها كانت على شكل رأس أسد بفكّين مفتوحين وكانت النقوش فـــوق دروع ساقيه منقوشة بنمطٍ معيّن، كما أنه حمل سيفه ذا المقبض العاجـــي الـــذي كان يستخدمه والده بيده اليسرى، فيما أمسك بيده الـــيمنى رمحاً مصنوعاً من الخشب ash-wood ذا رأس ذهبـــي يلتمع مثل صاعقة زيوس عند كل حركة يقوم بها.

بدا الملك مصمماً على تنفيذ حلمه، فوقف هناك سامحاً للرياح المحملة بالملـــوحة ولـــنور الشمس الشفاف بمداعبة وجهه. وكذلك وقف رجال الإســـكندر المنتـــشرون على متن مئة وخمسين سفينة من سفن الأسطول، وراحوا يحدقون إلى سفينة المقدمة، فلقد بدا الإسكندر وكأنه تمثال سيد.

سمـــع الإســـكندر شيئاً، وما لبث أن وضع يده على أذنه، التفت بقلـــق، وكأنه يبحث عن شيء ما، فاقترب منه نيرماخوس، وقال: "ما الأمر يا مولاي؟".

"اسمع... ألا تسمع ما أسمعه؟".

هزّ نيرماخوس رأسه: "لا أسمع أي شيء يا مولاي".

"بلى... أصغِ، يشبه الصوت... لكن، لا يُعقل".

نـــزل عن مقدمة السفينة وسار بمحاذاة حافتها إلى أن تمكّن من سمـاعِ صوت نباح كلبٍ، وبوضوح. لكنّ الصوت بدأ يضعف شيئاً فـشيئاً. الـتفت خلفه نحو الأمواج المزبدة فرأى بيريتاس يسبح يائساً، وكان على وشك الغرق، صاح الإسكندر: "إنه كلبـي! إنه بيريتاس، أنقذوه! أنقذوه بحق هرقل!".

غطس ثلاثة بحارة على الفور، وربطوا الحبال حول ذلك الحيوان، ثم رفعـوه إلى متن السفينة. استلقى الكلب على متن السفينة وكأنه قد فقـد الحياة. تأثر الإسكندر كثيراً، وركع إلى جانبه، وراح يربّت على ظهـر كلـبه المخلص ويمسّده، رأى جزءاً من قيد الكلب حول رقبته، بينما كانت مخالبه تنـزف دماءً نتيجة الرحلة الطويلة.

راح الإسكندر ينادي: "بيريتاس، بيريتاس، لا تمت".

قال أحد المجندين في الجيش والذي أسرع إلى تقديم مساعدته: "لا تقلق يا مولاي، سينجو، لكنه يبدو شبه ميت نتيجة الإنهاك".

بـدأ بيريتاس بإظهار بعض علامات الحياة بعد أن أفلحت أشعة الـشمس بتجفـيفه وتدفئته، وما لبث بعد فترةٍ قصيرة أن بدأ بالنباح مجـدداً. فوضع نيرماخوس يده على كتف الملك، وقال له: "مولاي... آسيا".

شـرع الإسـكندر بالركض متجهاً نحو المقدمة، ولاحت أمامه سـواحل آسيا بخلجانها الصغيرة المميزة، والتي تتناثر خلفها القرى التي تحتـضنها الـتلال المكـسوة بالأشجار، والتي تشرف على الشواطئ المغمورة بأشعة الشمس.

قال نيرماخوس متابعاً حديثه، بينما شرع البحارة في إنزال الأشرعة تمهيداً لإنزال المرساة: "إننا نحضّر للرسو".

تابعت السفينة إبحارها إلى الأمام قاطعة الأمواج المزبدة بمقدمتها البرونزية الضخمة، حدّق الإسكندر إلى البر الذي أخذ يقترب أكثر فأكثر، وكأن الحلم الذي لطالما تعلّق به قد تحقّق.

صاح القبطان: "ارفعوا مجاذيف السفينة!".

رفع البحارة مجاذيفهم من المياه، فسمحوا للسفينة بأن تتقدم مدفوعةً بزخمها نحو الشاطئ. أمسك الإسكندر رمحه عندما اقتربوا من الشاطئ، ثم ركض فوق متن السفينة وما لبث أن رماه بأقصى ما أوتي من قوة.

اخترق رأس الرمح الهواء راسماً شكل قوسٍ واسع، والتمع تحت ضوء الشمس كالنيزك، وما لبث أن اتجه نحو الأرض بسرعة وانغرز بعمقٍ فيها، متسبباً بهزةٍ في أنحاء آسيا.

الإسكندر: فتى الحلم

فاليريـــو ماســـيمو مانفريدي هو أستاذ علم الآثار الإغريقية في جامعـــة لويجي بوكوني في ميلانو. نشر المؤلف اثني عشر عملاً قصصياً بما في ذلك ثلاثية الإسكندر، التي تُرجمت إلى أربع وثلاثين لغة في خمسة وخمسين بلداً، وذلك بالإضافة إلى مؤلفاته الأكاديمية العديدة. أما روايته *The Last Legion* فقـــد ظهرت في فيلم سينمائي مهم. كتب المؤلف عـــدداً كبيراً من الأفلام الوثائقية التي تدور حول العالم القديم وساهم فـــيها، كمـــا كـــتب نـــصوصاً لعددٍ من الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية.

إيـــان هاليداي وُلد في اسكتلندا في العام 1960. نال شهادة من قسم الدراسات الأميركية جامعة مانشستر، وعمل في إيطاليا ولندن قبل أن ينتقل إلى صقلية حيث يعيش الآن. يدرّس هاليداي حالياً الإنكليزية في جامعة كاتانيا، بالإضافة إلى عمله كمترجم.

«وأنت أيها الإسكندر المستيقظ في بهيم الليل:

إلى أين تحوم بك عيناك؟

وأين يجول بك قلبك؟

تريد قهر البلاد البعيدة

حيث تغيب المجرات،

وحيث تتلاشى آخر أمواج المحيط».



«الإسكندر: فتى الحلم»، الكتاب الذي حقق نجاحاً عالمياً منقطع النظير هو الجزء الأول الرائع من ثلاثية فاليريو ماسيمو مانفريدي، وهو يستكشف الحماسة المتقدة، والمغامرات الكبرى التي طبعت اليونان القديمة.

من ذا الذي يولد، غير سيد، ليقهر العالم؟ وغير ابن ملك عظيم، فيليب المقدوني، ومليكته المثيرة أوليمبيا، ليكبُر الإسكندر ويصبح شاباً يمتلك إمكانياتٍ هائلة لا يُمكن إدراكها، وليتحوّل تحت رعاية أرسطو العظيم، وفي ظل بطليموس وهيفاستيون إلى أقوى المحاربين وأكثرهم جاذبية، إلى أن تمكّن من إخضاع العالم المعروف ووضعه تحت سيطرته.

رواية مذهلة عن إحدى أعظم شخصيات التاريخ، ومسعاه لقهر العالم المتحضّر في ذلك الزمن.



ISBN 978-614-01-0083-1





تصميم الغلاف: سامح خلف